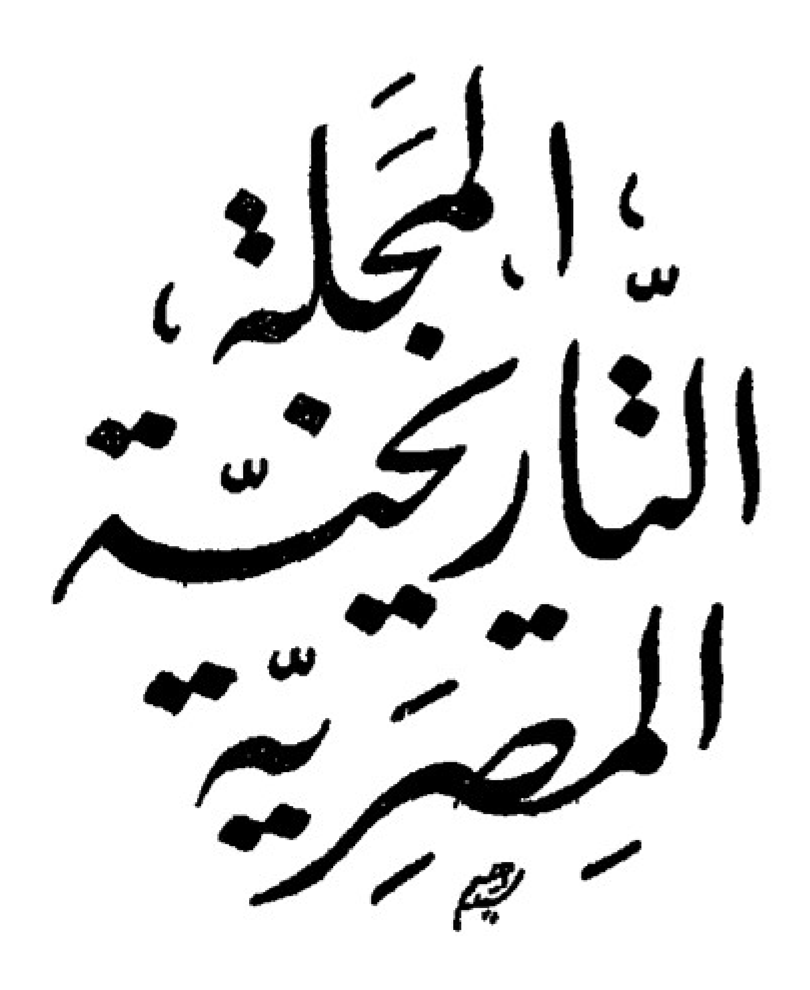
الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

SOCIETE EGYPTIENNE D'ETUDES HISTORIQUES



المجلد الحادى عشر — ١٩٦٣

تطلب من مقر الجمعية — ٢ شارع ناصر الدين ، المتفرع من شارع البستان
ومن المكتبات الكبرى

محتويات العدد

صفحة



المغفور له الأستاذ محمد شفيق غربال

تصدر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية هـذا العدد الخـاص ، إحياء لذكرى رئيسها السابق المرحوم الأستاذ محمد شفيق غربال . ويضم هذا العـدد كلمات الرثاء التى ألقيت فى الحفلات التى أقيمت لتأبين الفقيد الراحل فى معهد الدراسات العربية العـالية وفى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية وفى مجمع اللغة العربية .

كلمة الأستاذ محمد رفعت *

من أحرج المواقف التي قد يصادفها المرء في حياته أن يجيء دوره في عمل ما في أعقاب شخصية ممتازة شهد لها الجميع بالكفاية والتفوق وكريم الشيم . إن ذكرى صاحب هذه الشخصية تبقى حية ماثلة في أذهان الناس من حوله وتظل كذلك حتى يتاح لمن يخلفه أن يبرز شخصيته وينهض بواجبه ليرتفع به إلى المستوى القويم المنشود . ولابد لذلك كله من جهد ووقت وجلد . لذلك كان حزني بالغاً لوفاة زميلي وصديقي شفيق وكان حرج موقفي أبلغ عندما وجهت إلى الدعوة لشغل بعض الفراغ الذي خلفه فقيدنا في معهد الدراسات العربية . وأقول بعض الفراغ لأن الفراغ كله الذي خلفه فقيدنا ليجل حقاً عن الإحاطة والحصر .

وقد عرفت شفيق طالباً وزميلاً نتلقى العلم في أثناء الحرب العالمية الأولى في جامعة واحدة هي جامعة ليفربول بانجلترا — هو في عامه الدراسي الأول وأنا أكاد أجتاز المرحلة النهائية في الدراسة .

وزاملته وصادقته في مرحلة التدريس الأولى بالمدارس الثانوية . وفي تلك الفترة أسهمنا ومعنا زملاء لنا آخرون — منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر — في حركة التعريب والتمصير الأولى للمقررات التاريخية فكانت الكتب الدراسية التي وضعناها القبس الأول الذي اهتدى بضوئه الطلاب والكتاب من بعدنا وكانت المعلم الأول الذي لقن شباب الجيل ورجال المستقبل دروسهم الأولى في التاريخ القومي والتاريخ العام . ومع أن ظروف العمل قد فرقت بيننا بعد ذلك فصعدت به إلى منصة الأستاذية بكلية الآداب بجامعة القاهرة وسلكت بي

(*) (ألقيت في الحفل الذي دعا إليه معهد الدراسات العربية العالية في ديسمبر ١٩٦١ لتأبين الفقيد) .

إلى مدارج وزارة التربيـة والتعليم فإن أسباب الصداقة القديمة وزمالة العمل للنهوض بالبحوث التاريخية قد ظلت موصولة بيننا إلى أن التقينا ثانية فى ميدان الخدمة العامة لتربية النشء وتثقيفه .

وإنى لأقولها قولة صريحة لا مبالغة فيها إن ما أسداه شفيق لخدمة التاريخ من حيث التوسع فى موضوعاته والتعمق فى بحوثه لجهد جامعى علمى ممتاز .

ذلك أن أستاذيته للتاريخ بجامعة القاهرة قرابة ثلث قرن أو أكثر قد هيأته لمعالجة مختلف الموضوعات التاريخيـة على تنوع عصورها ومواطنها . فلم يقتصر الفقيد على موضوعات تخصصه فى التاريخ الحديث بل تعداها إلى معالجة موضوعات شتى كانت تدخل فى نطاق العصور القديمة أو المتوسطة . وما زال يجد و يبحث فى مصادر تلك العصور وفى آدابها واجتماعياتها حتى أصبح الفقيـد يضارع بل ويبز أحياناً بعض المتخصصين فى تلك العصور . ثم إنه قرن دراسته فيها بالممارسة الفنية العملية فأظهر استعداداً بارعاً فى فن الآثار . وكان من أثر براعته هذه ظهور متحف الحضارة المصرية الذى قامت على إنشائه لجنة عليا ظلت تواصل العمل طوال ستة أعوام كان فقيدنا فى أثنائها أنشط الأعضاء وأكثرهم إنتاجاً . وكانت هناك عدا المتحف أوجه عدة لنشاط الفقيـد فى الدوائر والمؤسسات التاريخيـة الأجنبية وفى المؤتمرات الدولية وفى لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للفنون والآداب . ثم فى معهد الدراسات العربية الذى مازال يبكيه أستاذاً ومديراً وصديقاً لأساتذته وطلابه . وأجل من هذا كله وأبقى هو تخريجه لمئـات بل وآلاف من الدارسين والمدرسين الذين أخذهم جميعاً بالأساليب العلميـة الحديثة فى البحث ومعالجة الموضوعات التاريخية . وليس ما قصد إليه الفقيد بالأساليب العلمية هو أنه كان يعتقد أن التاريخ علم له قواعده وقوانينه مثله فى ذلك مثل العلوم الطبيعية ؛ ذلك لأن العلوم تبحث فى الظواهر الطبيعية وأداتها المشاهدة والملاحظة والتوجيـه والحساب . أما التاريخ فيبحث فى الموضوعات والبحوث الإنسانية وفى الحضارات وعلاقات الناس بعضهم ببعض . والناس كما نعلم تختلف أحوالهم وآراؤهم وفقاً

لبيئاتهم وثقافاتهم . ولذلك كانت تصرفاتهم وأحكامهم على الأشياء عرضة للتغير والتعديل والتبديل ؛ إنما جل ما دعا إليه الفقيد فى دراسة التاريخ هو أن تكون دراسته وفق الأسلوب العلمى من حيث تحليل المسائل وتقصى مصادرها وعللها ونتائجها وتسلسل أجزائهـا تسلسلا منطقياً لاسبيل فيه للمبالغـة وزخرف القول ولامكان البتة لأية دوافع أو أغراض ذاتية أو خارجية ؛ وإنمـا يعالج المسـائل معالجة موضوعية مجردة .

هذا هو الأسلوب العلمى الذى حرص فقيدنا على نشره بين طلابه وهو نفس الأسلوب الذى انتهجه فيما أخرجه من كتب ونبذ ومقالات . وهـذه هى الرسالة التى حملها شقيق تلاميذه نرجو أن يؤدوها مخلصين . أما نحن زملاء الفقيـد وأصدقاءه فخسارتنا بفقـده لا يدانيها غير افتقاد التاريخ لعلم من أعلامه فى مصر بل وفى الشرق العربى .

رحم الله الفقيد وطيب ثراه وأحسن له الجزاء الأوفى بقدر ما أحسن لدراسة التاريخ وللعلم والتعليم عامة فى هذه البلاد .

كلمة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم (*)

فى الأسبوع الأول من أكتوبر سنة ١٩٢٩ بدأ عام جامعى جديد فى حياة كلية الآداب بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن) كما اعتاد أن يبدأ منذ أربعة أعوام سابقة، أى منذ تحولت الجامعة إلى جامعة حكومية واستقبلنا الدراسة فى الكلية — وكنا فى السنة النهائية لليسانس — فى مبناها الحالى بعد أن تحولت من مبناها القديم فى قصر الزعفران .

واستقبلت الكلية — فيمن استقبلت — أستاذ مصرياً شاباً — وكان الأساتذة المصريون لا يزالون قلة بها، أستاذاً شاباً تلوح عليه مخايل الذكاء المفرط والنبوغ المبكر وسرعان ما جذب إليه نفوس تلاميذه وعقولهم فأخلصوا له الحب والولاء وأقبلوا عليه ينهلون من علمه الغزير ويتأثرون خلقه الكريم .

وكانت شهرة « شفيق غربال » ومكانته العلمية قد سبقتاه إلى الجامعة، منذ كان أستاذاً للتاريخ بمدرسة المعلمين العليا يحاضر طلابه فى فروع مختلفة من التاريخ الإسلامى والتاريخ الحديث، ومنذ نشر كتابه الجليل « بداية المسألة المصرية وظهور محمد على » The Beginning of the Egyptian Question and the Rise of Mohamed Aly فى سنة ١٩٢٨ . وهو الرسالة التى نال بها فقيدنا العزيز درجة الماجستير فى التاريخ الحديث من جامعة لندن فى سنة ١٩٢٤ .

وكان الأستاذ غربال قد مال إلى دراسة التاريخ منذ صباه، حدثنى — رحمه الله — أنه قرأ فيما قرأ وهو لا يزال طالباً فى المدرسة الثانوية — كتاب

(*) ألقيت فى الحفل الذى أقامته الجمعية المصرية للدراسات التاريخية مساء ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٦١ لتأبين المغفور له المرحوم الأستاذ محمد شفيق غربال .

وفيات الأعيان لابن خلكان فى كامل أجزائه — حتى إذا نال الفقيد العزيز الشهادة الثانوية اختار الالتحاق بمدرسة المعلمين العليا « على كره من يهمهم أمره لهذا » وكان أساس اختياره — كما قال — إنها كانت إذ ذاك المعهد الوحيد فى مصر الذى يمكن أن يصله بالدراسات الإنسانية وفى مقدمتها دراسة التاريخ ، ومنذ ذلك الوقت جعل الأستاذ غربال هذه الدراسات محور حياته العقلية ، بل لقد تأثر بها الفقيد الكريم — أيما تأثر — فى أسلوب حياته وعلاقته بالناس .

وأتيحت له فرصة الاستزادة فى مجال تخصصه فى انجلترا فما أضاعها رغم ظروف الحرب التى كانت قائمة فى ذلك الوقت (١٩١٥) وما تحمل من أخطار المواصلات وقسوة الحياة فى هذا البلد النائى .

ونال الفقيد العزيز درجة البكالوريوس مع مرتبة الشرف الأولى فى التاريخ الحديث من جامعة ليفر بول فى سنة ١٩١٩ثم عاد إلى وطنه ليعمل مدرساً للتاريخ بمدرسة العباسية الثانوية بالإسكندرية ، حتى إذا تجددت فرصة العودة إلى إنجلترا لمزيد من التخصص ، عاد إلى إنجلترا والتحق هذه المرة بجامعة لندن حيث نال منها درجة الماجستير فى التاريخ الحديث فى سنة ١٩٢٤ برسالته التى أشرنا إليها ، وقد نشرت بعد ذلك ببضعة أعوام ، وكانت — حقاً — أول عمل علمى أصيل فى تاريخ مصر الحديث لأستاذ مصرى معتمد على وثائق أصلية بلغات مختلفة لم يسبق نشرها . وكان من حظ أستاذنا المصرى الشاب أن كان أستاذه فى جامعة لندن والمشرف على رسالته الأستاذ أرنولد توينبى ، ومنذ ذلك الوقت توثقت صلات صداقة طويلة وعميقة بين الأستاذين المؤرخين . وقد أشاد الأستاذ توينبى فى المقدمة التى كتبها لرسالة تلميذه بالصفات التى يتحلى بها تلميذه والتى تجعل منه مؤرخاً مرموقاً ، وقال إنه فى إشرافه على هذه الرسالة استفاد أكثر مما أفاد وقال توينبى فى مناسبة أخرى أنه لا يذكر أنه علم تلميذه شيئاً ولكنه يذكر أنه تعلم منه أشياء(١) .

---

(١) من كلمة الأستاذ توينبى فى تأبين الفقيد الكريم بمجمع اللغة العربية .

وعلى أثر عودة الأستاذ الفقيد من بعثته عين لتدريس التاريخ بمدرسة المعلمين العليا ، فبقى بها إلى أن نقل إلى الجامعة فى سنة ١٩٢٩ فى وقت كان الأساتذة الأجانب يحتلون أكثر كراسى التدريس بالجامعة . وكانت الجامعة فى ذلك الوقت أحد ميادين الصراع الثقافى — وهو صراع سياسى فى حقيقته — بين النفوذ الفرنسى والنفوذ الإنجليزى . وكان الأساتذة المصريون الشبان يعملون جاهدين ليجدوا لهم منفذاً بين كلا النفوذين الأجنبيين وليشقوا طريقهم إلى كراسى الأستاذية .

وسرعان ما وصل الأستاذ شفيق غربال إلى كرسى أستاذية التاريخ الحديث فخلف فيه أستاذين أجنبيين ذائعى الصيت فى علمهما ، وأولهما الأستاذ سانياك الفرنسى ، والآخر الأستاذ جرانت الإنجليزى .

ووضع الأستاذ غربال « لمدرسة التاريخ الحديث » بالجامعة خطة مثلى تقوم على تمصير دراسة التاريخ ، لا نعنى بهذا فقط تدريس التاريخ باللغة العربية ، وإنما نعنى توجيه الاهتمام إلى دراسة التاريخ القومى الحديث ، وما كان يلقى قبل انتقال الأستاذ غربال إلى الجامعة أية عناية .

استحدث أستاذنا دروساً فى تاريخ مصر الحديث السياسى والاقتصادى وفى تاريخ الشرق الأدنى الحديث وشجع المتفوقين من طلابه على متابعة الدراسة العليا لنيل درجة الماجستير والدكتوراه وفتح أمامهم آفاق البحث فى دور الكتب والوثائق وأسس بهم حقاً « مدرسة التاريخ الحديث فى مصر » .

وصادف ذلك العهد اهتمام الملك فؤاد بتاريخ أسرته وخاصة تاريخ جده محمد على وأبيه اسماعيل وكان فؤاد قليل الثقة فى المؤرخين المصريين وفى مقدرتهم على كتابة تاريخ مصر الحديث ، واستجابتهم للتوجيه الخاص الذى كان فؤاد يحرص عليه فى كتابة تاريخ أسرته .

بدأ بالكتابة فيها حياته العلمية ، وكانت هذه المسألة قد تحولت من مجرد صراع بين الدول الأوربية الكبرى على السيطرة على مصر إلى كفاح وطنى قام به المصريون ضد الاحتلال البريطانى ، وما ابث الكفاح أن جنح — فى أكثر مراحله — إلى السعى لحل القضية الوطنية بالوسائل السلمية ، فكانت المفاوضات المصرية البريطانية منذ بدأت سنة ١٩٢٠ حتى انتهت بتسليم انجلترا بالجلاء التام فى سنة ١٩٥٤ .

واتجه مؤرخنا الكبير إلى دراسة المسألة المصرية فى مراحلها الأخيرة . بعد أن تتبعها فى أصولها الأولى ثم فى بعض مراحلها فى القرن التاسع عشر . ومقدمته لكتابه « تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية » الجزء الأول ١٨٨٤ — ١٩٣٦ تصف طريقته فى التفكير والتأليف : رأى الأستاذ الجليل أن مصر قد توالت عليها سلسلة من الحوادث والوقائع والسياسات والخطط والبواعث والأغراض والأمانى والأحلام والشهوات ، وقد تكون منها تاريخ العلاقات بين مصر وانجلترا ، حتى بلغت مصر (قبيل الثورة) إلى نقطة تحول فاصلة ووصلت إلى مرحلة حاسمة فى المصير وجدت من الخير أن تقف عند هذه المرحلة موقف التفكير المنظم . وفى رأيه « أن هذا التفكير المنظم لابد أن يقوم على أساس وهذا الأساس هو ماسميته الصورة المركبة من المتفرقات » .

وقدر المؤرخ الكبير خطورة العمل الذى هو مقدم عليه ، فهو يتناول طائفة من الأحداث التى توالت على البلاد ولاتزال مصر تعيش فى مؤثراتها ، كما تناول طائفة من الرجال ، الذين شاركوا وكانوا لايزالون يشاركون فى الحياة العامة ، ولم يمنعه هذا من التصدى للحكم على هذه الأحداث وهؤلاء الرجال ، لاحكم رجل السياسة — فهو لم يكن قط رجل سياسة — وإنما حكم المؤرخ الباحث عن الحقيقة ، فجاء كتابه هذا — الذى منح جائزة الدولة — نموذجاً لكتابة التاريخ المعاصر فى تقصيه المادة ، وقدرته الفائقة فى تأليف الصورة المركبة ، الشجاعة فى الحكم ، والاخلاص للحق وحده .

وكان اهتمام شفيق غربال بتاريخ مصر الحديث الباب الذى نفذ منه إلى تاريخ العرب الحديث ، وقد أتاح له عمله بمعهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية أستاذاً للتاريخ منذ سنة ١٩٥٣ حتى انتقاله إلى جوار ربه فرصة التوفر على دراسة التاريخ العربى الحديث وتوجيه طائفة من طلابه إلى البحث والتأليف فى جوانب هذا التاريخ . ولو أتيح يوماً لمحاضرات الأستاذ غربال فى هذا المعهد أن تنشر ، إذن لوجد الناس بين أيديهم ثروة علمية كبيرة . ولكن أستاذنا — رحمه الله — كان لايدون محاضراته تفصيلا ، وكان يؤثر — شأن العالم المحقق — أن لايتعجل نشر النتائج التى يصل إليها فى بحوثه إلا بعد أن يخضعها لمختلف أساليب الفحص والنظر والمعاودة وهو — رحمه الله — لم يقبل نشر كتابه « منهاج مفصل لدروس فى العوامل التاريخية فى بناء الأمة العربية على ماهى عليه اليوم » إلا بعد أن ألح عليه بعض أصدقائه وتلاميذه . والكتاب ليس تاريخاً للأمة العربية ولكنه فلسفة لتاريخها ، فهو — على حد تعبير عنوانه — (منهاج مفصل) للعوامل التاريخية التى عملت فى بناء الأمة العربية حتى وصلت بها إلى ما هى عليه هذه الأمة اليوم . ويقوم هذا المنهاج المفصل على اعتبار أن بناء الأمة العربية متأثر بعوامل رئيسية ثلاثة :

١ — الأوضاع الداخلية للعالم العربى .

٢ — المؤثرات العثمانية .

٣ — الغزو الأوربى .

وعالج المؤلف هذه العوامل منفردة أو متجمعة ، متوازية أومتصلة حتى تم — بالتقائها وتفاعلها — بناء الأمة العربية على ما هى عليه اليوم .

وفى هذا الكتاب — على صغر حجمه — تجلى ما تجلى به مؤرخنا الجليل

من حس تاريخى دقيق ، ووعى عميق للمؤثرات الحضارية المختلفة وتحليل المسائل إلى عناصرها ، وتأليف الصورة الشاملة من متفرقاتها .

وكان هذا الكتاب — آخر مانشر فقيدنا العزيز ، وكأنه كان (الهدية) الأخيرة لهذه العبقرية الخالدة لأبناء الجيل . وعلى شدة اهتمام الأستاذ غربال بالترجمة كوسيلة لتزويد المكتبة العربية بروائع الفكر الأجنبى ، اهتماماً يتجلى فى مراجعته للعشرات من الكتب وكتابة المقدمات لعدد منها ، إلا أنه — هو نفسه — لم يمارس الترجمة كثيراً ، فقد اعتذر عن ترجمة رسالته عن بداية المسألة المصرية إلى اللغة العربية ، وكذلك الفصل الذى كتبه بالانجليزية عن الحركات الفكرية والسياسية فى التاريخ الإسلامى بعنوان Ideas and Movements in Islamic History ونشر فى كتاب « الإسلام . الصراط المستقيم . الإسلام كما يفهمه المسلمون(١) » وقد تتبع فى هذا الفصل الرائع انتشار الإسلام والعوامل التى قام عليها المجتمع الإسلامى والمؤثرات الدينية والسياسية التى تعاقبت فى العالم الإسلامى حتى العصر الحديث .

والكتاب الوحيد الذى قام أستاذنا العالم بنقله إلى اللغة العربية هو « المدينة الفاضلة عند فلاسفة القرن الثامن عشر » للمؤرخ الأمريكى كارل بيكر ، فجاءت هذه الترجمة نموذجاً فى دقتها ، وفى حرصها على المعنى واللفظ ، تقرأ المقدمة المستفيضة التى صدر بها الأستاذ غربال الكتاب ، ثم تقرأ الكتاب نفسه ، فلا تكاد تحس بأنك انتقلت من التأليف إلى الترجمة ، ولكنه أسلوب عربى مبين يجرى

---

(1) Islam, the Straight Path. Islam as interpreted by Muslims. — New York 1958.

وكتب فصول هذا الكتاب أساتذة من مصر وإيران وتركيا والهند والصين وأندونيسيا وباكستان — ونشرت لهذا الكتاب ترجمة عربية فى بغداد .

فى يسر وسهولة يعبر عن المعانى الدقيقة والأفـكار العميقة التى احتشد بها هـذا الـكتاب القيم .

واختيار الأستاذ شفيق غربال لهذا الـكتاب لينقله إلى اللغة العربية ينم عن إيمان عميق منه « بنعمة العقل وبالحرية وبالأخاء والمساواة » وهى المبادىء التى قامت عليها فلسفة القرن الثامن عشر . وهى « الفلسفة الأوربية التى اتصلنا بها حينما عاد الاتصال بيننا و بين أوربا منذ أوائل القرن التاسع عشر وأعتقد أنها كان لها تأثير عميق فى حياتنا الفـكرية وفى تطورنا السياسى على حد سواء » .

وبعد فهل ننسى عمل الفقيد الـكريم فى هذه الجمعية ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ورعايته لها منذ كانت فـكرة تجول فى أذهان بعض المشتغلين بالدراسات التاريخية وأملا يراودهم حتى أنشئت فى سنة ١٩٤٥ . لقد بذل — عليه رحمة الله — لهذه الجمعية من عقله وقلبه جميعاً وكان لايفتر فى رعاية مختلف وجوه نشاطها : فى تزويد مكتبتها بالمراجع الهامة ، وعقد مواسمها وندواتها الثقافية ، والإشراف على البحوث التاريخية التى تنشر فى مجلتها ، وتوجيه نشاط أعضائها وتشجيعهم على البحث، بل كان — رحمه الله — حريصاً على أن يشارك فى مواسم المحاضرات العامة التى تنظمها الجمعية ، كلما مـكنته ظروف أعبائه الـكثيرة التى كان يقوم بها .

وأرجو أن تأذنوا لى بأن أعيد إلى أذهانكم ذكرى تلك المحاضرات القيمة التى ألقاها فقيدنا العظيم فى هذه الجمعية بذكر موضوعاتها وهى :

١ — زيارة للمغرب .

٢ — الأصول التاريخية لنوعى الديمقراطية المعاصرين .

٣ — الـكسيس دى توكفيل .

٤ — التاريخ عند تولستوى .

٥ — المؤرخون ووحدة العالم .

٦ — توينبي المؤرخ والديانات .

فخسارتنا بفقد رئيسنا وراعينا يعز تعويضها ، وإذ كنا نجتمع اليوم لتأبين فقيدنا العزيز فلن نستطيع أن نفيه بعض حقه وفضله علينا .

وقد أشرت إلى الأعباء الكثيرة الضخمة التي قام بها الفقيد الكريم وقد يعوزنا الحصر الدقيق لمختلف الهيئات العلمية التي كان الفقيد عضواً فيها ، وفقيدنا لم يكن يقبل العضوية في هذه الهيئات كنوع من الشرف أو التكريم ، بل كان في كل منها عضواً عاملاً حريصا على تكريس جهده لتحقيق أغراضها ، وكأنه لا عمل له سواها ، فكان إلى جانب أستاذيته في الجامعة ثم عمله في وزارتي المعارف والشئون الاجتماعية ثم أستاذيته وعمادته لمعهد الدراسات العربية عضواً في مجمع اللغة العربية وفي مجلس إدارة الجمعية الجغرافية ولجان المجلس الأعلى للآداب والعلوم الاجتماعية والموسوعة العربية الميسرة وغير ذلك من الهيئات واللجان التي لا نستطيع حصرها.

وقد ظل فقيدنا العزيز متوفراً على العمل حتى فاجأه مرضه الأخير ، ولكأني به بعد وفاة شريكة حياته وأم ولده (١٩٥٤) في نفس اليوم الذي بدأ فيه حياة التقاعد من خدمة الحكومة — لكأني به وقد أغرق نفسه في العمل إغراقاً ، فكان لا يكاد يرى إلا منصرفاً إلى كتاب أو ممسكاً بقلم أو مشاركاً في مجلس علم أو جالساً إلى أحد تلاميذه يوجهه وينصح له ، فقد ظل — رحمه الله — طوال حياته كالنبع الصافي لا يضن بما عنده على أحد حرصاً على الإفادة ، فاعتز به تلاميذه واعتز بهم ؛ سأله يوماً أحد المتحذلقين عن آخر مؤلفاته ، فأجاب عليه — رحمه الله — مشيراً إلى تلاميذه ، هؤلاء هم كتبي ....

كان شفيق غربال — رحمه الله — عالما في علمه — وعالماً في خلقه —

كان عالماً بكل معانى هذه الكلمة فى سعة أفقه ورحابة صدره ، وشغفه بالبحث ، وحرصه على الحق ، كان يكره العنف فى شتى صوره ، لا أذكر أنى — على طول صلتى به — سمعت صوته يرتفع عما ألف طول حياته ، كان نزيه القصد ، يكره التعصب فى الفكر والعمل ، كان سمح النفس ، حلو الروح ، كبير القلب ، حر الضمير ، مترفعاً عن الدنايا ، صافى النفس والذهن والقلب ، شديد التحكم فى مشاعره ، صبوراً ، جلداً ، وكان يعفو عن كثير .

هذا شفيق غربال العالم الذى فقده العلم والإنسان الذى فقدته الإنسانية ، هذا شفيق غربال الرائد الذى فقدناه ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

كلمة الدكتور يحى الخشاب*

الأستاذ الراحل محمد شفيق غربال من القلائل فى عالمنا الذين أسسوا لأنفسهم مدرسة خاصة فى البحث العلمى تحمل طابعه وتسير على منهاجه . والأستاذ الراحل بدأ حياته معلماً وأنهى حياته معلماً أيضاً ، لم يترك التعليم فى أية فترة من حياته . بدأ معلماً فى المدارس الثانوية بعد تخرجه من مدرسة المعلمين العليا ثم أوفد فى بعثة لانجلترا ليتخصص فى مادة التاريخ وهناك أتيح له أن يلتقى بزوجته التى كانت تدرس معه فى الجامعة واستطاع مع هذه السيدة الجليلة — رحمها الله — أن ينشىء أسرة هادئة وديعة تسير حياتها فى سعادة و يرفرف عليها الهناء والود والرضا . وهناك التقى أيضاً بأستاذه وصديقه المؤرخ العظيم أرنولد توينبى فتوثقت الصلة بين التلميذ والأستاذ كما توثقت فيما بعد الصلة بين الزميل والزميل ثم بين الصديقين وأثمرت هذه الصلة العلمية الصافية أحسن الثمار للتوجيه العلمى الذى اختاره لنفسه ولتلاميذه الأستاذ الجليل محمد شفيق غربال .

وعاد رحمه الله من البعثة ليشغل منصب الأستاذية فى مدرسة المعلمين العليا وليكون أستاذاً لأجيال متعاقبة من المعلمين الذين يحفظون له كل الإجلال وكل التقدير والذين يبدون له من الولاء العلمى ما يجعل له أكبر الأثر فى سلوكهم التعليمى فى المدارس .

ثم لم يلبث أن اختير أستاذاً فى كلية الآداب بجامعة القاهرة فكان من خير أساتذة الكلية وكان له — بجانب الأساتذة الأجانب الذين استعانت بهم كلية الآداب فى أول عهدها استعانة كبيرة — كان له بجانب هؤلاء الأساتذة مكانة مرموقة فكان نداً لهم فى علمه وفى طريقة بحثه وفى احترامه لأستاذيته .

(*) ألقيت فى حفل التأبين الذى أقيم بمعهد الدراسات العربية العالية فى ديسمبر سنة ١٩٦١

ألقى محاضرات فى تاريخ العثمانيين فكانت محاضراته تجلب إليه الطلاب من جميع أقسام الكلية . سرى بين الطلاب أن أستاذاً حلو الحديث غزير المادة متقناً لعرض موضوعه مشوقاً للاستماع إليه والإفادة منه يلقى محاضرات بعد الظهر فى قسم التاريخ فامتلأت بهؤلاء الطلاب حجرة درسه . وتوطدت بينه وبين الطلاب مودة خالصة أساسها الإعجاب الذى يبديه الطلاب بالمقدرة الفائقة التى يبديها الأستاذ . وكان له من رقة الخلق والوداعة وطيبة القلب وكبر النفس ما جعل الطلاب يتخذون منه أستاذاً وصديقاً .

ثم اختير عميداً للكلية فعمل على تمكين الأساتذة من التفرغ للبحث والعكوف على ما ينفع الطلاب والعلم وأرسى القواعد الجامعية الحقة فى تؤدة واتزان وسعة أفق وإحاطة بمعنى الجامعة .

وانتقل المرحوم شفيق غربال من الجامعة وكيلا للوزارة فلم يترك مدرسته فى كلية الآداب بل واظب على إلقاء محاضراته ولم تنقطع صلته بالكلية رغم أنه كان يقوم بواجب علمى كبير فى وزارة المعارف واستمر الأستاذ الراحل يجمع بين العملين حتى إذا ما طلب إليه أن يعود إلى الجامعة عاد إلى كليته معطياً إياها كل وقته ، فكان بالنسبة لتلاميذه الذين يدرسون عليه الأستاذ الذى اكتمل نضجه والمحاضر الذى لا يبارى . وكان بالنسبة لتلاميذه الذين أصبحوا زملاء له فى الكلية أستاذاً ومرشداً ومعيناً ، أكسبته التجربة خبرة جعلته خير مستشار فى كل ما يمس الكلية من شؤون .

امتاز المرحوم شفيق غربال بميزتين عرف بهما بين أصدقائه . الميزة الأولى الاحتفاظ بكرامة الأستاذية فلم يعلم عنه أحد من تلاميذه وأصدقائه أنه طأطأ الرأس يوماً لحاكم أو قال شيئاً لا يرضى ضميره العلمى أو سلك سلوكاً يتجافى مع ما يجب للعلم من كرامة فظل بينهم مثلا أعلى يحبونه ويشيدون به ويفخرون به فى كل مكان .

والميزة الثانية أنه تابع النوابغ من تلاميذه فلم يتركهم لحظة من اللحظات ، جالسهم فبث فيهم من روحه ومكن لهم من البحث العلمى ومكن لهم من حب الاطلاع ومن حسن انتقاء ما يقرأ ومهد لهم السلوك الذى يؤدى بهم إلى تبوء أسمى المراكز سواء فى ميدان التعليم الجامعى أو فى ميدان التنظيم الفنى لشئون التعليم ، فكان من وراء هؤلاء رائدهم ومرشدهم وشيخهم الذى يمدهم بكل عون من واسع درايته وعظيم حبه وصادق وده .

وختم الأستاذ الراحل محمد شفيق غربال حياته معلما أيضاً . فقد اختير مديراً لمعهد الدراسات العربية العالية ، وهو المعهد العربى الذى تباهى به جامعة الدول العربية . وقد عنى الأستاذ بالمعهد عنايته بكلية الآداب من قبل . وقد أتيح له بفضل معرفته الصادقة بالعلماء العرب فى جميع أنحاء الوطن العربى وبمن كانوا من تلاميذه فى هذه الأنحاء ، أن يختار صفوة أولى العلم والفضل ليحاضروا فى المعهد ولتخرج لهم أبحاث قيمة تعد من خير الإنتاج العلمى فى الوطن العربى . والذى ينظر فى مطبوعات المعهد يلمح لأول وهلة الفكر المنظم والخطة العلمية المدروسة الدقيقة والهدوء والأناة التى امتاز بها أستاذنا الراحل الكريم .

كان رحمه الله ينظر إلى المعهد على أنه جامعة ومجمع فى الوقت نفسه . كان يرى أن يكون المحاضر محدثاً مع تلاميذه ، يتبادل معهم الفكر ويطلب إليهم البحث ويعودهم القراءة وكيف تكون واختيار الكتاب بعد تحديد الموضوع . وكان رحمه الله موهوباً فى حسن اختيار مادة القراءة ومكتبته الخاصة تشهد بذوق نادر فى جمع الكتب الثمينة التى تعد عماد مكتبة الأستاذ . وناحية أخرى حرص رحمه الله عليها فى المعهد هى أن يجعل منه مجمعاً يلتقى فيه العلماء . وكان رحمه الله يرسم ، قبيل وفاته ، لحلقة علمية يدعى إليها من علماء العرب ومن المستشرقين صفوة يناقشون فيها أثر العرب فى الحضارة العالمية . لقد سعى شفيق غربال إلى أن يجمع المعهد بين التعليم بالمعنى الجامعى وبين حلقات البحث يحضرها العلماء

المتخصصون ويلقى كل منهم ببحثه ويناقشه سائر الأعضاء على مسمع من الطلاب ليقفوا على الأصول الحقة للبحث العلمى والنقاش .

وعمل رحمه الله على الوصل بين المعهد والمعاهد المماثلة فى الخارج . وكان له من شخصيته العلمية ما أسبغ على المعهد الهيبة والاحترام والإجلال .

*

إن نظرة عابرة على المكتبة الضخمة التى أخرجها المعهد للناس بقلم أساتذة أجلاء ، تكشف عن مدى ما حقق محمد شفيق غربال للمعهد من مجد علمى رفيع : فى الدراسات الاقتصادية والاجتماعية ، فى الدراسات التاريخية والجغرافية ، فى الدراسات الأدبية واللغوية ، فى الدراسات القانونية .

حسب العرب أن يتجهوا فى مواضيع الدراسة العربية إلى المعهد ليجدوا كتباً فى اقتصاديات العراق والأردن وسوريا ولبنان ومصر والسودان ، ليجدوا كتباً عن البترول فى البلاد العربية ، وعن نقل البترول العربى وعن التنظيم الاحتكارى للسوق العالمية للبترول وعن اتفاقيات وعقود البترول فى البلاد العربية .

ليجدوا كتباً عن مراكز الثقافة فى المغرب ، وعن التعريف بالمغرب ، عن تطور السياسة الفرنسية فى الجزائر ، عن اليمن ماضيها وحاضرها ، عن تاريخ قضية فلسطين ، عن الخليج العربى والعلاقات الدولية ، عن الأوضاع السياسية فى جنوب الجزيرة العربية ، عن العراق من الاحتلال حتى الاستقلال ، عن سورية من الاحتلال حتى الجلاء ، عن انتشار الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى .

ليجدوا كتباً فى الأدب العربى الحديث ، الزهاوى والرصافى ومطران وحافظ ابراهيم ومى والشدياق وشوقى والمازنى واسمعيل صبرى وشكيب أرسلان ومحمد كرد على والشيخ عبد القادر المغربى ، وعزيز أباظة وعن التيارات الأدبية الحديثة فى العراق وفى لبنان وفى السودان ، وعن الحركة الأدبية فى تونس وعن

المصطلحات العلمية فى اللغة العربيــة فى القديم والحديث وعن النقــد الأدبى والأدب ومذاهبه .

هذه الـكتب كلها لم تأت عفواً ولم تلق محاضرات على طلاب المعهد صدفة ، إنما وراء هذا عقل مدبر حكيم واع لما يحتــاجه الوطن العربى من إعداد ودراسة لموضوعات حيوية هى اليوم فى الصميم من حياتنا العامة . وهذا العقل المدبر هو الراحل الـكريم الأستاذ محمد شفيق غربال .

يشاء الله أن يختم الأستاذ الجليل حياته بأن يشرف على إخراج أول دائرة معارف عربية صغيرة باسم الموسوعة الميسرة فى جزء واحد التى تنشرها مؤسسة فرانكلين بالقاهرة وأن يكون رئيساً لمجلس الدائرة ومشرفاً على تحرير المواد التاريخية ، فأتاح إشرافه لهذا السفر القيم أن يخرج للناس عربياً خالصاً . وحين أدركت المنية الأستاذ العظيم كان الجانب الأكبر من هذه الدائرة قد عرض عليه فأبدى رأيه فيه . وستخرج هذه الدائرة العربية حاملة لإسم محمد شفيق غربال عنواناً على الجد المتواصل والفـكر الناضج والتوجيه السديد والقدرة على توجيه التعاون العلمى فى ميدان الثقافة العامة .

أما كتبه القيمة وأحاديثه عن مصر فى الإذاعة ، باللغتين العربية والانجليزية ، وقد طبعت مرتين ، وأحاديثه فى المجمع اللغوى عن آراء ابن خلدون وأحاديثه فى التاريخ الحديث بالجمعية التاريخية فهذه كلها أعمال ستبقى ويبقى فيها إسم الأستاذ محمد شفيق غربال مذكوراً .

أيها السادة

إنه عزيز على أن أقف بينكم لأرثى أستاذى الجليل محمد شفيق غربال ، الرجل الذى عرفته بالفكر الطيب والقول الطيب والعمل الطيب . رحمه الله .

كلمة الأستاذ إسحق موسى الحسينى*

أيها الأستاذ العظيم !

إسمح لى أن أتحدث إليك ، وأنت البعيد القريب . فلست بمستطيع أن أتصور أن يكون مقعدك خالياً فى هذه القاعة . إنى لأراك جالساً بيننا تشهد ما نشهد ، وتسمع ما نسمع ، كما عهدناك فى السنوات السبع الماضية .

وإنى لأتخيل أنك تشير إلى بأصبعك أن اقتصد ولا تسرف . فالتاريخ الحق ينبغى أن يطابق الواقع ما أمكن ، وينبغى أن يرتفع فوق المجاملة والعصبية والصداقة .

وليكن ما تريد أيها المعلم العظيم . فإنى حريص على رضاك ، على أنى حزين غاية الحزن لأنك انسللت من صفنا على عجل دون أن تؤذن بغياب أو فراق .

ولماذا فعلت ذلك أيها الصديق ؟

أأردت أن تقول لنا : لا يثقل بعضكم على بعض . إحفظوا آلامكم فى صدوركم . لا تنغصوا من حولكم ولو كانوا قرباء. إذا عملتم فليكن الخير هدفكم، وإذا تكلمتم فليكن الرفق رائدكم ، وإذا كتبتم فليكن الصدق شعاركم .

(*) ألقيت فى حفل التأبين الذى أقامه معهد الدراسات العربية العالية ، فى شهر ديسمبر سنة ١٩٦١ .

أم أردت أن تقول لنا : وماذا فعلت حتى أشغلكم بنفسى ؟ لقد كلفت بحمل أمانة فحملتها . وما كان بوسعى أن أتخلى عنها ولو شئت . وأداء الواجب جزء من الأمانة التى أؤتمنت عليها . الواجب — ويا لها من لفظة يسيرة ! — هو كل ما فعلته . واجبى نحو تلاميذى ، وواجبى نحو أصدقائى ، وواجبى نحو مهنتى ، وواجبى نحو وطنى ، وواجبى نحو إنسانيتى ؟

أم أردت أن تقول لنا : ولِمَ المشقة ؟ لنأخذ الحياة من أقرب جوانبها . لنبعدها عن الكلفة ، ولنبرئها من الرياء والنفاق ، ولنجعلها خفيفة هينة أنيسة وديعة . فذلك أجدر بها وبنا ؟

أم أردت أن تقول لنا : إن العمر رحلة قصيرة لا تتجاوز الثوانى فى تاريخ الزمن . وهؤلاء الذين يتوهمون أنهم خالدون ، فيكذبون ويكيدون ويفسدون ، قد خدعهم برق خلب .

لقد قلت هـذا كله بالأمس . قلته عملا وسلوكاً . وهو القول الذى يحفر فى الصدور .

أيها المعلم الكامل !

لقد تكلمت قليـلاً ، وكتبت قليلاً . وكل لفظة قلتها وكل كلمة كتبتها كانت كما ينبغى أن تكون اللفظة وكما ينبغى أن تكون الكلمة : شرف معنى وصدق حس وطهارة وجدان .

أيها الصديق الغالى !

إنى أتخيلك تقطب حاجبيك وتشير إلى من مقعدك أن أحبس لسانك ولا تسرف . إننى إنسان كسائر الناس أخطأ وأصاب ، أساء وأحسن . وإنى لأقف أمام ربى وكتابى بيـدى . وهو الذى يحاسبنى ويحكم لا أنت ولا غـيرك . وما ينفعنى أمامه كلام تزجيه أنت وغيرك بغير حساب .

أيها الإنسان الفاضل !

إنى لأمتثل أمرك . وإنى لأراك فى هذه القاعة مصغياً لما يقال . ولو لم أشعر بوجودك لقلت كلاماً كثيراً أنفس به عما أشعر من حزن عليك وفجيعة بفقدك .

أيها المؤرخ المنصف !

سأحبس ألمى فى صـدرى وأترك للتاريخ أن يتحـدث عنك والداً باراً ، وصديقاً وفياً ، ومعلماً مخلصاً ، ومؤرخاً صادقاً ، وفوق ذلك كله : إنساناً شجاعاً شريفاً أنيساً وديعاً .

وليتغمدك الله بواسع رحمته .

كلمة الدكتور محمد محمود الصياد*

الرجل الذى فقدناه . . .

لاحول ولا قوة إلا بالله !

لقد أصبح المؤرخ الكبير تاريخاً ؛ وها نحن نجتمع اليوم لنسمع حديثاً عن شفيق غربال ، وكنا بالأمس نحتشد لنسمع الحديث من شفيق غربال ؛ وشتان بين الاجتماعيين ؛ اجتماع يملأ القلب بالحسرة واللوعة . واجتماع يشيع فى النفس الغبطة والارتياح ؛ وفى الأول اعتراف بفضل وإحياء لذكرى ستظل حية لن تموت ؛ وكان فى الآخر تعلق بأمل ، وتقدير لعلم فياض ، وإعجاب بروح سامية هى المثل الأعلى للأستاذ الجامعى الكريم . وكم يعز عليكم وعلى أن نقول كان شفيق غربال ، وكنا حتى الأمس نصوغ الفعل للحاضر ولا نصوغه للماضى ، ولكن الحاضر استمرار للماضى ونبت من غرسه ؛ ولقد ذهب شفيق غربال للقاء ربه . ولكنه ترك فى النفوس أثراً خالداً لن ينسى ولن يضيع .

بثثت شجوك فينا ، إذ فقدت ، كما
بثثت علمك فينا غير مفتقد
نكأت منا كلوما ، كان يكلمها
ريب الزمان فتأسوها بخير يد

لقد عرفت شفيق غربال منذ ربع قرن ولم أكن من طلبة القسم الذى يرأسه ، فقد كنت أدرس الجغرافية فى كلية الآداب لاالتاريخ ، وبدا لى عن بعد أن به شيئاً من الكبر ، وتعلن الكلية عن رحلة يرأسها شفيق غربال ، وأتردد فى الاشتراك فيها ثم أعقد العزم ، فإذا بأيام الرحلة القلائل التى أعيشها معه عن

(*) ألقيب بحفل التأبين الذى أقامه معهد الدراسات العربية العالية فى ديسمبر سنة ١٩٦١

قرب ، تكشف لى أن ماظننته كبراً لم يكن إلا ترفعاً عن الصغار ، وإذا بى أعود وقد أشربت نفسى بحب شفيق غربال ، وأتحدث بإحساسى إلى زملاء كبار فيكشفون لى عن حقيقة الرجل وعما يجدون لديه من حدب ورعاية .

وأتتلمذ على شفيق غربال فى بعض دروس التاريخ فإذا بى أمام شىء جديد غير مألوف ؛ حرية فى النقاش غير مفتعلة ، وتوجيه إلى الصواب دون أن يشعرك بالخجل مما وقعت فيه من خطأ ، ومنهاج للبحث العلمى واضح دقيق ؛ ونلتف حوله نبادره بالأسئلة ونناقشه فى الآراء فلا يتبرم بسؤال ولا يضيق بمناقشة .

لقد كان لشفيق غربال فلسفة فى التاريخ ، إن لم يكن قد تركها مسجلة بالحبر على الورق فقد تركها مختلطة بالدم فى قلوب تلاميذه ومريده !

كان شفيق غربال ينظر إلى أمور حياته نظرة شاملة عميقة لاتعنى بالتفصيلات ، وهكذا كانت نظرته إلى التاريخ ؛ لم يكن يعرفه أحداثاً تتجمع لتكون بناء ، وإنما كان يراه ألواناً تمتزج وتختلط لتخلق صورة تدفع إلى التفكير والتدقيق ... كان محباً للحقيقة ، حراً فى تصويرها ؛ وكان رفيقاً فى النقد إذا نقد ، مرحباً به إذا وجه إليه ؛ وكان متواضعاً لايزدهيه غرور ، واضحاً تستمع إلى حديثه فلا تجد فيه لبسا ولا يحجبك عنه غموض ، سخياً بعلمه يجود به على من يقصده دون بخل أو تقتير .

وكان شفيق غربال رضى النفس سمح الخلق ، تناوله أحد تلاميذه فى سورة غضب بما لايليق ، وذكر اسم التلميذ أمامه بعد أسابيع فإذا بشفيق غربال يثنى على علمه ونشاطه ، وإذا به يعطيه حقه غير منقوص ! وهكذا تسمو نفس العالم وتتجرد حينما يتصدى لإصدار الأحكام . وقد عاش غربال يكره التعصب والتحيز للآراء وللأشخاص ، وكان يرى أن التعصب والعلم أمران متنافران ، إذا استقر أحدهما فى قلب شخص فقد خرج الآخر ولن يعود .

وتزداد مع الأيام صلتى بشفيق غربال فلا أجد منه سوى عطف الأب ومودة الصديق ، وهكذا كان مع جميع من حوله . وكم شهد هذا المعهد جلسات تحلق فيها الأصدقاء حول أستاذهم الكبير يتحدثون وللحديث شجون ، فما خرج واحد منهم إلا بلقية جديدة فى فرع من فروع المعرفة ، وكانت آخر تلك الجلسات فى الأمسية التى لم يعد بعدها إلى المعهد الذى كان عزيزاً عليه قريباً إلى نفسه ، وحزنت وحزن الذين كانوا معى عليه قبل أن ينتهى أجله ، فقد كانت الطلعة البهية الوقورة وكأنها الشمس عند الأصيل ، وكان النشاط الذى لا يهدأ قد أخذ يعتريه الفتور ، فأشفقنا عليه فى أسف وبكيناه من غير دموع .

ولم تمض أيام حتى ودع شفيق غربال دنيانا ليدخل فى هيكل الخالدين ، وترك التاريخ ليصبح فى ذمة التاريخ ؛ فيارب أحسن إليه بقدر ما أحسن وأسكنه فسيح جناتك وأنزله منازل الصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا .

كلمة السيدة عزيزة مريدن*

عزيز علينا — والله — أن نفقد أستاذنا الكبير . عزيز علينا أن يغادر هذا المبنى الذى طالما كان يسعى إليه .

أهكذا يسكت الأستاذ العظيم ! ويخمد الذهن المتوقد ، ويسكن الفؤاد الذكى ، ويصبح أستاذنا (شفيق غربال) حديثاً فى المجالس ، لا يقول فنسمع ، ولا يلقى علينا المحاضرات فنعى ونتفقه ؟ ! أهكذا يتركنا أستاذنا على غير ميعاد فنحرم من ثمرات علمه وفضله ، ونحجب عن جنى عاطفته وفكره ؟

عرفنا فقيدنا الراحل فى معهدنا هذا أستاذاً ، وعرفناه خارج قاعات الدرس ، فلم نجده فى كل حالة إلا على الوجه الذى كان يلقانا به ؛ عرفناه معلماً فى كل ما يقول ، ومثقفاً فى كل ما يلقى ، ولكن صورته الأخيرة المفعمة بالمعانى التى لا يمكن التعبير عنها لا تبارح أذهاننا ولا تمحى من مخيلاتنا . كان ذلك قبل بضعة أيام من وفاته ، ولله ما كان أنبل وأحب إلينا حين دخل قاعة الامتحان ، متحاملاً على نفسه ، متوكئاً على عصاه ، وملامح الإعياء بادية على وجهه الشاحب ونظرة الأبوة الوديعة الحانية تطيف بعينيه ، وبعد أن ألقى التحية علينا قال برقة متناهية : كيف أنتم يا أبنائى ؟ هل أحسنتم الإجابة عما مضى من أسئلة المواد ؟ فما شعرنا فى تلك اللحظة إلا أن ما بيننا وبينه كما يكون بين الأب وأعضاء أسرته ، ثم غاب عن أنظارنا . وما لبثنا أن علمنا بالنبأ المشؤوم .

(*) ألقيت فى حفل التأبين الذى أقيم فى معهد الدراسات العربية العالية فى ديسمبر سنة ١٩٦١ .

ولست هنا لأحيط بجوانب شخصية فقيدنا الغالى وما تركه فى نفوسنا من أثر عميق ، ولكنها تحية وفاء ألقيها اليوم على روحه . رحم الله أستاذنا ، فلقد كانت خسارتنا فيه لا يسهل العوض منها ، ولا العزاء عنها . ولئن كانت الثروة المادية تكتسب بالحيلة أو بالوراثة ، فالثروة الفكرية لا تمتلك إلا بما تجود به قرائح المفكرين وما تفيض به نفوس الأساتذة والمربين المخلصين ، ولقد كان فقيدنا — خلد الله ذكراه — مثال الأستاذ القدير ، والباحث المدقق والمربى الفاضل ، والموجه المرشد ، لذلك فأسانا به أسى خالد سيتردد فى نفوسنا كلما صبونا إلى إمام فلم نجد الهداة المرشدين ، ولا الرواد الناصحين .

لك الله يا فقيدنا الراحل ، لما كنت تبذله فى سبيلنا من جهد ووقت فلقد عرفناك عن كثير ، ومددنا إليك بسبب ، فما كنت — يشهد الله — تضن علينا بمعونة ، ولا تبخل بنصيحة . ولا تقبض يدك عن معروف ولا تغلق بابك دون طالب أو باحث ، بل لقد كنت تأخذ بيدنا جميعاً . تهدينا إلى الطريقة المجدية ، وتمدنا بالوسائل النافعة ، ثم لا تلبث أن تعرض علينا آخر ما اطلعت عليه ، وتفتح عيننا على كل جديد ، فنقر بجودك وفضلك وسعة علمك .

سمو الإنسانية — أيها السادة — لا يتم إلا بالعلم والثقافة ، وقد يكون من الناس من هو عالم بذاته ، ولكن النادر منهم من يحسن التعليم ، فيكون واسطة لنقل ما تعلم على خير وجه ، أما أستاذنا الفقيد ، فقد كان معلماً بفطرته ، متميزاً فى طريقته ، فكان أشد ما يروعنا منه ، قدرته الفائقة على تحليل الحوادث التاريخية ، تعليلها وربط أسبابها بمسبباتها ، وكان لا يقتصر فى ذلك على الأسباب القريبة المباشرة . بل يتعداها إلى الأسباب البعيدة ، خاصة فيما يتعلق بالقومية العربية ، كان يفعل ذلك بدقة ووضوح دون أن نشعر باستطراد مخل ، أو استقراء ناقص ، أو سرد تاريخى ممل ، وهذه لعمرى هى الأستاذية الحقة التى توضح ما غمض فى الأذهان وتثبت ما لزم من المعارف .

وكان أروع ما يلفتنا إليه حركة ذهنه ويقظة فكره ، وكنا نلحظ عليه استغراقه فى الموضوع ، وانسجامه معه حتى يستولى على تفكيره ، فكان أشد ما يزعجه عند ذاك أن يسمع من أحد الطلاب حركة أو نأمة ، تقطع عليه سلسلة أفكاره ، وتضيع لذة بحثه ، فيتوقف لحظة ، ثم ما يلبث أن يعود ليعتصر قريحته ، ويدير الفكرة فى رأسه ، فتصبح لنا منهلاً صافى المورد بعد أن يعطيها الصورة المناسبة ، ويكسوها اللفظ الملائم ، ويعرضها لنا بالأسلوب الواضح المبين .

كنا نرى عذوبة نفسه فى عذوبة درسه ، وصفاء ذهنه فى وضوح غرضه ، وجمال تفكيره فى حسن ملاحظاته واستنتاجه ، ثم نعود إلى الكتب المؤلفة ، فنرى الفرق الواضح فى الطريقة فنعجب لهذه القريحة الفذة . وكان — طيب الله ثراه — واسع الصدر ، ذا روح عالية ، تشرق فى نفوسنا إشراقة الشمس ، فتبعث منا العزائم ، وتسمو بالهمم ، وما كنا نجلس إليه فى ألفة أو كلفة ، إلا ويغمرنا منه شعاع يملك نفوسنا من غير سطوة ، فنحس بهيبته ووقاره ممزوجين بتواضع العزة ، ووداعة الأنفة ، ودماثة الخلق النبيل ، فلا نستطيع أن نرد هذه الخلال كلها إلا إلى شخصيته القوية الجذابة ، وما تهيأ لها منبت أثيل ، وثقافة واسعة ، وسلامة الفطرة ، وجمال القدوة ، ولكن هذه الروح أصبحت اليوم فى ذمة التاريخ ، فلم تتح لنا الظروف أن ننعم بها إلا قليلا ، ثم فقدناها ، ونحن أحوج ما نكون إليها،وهذا مما يزيدنا حزناً على فراقه ولوعة لفقده . فما أخلقنا — نحن الطلاب — أن نتخذ من فقيدنا العظيم أسوة لنا ، وأن ندعو الله أن يتغمده برحمته ، ويفسح له فى نعيم جنته ؛ ويجزيه عما بذله فى سبيلنا خير الجزاء .

حفل تأبين المرحوم الأستاذ محمد شفيق غربال

فى مجمع اللغة العربيـة

فى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الاثنين ٢٦ من جمـادى الآخرة سنة ١٣٨١ هـ الموافق ٤ من ديسمبر (كانون أول) سنة ١٩٦١م ، عقـدت جلسة علنيـة لتأبين المغفور له المرحوم الأستاذ محمد شفيق غربال إذ توفاه الله صباح الخميس ٢٠ من أكتوبر سنة ١٩٦١ .

وفى الموعد المحدد لبى الدعوة جمهور كبير من أصدقاء الفقيد وعارفى فضله . وكان فى مقدمتهم الأستاذ السيد يوسف وزير التربية والتعليم والدكتور حسين خلاف وزير اتحاد الدول العربية والأستاذ على حافظ نائب وزير التربية والتعليم ، وبعض من رجال السلك السياسى ، وعمداء وأساتذة الجامعات وكبار رجال التربية والتعليم ولفيف من أسرة الفقيد ، وغيرهم من رجال العلم والأدب والصحافة .

وشهد جلسة التأبين العـالم البريطانى المؤرخ الأسـتاذ أرنولد توينبى والسيدة حرمه .

ورأس الجلسة الأستاذ الدكتور طه حسين نائب رئيس المجمـع وحضر من أعضـاء المجمع الدكتور ابراهيم مدكور الأمين العـام والدكتور ابراهيم أنيس والأستاذ ابراهيم عبد المجيـد اللبان والدكتور أحمد بدوى والدكتور أحمد عمـار والأستاذ أمين الخولى والأستاذ حامد عبد القادر والأستاذ زكى المهندس والأستاذ عباس محمود العقاد والدكتور عبـد الحليم منتصر والدكتور عبد الحميـد بدوى والأستاذ عبد الحميد حسن والأستاذ عبد الفتاح الصعيدى والأستاذ عزيز أباظة والدكتور على توفيق شوشـة والأستاذ على عبـد الرازق والدكتور مراد كامل

والأستاذ محمد توفيق دياب والأستاذ محمد خلف الله أحمد وفضيلة الشيخ محمد على النجار والأستاذ محمد فريد أبو حديد والدكتور محمد مهدى علام والأستاذ محمود تيمور والأستاذ مصطفى نظيف والأستاذ اسحق موسى الحسينى .

وافتتحت الجلسة بتلاوة بعض آيات الذكر الحكيم من فضيلة الشيخ عبد الباسط عبد الصمد ثم ألقى السيد / الدكتور طه حسين نائب رئيس المجمع ورئيس الجلسة كلمة عن الفقيد .

ودعا بعدها الأستاذ محمد فريد أبو حديد إلى إلقاء كلمته فى تأبين الفقيد ، وبعد أن فرغ منها ، قام الدكتور محمد مهدى علام بإلقاء موجز لها باللغة الانجليزية .

ثم استأذن الأستاذ أرنولد توينبى فى إلقاء كلمة فى تأبين تلميذه الفقيد ، وبعد أن انتهى منها ترجمها إلى العربية الدكتور محمد مهدى علام ثم أعلن الرئيس انتهاء الجلسة .

كلمة الدكتور طه حسين

أيها السادة :

تفضل الأستاذ الجليل والمؤرخ الكبير الأستاذ « أرنولد توينبى » بمشاركتنا فى هذه الجلسة لتأبين تلميذه وزميلنا وفقيدنا الكريم المرحوم الأستاذ محمد شفيق غربال .

وما أشك فى أننى أعبر عما فى نفوسكم جميعاً حين أهدى إلى الأستاذ «توينبى» أصدق شكرنا على هذه المشاركة الكريمة، وحين أرجو أن يشكر الله سعيه وأن يعظم أجره وأجركم ، وأن يلهمنا وإياه صبراً جميلا وعزاء كريماً .

كلمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد

منذ أسابيع قليلة فقد مجمع اللغة العربية عضواً جليلاً من أعضائه وهو الزميل الكريم والإنسان النبيل المغفور له الأستاذ محمد شفيق غربال وإذا كان

هذا الزميل العزيز قد خلى مكانه بيننا على غير انتظار ، وخلف فى نفوسنا أعمق الأسى ، لحرماننا من وجوده بيننا ينبوعاً دافقاً من العلم والفضل والإنسانية فإن فقده خلف فراغاً عظيماً فى قلوب كثيرة أخرى من أصدقائه وتلاميذه ومقدرى فضله كما خلف فراغاً كبيراً فى ميدان العلم والبحث فى الأمة العربية كلها .

ونحن إذ نجتمع اليوم للتعبير عما نشعر به من الأسى العميق لخلو مكانه بيننا لا نملك إلا أن نتمثل شخصه وما كان يمتاز به من السماحة والبشر وصفاء القلب ، فأرجو أن تسمحوا لى بأن أعرض قليلاً بعض سيرته كإنسان إذ أنى عرفته منذ أكثر من خمسين عاماً حين كنا فى شبابنا الأول بمدرسة رأس التين الثانوية بالأسكندرية ثم اتصلت صداقتى له حين تزاملنا فى مدرسة المعلمين العليا ثم حين جاهدنا معاً فى ميدان التعليم — تفترق بنا الطرق أحياناً وتجتمع بنا أحياناً أخرى حتى تزاملنا آخر الأمر فى هذا المجمع الجليل . لقد كان فقيدنا منذ شبابه الأول مثالا للوداعة ونبل الخلق فوق ما كان يمتاز به دائماً من الذكاء والجد وحلاوة الروح . فلا ينسى أصفياؤه ما كانوا يطربون له من لمحاته الفكهة الإنسانية المهذبة حين تصدر عنه فى همس هادىء بعيد من التكلف . كان دائماً عاطفاً محباً ، يألف ويؤلف ، مستبشراً بالحياة مقبلا عليها ، يسعده أن يرى السعادة مشرقة على ما حوله ، بل أن يراها مشرقة على الناس جميعاً .

وقد احتفظ بهذا الصفاء النفسى طوال حياته حتى نهايتها . فلست أنسى آخر يوم رأيناه فيه هنا بيننا ، وأثر الأعياء ظاهر على ملامحه وحركته ولكنا كدنا لا نفطن إلى ما لاح لنا على ظاهره إذ كانت سماحته و بشره وهدوؤه تغلب على ما بدا عليه من الأعياء . ولم تكن هذه السماحة وليدة الطبع وحده ، بل كانت كذلك خطة نبعت من طبعه واتخذها فلسفة لحياته : قال عن نفسه فى فقرة من كتاب (علمتنى الحياة) :

« أننى منذ وعيت ومنذ أخذت أنظر فى نفسى وفيما حولى ومنذ حاولت

الوقوف على أسرار الأصول والمصائر وجاهدت لأقيم أفعالى على أساس من المعقولية وأوجهها إلى غايات مفهومة ، أيقنت أن الحياة تستحق أن أحياها وأن نظرتى هذه إليها خليقة بأن تكون دستور سلوكى فى فترة العمر وأن تنظم على أساسها العلاقة بينى و بين الناس » .

ومما قاله فى فقرة أخرى :

« لم أتعلم الدرس من حياتى وحدها ولا من حياة جيلى وحده بل كان معلمى (الإنسانية) كما احتوتها دنيا التاريخ . فجعلتها دنياى ، أعمارها عمرى وأجيالها جيلى وناسها أجمعين معاصرى » والإنسان الأمثل فى نظره هو الفرد الذى يتجاوب مع من حوله أو كما وصفه هو « الإنسان الناشىء فى عشيرة تكفله ببرها وحنانها » .

فأساس فلسفته فى الحياة هو التعاطف والسماحة ورحابة آفاق الفكر والاستبشار بالحياة .

فلم يكن عجباً لمثل هذه النفسية السمحة أن تختار ميدان دراستها النفس البشرية على مر الأجيال وتعاقب العصور ، وهو يقول فى هذا المعنى أنه حين اختار الدراسة بمدرسة المعلمين كان أساس اختياره أنها كانت المعهد الوحيد الذى يصله بالدراسات الإنسانية . وقد كان تاريخ حياته متسقاً مع هذا الدستور الذى اختاره لها فمضى فى دراسته باحثاً منقبا فى أعماق الحياة الإنسانية وقضى حياته الخصبة كلها باحثا منقبا فى أعماق الحياة الإنسانية و بلغ ما بلغ من المراتب فى الوظائف وهو باحث منقب فى أعماق الحياة الإنسانية . فلم ترهبه الأخطار الشديدة التى أحاطت بالعالم فى عام ١٩١٥ حين تخرج فى مدرسة المعلمين العليا ولم يتردد فى الذهاب إلى انجلترا ليواصل دراسته للتاريخ الذى جعله متمما لحياته ، ثم عاد مرة أخرى بعد أن حصل على الدرجة العلمية (الماجستير) فرحل إلى انجلترا ليستكمل دراسته التاريخية . وكان من محاسن الاتفاق أن جمعت الظروف

بينه و بين أستاذه المؤرخ الكبير (أرنولد تو ينبي) فكان التوافق فى الطبع والمشرب بين الطالب وأستاذه سبباً فى توثيق العلاقة بينهما على مدى الحياة فكان من أواخر أمانيه أن يستضيف صديقه الأستاذ حين يزور مصر ولكن الأجل عاجله وهو يستعد لتحقيق تلك الأمنية .

وكان مما ضربه فقيدنا لقومه من المثل الكريمة إخلاصه للعلم واعتبار نفسه دارساً وباحثاً على اختلاف الوظائف التى تنقل فيها ... عاد إلى مصر بعد إنتهاء مدة دراسته بانجلترا فاتصل بالمعهد الذى اختاره فى شبابه الأول وتخرج فيه وهو مدرسة المعلمين العليا ثم اختير بعد ذلك ليكون أستاذاً مساعداً للتاريخ فى كلية الآداب بجامعة القاهرة ثم أستاذاً للتاريخ بها ثم وكيلا للكلية فعميداً ثم عرجت به الظروف إلى وزارة المعارف فكان وكيلا لها غير أن الوظيفة لم تعرج به من ميدانه المفضل فاستمر دارساً للتاريخ باحثاً فيه حتى عاد مرة أخرى إلى وظيفة الأستاذية فى الجامعة فرحب بعودته إلى مكانه الطبيعى حتى عادت الظروف فانتقلت به إلى وظيفة بعد أخرى — مستشاراً لوزارة المعارف فوكيلا لها ثم وكيلا لوزارة الشئون الاجتماعية. ثم مرة أخرى وكيلا لوزارة المعارف وهو فى كل هذه الوظائف مستمر فى اتجاهه وفى منهجه دارساً للتاريخ باحثاً فى أعماق الحياة الإنسانية ، ولما بلغ سن المعاش كما تقضى قوانين الخدمة الحكومية أسندت إليه إدارة معهد الدراسات العربية العالية فعاد إلى عمل الأستاذ مرة أخيرة وعاجلته المنية وهو أشد مايكون إقبالا على دراسته وبحثه فى أعماق الحياة الإنسانية .

فهو صاحب فضل عظيم فى توجيه أجيال متعاقبة من تلاميذه الذين أخلصوا له الحب والاجلال وامتد فضله عن طريقهم إلى أجيال متكاثرة من أبناء هذه الأمة ، وإذا كان من الناس من تحصى تركاتهم بما خلفوه من الأموال فان بعض تركته ماثل فى هذه الثروة الإنسانية التى خلفها وراءه فى صور تلاميذه الأجلاء .

أما فضله على البحث والعلم فإن الكلمات وحدها لا تستطيع أن تعرف به تعريفاً صحيحاً . فليس يكفى فى بيان هـذا الفضل أن أذكر أسماء كتبه ومدوناته ، فهو من بين العلماء الأجـلاء الذين استحقوا الخلود بغير أن يخلفوا وراءهم أعداداً ضخمة من المؤلفات . فكتابه الأول الذى نال به درجة الماجستير كان عند ظهوره حدثاً علمياً استرعى أنظار الأساتذة والدارسين على السواء وكان مثالا طريفاً للبحث التاريخى الرصين القائم على تمحيص الحقائق والدقة فى استخلاص النتائج ، أعنى به كتاب (بداية المسألة المصرية وظهور محمد على).

وكتابه الثانى (المفاوضات البريطانية من الاحتلال إلى معاهدة سنة ١٩٣٦) مثال لطريقة العالم فى التأليف وإن كان لم يظهر منه بعد إلا الجزء الأول . وقد وصف فقيدنا طريقته فى مقدمة هذا الكتاب حين قال :

« أقسم طريقتى فى البحث إلى مراحل يكمل بعضها بعضاً فأراجع ما ينشر من الوثائق ثم أقوم بمقـارنة تفصيلية بين وثائق الحكومة المصرية ووثائق الحكومة البريطانية فأسلم بصحة الوثائق المتطابقة حين تتطابق فإذا كان بينها اختلاف قمت بعملية بحث واستقصاء واسعة النطاق لأصل إلى أصدق الوثائق » .

غير أن حدود كتبه تضيق كثيراً عن حدود نشاطه وإنتاجه فقـد كانت المحاضرات التى يلقيها على طلابه ، والفصول التى كان يكتبها فى مقدمات كتب تلاميذه وأصدقائه ، ومقالاته التى كان يكتبها فى المجـلات أو يذيعها فى برامج الإذاعة — كانت هذه نماذج للبحوث التاريخية الإنسانية ولو جمعت فى صورة مدونات لكانت تراثاً ضخماً من المؤلفات . والأمل معقود بأصدقائه وتلاميـذه الأوفياء أن يعنوا بإبداء مثل هذه التحية لصديقهم الراحل الكريم .

وقد تأملت طويلا فى هذه الظاهرة التى يشترك فيها فقيدنا مع طائفة من العلماء الأجلاء الذين لم يحرصوا على جمع إنتاجهم فى كتب لينشروها بين الناس .

فهؤلاء العلماء لا تعوزهم الثقة فى أنفسهم ولا تعوزهم مقادير الإنتاج الذى يكفى لعشرات من الكتب المدونة ، ولا يفتقرون إلى ثقة الناس فيهم والرغبة فى قراءة مايكتبونه ، فما هو السر الذى يجعلهم يترددون فى أن يخرجوا مالديهم فى مؤلفات منشورة ليعم الانتفاع بها بين جماهير القراء والدارسين ؟ ولم يهدنى تأملى الطويل إلا سر واحد أظنه حال بينهم وبين نشر إنتاجهم ولعلى لا أكون بعيداً عن الحقيقة فى تصورى فالعالم المحقق حين ينظر إلى نتائج بحوثه على أنها نظريات قابلة للامتحان المتواصل والفحص المستمر على ضوء ما قد يستجد من الحقائق يكون أميل إلى أن يغرس بذور بحثه فى عقول إنسانية ويحفزها إلى مواصلة امتحانها وفحصها إخلاصاً منها للحقيقة وحدها . ومن الأدلة على مثل هذا الاتجاه أن فقيدنا ظل عاكفاً على البحث فى مادة الجزء الثانى من كتابه عن المفاوضات البريطانية منذ نحو عشرين عاماً حتى وافاه الأجل وهو ما يزال ينظر فى مادته كأنه عالم يفحص مادته تحت منظاره الفاحص .

وقد كانت طريقته فى البحث إحدى المآثر التى لا يمكننى أن أوفيها حقها من العرض فى مثل هذا المقام . فقد جعل غايته دائماً أن يصل إلى الحقيقة ، فهو يستعرض مادته فى نزاهة الباحث عن الحقيقة ، يرتاد معالم الطريق التى يظنها مؤدية إليها فى هدوء الرائد وسعة أفق الخبير ، ثم يتابع سيره خطوة بعد خطوة وهو دائم اليقظة إلى طريقه وإلى ماحوله ، ولا يدع شيئاً يظنه مساعداً له فى البحث بغير أن يفحصه ويستوعب دلالته . وهو من أجل ذلك يسير سيراً وئيداً ويجمع فى سيره كل مايساعده على بلوغ غايته ، حتى إذا اطمأن إلى أنه قد ارتاد الطريق أو اقترب من ارتيادها عاد فعكف على الحقائق التى جمعها لينظر فى الحقيقة العامة التى تنطوى تحتها . وقد خلف الفقيد الكريم فيما خلفه لنا نموذجاً من هذه الطريقة التى كان يخطط بها لبحوثه ، وكان من حسن الحظ أن معهد الدراسات العربية العليا قام بنشرها فى السنة التى عاجله الأجل فيها . والعنوان الذى اختاره

صاحب الطريقة لها هو (منهاج مفصل لدراسة العوامل التاريخية فى بناء الأمة العربية على ماهى عليه اليوم) وهو عنوان يبين الحدود العامة لمجال البحث .

وقد يبين الفقيد فى هذا المنهاج أسلوبه المعتاد فى تتبع بحثه : فالعوامل التاريخية فى بناء الأمة العربية الحديثة تستلزم فى طريقته أن يحدد العالم العربى أولا وأن يحيط الباحث بماهيته وظروفه فى وقتنا هذا . وقد جعل صاحب الطريقة هذا البحث القسم الأول من منهاجه .

ومتى تم له تحديد هذا العالم العربى وعرفت ماهيته وظروفه كانت الخطوة التالية تحديد عناصر القوى التى كان لها الأثر المباشر فى حال العالم العربى الحاضر ، وقد كانت هذه القوى هى الدولة العثمانية من جانب والدول الأوربية من جانب آخر . فيكان القسم الثانى من المنهاج استعراض للتاريخ العثمانى والتاريخ الأوربى حيث تتصل حوادث ذلك التاريخ بالأمة العربية . وأما القسم الثالث من المنهاج فهو تحليل للظروف التى أدت إلى ضم الأقطار العربية إلى الدولة العثمانية وما أدى إليه هذا الضم ثم تحليل الظروف التى أدت إلى الغزو الأوربى لهذه الأقطار العربية .

والنتيجة الأخيرة للبحث هى بيان ما أدت إليه كل الحقائق مجتمعة من التدافع والتصادم بين الأمة العربية وبين عناصر القوى التى أثرت فيها وإنجلاء هذا التصادم عن نهضة العرب الحديثة منذ أواخر القرن الثامن عشر . فهذا المنهاج المفصل يبين لنا مدى الاحاطة والشمول الذى تتميز به طريقة العالم الجليل فى بحثه .

ومما يجدر بى أن أشير إليه فى هذه المناسبة أنه كان يشارك أستاذه الفاضل المؤرخ (أرنولد توينبى) فى المبدأ الذى سار عليه فى تأليف تاريخه الكبير للحضارات العالمية وهو أنه لا يمكن لباحث تاريخى أن يدرك كنه الحقائق المتصلة بتاريخ أمة من الأمم إذا هو قصر بحثه على تاريخ هذه الأمة واكتفى بتتبع الحوادث التى وقعت فيها وحدها ، فإن حوادث العالم مترابطة فلا تقع حادثة

فى قطر من الأقطار إلا امتدت أمواجها إلى الأقطار الأخرى بدرجات متفاوتة من القوة تبعاً لمدى قربها من مصدر الموجات .

على أن هذه الطريقة النزيهة المحكمة فى البحث لم تحل بين العالم الجليل وبين إبداء رأيه إزاء المواقف الخطيرة الحاسمة فى تاريخ الأمة العربية . واكتفى فى هذا الصدد بإيراد مثال أو اثنين من تلك المواقف : الأول موقف بعض زعماء العرب حين عقدوا مؤتمراً فى باريس فى مدة الحرب العالمية الأولى للتشاور فى مصير العرب بعد تلك الحرب . قال عالمنا الجليل فى ذلك الموقف « وفى رأيى أن التوفيق جانب أولئك العرب مع علمهم بموقف فرنسا من الأمة العربية فى الأقطار المغربية ومع علمهم بمطامعها فى سوريا ومع علمهم بأن من زملائهم فى المؤتمر من هم ضالعون مع فرنسا فى مشروعاتها فى سوريا . وفى رأيى كذلك أن التوفيق جانب حكومة الاتحاد والترقى العثمانية فى موقف الخداع الذى اتخذته من المؤتمر والمؤتمرين . فمأساة الاتحاد بين القادة العرب كانت فى تجنب الفئتين تصفية أمر التوفيق بين المطالب القومية ومطالب الوحدة العثمانية » .

ويعلق على هذا الموقف تعليقاً عاماً بكلمة مختصرة قائلا : « أن الطريق الأسهل ليس دائماً الطريق الموصل وليس دائماً الطريق المستقيم » .

وأنا لا نستطيع بعد أن مضى على هذا الموقف ما يقرب من نصف قرن إلا أن ندرك مقدار ما فى هذا الرأى من الصواب . وقد تعرض فى موقف آخر لتحليل بعض المزاعم المتصلة بالجفاء الذى طرأ على علاقة تركيا الحديثة بالعرب . فان البعض يزعم أن بدء ذلك الجفاء يرجع إلى أن العرب طعنوا الترك من الخلف فى مدة الحرب العالمية الأولى ، وعالمنا الجليل يفند هذا الزعم بمنطق الحوادث نفسها ، فان العرب حاربوا فى صفوف الجيش العثمانى ، ولم يضطرب أمر الأقطار السورية والعراقية على الرغم مما عانى أهلوها من شدة الأحكام وسوء أحوال

التموين وتخصيص الأحسن من كل شيء للأغراض العسكرية ، وأخذ الزعماء أخذاً عنيفاً — وعلى الرغم من وعود الحلفاء وإغرائهم لم يتحرك ضد الدولة العثمانية إلا الشريف حسين ، فلم يقبل الإمام يحيى أن ينتهز الفرصة لينضم إلى أعداء السلطنة على الرغم مما لقى منها ، كما أن آل الرشيد فى نجد أخلصوا للسلطنة وكان عبد العزيز آل سعود على نوع من الحياد . وقد سرت الحكومة البريطانية سروراً كبيراً بحركة الشريف حسين لأنها كانت تستطيع أن تستخدم تلك الحركة فى إثارة عرب الأقطار السورية والعراقية والتهوين من أمر الجهاد الذى أعلنته الحكومة العثمانية الاتحادية .

على هذا الأسلوب النزيه العادل يبدى فقيدنا رأيه بغير تحيز ولا تجاوز لمنطق الحوادث .

وأنه لمن العدل وإحقاق الحق أن نقول أنه انتقل بالبحث التاريخى إلى أسلوب البحث المقرر فى العلوم الموضوعية وهو اتجاه ما يزال إلى اليوم جديداً فى بلادنا العربية إذا لم يكن جديداً فى بلاد العالم كلها .

ولا يفوتنى فى هذا الموقف أن أشيد بناحية أخرى من شخصيته وهى قوة إرادته وتحكمه فى مشاعره على ما نعرف عنه من قوة العواطف وعمقها . فأنا لم نر عليه أو لم نكن نرى عليه شيئاً من التغير فى سماحته و بشره وأنه كان إلى آخر حياته مقبلا على أعماله كأنه أشد ما يكون رضاء عنها مع أننا عرفنا أنه كان يعيش وحيداً فى بيته الذى أظله فى جوه السعيد مع زوج وفية وابن بار . وقد امتحنه الله بفقد ربة بيته كما شاء أن يوفد ابنه فى بعثة لإتمام دراسته فى انجلترة .

فبقى عدة سنوات يعيش منفرداً ويأبى أن ينتقل من داره العزيزة يستعيد ذكريات حياته ويعيش فيها كما نعود أن يعيش مع صور العصور الماضية ويجعلها

دنياه ويجعل أناسها أجمعين من معاصريه . ولم يفقد فى هـذه الحياة التى تبدو موحشة — شيئاً مما عرف عنه طوال حياته من الهدوء والسلام والإنسانية .

هذه لمحة يسيرة من ذكرى الزميل الكريم الذى فقدناه وفقـدته الأمة العربية ، أترحم بها عليه نائباً عن زملائى أعضاء هذا المجمع وأسأل الله تعالى له جزيل الثواب على ما قدمه من خدمات للعلم ولأجيال متعاقبة من تلاميـذه ولجمهور أبناء هذه الأمة من المثقفين بعلمه كما أسأله تعالى جميل العزاء لأسرته الكريمة وأصدقائه الأوفياء .

ملخص كلمة الأستاذ « أرنلد توينبي »(1)

سادتي :

يقول الأستاذ توينبي : أنه مدين لمجمع اللغة العربية بدعوته لحضور للاشتراك في تأبين المرحوم الأستاذ محمد شفيق غربال ، وهو يتذكر عندما كان — في سنة ١٩٢٠ — أستاذاً ناشئاً ، أنه كان عليه أن يشرف على بعض البحوث في الدراسات العليا ، وأنه حضر له حينئذ طالبان من مصر أحدهما المرحوم محمد قاسم والآخر المرحوم محمد شفيق غربال .

وقد عرف منذ لقائهما الأول أنهما يتميزان بميزات هامة لدارسي الدراسات العليا . وهو يقول : إن الطلاب الموهوبين لايتعلمون من أستاذهم ، فهو لايتذكر أنه علم شفيق غربال شيئاً ، بل أنه يتذكر أنه تعلم من شفيق غربال شيئاً كثيراً . ذلك أنه في الدراسات العليا يشترك كل من الأستاذ والطالب في تعليم كل منهما الآخر .

ويقول لقد كانت العلاقة بينه و بين هذين الأستاذين الفقيدين علاقة ودية مخلصة دامت مدة حياتهما على الرغم من أنهم لم يتقابلوا إلا في النادر ولكن الاتصال كان دائماً بينهم .

ولقد كان الأستاذ « توينبي » منذ اللقاء الأول المرحوم شفيق غربال يتنبأ له بمستقبله في أنه سيكون أستاذاً وباحثاً ، وأهم من هذا أنه كان يتنبأ له بمسلكه

---

(١) كتب هذا التلخيص الدكتور ، هدى علام أما نص الكلمة الانجليزية فيوجد في نهاية العدد .

الأخلاق الذى تميز به أنه كان موضوعى التفكير مستقلاً فى الرأى ذا حزم وعزم فيما يتصل بالعمل الذى يتناوله .

ولقد كان من الصعب أن يجمع المرء القدرة على العلم والإدارة ، ولكنه وجد أن هذه القدرة قد تحققت فى المرحوم « شفيق غربال » ، إذ تولى مناصب الإدارة فنجح فيها ، كما تولى منصب العالم فبرز فيها .

وأخيراً يقول : أنه فى هذه الزيارة السعيدة ، التى هى أول زيارة له لمصر ، يشعر بحزن وبأسى عميقين ، إذ يشارك فى تأبين تلميذه وصديقه المرحوم «شفيق غربال » ، فقبل وفاة المرحوم « شفيق غربال » بثلاثة أيام ، وصل الأستاذ توينبى خطاب منه بدعوة فيه عندما يزور مصر أن ينزل ضيفاً كريماً عليه ، ولم تحقق الأقدار ذلك . وهو يترحم عليه ويشكر المجمع على دعوته .

البحوث



الدكتور محمد صقر خفاجه
١٩١٩ – ١٩٦٤

تنعى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية إلى أعضائها العالم الشاب المغفور له الدكتور محمد صقر خفاجة عميد كلية الآداب وعضو مجلس إدارة الجمعية .

١ — ولد الفقيد فى نوفمبر سنة ١٩١٩ بشلقان الجديدة مركز قليوب .

٢ — تخرج فى كلية الآداب جامعة القاهرة وحصل على دكتوراه الدولة من السربون ١٩٥١

٣ — أختير وكيلا للكلية فى نوفمبر ١٩٦١ ثم عميداً لها نوفمبر ١٩٦٣ .

٤ — ألف عدة كتب فى الأدب اليونانى القـديم والنقد الأدبى وقواعد اللغة اللاتينية وقام بعدة ترجمات لكتب فى الحضارة اليونانية الرومانية وروج للثقافة اليونانية فى المجالات العلمية والجمعيات العامة والإذاعة والتلفزيون .



الدكتور محمد فؤاد شكرى

١٩٠٤ ـ ١٩٦٣

تنعى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية إلى أعضائها زميلا عالما هو المغفور له الدكتور محمد فؤاد شكرى استاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة القاهرة .

١ ـ ولد بمدينة حلوان ١٩٠٤ من أسرة قاهرية الموطن حلبية الأصل .
٢ ـ تخرج فى مدرسة المعلمين العليا عام ١٩٢٩ .
٣ ـ حصل على الدكتوراه من جامعة ليفربول وموضوعها (الرق فى السودان فى عصر اسماعيل)
٤ ـ الف خمسة عشر كتابا منها خمسة فى تاريخ مصر ، وخمسة فى تاريخ السودان ، وثلاثة فى تاريخ اوربا واثنان فى تاريخ ليبيا .

البحوث

ولاية قرة بن شريك على مصر

فى ضوء أوراق البردى

فى مستهل القرن الحالى وقع حادث عرضى فى مصر ، ترك أعظم الآثار فى تطور الدراسات الخاصة بالتاريخ الإسلامى ، كما فتح أفاقا فسيحة مشرقة أمام الباحثين فى تلك الدراسات والعاملين فى حقولها . ففى سنة ١٩٠١ م كان بعض العمال يحفرون أساس منزل فى قرية كوم اشقاو الحالية ، وتقع بين أبى تيج وطهطا ، وفجأة ظهرت أمامهم فجوة فى الأرض مليئة بأكداس من لفائف البردى ، ومغطاة بقطعة من الحصير .

وسرعان ما انتشر خبر هذا الكنز من أوراق البردى بين أبناء قرية كوم اشقاو ، ووصل إلى مسامع كبار أهلها ، ومن بينهم أخى العمدة ، الذى كان على شىء من الثقافة والدراية أيضاً بقيمة هذا النوع من ورق البردى . إذ سبق لنفر من الفلاحين فى الجهات المجاورة للقرية أن عثروا فى أكوام السباخ ، التى قطعوها بفؤوسهم ونقلوها إلى حقولهم ، على شذرات من أوراق البردى ، دون أن يحفلوا بأهميتها[1] . ولكن تجار العاديات فى الصعيد أظهروا اهتماماً بتلك الأوراق ،

---

(١) عثر بعض الفلاحين سنة ١٨٢٤ على جرة صغيرة مختومة بها ورقتان من أوراق البردى العربية فى مكان بالقرب من أهرام سقارة ، وقام بنشرها المستشرق سلفستر دى ساسى فى مجلة Journal des Savants الصادرة بباريس سنة ١٨٢٥ م . وبعد ذلك تنبه الناس إلى أمر أوراق البردى . وبعد مضى خمسين سنة تم بالفيوم اكتشاف كمية كبيرة من أوراق البردى . ثم تلا ذلك أيضاً اكتشاف أوراق بردى وجدها المنقبون فى أكوام السباخ بين تلال أهناس وأخميم والأشمونين والبهنسا .

(أنظر أدولف جروهمان ، المحاضرة الأولى عن الأوراق البردية العربية (القاهرة ١٩٣٠) ص ٣ ، ٤ .

وعمدوا إلى الحصول عليها ، مما جعل الفلاحين ينظرون إلى ما يقع فى أيديهم من أوراق البردى بعين الجد والحرص . ولذا ما كاد ينتشر خبر كشف أوراق البردى فى كوم اشقاو ، حتى أسرع أخو العمدة إلى مكان هـذا الـكنز ، وأخذ منه نصيب الأسد ، على حين بادر أهل القرية جميعاً ، كباراً وصغاراً إلى اقتسام البقية الباقية من تلك الأوراق فيما بينهم[١] .

وعند ما سمع تجار العاديات والآثار فى طما والأقصر وأخميم وأسيوط بما حدث فى كوم اشقاو ، جاءوا إلى تلك القرية للاطلاع على محتويات هـذا الـكنز ، وشراء ما يروق لهم منه . وعرض أولئك التجار ثمناً بخساً فى أول الأمر ، لم يلبث أن ارتفع حتى بلغت قيمة ما دفع فى اللفافة الواحدة سبعة جنيهات . ولـكن أحد التجار فشل فى الحصول على نصيب من تلك الأوراق ، واشتد به الألم ، حتى أنه بادر إلى إخبار مفتش الآثار فى البلينا بما حدث فى كوم اشقاو . ونقل مفتش الآثار هذا النبأ بدوره إلى مأمور طما ، الذى أعد حملة تفتيشية ، انطلقت إلى كوم اشقاو لتحقق فى الموضوع . غير أن هـذا الحادث أدى إلى نتائج غير متوقعة ، إذ أمعن نفر من الفلاحين فى إخفاء ما لديهم من أوراق البردى ، على حين عمد فريق آخر إلى التخلص مما فى حوزتهم من البردى باشعال النار فيه ، ليتجنبوا مسئولية التحقيق والتردد على دار الشرطة . وأخيراً اكتفى رجال الشرطة بوضع حراسة على مكان اكتشاف أوراق البردى[٢] .

وبعد بضعة أسابيع من اكتشاف كنز كوم اشقاو ظهرت لدى أحد تجار الآثار والعاديات فى القاهرة مجموعة كبيرة مما احتواه هذا الـكنز من أوراق البردى ثم لم تلبث أن تسربت بدورها إلى أوربا حيث استقر القسم الأكبر منها فى مكتبة المتحف البريطانى ، وتقاسم البقية الباقية متحف برلين وموسكو وهيدلبرج ،

---

(١) Grohmann. A., From the World of Arabic Papyri (Cairo 1952), 216.

(٢) Grohmann, op cit, 217.

كما نالت دار الكتب المصرية شطراً من تلك الأوراق[1] . وفى العام التالى لهذا الكشف الهام بدأ العلماء فى أوربا ينشرون ما وقع فى أيديهم من هذا الكنز العلمى الثمين . ومن أشهر هؤلاء العلماء الأستاذ بيكر الذى نشر بعض أوراق البردى فى المجلات الألمانية ، والأستاذ بل الذى نشر المجموعة الموجودة فى المتحف البريطانى ، والأستاذ جروهمان الذى عكف على نشر أوراق البردى فى دار الكتب المصرية . ولم تكن مهمة أولئك العلماء سهلة ميسورة ، وإنما كانت صعبة وشاقة ذلك أن كثيراً من تلك الأوراق قد امتدت إليها يد البلى والتلف ، مما أضاع جوهر محتوياتها ، على حين أن القسم الداخلى من لفائف البردى متحجراً ، وتطلب فحصه عناية عظمى ، ودقة فائقة[2] .

وأدى نشر أوراق البردى الخاصة بكوم اشقاو إلى كشف معلومات هامة تتعلق بتاريخ مصر فى القرن الأول الهجرى — السابع الميلادى . إذ كانت كل هذه الأوراق ترجع إلى عهد الوالى الأموى على مصر ، قرة بن شريك ، الذى عينه الخليفة الوليد بن عبد الملك على تلك البلاد سنة ٩٠ هـ / ٧٠٩ م . وانقسمت تلك الأوراق قسمين ، الأول اشتمل على الخطابات أو المراسلات الرسمية التى دارت بين قرة بن شريك وحاكم كوم اشقاو إذ ذاك ، وكان يدعى «بسيل» من جهة وبين أهالى القرى التابعة لكوم اشقاو من جهة أخرى . أما القسم الثانى ، فهو عبارة عن قوائم للخراج وسجلات تحوى أسماء نفر من أهل القرى وبيان

---

(١) I bid , 217, 218,

(٢) لم تكن أوراق البردى التى تم اكتشافها سليمة خالية من العيوب ولذلك يكن نشرها سهلا ميسوراً . فالأجزاء النفيسة وجدت — كما قال الأستاذ جروهمان — « متلاصقة متماسكة إلى حد يقرب من تحجرها أو مطموسة بالتراب ، أوملقاة فى ناحية أو هذا غير ما يصل إلينا ممزقاً كله أو بعضه من فعل رطوبة الأرض أو من فعل النيران ... والأدهى من ذلك حين يدفع الطمع التجار الذين اعتادوا شراء البردى أو أولئك الذين يجدون بعض أوراق بردية ، فيعمدون إلى فصل شذرات مختلفة إما تعمداً أو بدون علم وقصد سيىء » .

أنظر جروهمان ، المرجع السالف ، ص ٤ و ٥ .

بأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية . ثم اتضح من دراسة هذه الأوراق أيضاً أن بعضها كان مدوناً باللغتين اليونانية والقبطية ، والبعض الآخر مدون باللغة العربية .

ومن دراسة أوراق البردى السالفة الذكر ظهرت عدة نتائج هامة ، أولها أن صناعة ورق البردى فى مصر ظلت رائجة ومتقدمة فى القرن الأول الهجرى ، أى بعد دخول البلاد فى نطاق العروبة والإسلام . فاستمرت المصانع المصرية تؤدى رسالتها فى هـذا الميدان الهام ، على نحو ما قامت به منذ أيام الدولة القـديمة ، وزودت شتى جيرانها ، ولا سيما بلدان البحر المتوسط بهذا العنصر الهام من عناصر الـكتابة و بناء الحضارة الإنسانية كذلك[1] .

أما النتيجة الثانيـة فهى أن أوراق البردى التى اكتشفت فى كوم اشقاو صححت كثيراً من المعلومات التى وردت فى كتابات المؤرخين المسلمين عن الإدارة العربية وعمالها فى مصر وغيرها من البلاد على عهد الدولة الأموية . ومن ذلك أن المراجع التاريخيـة صورت «قرة بن شريك» والى مصر على أنه مثال للقسوة والجور وسوء الإدارة . فترك المؤرخ ابن الأثير مثلا : إن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ذكر عنـده ظلم الحجاج وغيره من ولاة الأمصار أيام الوليد ابن عبد الملك فقال : « الحجاج بالعراق ، والوليد بالشام ، وقرة بن شريك بمصر ! ،

---

(١) اشتهرت مصر بنبات البردى، منذ أقدم العصور ، حيث كان يلعب فى الحياة الاقتصادية فى مصر القديمة نفس الدور الذى يلعبه القطن فى مصر الحديثة. وانتشر هذا النبات فى مستنقعات الدلتا ، حيث غطى مسـاحات واسعة منها ، منذ عهـد المملكة المصرية الوسطى ، ولم يختف لا فى القرن العاشر الميلادى ، حيث كف الناس عن زراعتـه . وكانت طريقة صناعة ورق البردى فى العهد العربى هى نفس الطريقة التى اتبعها المصريون القدماء ، وذلك باستخراج لب البردى « فيشقونها نصفين من أولها إلى آخرها ، ويقطعونها قطعـاً قطعاً ، توضح كل قطعة منها إلى لصق صاحبتها على لوح من خشب ، أملس ، ويأخذون ثمر البشنين ويلزجونه بالماء ، ويضعون تلك اللزوجة على كل قطعة ، ويتركونها حتى تجف جداً ، ويضربونها ضرباً لطيفاً قطعة خشب تشبه الأرزبة صغيرة حتى يستوى من الخشن ، فتصير فى قوام الكاغد » .

انظر جروهمان ، نفس المرجع : ص ١١ ، حاشية (٢) .

وعثمان بالمدينة ، وخالد بمكة ! ، اللهم قد امتلأت الدنيا ظلماً وجوراً ، فأرح الناس[1] » . وقال المؤرخ أبو المحاسن : « كان قرة بن شريك من أمراء بنى أمية ، وولاه الوليد مصر ، وكان سيء التدبير ، خبيثاً ، ظالماً ، غشوماً » ثم أمعن هذا المؤرخ فى إلصاق التهم بالوالى قرة بن شريك ، فنسب إليه الفسوق ، وخاصة عندما كان العمال يشتغلون بتوسيع مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط ، فقال : « وكان الصناع إذا انصرفوا من بناء الجامع دعا [قرة] بالخمور والزمور والطبول ، فيشرب الخمر فى المسجد طول الليل ، ويقول لنا الليل ، ولهم النهار »[2] .

غير أن أوراق البردى التى كشفت فى كوم اشقاو تهدم هذه الاتهامات السالفة الذكر ، وتوضح أن قرة بن شريك لم يكن ظالما ، بل عادلا ، وليس سيء التدبير ، وإنما هو مثال للحاكم القدير ، الحريص على سير الإدارة سيراً حسناً وسليما . فتبين أوراق البردى عطف قرة على أفراد الشعب صغيراً كان أم كبيراً ، وإشرافه الدقيق على سلوك كبار الموظفين ، ومعاقبة المسيء منهم بأشد ألوان العقاب .

ويبدو أن اشتداد قرة فى إدارته ، وهو الأمر الذى أثار حوله الاتهامات التى رددتها المراجع التاريخية ، يرجع إلى تقلده أعنة الأمور فى مصر ، بعد أن اشتد فيها الفساد على عهد سلفه ، الوالى عبد الله بن عبد الملك أخو الخليفة الوليد نفسه . فاشتهر الوالى عبد الله بسوء الإدارة ، وشاعت حوله الاتهامات ، وأنه يرتشى ، وينهب الأموال العامة فى مصر ، حيث يجمع الخراج أكثر من مرة ، ويغالط أصحاب الحقوق عند دفعهم للضرائب . وزاد الحالة سوءاً انخفاض النيل على عهد هذا الوالى سنة ٨٧ هـ / ٧٠٦م ، مما ترتب عليه غلاء الأسعار ، وتلاعب التجار

---

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ .

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ (ليدن ١٨٥١) ص ٢٤٢ .

بأقوات الناس(١). ولما كانت الخلافة تضع مصر فى المكانة الأولى من اهتمامها ، فقد استدعى الخليفة الوليد أخاه عبد الله إلى دمشق سنة ٨٨هـ / ٧٠٧م وأبقاه عنده مدة من الزمن ، يدرس معه أحوال البلاد ، ثم رده إلى ولايته بعد أن رسم له أمثل السبل لإصلاح ما فسد من الأمور .

ولكن الوالى عبد الله بن عبد الملك عاد إلى سيرته الأولى حين دخل مصر ثانية ، حتى ضج الناس ، وكثر فرار أهل القرى من أراضيهم ، والتخلى عن مزارعهم وحقولهم فراراً من الضرائب وازدياد الأعباء المالية التى وقعت على كاهلهم . ولذا لم يكن أمام الخليفة الوليد غير عزل أخيه عبد الله عن مصر(٢) ، وإسناد ولايتها إلى شخص قدير على رأب الصدع ، والمحافظة على سلامة هذه البلاد ، التى تعتبر عصب الدولة الأموية والعمود الفقرى لنشاطها . واختار الخليفة قرة بن شريك الذى دخل مصر(٣) سنة ٩٠ هـ / ٧٠٩م » واستهل فيها نشاطه العظيم ، الذى سجلته أوراق البردى .

---

(١) الكندى ، ولاة مصر وقضاتها (طبعة روثن كست — ١٩٠٨) ، ص ٥٨ ، ٥٩ .
وقال فى ذلك : وفى ولايته ، غلت الأسعار بمصر ، فتشاءم به المصريون ، وهى أول شدة رأوها ، وزعموا أنه ارتشى ، وكثروا عليه وسموه مكيسا .

(٢) أبو المحاسن ، نفس المرجع ، ص ٢٣٣ .

(٣) وصف الكندى وصول قرة بن شريك إلى مصر قائلا :
« فأقبل قرة بن شريك على أربع من دواب البريد .... فنزل بباب المسجد ، ونزل صاحباه ، فدخل فصلى عند القبلة ، وتحول ، فجلس صاحباه عن يمينه ويساره ، فأتاهم حرس المسجد وكان له شرط يذبون عنه ، فقالوا : إن هذا مجلس الوالى ، ولكم فى المسجد سعة . قال : وأين الوالى ؟ ، قالوا : فى متنزه . قال فادع خليفته . فانطلق شرطى منهم إلى عبد الأعلى [خليفة الوالى] فأعلمه . فقال أصحابه : أرسل إليه يأتيك صاغراً . قال : ما بعث إلى إلا وله على سلطان ، اسرجوا ، فركب حتى أتاه ، فسلم ، قال : أنت خليفة الوالى ؟ ، قال : نعم . قال : انطلق فاطبع الدواوين وبيت المال ...
وكتب إلى عبد الملك يعلمه (أى بوجود قرة) ؛ فأتاه الخبر وقد أهديت له جارية ، فبكى ، ولبس خفه قبل سراويله دهشاً » .
أنظر الكندى ، ولاة مصر وقضاتها ص ٦٢ ، ٦٣ .

وهنا تبدأ المراسلات التى دارت بين قرة بن شريك و بين بسيل صاحب كوم اشقاو وغيره من العمال ، تشرح اهتمام الوالى بأن يسير رجال إدارته سيراً عادلا وأميناً ، فجاء فى إحدى البرديات رسالة بعث بها قرة إلى عامل له ، يحضه فيها على الأمانة ، فقال : « إنى قد بعثتك حين بعثتك على عملك ، وأنا أرجو أن تكون عندك أمانة . . . وتنفيـذاً للعمل ، فكن عند أحسن ظنى بك ، فأنى والله ، لأن تكون محسناً مجملاً أميناً موقراً ، وأحب إلى وأعجب عندى من أن تكون على غير ذلك . لا تعيبن نفسك ، ولا تسيئن عملك ، واستعن بالله ، فإنه من ينفذ الإصـلاح و يرى الأمانة ، يعنـه الله و يصلح له عمله . ثم أقدم على بكل كتاب ترى أنى سائل عنـه من عمل أرضك ، والسلام على من اتبع الهدى »(١) .

وتفيض أوراق البردى بعد ذلك فى بيان حرص قرة على أن تأخذ العدالة مجراها ، وأنه فتح بابه لـكل صاحب مظلمة ، وأنه كتب إلى عماله بألا يحولوا بينه و بين أى شخص يريد أن يشتكى إليه أمراً من الأمور ، مهما كان صغيراً . ومن ذلك ما تشير إليه البردية التالية ، والتى بعث بها قرة إلى بسيل ليعيد حقاً ضائعاً لصاحبه ، وجاء فيها ما نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

من قرة بن شريك إلى بسيل صاحب اشقوه ، فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو ؛ أما بعد : فإن مرقس بن جريج أخبرنى أنه كان يسأل نبطياً من أهل كورتك ثلاثة وعشرين ديناراً وثلث دينار ، فيزعم أن النبطى مات ، وأنه أخذ ماله نبطى من أهل قريته وغلبه على حقه ، فإذا جاءك كتابى هذا فإن أقام البينة على ما أخبرنى ، فانظر من أخذماله ، فعليه دينه ، ولا يظلمن عبدك ، إلا أن يكون

---

(١) Bell, Translation of the Greek Aphrodito Papyri (Der Islam) II, 282; سيدة كاشف (دكتورة) ، مصر فى فجر الإسلام (١٩٤٧).

شأنه غير ذلك ، فتكتب إلى به ، ولا تكتب إلا بحق ، والسلام على من اتبع الهدى[١] » .

وكذلك عمد قرة إلى معالجة مسائل التموين التى اضطرب شأنها نتيجة ماحدث فى عهد سلفه من انخفاض للنيل وتلاعب التجار بأرزاق الناس . فتشير أوراق البردى إلى عنايته بإعداد شحنات الغلال فى وقت مبكر ، وإلغاء الضرائب التى يدفعها تجار الغلال أيضاً حتى يشجعهم على أداء مهماتهم فى رضى وقناعة . فجاء فى إحدى البرديات التى بعث بها قرة إلى بسيل يطلب منه سرعة إرسال التجار بالغلال إلى الفسطاط ، قائلا له : « فإنى قد وضعت عنهم مكسه ، فليبايعوه بالفسطاط ، وعجل ذلك ، فإنى قد خفت غلاء الطعام بالفسطاط . وإنى إذا وصفت للتجار مكسهم أصابوا ربحاً . وإنما الحصاد إن شاء الله فى أربعين ليلة أو قريب من ذلك . فعجل ما كنت باعثاً به من ذلك ، واكتب إلى كيف فعلت فى ذلك ، وما بأرضك من التجار الذين يبيعون الطعام ، والسلام على من اتبع الهدى[٢] .

وإلى جانب تدبير المؤن فى البلاد . أظهر قرة منتهى الحزم فى إقرار الأوضاع فى القرى[٣] ، وإعادة أهلها الذين هجروها على عهد سلفه . فأنشأ قرة هيئة خاصة

---

(١) Grohmann, op cit, III, 30, 31

(٢) Ibid, , 8, 9

(٣) ويوضح ذلك نص البردية التالية :

بسم الله الرحمن الرحيم

من قرة بن شريك الى بسيل صاحب أشقوة ، فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فإن هشام بن عمر كتب إلى يذكر جالية (أى هاربين) له بأرضك ، وقد تقدمت إلى العمال ، وكتبت إليهم ألا يؤد جاليا ، فإذا جاءك كتابى هذا فادفع إليه ما كان له بأرضك من جالية ، ولا أعرفن ما رددت رسله أو كتب إلى يشتكيك ، والسلم على من اتبع الهدى » .

أنظر : Grohmann, op cit, 23, 24

لوقف حركة الهجرة من القرى[1] ، ولتعيد كل شخص إلى موضعه ، كما دأب على إرسال مندوبين من قبله إلى مختلف الجهات للتفتيش عن الهاربين ، ويطلب من عماله على المدن والقرى تقديم كل مساعدة ممكنة لهم ، ويحثهم على مراقبة أولئك المندوبين ، حتى لا يقبل فرد منهم أية رشوة ، ثم يهدد بإيقاع أشد ألوان العذاب لكل من تثبت عليه تلك التهمة الشنيعة[2] .

وإذا انتقلنا من تصوير أوراق البردى لشخصية قرة بن شريك وسياسته الحازمة فى مصر ، نرى أن تلك الأوراق تصورلنا خطوة هامة ، تمت على عهد هذا الوالى ، وهى استقرار الإدارة العربية فى مصر فى القرن الأول الهجرى ، وماصاحب ذلك من تعريب للدواوين وتنظيم لشئونها . فيتضح من أوراق البردى أن العرب اكتفوا فى مصر بشغل المناصب الرئيسية ، حيث جمع الوالى فى يده سلطات واسعة وأن البلاد قسمت إلى أقسام تعرف باسم « الكور » ، وهى تشبه الأقسام التى عرفها البيزنطيون فى مصر باسم « البجارشى » (Pagarchie) ، وأطلق على حاكم كل قسم فى الإدارة العربية اسم « صاحب الكورة » ، وهى تسمية مرادفة للكلمة البيزنطية بجاركوس[3] . وكانت كوم اشقاو مقراً لحاكم الكورة التى نسبت إليها ، والتى دونتها أوراق البردى باسم « اشقوه » . فكان قرة يراسل باسيل « صاحب اشقوه » ، وهى تسمية عربية حلت محل اسم المقاطعة المعروفة باسم « افروديتى » فى ظل الإدارة البيزنطيـة لمصر . وترك العرب حكام « الكور » من رجال الإدارة القديمة ، مع وضعهم تحت الرقابة الشديدة ، على حين شجعوا رجال الإدارة من الأقباط على تعلم اللغة العربية ، وأتاحوا لهم كافة أسباب الطمأنينة وفرص التقدم .

---

(١) سيدة كاشف ، نفس المرجع ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٢) Bell, op cit II, 270, 274, 245;

سيدة كاشف ، نفس المرجع ص ٢٢٨ .

(٣) سيدة كاشف ، نفس المرجع ، ص ٢٨ ، ٢٩ — شعيرة (دكتور) ، اختصاصات صاحب الكورة فى القرن الأول الهجرى حسب مجموعة أفرودتو البردية (مجلة كلية الآداب — جامعة اسكندرية — مايو ١٩٤٣) باللغة الفرنسية .

وارتبط بهذا التنظيم الإدارى جانب هام ، كشفت عنه أوراق البردى وهو تعريب الدواوين . والمقصود بذلك ديوان الخراج ، وهو الخاص بالمالية العامة . إذ كانت اللغة المتبعة فى هذا الديوان قبل الفتح العربى هى اليونانية والقبطية ، وظل الحال على ذلك حتى عهد الوالى عبد الله بن عبد الملك ، حيث أمره الخليفة بنقل هذا الديوان إلى العربية(١) . وتوضح لنا أوراق البردى الخطوات التى سار عليها رجال الإدارة فى تنفيذ هذا العمل الهام . إذ أمر قرة بن شريك بأن تكون لغة الديوان المركزى فى الفسطاط هى العربية ، وكذلك المراسلات التى تخرج من هذا الديوان إلى أصحاب الكور وعمالها . وجرت العادة فى هذه المرحلة المبكرة من تعريب الدواوين على أن توضع مع المكاتبات العربية ترجمة لها باليونانية أو القبطية ، حتى تسهل المهمة على العمال الذين لم يجيدوا العربية بعد .

وتزود أوراق البردى الباحثين فى تطور اللغة العربية فى مصر بمادة قيمة ، من حيث طريقة الكتابة ، وكذلك دخول ألفاظ غريبة إلى ميدان تلك اللغة . فاشتملت أوراق البردى العربية على كلمات أجنبية مثل « جسطال » ، وهى محرفة عن اليونانية ، ومعناها الموظف المشرف على مالية الكورة ، وكذلك كلمة « موازيت » ومعناها رؤساء أو مشايخ القرى(٢) . إذ تؤكد هذه الظاهرة اتساع اللغة العربية لقبول مفردات جديدة ، كما توضح صلاحيتها للتطور ومواجهة مطالب الحياة على مر الزمن .

---

(١) الكندى ، ولاة مصر وقضاتها ، ص ٥٨ .

(٢) جاء فى إحدى مراسلات قرة إلى صاحب اشقوة :

« فإذا جاءك كتابى هذا ، فلا أعرفن ما استوفيت من الجزية بعد الذى ترسل ، مما قد جمعت من الجزية ديناراً ولا نصفاً ولا ثلثاً ، إلا ما كان على وزن بيت المال ، ونفذت فى ذلك إلى جسطال كورتك وإلى موازيت القرى » .

أنظر Grohmann, op cit 17 ;

سيدة كاشف ، نفس المرجع ، ص ٢٩ .

وتشرح أوراق البردى نظام جباية الخراج فى مصر ، وعدالة الإدارة العربية فى تقدير المطلوب من البلاد . ذلك أن العرب وان احتفظوا ببعض عمال الإدارة البيزنطيـة فى مصر ، إلا أنهم تجنبوا المظالم والمساوىء التى اتبعها أولئك العمال فى تقدير الضرائب وجمعها . فأكدت أوراق البردى الحقائق التى أشارت إليها المراجع العربية فى اعتماد الإدارة الجـديدة على أهالى القرى والبلاد فى تنظيم الأموال العامة التى يقدمونها للدولة ، مع مراعاة المصالح الفردية والعامة أيضاً(١). فنرى قرة بن شريك يرسل تعليمات إلى صاحب كورة اشقوه ، يطلب منه أن يجمع رؤساء كل قرية وكبار رجالها ، ليختاروا من بينهم نفراً من المشهود لهم بالذكاء والأمانة ، ليتولوا تقدير الضرائب عن قريتهم . وكان يعد سجل خاص عما يتم عليه اتفاق هذا النفر من علية القوم ، ثم ترسل صورة منه إلى الديوان المركزى بالفسطاط لمراجعتها ، ووضع التقدير النهائى على أساسها . وكان قرة ينذر كل فرد من المشتركين فى هذه العملية بأشد العقاب إذا أهمل أو تسبب فى إلحاق أذى بالناس عند تقدير الضرائب . وتطلب هذا الأمر ذكر محل إقامة كل من اشترك فى تقدير الضرائب ، فى نفس السجل الذى يتم إعداده ، حتى يمـكن الرجوع إليه إذا ما اقتضى الأمر ذلك(٢) .

وأظهرت أوراق البردى أن الخراج فى مصر كان يدفع عينـاً ونقداً ، وأن الجزية كانت تدفع نقداً ، مع مراعاة ثروة كل شخص ، حتى لا يضار أحد ، أو يدفع شيئاً أكثر من طاقته . وكانت هذه الجزية تدفع بالدنانير وكسور الدينار

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر (تحقيق عبد المنعم عامر) ، ص ٢٠٦ .
« وكان عمرو بن العـاص لما استوسق له الأمر [بمصر] أقر قبطها على جباية الروم ، وكانت جبايتهم بالتعديل ، اذاعمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم ، وإن قل أهلها وخربت نقصوا ، فيجتمع عرفاء كل قرية ومدوتها ورؤساء أهلها ، فيتناظرون فى العمارة والخراب ، حتى إذا أقروا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة إلى الكور ، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى ، فوزعوا ذلك على احتمال القرى ، وسعة المزارع » .

(٢) Bell, op cit, 282 — سيدة كاشف ، نفس المرجع ، ص ٦٠ .

فدأب قرة على إرسال الأوامر إلى صاحب اشقوة يطلب منه إرسال كشوف بالنواحى التابعة له لمعرفة عـدد الرجال بها ، الواجب عليهم الجزية ، مع بيان ثرواتهم ومصادر دخلهم(١) .

وأوضحت أوراق البردى أيضاً تنظيم قرة بن شريك لديوان الجند ، واهتمامه بأرزاق الجند كذلك . والمعروف أن هذا الوالى يعتبر المنظم(٢) الثالث لهذا الديوان بعد عمرو بن العاص ، وعبد العزيز بن مروان . وكان عطاء الجنـد يتطلب جمع « ضريبة الطعام » ، والتى اشتملت على القمح والزيت والعسل ، وأنواعاً أخرى من الأطعمة . وحرص قرة على جمع هذه الضريبة حتى يطمئن الجند لأرزاقهم ، ويستطيعون بالتـالى القيام بواجباتهم على خير وجـه . وتوضح البردية التالية الحقيقة السالفة الذكر ، إذ جاء فيها .

« بسم الله الرحمن الرحيم

من قرة بن شريك إلى بسيل صاحب اشقوه . فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإنك قد علمت الذى كتبت إليك به من جمع المال ، والذى قد حضر من عطاء الجنـد وعيالهم وغزو الناس ، فإذا جاءك كتابى هذا ، فخذ فى جمع المال ، فإن أهل الأرض قد حموا منذ أشهر ، ثم عجل إلى بما اجتمع عندك من المال بالأول فالأول .... فإنه لو قد قدم إلى المال قد أمرت للجند بعطائهم إن شاء الله فلا تـكونن آخر العمال بعثاً بما قبله ، ولا ألومنك فى ذلك ، والسلام على من اتبع الهدى(٣) » .

---

(١) Grohmann, op cit, 48, 49
سيدة كاشف ، نفس المرجع ، ص ٣٨ ، ٣٩ .
(٢) الكندى ، نفس المرجع ، ص ٦٣ ، ٦٤ .
(٣) Grohmann, op cit, 12,13

واقتضى تنظيم ديوان الجند مراجعة السجلات المدون فيها الأسماء بالنواحى المحلية ، حتى تستطيع الإدارة المركزية بالفسطاط منح الحقوق لأصحابها ، دون أن تضار المالية العامة . ويدل على ذلك البردية التالية ، إذ جاء فيها ما نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من قرة بن شريك إلى بسيل صاحب اشقوة .

فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فإن أناساً من الجند ذكروا لى كتبة من قريتهم كانت تجرى عليهم منذ أربعين سنة ، ولم نجد شيء من الكتب ، فلا أدرى ما صدق ذلك من كذبه ، فإذا جاءك كتابى هذا ، فلا تقدمن قرية من كورتك إلا سألت أهلها عما فى قريتهم من تلك الكتبة ، ولمن هى ، فإذا عامت ما فى كل قرية منها ، فأرفع إلى كتاب ما وجد من ذلك فى كل قرية وتكتبن لكل رجل كتاباً بما سأله منى[1] » .

وكشفت أوراق البردى عن جانب هام فى الإدارة العربية أيضاً ، وهو وجود « ديوان البريد » فى مصر ، منذ القرن الأول الهجرى ، وأنه كان يؤدى نفس الأغراض التى نهض بها هذا الديوان فى أزهى عصوره . والمعروف أن « ديوان البريد » لم يكن ينقل المراسلات العامة للناس على نحو ماهو متبع اليوم ، وإنما كان هيئة حكومية ، تشرف على المراسلات الرسمية ، كما ينهض رجالها بمراقبة العمال فى شتى النواحى ، أشبه بقلم المخابرات فى الوقت الحاضر . واعتمد قرة على رجال هذا الديوان فى تنظيم أمور ولايته ، وإبعاد الأذى الذى يحاول أى عامل أن ينزله بالناس ، وذلك على نحو ما جاء فى البردية التالية :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

من قرة بن شريك إلى بسيل صاحب اشقوة ، فإنى أحمد الله الذى لا إله

---

(١) Grohmann, op cit, 19, 20

إلا هو ، أما بعد ، فإن القاسم بن سيار صاحب البريد ذكر لى أنك أخذت قراً فى أرضك بالذى عليهم من الجزية(١) ، فإذا جاءك كتابى هذا فلا تعترضن أحداً منهم بشىء حتى أحدث إليك فيهم إن شاء الله،والسلام على من اتبع الهدى(٢) » .

وبذلك منع قرة وقوع الغرامة على رعاياه ، وأثبت أنه وال يقظ ، بفضل عامل البريد ، الذى صار يمثل عين الحكومة وأذنها فى شتى النواحى .

على أن أروع جانب كشفت عنه أوراق البردى الخاصة بعهد قرة بن شريك ، هو الدور العظيم الذى أسهمت به مصر ، منذ القرن الأول الهجرى فى بناء البحرية العربية والنشاط الحربى الذى قامت به هذه البلاد أيضاً فى الدفاع عن الدولة العربية الفتية . فكانت الأوامر التى بعث بها قرة بن شريك إلى بسيل صاحب اشقوة تطلب منه إرسال البحارة والمقاتلين للعمل فى وحدات الأسطول المصرى الذاهب إلى قاعدة افريقية ، وكذلك إلى قاعدة اللاذقيـة فى المشرق . وذلك فضـلاً عن مطالب الأسطول المصرى الرابض فى الميـاه الأقليمية لهذه الولاية . والمعروف أن السفن الحربية المصرية خرجت سنوياً للدفاع عن الشام وشمال أفريقيا ، وأسهمت مع أساطيل تلك الولايات أيضاً لصد خطر الروم وتقليم أظافرهم . وتوضح أوراق البردى انتظام هـذه الحملات ونشاطها ، والدور الجليل الذى قام به رجالها .

وتوضح تلك الأوراق البردية بذلك استعدادات الدولة العربية على عهـد الوليد للقيام بحرب شاملة ضد الدولة البيزنطية ، وتمهيد الطريق أمام الأسطول العربى ، الذى كان على وشك الانطلاق نحو العاصمة البيزنطية . والمعروف أن

---

(١) أى فرضت عليهم غرامة .

(٢) Grohmann, op cit, 28, 29

الوليد توفى دون إتمام هذه المشاريع ، وترك لخليفته سليمان بن عبد الملك أسطولاً عظيماً يسوده التعاون بين وحداته الكبرى فى الشام ومصر وشمال أفريقيا ، وأن هذا الأسطول المتحد اشترك فى حصار القسطنطينية الكبيرة .

وكانت دور الصناعة فى مصر تتلقى من الكور ما يساعدها على بناء السفن ومعدات القتال البحرى ، على نحو ما تفيض به أوراق البردى وما تضمنته من مراسلات قرة بن شريك إلى بسيل صاحب كوم اشقاو . إذ تفيض الأوامر بطلب الأخشاب والمسامير والحبال ، ومهرة الصناع إلى غير ذلك مما تحتاج إليه دور الصناعة فى بابليون (جزيرة الروضة فيما بعد) والأسكندرية ، والقلزم . وتسهب البرديات فى ذكر أجور العمال الفنيين وغير الفنيين ، والمقادير المطلوبة من كل صنف ، مما يشهد بدقة الإدارة العربية على عهد قرة بن شريك .

وأخيراً نرى أوراق البردى توضح الدورالعظيم الذى قام به الصناع المصريون فى تعمير الدولة العربية إلى جانب الدفاع عن حياضها . إذ اشتملت المراسلات التى بعث بها قرة بن شريك إلى صاحب اشقوة على طلب عمال يشتغلون فى بناء جامع دمشق وجامع بيت المقدس ، مع دفع أجورهم مقدماً . وجاء فى إحدى البرديات أيضاً أمر من قرة إلى صاحب اشقوة بأن يبعث عدداً من الرجال الفنيين للعمل فى قصر الخليفة بدمشق(١) . والمعروف أن هذا الخليفة كان مغرماً بالبناء ، واستدعى من أجل ذلك مهرة العمال من كل مكان ، حتى من الدولة البيزنطية نفسها . ومن ثم فإن أوراق البردى تشهد بمهارة المصريين فى فن العمارة فى هذا العصر المبكر من تاريخ الدولة العربية ، وأن ولاية قرة بن شريك صارت بفضل تلك الوثائق البردية التى اكتشفت فى كوم اشقاو ، مثلا أعلى لما قامت به

---

(١) Bell, Translation of the Greek Papyri (Der Blam) II,274, III, 133, IV, 93,95; سيدة كاشف ، نفس المرجع ، ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

مصر من جليل الخدمات فى ميدان الحضارة العربية الإسلامية ، وإعلاء شأنها .
وفى نفس الوقت أكملت أوراق البردى بعض الصور الباهتة المعالم التى حاولت المراجع العربية رسمها عن الحياة فى مصر ، بشكل أروع وأبهى ، « إذ يقيننا لايوجد مؤرخ مهما كان كثير التعمق فى التفاصيل ، ولاقصصى أوجامع للحكايات أوكاتب يمكنه كشف القناع عن وصف دقائق الحياة فى تلك العصور الخوالى بمثل ما تحدثنا به هذه الأوراق التى أخرجت من أرض مصر . إذا من هنا نتبين الأهمية ، لأنها المعين الصحيح والمصدر الصادق لتاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الزاهية فى العالم الماضى »[1] .

ابراهيم أحمد العدوى

---

(١) جروهمان ، المحاضرة الأولى من الأوراق البردى ، ص ٩ .

شمالى أفريقيـة والوندال

٤٣٩ — ٥٣٤ م

---

١ — التحـديد الجغرافى لشمالى أفريقيـة وبلاد المغرب — السكان الأصليون : البربر وأصولهم — فلسطين هى دار البربر الأصليـة — المؤرخون المسلمون وأقسام البربر — الاستعمار الفينيقى لشمالى أفريقية — الاستعمار الرومانى — التقسيم الإدارى لشمالى أفريقية الرومانى — أهمية ولاية أفريقية Africa — أثر الحضـارة الفينيقية — موقف الرومان من البربر الوطنيين والممالك البربرية الوطنية — الأفارقة — انتشار الحضارة الرومانية — بعض قادة الفكر فى أفريقية الرومانية — سـوء الأحوال الاقتصادية — الانقسـام الدينى : (الدوناتيون Donatists) .

٢ — الوندال الجرمان وأصولهم وأقسـامهم — تحركاتهم خلال القرنين الثانى والثالث الميلاديين — اعتراف الرومان بهم « معـاهدين Foederati » دخولهم غالة (٤٠٦) — دخولهم أسـبانيا (٤٠٩) — اضطراب أحـوال الامبراطورية الرومانية فى الغرب — مدى مسئولية بونيفاس Bonifacius فى دعوة الوندال لغزو أفريقية (٤٢٨) — شخصية ملك الونـدال جزريك Gaisricus : « بسارك القرن الخامس الميلادى » .

٣ — عبور الوندال إلى أفريقية (٤٢٩) وقضاؤهم على السيطرة الرومانية — كفاح بونيفـاس الأخير ضـد الوندال — الاعتراف بالوندال فى أفريقيـة فى معاهدة ٤٣٥ م — الاستيلاء على قرطاجنة (٤٣٩) واتخاذها عاصمة لمملـكة الوندال . سيطرة الوندال البحرية ، رسالة أيودكسيا Eudoxia وتخريب الوندال لمدينة روما (٤٥٥) .

٤ — حكومة الوندال فى شمالى أفريقية — نظم الحكم والإدارة ، التوزيع الأقطاعى Sortes Vandalorum واسترقاق الرعايا . سياسة الوندال الدينية .

٥ — كفاح الرومان ضد دولة الوندال — تحالف الشرق والغرب ضد الوندال — نهاية الأمبراطورية الرومانية فى الغرب (٤٧٦) — وفاة جزريك (٤٧٧) واضطراب أحوال مملكة الوندال من بعده — يوستانيوس والقضاء على دولة الوندال ٥٣٣ / ٥٣٤ م — أسباب سقوط الوندال — تراثهم — الوندال والتاريخ — أحوال شمالى أفريقية منذ زوال الوندال حتى بداية الفتح العربى الإسلامى .

١

لم يكن هناك اسم معين يطلق ، فى التاريخ القديم ، على المساحة الشاسعة الواقعة فى شمالى أفريقية الغربى ، وهى الممتدة من غربى مصر شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً ، ومن البحر الأبيض شمالاً إلى الصحراء الكبرى من ناحية الجنوب ، غير أن كتاب الغرب أطلقوا على هذه المنطقة اسم « بلاد البربر » Barbary أو La Berbérie أو The Coast of Barbary [(١)] ، على حين أطلق الجغرافيون العرب فى العصور الوسطى على هذه المنطقة اسم « بلادالمغرب » أو « جزيرة الغرب » أو « مغرب » [(٢)] ، ويعنون بذلك

(١) Thomson, J. O., History of Ancient Geography, (Camgr, 1948), 1. 259; Gsell, S., Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, (Paris,1921), T.I., PP.1,2.

(٢) البلاذرى : فتح البلدان ص ٢٧٠ ، تاريخ اليعقوبى ج ١ ص ١٥٤ ، المسعودى : مروج الذهب ح ١ ص ٥٥ ، ابن الوردى (نشره وترجمه إلى اللاتينية S. Hylander لندن ١٨٢٣) ص ٥ ؛ Gsell. op. cit. 66. 1- 23; .

جميع شمالى أفريقيـة غربى مصر ، بل أن كلمة « المغرب » ،عند العرب كانت تضم الأندلس كذلك ، فى أول الأمر ، إلا أنه بعد أن استقر المسلمون بالقيروانه (٦٧٠ م) ، أطلقوا اسم « أفريقية » على المنطقـة التى تضم غربى طرابلس وتونس[١] ، وصارت كلمة المغرب لا تدل على غير شمـالى أفريقية الغربى فى نهاية الأمر[٢] ؛ على أن المغرب فى عرف أهله هو الممتد من غربى برقة ، أى أن برقة خارجة عنه ، إلى المحيط الأطلسى ، بمعنى أنه يشمل طرابلس وتونس والجزائر ومراكش[٣] . والذى نعنيه فى هذا البحث «بشمالى أفريقية» هو المنطقة الممتدة من طرابلس شرقاً حتى المحيط الأطلسى غرباً ، وهى التى طوتها السيادة الوندالية ، وقامت فيها مملـكة الوندال ، وإن لم تـكن سيادة الوندال فعالة على بعض أجزاء هذه المنطقة ، ولاسيما المغرب الأقصى . وهذه المنطقة هى بعض أملاك الرومان فى شمالى أفريقية[٤] . إذ كان الرومان قد بسطوا سيادتهم على جميع الساحل الأفريقى الشمالى المطل على البحر الأبيض ؛ بمعنى آخر إن المنطقة التى نعنيها ، تشمل ما هو ، حالياً ، بعض المملـكة الليبية المتحدة وجمهوريتى تونس والجزائر والأطراف الشرقية للمملـكة المغربية ؛ وهذه المنطقة هى بعض بلاد البربر ، كما ذكر القدماء ، وهى أيضاً « أفريقية الصغرى » Africa Minor ، كما عرفها ريتر

---

(١) من المعروف أن الفينقيين قديماً كانوا أطلقوا اسم أفرى Aphri على أهل البلاد الذين أقاموا حول مدينتهم طاقة Utica — أى المدينة القديمة — وحول عاصمتهم قرطاجنة — أى المدينة الجديدة ، وقد أخذ اليونان عنهم هذه التسمية ، وأطلق الرومان كلمة « أفريقية » على ولاية أفريقية القنصلية وتشمل قرطاجنة وما حولها حتى نوميديا (أنظر الدكتور حسين مؤنس : فتح العـــرب للمغرب — مصر ١٩٤٧ — ص ١ — ٢ .

(٢) لوبون (ج .) : حضارة العرب — ترجمة زعيتر — ص ٢٤٣ .

(٣) الناصرى (أبو العباس) : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى — (تحقيق ونشر ولدى المؤلف جعفر الناصرى ومحمد الناصرى — الدار البيضاء ١٩٥٤) حـ ١ ص ٦٣ — ٦٤ ابن خلدون : تاريخه حـ ٦ ص ١٠١ — ١٠٣ .

(٤) أنظر الخريطة رقم — ١ —

K. Ritter ؛ والمغرب عامة من الناحية الجيولوجية والجغرافية ، يكون وحدة. وكان أغزر إمطاراً وأكثر خصوبة مما هو عليه الآن ، ولا سيما فيما هو تونس الحالية(١) ، ويشبه سواحل جنوبى أوربا ، وهو حلقة اتصال بين قارتى أفريقية وأوربا ، وكثرت النقلة منه وإليه ، كما كثر التأثير المتبادل(٢) . وهناك أوصاف تفصيلية كثيرة وافية ، ذكرها المؤرخون القدماء ، لهذه المنطقة ، أمثال : هيكاتيوس وهيرودوت وسترابو وبلينى وبطليموس وبول أوروز وغيرهم(٣) ، وهذا بالإضافة إلى ما كتبه جغرافيو العرب ومؤرخوهم(٤) .

* * *

وسكان هـذه البقعة الأصليون هم « البربر » الذين يختلفون عن السكان المقيمين فى جنوبى الصحراء ، جنوبيهم ، وكانوا قديماً ينتشرون على طول ساحل أفريقية الشمالى ، من غربى مصر حتى المحيط الأطلسى ، حتى أطلق على هذه البقعة الفسيحة اسم « بلاد البربر Barbary »(٥) وقد أقاموا فى تلك المنطقة منذ الزمن السحيق ، وعرفهم المصريون القدماء تحت أسماء مختلفة منها : الليبو Lebu والمشواشين Mashuasha وتماحو Tamahu وتحنو Tehenu وكما كا Kahaka

---

(١) Deanesly, M., A History of Early Med. Europe, (Lond., 1956), P. 75.

(٢) Alimen, The Prehistory of Africa, PP. 1, 69.

(٣) Roget, R., Le Maroc chez les auteurs anciens (Paris, 1924), PP. 9 - 40; أنظر كذلك :

أبو الفداء : كتاب تقويم البلدان ص ١ ، ٤ ؛ ابن الوردى ص ٤ ؛ ابن أياس : نشق الأزهار فى عجائب الأقطار ص ٢٢ ؛ البشارى : كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢١٥ — ٢٣١ ؛ الأدريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الأفاق ص ٢ .

(٤) Yver, G. "Africa" (Encycl. of Islam)

(٥) Encyclopedia Brittanica, "Art. Berbers"

وظهرت هذه الأسماء فى النقوش الفرعونية التى ترجع إلى حوالى عام ١٧٠٠ ، ١٣٠٠ ق . م[١] .

وأصل الاسم واشتقاقه مشكوك فيه. أرجعهم البعض إلى الكلمة الإغريقية الدالة على معنى البربرة الوحشية وأشار إليهم الإغريق بهذا المصطلح أولا، وتبعهم الرومان فى ذلك (Barbarus) ؛ كذلك أشار إليهم الأغريق بكلمة تدل على معنى البداوة (Nomads) ، وهكذا اتبعهم الرومان[٢] . ويقال إن العرب هم الذين أطلقوا عليهم كلمة « البربر » ؛ وفسر المؤرخون العرب هذه اللفظة تفسيراً لغوياً ، فقالوا : سموا بالبربر لأن رطانتهم غير مفهومة لغيرهم ، والبربرة فى لغة العرب اختلاط أصوات غير مفهومة .

* * *

وأشار المؤرخون والجغرافيون من كتاب الغرب ، إلى البربر ، بأسماء مختلفة، منها : النساموينون Nasamones والبسيليون Psylli ، وهؤلاء أقاموا فى برقة وطرابلس ، والجرامانتيون Garamantes ويعيشون فى البادية ، والمليسكيون Makyles & Maxices ، وأقام هؤلاء فى ساحل تونس ، أما الموزولاميون Musulami والنوميديون Numidiae فأقاموا فى شرقى المغرب ، وأما الجتيوليون Geatuli فكان مقرهم فى المرتفعات وعلى حافات الصحراء ، وأخيراً المغاربة Mauri الذين ينتشرون فى المغرب الأوسط والأقصى[٣] .

وهناك تسميات أخرى ، أطلقها الرومان والبيزنطيون ، على البربر ، من

---

(١) Ibid.

(٢) Soames, J. The Coast of Barbary, Lod., 1938), P.. 18 ; Encycl. Br. Art. "Berbers".

(٣) Basset, R. Berbers (Encycl. of Islam), Vol. I.

حيث تقسيمهم إلى شعوب ، بحسب الأقاليم التى أقاموا فيها(١) . والملاحظ أن الرومان ، بصفة خاصة ، أطلقوا على البربر عامة : اسم الجيتوليين والنوميديين والموريين (المغاربة) ، وعنوا بذلك جميع البربر ؛ وهذه الأسماء مشتقة أصلاً من الكلمة الأغريقية التى تدل على معنى البداوة(٢) .

ولعل هناك صلة بين كلمة « مور » Mauri (المغاربة) ، وبين الكلمة العبرية « ماهور » Mahur بمعنى غربى Western ؛ وهذه أطلقها الرومان فى العصر الكلاسيكى ، وعمموها على جميع القبائل المقيمة بشمالى غربى أفريقية ، وسموا المقاطعات الشمالية الغربية فى أفريقية باسم مرطانيا Mauritania أى بلاد المغاربة(٣) . وظهر هذا الاسم لأول مرة خلال الحرب اليوجرثية (١١٠ — ١٠٦ ق.م ، نسبة إلى يوجرثا Jugurtha البربرى ملك موريتانيا ، وهى الحرب التى وقعت بين البربر والرومان فى تلك الفترة(٤) .

والخلاصة ، أن جميع سكان شمالى أفريقية الغربى الأصليين ، من البربر ، مهما اختلفت الأسماء التى أطلقت عليهم ويمكن القول بصفة عامة بأنه من لم يكن زنجياً فى هذه المنطقة ، فهو بربرى ، وذلك قبل الفتح العربى الإسلامى(٥) . والصفات الجنسية التى اشتهر بها البربر ، كما صورهم المصريون القدماء ، أنهم ينتمون إلى الجنس الأبيض بل الأشقر ، ولا تزال الشقرة بادية فى بعض ذراريهم إلى الآن ، وعموماً البربر جنس أبيض ، رغم وجود اختلافات محلية بين سكان القرى المختلفة ، نتيجة لعوامل المناخ والاختلاط بغيرهم ؛ ولذا كان ما قصده اليونان من كلمة مورى Mauri ، هى ، « الرجال السود » .

---

(١) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٥ — ٦ .
(٢) راجع ماسبق .
(٣) Cary, A History of Rome, P. 303
(٤) Roget, op. cit., P. 22 ; Cary, op. cit. PP. 303-306.
(٥) لوبون : حضارة العرب ص ٢٤٤ .

وقد وصفهم ابن خلدون وصفاً شاملاً فقال :

« وهذا الجيل من الآدميين ، هم سكان المغرب القديم ، ملأوا البسائط والجبال ... يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ، ومن الشعر والوبر ، ويظعن أهل العز منهم والغلبة ، لانتجاع المراعى فيما قرب من الرحلة ، لايجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفار الأملس ، ومكاسبهم الشاء والبقر ، والخيل فى الغالب للركوب والنتاج ، وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم ، شأن العرب ، ومعاش المستضعفين منهم بالفلح ودواجن السائمة ، ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والأظعان ، فى نتاج الأبل وظلال الرماح وقطع السابلة ، ولباسهم وأكثر أثاثهم الصوف ، يشتملون الصماء بالأكسية المعلمة ، ويفرغون عليها البرانس الكحل ، ورؤسهم فى الغالب حاسرة ، وربما يتعاهدونها بالحلق ، ولغتهم من الرطانة الأعجمية ، متميزة بنوعها ، وهى التى اختصوا من أجلها بهذا الاسم ... »[1] .

والسائد الراجح ، أن فلسطين هى دار البربر الأصلية التى نزحوا منها ، واتجهوا إلى الغرب ، وكان يحكمهم فى الزمن السحيق الملك جالوت — الوارد خبره فى القرآن الكريم[2] . فلما قتله داود عليه السلام ، هاجر البربر إلى الغرب ، وتفرقوا فى نواحيه ؛ ووقعت هجرتان كبيرتان للبربر من آسيا إلى شمالى أفريقية ، أولاها : كما يقول صاحب عقد الجمان ، وقعت عندما انهزم فريق من بنى حام أمام بنى سام ، فهاجر المنهزمون إلى بلاد المغرب ، حيث تناسلوا

---

(١) ابن خلدون : تاريخه ج ٦ ص ١٩ .

(٢) وردت قصة جالوت وقومه والحرب بينه وبين داود عليه السلام فى سورة البقرة من آية : ٢٤٦ إلى نهاية آية : ٢٥١ . وهناك شرح واف لتفسير هذه الآيات فى كتب التفسير ومنها :

الإمام محمد عبده : تفسير القرآن الكريم (مصر ١٣٥٠ هـ) ج ٢ ص ٤٧٦ — ٤٩٢ ؛ تفسير النسفى المعروف بإسم « مدارك التنزيل وحقائق التأويل » ج ١ ص ٩٤ — ٩٥ ؛ تفسير البيضاوى ج ١ ص ١٧٠ — ١٧٣ ؛ تفسير الجلالين ج ١ ص ٣٠ — ٣١ الخ ....

« واتصلت شعوبهم من أرض مصر إلى تخوم السودان » ثم جاء فريق آخر من بنى حام من فلسطين زمن داود عليه السلام . وهم ، كما يقول الطبرى والكلبى وابن حزم وابن عبد البر صاحب كتاب التمهيد ، وابن خلدون ، أخلاط من كنعان والعماليق وغيرهم ، نزحوا إلى بلاد المغرب ، فنزلت زنانة ومغيلة وخريسة وفرسنة الجبال ، على حين نزلت لواتة أرض برقة ، ونزلت هوارة مدينة إياس ، وهكذا احتلت كل قبيلة منطقة خاصة بها[١] . ومنهم من « تمجس ومنهم من تهود ، ومنهم من تنصر ، وكان فيهم رؤساء وملوك وكهان » ، وظلوا على ذلك حتى جاء الإسلام[٢] .

والبربر ، كما قسمهم جغرافيو العرب ومؤرخوهم ، فرعان هما : البرانسى والبتر ، ويذكر ابن خلدون أن البرانس نسبة إلى جدهم برنس ، والبتر نسبة إلى جدهم مادغيس الذى كان يلقب بالأبتر[٣] ؛ والراجح أن البرانس نسبة إلى نوع من الزى كانوا يلبسونه وهو البرنس ، والبتر لأنهم كانوا لا يلبسون ذلك اللباس ، والبرانس سكان المدن المتحضرون ، والبتر سكان البادية[٤] .

والبرانس عشر قبائل : أوربه — صنهاجه — كتامه — مصموده — عجيه — أوريغه — أرداجه — لمطه — هكسوره — جزولة . ولكل قبيلة من هذه القبائل فروع متعددة ، وأكبر هذه القبائل صنهاجة ، حتى قيل أنهم مقدار الثلث من البربر ، ومن صنهاجة بنو زيرى والملثمون وكتامة .

وأقسام البتر : خريسه — نفوسه — أداسه — لواته ؛ ومن جزيه مكناسه وزناته ، ومن زناته جراوه وهم قوم الكاهنة « داهيا » صاحبة جبل أوراس التى أوقعت بجيش حسان بن النعمان عامل الخليفة عبد الملك بن مروان ،

---

(١) ابن خردازبة . المسالك والممالك ص ٩١ ؛ الأدريسى : نزهة المشتاق ص ٥٧ .
(٢) الاستقصا ج ١ ص ٥٣ ؛ ابن خلدون : تاريخه ج ٦ ص ٩٣ — ٩٦ .
(٣) الاستقصا ١ ج ١ ص ٥٧ .
(٤) عبد الحميد العبادى : موجز تاريخ الأندلس .

ومن زناته كذلك بنو خرز المغراويون ، ملوك تلمسان والمغرب الأوسط ، وبنو يفرن وبنو زيان وبنو مرين . ولكل قبيلة عمائر وبطون وأفخاذ لا حصر لها(١) .

ابتدأ نفوذ الرومان يمتد إلى ساحل أفريقية الشمالى منذ العهد الجمهورى ، وذلك على أثر الحروب الطاحنة التى دارت بينهم وبين الفينقيين ، وانتهت بإزالة ملك الفينقيين من شمالى أفريقية بعد أن مكث نحو سبعمائة عام(٢) .

وتركزت أملاك الرومان فى شمالى أفريقية ، زمن الأمبراطور أغسطس (ت ١٤ م) ، فى مملكتى نوميديا Numedia وموريتانيا Mauritania ، فلما أعاد الأمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥) تنظيم الأمبراطورية الرومانية، قسم هذه الأملاك إلى سبعة أقسام إدارية لتسهل إدارتها وحماية الأمن فيها ، وهى من الشرق إلى الغرب : طرابلس Tripolitana ، بيزاكينا Byzacena ، وأفريقية القنصلية أو زوجتانا Africa Proconsularis or Zeugitana ، ونوميديا ، وستيفنسس Sitifensis ، وقيصرية Caesarienses ، وطنجه Mauritania Tingitana(٣) .

---

(١) الاستقصا ص ٥٧ — ٥٨ ؛ ابن خردازبة ص ٩٠ ؛ الأدريسى ص ٥٧ ؛ ابن خلدون : تاريخه ج ٦ ص ٨٩ — ١١٤ .

(٢) موطن الفينقيين الأصلى هو سواحل الشام وفلسطين ، وهم عرب ، ضربوا بسهم كبير فى التجارة والملاحة البحرية ، ويرجع وصولهم إلى سواحل أفريقية الشمالية الغربية إلى حوالى عام ١٢٠٠ قبل الميلاد ؛ أقاموا المراكز التجارية على طول السواحل التى وصل نفوذهم إليها، وبنوا قرطاجنة خلال القرن التاسع قبل الميلاد، وكانت لهم إمبراطورية بحرية كبرى ، كما كان أسطولهم يسيطر على البحر الأبيض (أنظر :

Gsell, S., Hitsoire ancienne de l'Afrique du Nord (Paris, 1921) Ts. I, II.

أنظر :

Soames, op. cit., PP. 28-29 ; Ch. André, J., op. cit., PP. 63-127 ; Mommsen, T., The Hist. of Rome Vol. III, P. 321 ; Bury, J., A Hist. of the Roman Empire from the Foundation to the death of Aurelius (27 B.C.-180 A.D.) PP. 89-90, 239 ; Salmon, E.T., A Hist. of the Roman Empire, P. 106 ; Roget, op. cit., PP. 17-40 ; (الزواوى ص ١٢ — ١٥ ؛ ابن خلدون ح ٢ ص ٤٠٢

(٣) Hodgkin, T., Italy & her Invaders, Vol. II, PP. 232-3

يتضح من هذا التقسيم ، أن كلمة أفريقية أو ولاية « أفريقية الأصلية » Africa Vetus ، كانت تعنى عند الرومان أحد هذه الأقسام السبعة ، وتشمل جغرافياً ما هو تونس الحالية تقريباً[1] ؛ ومع ذلك استعمل هذا المصطلح أحياناً استعمالاً عاماً ، وأطلق ليدل على كل شمالى أفريقية[2] وذلك لأهمية هذا القسم ، إذ كان مركز الحكم لجميع شمالى أفريقية الرومانى ، بل كان نقطة البدء فى بسط السيطرة الرومانية ، فمنه امتد الرومان وتوسعوا شرقاً وغرباً[3] .

ويدل المصطلح « أفريقية الرومانية » على جميع المنطقة الساحلية الممتدة من غربى برقة شرقاً إلى ساحل المحيط الأطلسى غرباً ، باستثناء ولاية طنجة المطلة على المحيط ، فهذه كانت تتبع أسبانيا والغال من الناحية الإدارية ، ولم تكن ضمن أفريقية الرومانية[4] ، ويرجع السبب فى ذلك ، لعوامل جغرافيـة ، تلخص فى صعوبة المواصلات الداخلية بينها وبين جيرانها فى الشرق من أملاك الرومان ، فهناك منطقة صحراوية يبلغ طولها أكثر من مائتى ميل ، تفصلها عن أقرب جار لها من الشرق ، حتى أنه لم تكن هناك مواصلات برية تصل بين طنجة Tingis فى المغرب ، وبين قيصرية Caesarea ، فى شرق موريتانيا[5] ؛ ومن ثم رؤى أن ترتبط ولاية طنجة أو تلحق بالولايات الرومانية المتحضرة وشمالها عبر المضيق[6] ومن ناحية أخرى ، لهذا العامل الجغرافى أثره فى تفسير خطورة المغاربة الذين كانوا كثيرى الاغارة على الرعايا الرومان فى بايتيكا Baetica

---

(١) Thomson, op. cit., P. 256.
(٢) Fage, J.D., An Atlas of African Hist., PP. 6-7
(٣) Soames, PP. 30-38.
(٤) Deanesy, M., op. cit., P. 75.
(٥) Bury, J., op. cit., P. 89.
(٦) Hodgkin, T. op. cit., P. 233.

(الأندلس فيما بعد) ، أكثر من خطورتهم على رومان أفريقية . ونظراً لاستهداف بايتيكا لهذا الخطر العابر من أفريقية ، وصفها شاعر لاتينى معاصر للأمبراطور نيرون (٥٤ — ٦٨ م) بأنها : Trucibus obnexia Mauris[1] .

ومن المحتمل أن ولاية طنجة ظلت بنجوة من غزو الوندال وتخريبهم ، ولو أن الوندال حصنوا مدينة سوتا[2] ؛ بمعنى آخر ، بقيت ولاية طنجة جزءاً من الأمبراطورية الرومانية ، خلال السيادة الوندالية على شمالى أفريقية[3] .

وكانت ولاية موريتانيا (مرطانية) تشغل نحو ثلاثة أرباع مساحة الجزائر الحالية[4] ، ورغم وجود مزارع القمح الكبيرة بها ، فى السهول الواقعة بين الجبال وشاطىء البحر الأبيض ، إلا أنها خلت من المدن الكبيرة الهامة ، باستثناء المدينة التجارية الكبرى « قيصرية » . صارت موريتانيا فيما بعد جزءاً من مملكة الوندال[5] .

أما ولاية طرابلس Tripolitana ، الواقعة فى أقصى الجانب الشرقى من أفريقية الرومانية ، فيرجع تسميتها بهذا الاسم (طرابلس) إلى الثلاث مدن الرئيسية وهى : ليبتس الكبرى Leptis Magna — وهى لبدة الحالية — وأوئيا Oea — وهى مدينة طرابلس الحالية — وسبراتا Sabrata — صبره المعاصرة — وكلمة طرابلس معناها الثلاث مدن ؛ ويسميها العرب «أطرابلس[6]» . ومركز هذه الولاية مدينة طرابلس ، واشتهرت فى القرن الثالث الميلادى لأنها

---

(١) Bury, J. op. cit., P. 89.

(٢) أنظر ما يلى والخريطة رقم ٣ .

(٣) Hodgkin, op. cit., P. 233.

(٤) Lot, Les Invasions, G. 45 ; Hodgkin, P. 234.

(٥) أنظر ما يلى والخريطة رقم ٣ .

(٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٦٦ .

كانت من المراكز المسيحية الهامة ، وقد منحها دقلديانوس لقب «ولاية» وليس لولاية طرابلس أهمية فى نظر المؤرخ الرومانى سوى أنها كانت مسقط رأس أحد أباطرتها ، وهو الأمبراطور س. ساويرس Septimus Severus (١٩٣ — ٢١١ م) ، فهو من مواليد مدينة لبدة ، ومن أصل بربرى ورومانى[١] .

والمعروف أن الرومان كثروا وازدحموا فى ولاية أفريقيـة الأصلية : Africa Vetus ، وكذلك فى جارتها بيزا كينا ، فضلاً عن نوميديا التى عرفت كذلك باسم «أفريقية الجديدة» منذ زمن قيصر (ت ٤٤ ق. م) ، فهذه المنطقة الوسطى من شمالى أفريقية الرومانى ، تـكون قلب الأملاك الرومانية وأهمها ولذلك قامت معظم المدن الرومانية العامرة فيها[٢] ، وتتميز بالخصب والثراء عما سواها ، ولا سيما ولاية أفريقية ، وهى الولاية التى تعد أغنى بقعة فى شمالى أفريقية وبالتالى أكثرها ازدحاماً[٣] . وفضلاً عن شهرتها فى إنتـاج القمح ، فهى مشهورة كذلك بزراعـة الفواكه ، يقول الشـاعر هوراس Horas (٦٥ — ٢٧ ق م) . فى إحـدى أناشيده متغنيا بخصبها[٤] : "Imperio Fertilus Africae" . ورغم أن نبيذ أفريقيـة دون نبيذ أسبانيا وإيطاليا ، إلا أنها غنيـة فى محصول القمح ، وأسهمت مع مصر وصقليـة فى إمداد روما (ومن بعدها القسطنطينية) بالقمح ، بل إنها تعتبر الولاية الهامة الثانية بعد مصر فى القارة السوداء ، من حيث كونها مخزن القمح للرومان[٥] ؛ وتمتاز بالنشاط

---

(١) ولد الإمبراطور ســاويرس عام ١٤٦ ، وفى عهده بلغت أفريقية الرومانية ذروة حضارتها وتطورها .

أنظر : Graham, A., Roman Africa (Lond., 1902), PP. 196-208 : Soames, op. cit., PP. 42-43 ; الزوارى ص ٣٤ .

(٢) Fage, op. cit., PP. 6-7.

(٣) Pirenne, H., A Hist. of Europe from the Invasion to the 16th century, P. 34 : Thomson, op. cit., P. 250.

(٤) الشاعر كوينتوس صورافيوس فلاكوس من شـعراء عصر اغسطس .
Quintus Horatius Flaccus وأنظر : Bury, op. cit., p. 92

(٥) Salmon, op. cit., P. 106.

والحركة ، وفيها إلى الآن ، بقايا دور التمثيل والحمامات وأقواس النصر ، وقد جعلت هذه الولاية « سناتورية » مسلحة ، أى يترك أمر الرقابة عليها إلى السناتور الرومانى(١) .

أقام الرومان حضارتهم فى شمالى أفريقية على أسس فينيقية ، أى على أسس سامية ، إذ كانت صبغة هذه المنطقة القديمة فينيقية إغريقية ، مع غلبة العنصر الفينيقى ، وذلك على عكس جزيرة صقلية التى كانت ذات صبغة إغريقية فينيقية مع بروز العنصر الإغريقى فيها ، لذلك أرست روما حضارتها وتقاليدها على قواعد فينيقية ، فأبقت على الدساتير الفينيقية فى المدن ، كما أبقت على نظام المقاطعات cantons فى غالة (فرنسا الحديثة ؛ وهناك تشابه وتقارب بين هذه النظم سواء فى أفريقية أم فى غالة ، وبين ما هو كائن فى إيطاليا ، بحيث كان النقل ميسوراً وسريعاً(٢) .

ولذلك نجد أن مدينة قرطاجنة ، وهى التى قضت عليها السياسة القصيرة

---

(٥) يلقب حاكم الولاية السناتورية بلقب « برو قنصل Pro-Consul أى ونائب القنصل» ويبقى عادة فى منصبه مدة سنة واحدة ، ولكن أصبح من الممكن بعد عهد أغسطس (ت ١٤م) أن يظل الحاكم لمدة ست سنوات . غير أن أفريقية وآسيا ، من بين الولايات السناتورية ، كان الحاكم فيها يلقب « بالقنصل السابق » 'ex-consul' ، ويظل الواحد منهم فى منصبه سنتين أو أكثر من سنتين فى بعض الأحيان . ومن الشروط الواجب توافرها فيمن يلى حكم هذه الولاية، ألا يعين إلا بعد مضى عشر سنوات على القنصل بعد انتهائه من وظيفة القنصلية ، أما حكام الولايات السناتورية الأخرى ، فيلقب الواحد منهم بكلمة « البريتور السابق » ex-Praetor، ولا يعين فى منصبه بهذه الولايات إلا بعد مضى خمس سنوات على تركه الوظيفة البريتورية . والولايات السناتورية عند وفاة أغسطس هى : افريقية Africa ، Cyrene، أكايا Achaea، ومقدونيا (أكايا ومقدونيا ولايات إمبراطورية فى الفترة ما بين ١٥ إلى ٤٤ م) ، بايتيكا Baetica (الأندلس) ناربوننسس Narbonensis ، وذلك فى الفترة ما بين ٢٢ ق م ؛ غالة البعيدة Gallia Narbonensis ، وآسيا Asia : بثينيا Bithynia التى أصبحت ولاية إمبراطورية زمن تراجان المتوفى عام ١١٧ م ؛ وقبرص وكريت ، وصقلية :

Chapot, V., Le Monde Roman, PP. 436-467 ; Salmon, op. cit., PP. 76-77)

(٢) Bury, op. cit., P. 91.

النظر للسناتور الجمهوري[١] ، قد أعيدت لها أهميتها وازدهارها فى عهد الإمبراطورية منذ قيصر ، حتى صارت عاصمة أفريقية الرومانية ، كما كانت من قبل عاصمة أفريقية الفينيقية ، بل غدت أعظم وأثرى المدن فى غربى أوربا . ومن أجل عظمتها ورخائها وثرائها ، عرفت باسم « قرطاجنة السعيدة Felix Kartago »، ويقال إن هذه العبارة كانت تنقش على العملة الإمبراطورية ، وإلى جنوبها ميناؤها الشهيرة كوثون Cothon الذى فتح للتجارة العالمية ، وبها الحمامات والسوق والمسرح ، وكل مظاهر المدينة الرومانية .

وفى قرطاجنة خمسة معابد فينيقية قديمة ، وهى لآلهة أسيوية ، وقد حولت هذه المعابد للآلهة الرومانية ، زمن الإمبراطوية ، وهى الإله أيسكولابيوس Aesculapius إله الطب ، وزحل Satturn إله الزراعة وأبو المشترى ، والآلهة يونو Juno زوجة جوبيتر وملكة السماء وراعية الزواج فى الأساطير الرومانية ، وهرقل ، وعطارد Mercury رسول الآلهة وإله التجارة والكسب والفصاحة والبلاغة ؛ ونظراً لجمال معبد الآلهة الأخير ، عرفت قرطاجنة فى القرن السادس الميلادى ، « باسم مدينة عطارد » ، كما عرف لسانها الممتد داخل البحر باسم « رأس عطارد[٢] » . وربما دمر بعض المعابد الفينيقية القديمة خلال حماس المسيحية فى القرن الرابع الميلادى[٣] .

ومن المدن الشهيرة فى ولاية أفريقية ، أوتيكا Utica ، وهى منافسة قديمة لمدينة قرطاجنة ، ظلت تحسدها وتحقد عليها ولا سيما عندما أعيدت إليها شهرتها ومكانتها التاريخية ؛ كذلك اشتهرت مدينة كيرتا Crita فى نوميديا وتقع على نهر

---

(١) Gsell, S., T. III, PP. 336-407.

(٢) Gsell, op. cit., I. II, PP. 1-37, 93-112; Deanesly, op. cit., P. 75; Bury, op. cit., P. 91.

(٣) Davis, N., Carthage & her Remains (Lond., 1861), PP. 1-2, 35; Hodgkin, op. cit. 239-240.

امبساجا ، وهى المعروفة حالياً باسم « قسطنطينية »[١] وفى موريتانيا ، تجد من المدن الشهيرة كلوبيا Clupea وهيبوديار كيتوس Hippo Diarrkytos [٢] .

ولما كانت موريتانيا متخلفة فى الأخذ بأهداب الحضارة الرومانية، فقد بذلت جهوداً كبيرة ، من لدن أغسطس ، من أجل بناء المدن الرومانية على الساحل ، لتكون مراكز لنشر الحضارة الرومانية .

وبجانب المدن الفينيقية العريقة ، والمدن التى بنيت على النسق الرومانى ، هناك مدن وطنية بربرية ، تخضع مباشرة لسلطة الحاكم الرومانى العام ، وأحياناً يعين لها حكام رومانيون محليون[٣] ، على أن هناك عدداً كبيراً من القبائل البربرية الوطنية . تخضع لرؤسائها (reguli) الوطنيين ، ولكن تحت إشراف الحكام الرومان ، وقد عد منها بلينى Pliny نحو ست وعشرين قبيلة ، على حين ذكر بطليموس نحو تسع وثلاثين منها[٤] . والواقع أن القبائل البربرية كانت منقسمة متناحرة ، لكنها تتحد أحياناً ضد العدو الأجنبى ، فيما يشبه كونفدرالية مفككة Loose Confederation ، ولذلك لم ينجحوا فى إقامة دولة ثابتة قوية ، رغم أن البربر يشتهرون فى التاريخ بأنهم جنس محارب ، وأنهم لم يخضعوا لأى فاتح خضوعاً تاماً ، فكان الولد منهم إذا بلغ السادسة عشرة من عمره ، سمح له بحمل السلاح ويظل كذلك حتى سن الستين .

وحدث خلال فجر الفتوح الرومانية فى شمالى إفريقية ، وخلال الصراع بين روما وقرطاجنه ، أن تكونت مملكة نوميديا البربرية بمساعدة الرومان ، وشملت قبائل البربر المنتشرين من نهر مولويا Muluya غرباً إلى خلجان سريتس Syrtis

---

(١) أنظر الخريطة .

(٢) Bury, op. cit., P. 91.

(٣) Bury, op. cit., P. 91.

(٤) Thomson, op. cit., P. 256.

شرقاً ، غير أن هـذه المملكة اختفت عام ٤٦ ق . م . كذلك قامت مملكة موريتانيا البربرية زمن أغسطس (١٧ ق . م) كانت خاضعة لنفوذ الرومان ، ثم لم تلبث أن زالت وأصبحت موريتانيا ولاية رومانية فى ٧ عام ٤٢ م (١) .

غير أن الحدود الجنوبية لأفريقية الرومانية ، ظلت مضطربة غير ثابتـة ، نظراً لقيام ممالك وطنية أخرى بربرية ، وكانت هـذه الممالك كثيرة الثورات والخروج على الاستعمار الرومانى ، منذ فجر الأمبراطورية الرومانية .

من هذه الممالك : مملكة الجرامنتين، وتقع جنوبى خليج طرابلس(سيرتس) فيما هو فزان(٢) . وربما كان هؤلاء الوطنيون هم الذين أشير إليهم فى بعض الـكتب العربية باسم « القرماطيين » الذين انتشروا فى الصحراء حتى جنوبى فزان ، وكانوا يتعاملون بالملح(٣) . وهذه التسمية راجعة إلى مدينة « جرما » عاصمة فزان القديمة ، ويقول الأدريسى « ومدينة جرمة بأرض فزان ، وبينها وبين أودغشت نحو ٢٥ مرحلة »(٤) . ولم تزل آثار هذه المدينة باقية إلى اليوم ، وربما كانت النسبة كذلك إلى « جرمانة » وهى قبيلة بربرية من بنى ماصلت من بطون لواته ، ثم دخلها شيء من التحريف(٥) . وهناك مملكة الجيتوليين ، وتقع جنوبى غربى ولاية أفريقية ، ويعرف هذا القبيل من البربر بقوة المراس ، حتى أنهم لم يقهروا ، وقد صور الشاعر فرجيـل P. Virgilius Maro (٧٠ — ١٩ ق . م) خطرهم بقوله :

"Hinc Gaetulae urbes, genus insuperable bello. Et Numediae infreni cingunt et inhospita Syrtis"(٦) .

---

(١) Encycl. of Islam. Art. 'Berbers'.

(٢) Davidson, B., Old Africa Rediscovered, PP. 41, 73.

(٣) البشارى (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد) : كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢٤٢ .

(٤) الأدريسى : نزهة المشتاق ص ٣٢ — ٣٥ .

(٥) الزاواوى : ص ٣٣ — ٣٤ ، ٧٥ .

(٦) Bury, P. 90.

وكذلك قامت مملكة الترانستا جننسس Transtagensis ومملكة الموزولاميين Musulami ، وتقع كلتاهما جنوبى شرق ولاية أفريقية ، ولعل هذا النفر الأخير هم الذين أشار إليهم اليعقوبى باسم « المصاليين » وهم فرع من البربر والأفارقة ، استقروا فى طرابلس واشتهرت مملكتهم بكثرة الإغارة على أملاك الرومان ، وكانت دائمة الحركة والنقلة بحثا عن المرعى والمغنم ، ولذا كانت أكثر من غيرها إقلاقا للرومان ، حتى سلك الرومان نحوها مسالك مختلفة ، من ذلك أنهم جندوا عدداً كبيراً من أبنائها فى الفرق الاحتياطية للامدادات(١) .

كان على الرومان أن يعملوا على حماية أملاكهم دائما من خطر هذه الممالك الوطنية المتاخمة لهم ، وهذا ما حملهم على تسليح ولاية أفريقية السناتورية تسليحاً كافياً ، وركزوا فيها معظم الحاميات الرومانية(٢) . وكانت مهمة الدفاع شاقة عسيرة ، نظراً لوعورة المواصلات البرية بين الأملاك الرومانية فى شمالى أفريقية ، وتكاد الحرب بين الرومان والبربر تكون سجالا ، منذ فجر سيطرتهم على الساحل .

من هذه الحروب ، ماشنه القائد الرومانى بالبوس L. Corn. Balbus عام ١٩ ق . م ضد الجرامنتيين فى طرابلس ، وكللت حملته بالنجاح(٣) . وتلك الحملة التى قادها سلبكيوس كويرنيوس P. Sulpicius Quirinius ضد قبائل المارمرية Marmaride فى برقة قبل عام ١٢ ق . م(٤) . كذلك شن القائد لنتولس C.C. Lentulus حربا ضد قبائل الجيتوليين عام ٥م ؛ ومنذ عام ٦م ، شعرت إدارة أفريقية الرومانية ببعض الأمن والهدوء ، حتى اكتفى الرومان بوضع

---

(١) Salmon, P. 106 ; Encyl. of Islam, A. 'Berbers'

(٢) Lot, Les Invasions, PP. 45-46 ; Salmon, P. 112.

(٣) Bury, P. 90.

(٤) Salmon, P. 106.

فرقة حزبية واحدة فى ولاية أفريقية ، وعرفت هـذه الفرقة باسم : أوغسطا الثالثة ؛ ورغم هذا لم تنقطع الغزوات البربرية[١] .

ولم يكف زعماء البربر الوطنيون عن مهاجمة الرومان ، حتى لاحت الفرصة ، فتكررت ثوراتهم وهجماتهم زمن الأباطرة دوميتيان Domitian (٨١ ـ ٩٦ م) وهادريان (١٧ — ٣٩) وكومودوس (٦١ — ١٩٢ م) . ولما ضعف سلطان روما قرب نهاية القرن الثالث الميلادى ، ازدادت ثورات البربر كثرة وعنفاً ، واشتهر إثنان من زعمائهم بكثرة تحديهما للاستعمار الرومانى وهمـا : فرماس Firmas ، وذلك فى الفترة الواقعة بين ٣٧٢م ، ٣٧٤م، والثانى جلدون Gildon (٣٩٨ م) ، وكان عداء البربر للرومان من العوامل التى ساعدت الونِدال على انتزاع شمالى أفريقية من السيطرة الرومانية فى القرن الخامس الميلادى[٢] .

وكان بجانب البربر والمستوطنين الرومان ، فى شمالى أفريقيـة ، نفر كبير عرف باسم « الأفارقة » وهؤلاء خليط من الأجانب اللاتين المستوطنين الذين طال مكثهم بالبلاد ، حتى أصبحوا أفريقيين ، وبقايا الشعب القرطاجنى القديم ومزارعى البيزنطيين وصناعهم ، بالإضافة إلى نفر من البربر ممن استقر ودخل فى طاعة الرومان والبيزنطيين[٣].

وخلال سيطرة الرومان على شمالى أفريقية ، أخذت الحضارة الرومانية واللغة اللاتينية تنتشر تدريجياً إذا كانت لغة البربر الوطنية لاتزال قائمة فى المناطق المتطرفة، والتى لم تصل إليها السيادة الرومانية ، كما أن اللغة الفينيقية هى التى كانت منتشرة

---

(١) Salmon, PP. 106, 130 ; Ch.-André, PP. 138-142, 193-212.

(٢) Basset, op. cit..

(٣) ابن خرداذبة : المسـالك والممالك ص ٩١ — ٩٢ ؛ مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٤ — ٥ ، وله كذلك : ثورات البربر فى أفريقيـة والأندلس (بحث نشر بمجلة كلية الآداب — جامعة القاهرة — المجلد العاشر — الجزء الأول — مايو ١٩٤٨) ص ١٤٣— ٢٠٦.

على طول الساحل ، فإن الرومان وقفوا من هذه اللغات الوطنية موقفهم التقليدى نحو اللغـات المحلية ، كما فعلوا بالنسبة للغة الأيبرية فى أسبانيا ، واللغة الـكلتية فى الغال ، أى تركوا هذه اللغات وشأنها ، ولـكنهم اعتمدوا على اللغة الفينيقية كلغة للتفاهم والاتصال فى أفريقية الرومانية ، نظراً لانتشار هـذه اللغة على طول الساحل من طرابلس شرقاً إلى طنجة غرباً ، وظلت اللغة الفينيقية هى المستعملة حتى ظهور المسيحية ، بل امتدت إلى القرن الأول الميلادى حتى زمن الإمبراطور بتيريوس (١٤ — ٣٧م) ، وليس هناك ما يشير إلى بقاء استخدام اللغة الفينيقية رسمياً بعد عهد بتيريوس(١) .

ولما رفضت روما الاعتراف باللغة الفينيقية كلغة رسمية للتخاطب بين الحـكومة والرعايا ، على عكس موقفها من اللغـة الإغريقية التى اعترفت بها لغة رسمية فى الولايات الشرقية من الإمبراطورية ، وقررت أن أفريقية وصقلية تابعتان للغرب اللاتينى اضطر الوطنيون فى شمالى أفريقية إلى تعلم اللغة اللاتينية واستخدامها فى أعمالهم الرسمية مع الحـكومة، على حين ظلوا يستخدمون الفينيقية فى معاملاتهم الداخلية المحلية ، وهكذا أخذت اللغة اللاتينية تحل تدريجياً محل اللغة الفينيقية ، أولا فى الحياة الرسمية ، ثم فى الحياة الاجتماعية ؛ وفى نهاية القرن الرابع الميلادى صار الوضع النسبى لهاتين اللغتين ، يشبه وضع اللغة الإنجليزية بجانب اللغة الولشية Welsh ولـكن تحتم على رجال الدين فى أفريقية أن يجيدوا اللغـة الفينيقية ، على الأقل فى المناطق الريفية التى قد يعينون للعمل فيها(٢).

وليس من شك فى أنه خلال القرن الخامس الميلادى كانت اللغة اللاتينية والآداب اللاتينية تضرب جذورها بعمق فى التربة الأفريقية . ومن المعروف فى تاريخ الـكنيسة ، أنه خلال العصور الأولى المسيحية ، برز زعماء روحانيون من أهل الولاية الأفريقية ، وصاروا أئمة فى اللغة اللاتينية والآداب اللاتينية فضلا

---

(١) Hodgkin, op. cit., P. 238.

(٢) Ibid.

عن الثقافة الدينية ، بل هنــاك مشرعون أفريقيون أمثال سالفيوس يوليانوس Salvius Julianus — جـد الإمبراطور ديديوس ســالفوس يوليانوس D.S. Julianus الذى جاء فيما بعد (ولد حوالى ١٣٣ م وتوفى ١٩٣م) — ؛ وقد اختار الإمبراطور هادريان (١١٧ — ١٣٩ م) ، هذا المشرع الأفريقى ، لجمع القانون وتبويبه ، فأنجز عمله فى عام ١٢٩[1] م . ومن أعلام زعماء الـكنيسة الأفريقيين من اللاتين : ترتوليان (١٥٠ — ١٢٢م) Quintus Septenus Tertulianus أعظم كتاب الـكنيســة القدماء ، لـكنه فى المنزلة الثانية بعد القديس أوغسطين ، وكيبريان Caecilius Cyprian القرطاجنى ، وهو الذى تولى أسقفية قرطــاجنة فى الفترة ما بين ٢٤٨ و٢٥٨ م واشتغل أستاذاً للبلاغة من قبل[2] وهناك أســتاذ البلاغة الآخر أرنوبيوس النوميدى Arnobius ، اشتهر عــام ٣٠٠ م . كذلك لأكتــانتيوس Lactantius Firmianus ، (٢٦٠ — ٣٤٠) وهو من كتاب الـكنيسة القدماء ، وأطلق عليه المعاصرون لقب « شيشرون المسيحى » وتنتهى قائمة هؤلاء العظماء الإفريقيين ، بالشخصيتين البارزتين وهما : مارتيانوس كابلا M. Capella والقديس أوروليوس أوغسطين St. Aurelius Augustinus ؛ وربما كان الأخير أعظم شخصية مسيحية أنجبتها أفريقية فى فجر العصور الوسطى[3] .

ألف مارتيانوس رسالة فى علم اللغات ، فى الفترة ما بين استيلاء الأريك القوطى على روما (٤١٠) وبين فتح جزريك الوندالى أفريقيــة (٤٢٩) ، ويحتمل أن هذه الرسالة هى التى حددت عدد الفنون الحرة بسبعة وهى : النحو والمنطق والبلاغة والهندسة والحساب والفلك والموسيقى[4] .

---

(١) Salmon, P. 310.

(٢) Bury, P. 91 ; Deanesly, P. 75.

(٣) Rand, E.K., Founders of the Middle Ages, (New York, 1957), PP. 251-266 ; Hodgkin, PP. 338-339.

(٤) Deanesly, P. 86 ; Deanesly, PP. 86-87.

أما أوغسطين الهيباوى (٣٥٤ — ٤٣٠م) ، فقد درس فى أفريقة النحو والأدب اللاتينى وكذلك البلاغة ، واشتغل أستاذا للبلاغة فى ميلان ، حيث تأثر بالأسقف العظيم أمبروز Ambrose ، صاحب الموقف الشهير مع الأمبراطور تيودسيوس الكبير ، كما تأثر بالأفلاطونية الحديثة Neoplatoniem ، وسمع لأول وهلة ، وهو فى ميلان ، بحياة النساك التى يحياها الرهبان المصريون ، ولاسيما الراهب أنطون ، واضع أسس الرهبانية الانعزالية ؛ ومن ثم ، عزم على العودة إلى أفريقية ليقيم نوعا من الحياة الرهبانية الاجتماعية ، ونفذ مشروعه عام ٣٨٨م ، وعين قسيسا فى كتدرائية هيبورجيوس ، وولى أسقفيتها عام ٣٩٦م على أثر وفاة أسقفها السابق فاليريوس Valerius ، وظل على ذلك حتى توفى خلال حصار الوندال لمدينته عام ٤٣٠م . وكان أوغسطين يعرف الفينيقية ،وهو الذى أصر على أن يلم القسس بهذه اللغة ، وكان مثالا للحياة النقية الطاهرة تشبها بالحواريين ، وأمد الكنائس الأخرى برجال الدين الذين دربهم وعلمهم ، فماش هؤلاء فى كنائسهم الجديدة على طريقته . ووضع قواعد regula فى أصول الديرية ، كما وضع قواعد لأصول حياة الراهبات 'regula Sororum' ، وكانت أخته رئيسة لجماعة مشابهة من النساء الناسكات ، ولما جاء الوندال قضوا على هذا النظام فى أفريقية ، فانتقل إلى أوربا مع تعديل يقتضيه جو أوربا ، كزيادة وجبتى الطعام اليوميةاللتين كانتا تكفيان الراهب فى اليوم ، ولكنهما لم تعود تكفيان فى جو أوربا.

ثم إن الكثير من الحركات الديرية مثل البريمونسترائية Praemon-stratensian والداوية Tempeliers والدومينيكانية ، قد أخذت أصولها من قاعدة أوغسطين ، ولهذا أثره فى مدنية العصور الوسطى ، لأن الأديرة كانت تضم مدارسا للتعليم ، وأدت ما نسميه اليوم بالخدمات الاجتماعية من تمريض ورعاية الطفولة والعواجز ، ونحو ذلك . ولذلك إذا عد القديس بندكت أبا الديرية الغربية ، فإن القديس أوغسطين يعد أبا للحياة الدينية المستقيمة لرجال الدين .

وأما كتابه عن « مدينة الله » De Civitate Dei ، فهو يساعد على تصوير جو التفكير الأوربى خلال العصور الوسطى ، ويتكون من ٢٢ جزءاً ، كتب فى الفترة ما بين ٤١٣ و ٤٢٦ م ، وطبع كل جزء على حدة ، ورد فيه أوغسطين على ما شاع فى أوربا يومئذ بأن سقوط روما على يد الأريك (٤١٠) دليل على غضب الله ، وأن ذلك منذر بانتهاء العالم ، وفى نظر الوثنيين كان ذلك إشارة لانتقام الآلة الوثنية القديمة بسبب اعتناق الأباطرة للديانة المسيحية ، وكان الأمبراطور يوليان الصابىء قد مات قبل أن يبدأ أوغسطين فى تأليف رسالته بأربعين سنة ، وظل أهل الريف يعتقدون فى قيمة الطقوس الوثنية القديمة .

أراد أوغسطين أن يوضح فى رسالته أمرين : أولهما أن الآلهة الوثنية لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً ولا دخل لها فى الخير أو الشر أو العدالة ، وأن الأمبراطورية الوثنية لا تفلح إذا افتقرت إلى العدالة ، والثانى أن روما مدينة أرضية : 'Civitas terrena' ، وهى زائلة ؛ ولكن مدينة الله C. Dei فهى خالدة باقية (١) .

وهكذا أنجبت أفريقية أعلاماً فى معظم الميادين ، نظراً لأن التربة الأفريقية صالحة للبذر والنماء ، بحيث أن الرومان لم يفعلوا أكثر من أنهم فرضوا إسمهم ولغتهم على ماهو قائم فعلاً ، كما يقول العالم الجرمانى ممسن Mommsen(٢) . والواقع أن الحضارة الرومانية فى أفريقية ، قد بنيت على تراث الحضارة الفينيقية القديمة ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

وإلى الأفريقيين كذلك ، يرجع الفضل فى إخراج الجزء الأكبر من الترجمة اللاتينية الأولى للانجيل ، وهى المعروفة باسم إيتالا Itala ؛ ولقد ظل قادة الفكر

---

(١) Courcelle, P., Histoire Litteraire des Grandes Invasions Germaniques, (Paris, 1948), PP. 49-55 ; Soannes, op. cit., PP. 46-64 ; Ch.-Andre, op. cit, PP. 219-230 ; Rand, E.K., op. cit.' PP. 251-271.

(٢) Hodgkin, op. cit., PP. 235-236.
دشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى (القسم الأول ترجمة زيادة والعرينى) ص ٢٤

فى القسطنطينية يعتقـدون ، حتى بعد غزو الوندال بقرن من الزمان ، أن أهل الولايات الرومانية فى أفريقية ، يتكلمون اللغة اللاتينية بطلاقة أكثر من سكان روما نفسها ؛ وظلت البلاغة اللاتينية تدرس على نطاق واسع فى ولايات أفريقية ، مما يدل على مدى تقـدم الحضارة الرومانية فيها ، ومع ذلك لم يبرز شاعر يشار إليه بالبنان فى ميدان الإنتاج اللاتينى الأفريقى ، فى رأى المؤرخ ممسن(١) .

*

على أن أحوال أفريقية الرومانية الاقتصادية قد ساءت خلال القرن الرابع الميلادى ، نتيجة لـكثرة المصادرات التى توالت منذ القرن الأول الميلادى ، ولا سيما زمن نيرون (٥٤ — ٦٨ م) ، وزمن هونوريوس (٣٩٥ — ٤٢٣ م) ، وكثرة تكوين الضياع الأمبراطورية Latifundia ؛ واقترن قيام هذه الضياع بعملية تحويل الفلاحين إلى أرقاء زراعيين للعمل فيها ، تحت إشراف موظفين فى غاية القسوة والعسف ؛ كذلك أضحى نظام الضرائب قاسياً لا يحتمل(٢) .

ومن الناحية الدينيـة ، اشتهرت البيئة الأفريقية بكثرة الآراء اللاهوتية ، والتعصب المذهبى ، وساد فى أفريقية خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، مذهب « الدوناتية » Donatism ؛ ظهر هـذا المذهب فى مطالع القرن الرابع الميلادى واستمر لمدة تربو على قرن من الزمان ، رغم ما تعرض له أصحابه من ألوان الاضطهاد والمطاردة ، وانتشر فى نوميديا وموريتانيا ، أكثر من غيرها من أملاك الرومان .

قام مذهب الدوناتية ، أصلا ، نتيجة لجدل محلى حول تعيين أحد الأساقفة فى منصبه ، وعما إذا كان جديراً بمنصبه أم لا ؛ ثم تطور الجـدل فتناول بعض

---

(١) Ibid, P. 239.

(٢) Salmon, op. cit., P. 309 ; Ch.-André, PP. 148-166, 193 ; Hodgkin, PP. 236-237.

المسائل المتعلقة بطبيعة الكنيسة ووظائفها الأصلية . اختلف الرأى بصدد رسم الأسقف كايكيليان Caecilian فى أسقفية قرطاجنة عام ٣١١ م ، فقد رسمه فيلكس Felix أسقف ابتونجا Aptunga دون انتخاب عام . احتج أساقفة نوميديا على طريقة التعيين فضلا عن عدم لياقة كايكيليان لمنصبه ، و يضاف إلى إلى ذلك أن كايكيليان متهم بالخيانة تزعم حركة المعارضة سكندوس Secundus رئيس أساقفة نوميديا ، وقام على رأس ٧٠ أسقفاً وتوجه إلى قرطاجنة وعزل كايكيليان وحرمه من الكنيسة وعين بدلاً منه ، فانقسمت الكنيسة فى شمالى أفريقية إلى حزبين متناحرين ، وطلب كل حزب تدخل الأمبراطور قسطنطين الأكبر ، وتجاهلوا المبدأ القائل بعدم تدخل الأمبراطور فى شئون الكنيسة : 'Quid Imperatori cum Ecclesia' ، فأمر قسطنطين بعقد مجمع دينى ، أقر صحة تعيين كايكيليان ، وأدان المعارضين ولا سيما زعيمهم الذى اشتهر فى ذلك الوقت وهو مايورينوس Majorinus ، الذى دفعته حماسته وتعصبه إلى إعادة تعميد المسيحيين وإعادة رسم الأساقفة الذين ناصروا خصومهم أولا . ثم جاء فى زعامة المعارضين شخصية قوية ، هى شخصية دوناتوس العظيم : Donatus Magnus ، ويحتمل أن اسمه هو الذى أطلق على هذه الجماعة ؛ أصدر الأمبراطور قسطنطين قراراً بحرمان الدوناتيين من الكنيسة إذا لم يعدلوا عن آرائهم ، واستهدفوا بعد ذلك إلى الاضطهاد(١) .

والملاحظ أن مذهب الدوناتية ، ليس هرطقة أو بدعة ، ولم يؤد إلى قيام تعاليم جديدة ، أو نزاع حول العقيدة ، ولكنه حركة لمقاومة التطور العلمانى الذى كانت تسير فيه الكنيسه ، مما يؤدى إلى تحويلها من مجتمع لأشخاص مقدسين إلى مجتمع لطائفة مضطربة مختلفة إلا أنهم كانوا ينكرون صحة التعميد إذا تم على يد قسيس ارتكب خطيئه من قبل(٢) وكان الدوناتيون أكثرية فى مدينة

---

(١) Encyclopedia of Religion & Ethics Art. "Donatists".

(٢) Villari, P. The Barbarian Invasion of Italy (Lond., 1902), PP. 93-95.
فشر (نفسه) ص ٩ حاشية (١) .

هيبو حتى أنهم قطعوا الخبز عن الكاثوليك ، ولم يضعفهم سوى مقاومة الدولة لهم ومناقشات القديس أوغسطين المفحمة . وزاد فى إضعافهم مافعلوه فى عام ٣٩٠ م عندما عقدوا مجمعاً دينياً قرروا فيه إعدام العالم النحوى الشهير تيكونيوس Tychonius لأنه اعترف بوجود قديسين بين الكاثوليك ، أدى هذا الحادث إلى وقوع انقسام بين صفوفهم . وفى عام ٤١١ م عقد القديس أوغسطين مجلساً للمناظرة بين الكاثوليك والدوناتيين ، حضره ٢٨٦ أسقفاً من الكاثوليك ، ٢٧٩ أسقفاً من الدوناتيين ، لكن المحاولة لم تحسم الخلاف .

صدرت تشريعات إمبراطورية لاضطهاد الدوناتيين عام ٤١٥ م زمن الإمبراطور هوزيوس ، حرمت عليهم عقد الاجتماعات ، وتضمنت مجموعة قوانين تيودسيوس الثانى (٤٠٨ — ٤٥٠ م) تشريعات ضدهم فحددت المادة ٥٤ الغرامات التى يدفعها المتهم بالدوناتية ، وتدرجت هذه الغرامات من مبلغ يعادل ٨٠٠٠ جنيه استرلينى إلى ٢٥ جنيهاً وذلك بحسب مركز المتهم الاجتماعى ؛ كذلك حرم عليهم بيع وشراء وتوريث العقارات ، ودخول الأماكن العامة ، ومصادرة كنائسهم وأعضاؤها الكاثوليك(١) .

وهكذا كانت الكراهية على أشدها بين صفوف المسيحين الرومان فى أفريقية الرومانية عند دخول الوندال ، مما سهل مشروع الوندال الأفريقى .

— ٢ —

الوندال فريق من الجرمان الشرقيين الذين أقاموا بصفة عامة خلال القرن الثانى الميلادى ، شرق نهر الألب ، Albis ، وانتشروا فى المنطقة الفسيحة بين نهرى الألب والفستولا وبين البحر البلطى والبحر الأسود .

---

(١) Encycl. of Rel. & Ethics, Art. "Donatists"; Hodgkin, PP. 267-8;
بيتز : الإمبراطورية البيزنطية (ترجمة مؤنس وزميله) ص ١٠٦
C. Med H.. (Sh.), I, PP. 14-30; Ch.-André, PP. 213-18;

والمعروف منذ القرن الرابع الميلادى أن الجرمان عامة انقسموا إلى ثلاثة أقسام كبرى هى: الشرقيون والغربيون والإسكندناويون؛ وعلى حين بقى الإسكندناويون فى بلادهم الشمالية ، حيث تفرعت عنهم الأمم الحالية فى السويد والنرويج والدانمارك ، ارتحل أشقاؤهم من الشرقيين والغربيين ، وزحفوا على أوربا ، حيث تكونت منهم الدول الأوربية الحديثة(١) .

واشتهر الشرقيون بصفة خاصة ، بكثرة استعدادهم عن غيرهم للنقلة وتغيير مساكنهم بحثاً عن أراضى أغنى وأخصب ، وهم الذين حطموا الإمبراطورية الرومانية الغربية ، قرب نهاية القرن الخامس الميلادى(٢) .

ويدعى الوندال ، كغيرهم من الشعوب القديمة ، أنهم ينتسبون إلى أصول مقدسة ، وجدهم الإلهى هو الإله هرمينو Hermino ابن الإله مانوس Manus ; ابن الإله تويستو Twisto (٣) . وكتب مؤرخو اللاتين اسم الوندال بأشكال مختلفة منها : Vandili — Vandilü — Vanduli — V andali
أما مؤرخوا الأغريق فقد أشاروا إليهم بلفظتى : Bandiloi ,Bandeloi(٤) .
ويقال أن كلمة الوندال ، مشتقة أصلاً من الفعل الألمانى Wendeln بمعنى: يتجول

---

(١) Barg, M. (C. Med· H.), Vol. I, PP. 183-185.

Hubert, H., Les Germains, PP. 15-32 ; Karsten, T.E., Les Anciens Germains, PP. 123-28 ; Lot, F., Les Invasions Germaniques, PP. 30-32 ; C. Med. H. (Sh.), I, PP. 38-39 ;

فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى (ترجمة الدكتور زيادة والدكتور العرينى ١ ص ١٦ .

(٢) طرخان : نهـاية الإمبراطورية الرومانية فى الغرب – ٤٧٦ م (بحث نشر بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة بالعدد التذكارى للمرحوم الأستاذ شفيق غربال – ١٩٦٢) ؛
Painter, S., History of the Middle Ages, PP. 18-20

(٣) تاكيتوس والشعوب الجرمانية (ترجمة وشرح الدكتور إبراهيم طرخان –مصر ١٩٥٩) ص ٤٨ ؛ Lot, op. cit., PP. 31-32.

(٤) Gautier, E.F., Gensric,s ;Roi des Vannoles, P. 91.

أو يرحل(١) . وهم فرعان : الأسـديون Asdingi والسيليون Silingae ؛ ويهمنا الفرع الأول بصفة خاصة ، لأنه الفرع الذى ينتمى إليه الملك جزريك ، مؤسس دولة الوندال الجرمانية فى شمالى أفريقية الرومانى ، كما أن القوم الذين قادهم جزريك واستقر بهم المقام فى شمالىأفريقيـة ، هم من الفرع الأسدى . أما المجموعة السيلية فلم تر أفريقية ، وإلى هـذه المجموعة الأخيرة ينتسب إقليم سيليسيا ، لإقامتهم فيه فترة من الزمن ، ولعل هذا هو الأثر التاريخى الوحيد الباقى لهذا الفرع ، وهناك من يقول أن سيليسيا مشتق من إسم العناصر الهيلية أو الأيلاسية Elysii or Helisii ولـكن النسبة إلى الفرع السيامى أرجح(٢) .

على أن السيليين والأسديين(٣) ، لا يتميزون عن بعضهم البعض ،فـكلاهما من الوندال،وإنما هذه التسمية راجعة إلى اسم الأسرة الحاكمة التى اشتهرت فى كل فرع ، وينتسب الملك جزريك إلى أسم الأسرة الأسدية ، كما انتسب ملوك القوط الغربيين إلى الأسرة البالطية Balthings وملوك القوط الشرقيين إلى الأسرة الأمالية Amalings وملوك الفرنجة الأوائل إلى ميروفنش Merovich ، ويقال أن أسلاف الوندال القدماء هم الهاربون Harii أو الأريين Arii (٣).

سكن الوندال بفرعيهم ، أول الأمر ، فيما هوتقريباً براندنبرج وبومرانيا ، أى فى الجزء الأوسط والشرق من بروسـيا ، وذلك زمن المؤرخ بلينى Pliny (ت حوالى ١١٥م) والمؤرخ تاكيتوس Tacitus (ت حوالى ١٢٠ م)(٤) .

---

(١) Karsten, op. cit., PP. 217-18.

(٢) Thomson, op. cit., P. 246 ; Mattingly, H., Tacitus on Britain & Germany, P. 169.

(٢) إبراهيم طرخان : دولة القوط الغربية – مصر ١٩٥٨ . ص ٣٦ ، ٦٤ ؛ تاكيتوس والشعوب الجرمانية فقرة (٤٣) ص ٩٤ ، ص ١٥٤

Gautier, op. cit. P. 92 ;,

(٣) راجع : تاكيتوس والشعوب الجرمانية فقرة « ٢ » ص ٤٨ ؛

Karsten, op. cit., P. 218 ;

وكانوا فى أول عهدهم التاريخى حلفاء للقوط الذين دفعوهم من مواطنهم الأصلية حول البحر البلطى، كما يقول المؤرخ القوطى جوردين Jodranes (ت فى القرن السادس الميلادى[١]) . وبدأت حركات الوندال الأسديين ، نحو الجنوب خلال القرن الثانى الميلادى ، وظهر خطرهم لأول مرة حوالى عام ١٦٧ م ، إذ حدث فى ذلك العام،أن تحرك فرعان من القبائل الجرمانية هما : الماركومان والكوادى ، ومعهما بعض القبائل الصغيرة من بينها الوندال[٢] . وصل الوندال إلى حدود بوهيميا ، حيث تركوا اسمهم على الجبال التى تفصل بين سيليسيا وبوهيميا ؛ ومن ثم عرفت باسم جبال الوندال Vandalici Mountes، وهى المعروفة حالياً باسم : Risen Gebirge[٣] ، ومعناها : الجبال الشاهقة . كان الوندال فى حركتهم هذه بقيادة زعيمين هما : أمبرى Ambri وأسى Assi ، واشتبكوا فى معركة ضد جيرانهم اللومبارد ، خرجوا منها مهزومين[٤] .

وكلما ازداد ضعف الأمبراطورية الرومانية ، كلما توغل الوندال جنوباً ، فساروا نحو حوض الدانوب الأوسط ، ضمن جموع الماركومان ، ودفعوا أمامهم قبائل الإزايجيين Izayges البدو الذين اجتاحوا داكيا[٥] . وفى حوض الدانوب ، انبرى الأمبراطور الفيلسوف ماركوس أورليوس M. Aurelius (١٦١ — ١٨٠ م) لحرب الوندال أولا ، وذلك عام ١٦٨[٦] ، وفى نهاية الحرب عقد مع فرع الأسديين منهم ، هدنة ، منحهم بمقتضاها سكناً فى أقليم داكيا Dacia ؛ ويقال أن الوندال كانوا فى هذه الحركة الأخيرة بقيادة اثنين من

---

(١) Hodgkin, op. cit., P. 214;

(٢) Cary, M., A History of Rome Down to the Reigh of Constantine, P. 655.

(٣) Williams, H.S. (Edit.), The Historians History of the World, Vol. VI, P. 598.

(٤) Moss, H. St. L.B., The Birth of the Mid. Ages, PP. 47- 8 ; Hodgkin, op. cit., P. 214.

(٥) Cary' op. cit. P. 655.

(٦) Villari, op. cit., P. 69.

زعمائهم هما : راؤس Räus ورابتوس Rapetus . وظل الأمبراطور أورليوس يتردد على منطقــة الدانوب حتى وفاته فى فندبونا (فيينا) فى عام ١٨٠م ؛ ولما خلفه ابنــه كومودوس Commodo (١٨٠ — ١٩٢ م) ، عقــد هدنة مع الماركومان ، وحرم عليهم الاعتــداء على الوندال ، الذين أضحوا فى حماية الرومان(١) .

ظل الوندال هادئين لفترة من الزمن فى مقامهم المعترف به فى داكيا شمالى الدانوب ، حتى استطاع الأمبراطور كاراكالا Caracalla (١٨٦ — ٢١٧م) أن يكتب إلى السناتو فى إحدى رسائله عام ٢١٥م ، بأنه نجح فى التفرقة التامة بين الوندال والماركومان ، وهم الذين كانوا فى حلف معاً ضد الرومان ؛ غير أن الوندال ، وقد دأبوا على النقلة وعــدم الاستقرار فى مكان معين ، استأنفوا حركاتهم وعبثهم بأراضى الأمبراطورية ، حتى اضطر الأمبراطور أورليان Aurelian (٢٧٠ — ٢٧٥م) « معيد بناء الأمبراطورية » ، إلى حربهم وهزيمتهم فى عام ٢٧١م ؛ لا نعلم شيئاً عن الموقعة ؛ ولــكن الذى نعلمه هو المفاوضات التى أعقبت الوقعــة ، إذ أرسل الوندال سفراءهم لطلب الصلح من الرومان ، ووافق الأمبراطور ، بشرط أن يرسل الوندال رهائن من أشرف بيوتهم ، من أبناء ملوكهم ونبلائهم ؛ تم الصلح وعاد الوندال إلى الاستقرار فى داكيا ، حيث أمدهم الأمبراطور أورليان بالمؤن الكافية ؛ وحرص الوندال على تنفيذ شروط المعاهدة ، وبلغ من شدة حرصهم ، أن ملك الوندال أصدر أمراً بأعدام كل وندالى يقوم بالتخريب فى أراضى الأمبراطورية ، وجاء ذلك الأمر على أثر قيام نحو خمسمائة من مخربى الوندال واجتياحهم لأقليم مؤيسيا(٢) .

---

(١) Hodgkin, op. cit., PP. 214-15.

(٢) أنظر الخريطة

Souttar' R., A short Hist .of Mediaeval Peoples, P. 327.

كان من بين شروط هذه المعاهدة، أن يقدم الوندال إلى الرومان فى كل سنة : ألفين من فرسانهم جنوداً معاهدين Foederati ، Leati أى auxiliaries وذلك للخدمة فى الجيش الرومانى ؛ أوفى الوندال بهـذا الشرط ، بدليل أن سجلات الجيش الرومانى فى مطلع القرن الخامس الميلادى ، أشارت إلى أن : « الجناح الثامن الوندالى الذى يعمل فى مصر » ، وهو يتكون من ستمائة فارس :
"Sub dispositione viri spectabilis comits rei militaris per Aegyptum: Ala Octava Vandilorum Neae".(١)

وهذا ما أتاح الفرصة أمام ستيليكو Stilicho الوندالى ، لأن يرقى إلى أعلى المناصب الحربية فى الأمبراطورية الرومانية الغربية ، بل إلى أن يتحكم فيها فترة من الزمن(٢) .

وبعد ذلك بسنوات قليلة ، يبدو أن كان هناك قسم من الوندال السيليين يتجول نحو الراين ، مع فريق من البرجنديين — الذين أشار إليهم المؤرخ بليني بأنهم فرع من الوندال — ، فتصـدى لهم الأمبراطور بروبس Probus (٢٧٦ — ٢٨٢م) وأوقع بهم هزيمة كبرى ، انجلت عن قتل الكثير وأسر القليل ، وكان من بين الأسرى ايجيل Igil ، القائد الوندالى ، أرسل الأمبراطور هؤلاء الأسرى جميعاً إلى بريطانيا فى عام ٢٧٧ م ، ليقيموا فيها ، ويقال أن الحصن الذى أقيم على تلال جوماجوج Gomagog بالقرب من كمبردج ، بناه أولئك الأسرى الوندال ، ولذا عرف باسمهم : Vandalbury (٣).

وقرب نهاية حكم الأمبراطور قسطنطين الأكبر (٣١٣—٣٣٧م) ، قامت أزمة حول مصائر الوندال المقيمين فى بعض أجزاء داكيا شمالى الدنواب، ويجاورهم من الغرب ماركومان بوهيميا ، ذلك أن نزاعاً شب بين القوط القاطنين شرق

---

(١) Hodgkin, op. cit.

(٢) Maritius, M. (C. Med. H.) Vol. I, P. 269.

(٣) Stephenson, C., Mediaeval Europe, P. 51 ; Hodgkin, P. 217.

الوندال ، وملك القوط يومئذ هو جبريك Geberic ، و بين الوندال، وملكهم المعاصر فيسومار Visumar ، انتهى ذلك الصراع بانتصار القوط وإبادة معظم الوندال وقتل ملكهم ، وذلك فى الفترة ما بين ٣٣١ ؛ ٣٣٧ م ، التمس الناجون من الوندال ، من الامبراطور قنسطنطين ، أن يمنحهم موطناً جديداً داخل أراضى الأمبراطورية ، وتعهدوا أن يكونوا رعاياه الأوفياء ، ويشبه هذا الموقف ، ما حدث للقوط يوم التمسوا مثل هذا الموطن خشية من بطش الهون فيما بعد[١] .

وافق الأمبراطور قنسطنطين ومنح الوندال وطناً فى ولاية ، بانونيا Pannonia فى وادى الدانوب ، وهى المجر الحالية تقريباً[٢] ؛ وفى هذا الموطن الجديد ظل الوندال نحو سبعين سنة ، على طاعتهم للأمبراطورية الرومانية . وخلال هذه الفترة أخذ الوندال ببعض أهداب الحضارة الرومانية[٣]، ومن غيرشك اعتنقوا المسيحية على المذهب الأريوسى وكان جيرانهم القوط قد اعتنقوها بفضل المبشر القوطى أوليفلاس ، واستفاد الوندال من ترجمة أوليفلاس للأنجيل إلى اللغة القوطية ، حتى أنهم حملوا معهم هذه الترجمة عندما رحلوا بعد ذلك إلى أسبانيا[٤].

ولما كانت الأمبراطورية الرومانية قد تدهورت زمن الأمبراطور هونوريوس Honorius (٣٩٥ — ٤٢٣م) ، وكان الهون Huns التتار ، قد غزوا ماهو المجر الحالية ، قرر الوندال فى عام ٤٠٦ م أن يبحثوا عن وطن جديد غير بانونيا[٥] ؛ فتحالفوا مع أشقائهم السيليين الذين كانوا يقيمون فى ذلك الوقت مع البرجنديين فى وادى نهر المين Maine ، وانضم إليهم السويف الجرمان والألان

---

(١) دولة القوط الغربيين ص ٥١ ؛ ولنفس المؤلف : القوط والإمبراطورية الرومانية حتى نهاية القرن الرابع الميلادى (المجلة التاريخية المصرية العدد السابع ١٩٥٨) — ص ٤٠ وما بعدها .

(١) Souttar , op. cit., P. 327.

(٢) Villari, op. cit., P. 96.

(٣) Gautier, op. cit., PP. 85-88 : Hist. History, P. 598.

(٤) Hodgkin, op. cit., PP. 217-218.

(٥) Lot, op. cit., P. 78.

Alani الأيرانيون ، وتحركت هذه الجموع نحو الشمال الغربى ، إلى الراين ، يريدون نهب غالة البلجيكية ؛ وفى دلك الوقت كان ستيليكو الوندالى ، كبير مستشارى الأمبراطور هونوريوس ، قد اتهمه حساده ومنافسوه ، بأنه هو الذى دعا الوندال للهجوم على الأمبراطورية ، ويبدو أن هذه التهمة غير صحيحة(١) ، والأرجح أنه استعان بهم ضد الفرنجة فى غالة .(٢)

ليست لدينا معلومات كافيــة عن القتال الذى شب بين الوندال و بين الفرنجة فى غالة ، غير أنه عندما ظهر هؤلاء البرابرة على الشاطىء الأيمن للرين ، قرب مدينــة ماينز فى ديسمبر من ذلك العــام ، لم يكن الرومان قوات كافية فى شمــالى غالة ، ولذلك عهد الرومان إلى أحلافهم المسيين المســاهدين ، وهم مزيج من الفرنجة الجرمان ، بمحــاربة الغزاة ، وانتهت الحرب بهزيمة الوندال(٣) ، وقتــل ملــكهم الأســـدى جودجسكلس Godigisclus أو Godegisel عام ٤٠٦ م وقتل معه نحو ألفين من رجاله ، ولم ينقذ الوندال من الإبادة سوى وصول أحلافهم من الآلان فى الوقت الملائم . وهذا الملك القتيل هو أبو جزريك ، وكان لمصرعه على مشهد منه ، على يد الفرنجة ، أثره فى الروح الإنتقامية التخريبية التى عرف بها جزريك بصفة خاصة(٤) .

عبر من نجا من الوندال نهر الراين ، ودخلوا غالة ، حيث ظلوا نحو ثلاث سنوات ينهبون فى مدن الغال . وكان يلى أمر الوندال يومئذ الملك جونثريك Guntheric ابن القتيل وأخو جزريك ، قاد هــذا الملك قومه وأحلافه من السويف والآلان ، فى عام ٤٠٩ م ، وتحرك بهم نحو الجنوب ، بحثاً عن جو صحو

---

(١) Hist. History, op. cit., P. 598 ; Pirenne, H., A History of Europe from theInvasions to the 16th century, (Lond.), 1936), P. 28.

(٢) Hodgkin, PP. 219-220.

(٣) Lot, op. cit., PP. 79-80.

(٤) Gautier, op. cit., PP. 99, 111.

مشمس ، وهو الجو الذى طالما أغرى البرابرة ، وكان له أثر كبير فى تحركاتهم . ووصلت هـذه الجموع إلى جبال البرانس وأخذت تقرع أبواب أسبانيا فى الفترة مابين ٢٨ سبتمبر ، ١٣ أكتوبر من عام ٤٠٩م، وبدا عجز القوات الأمبراطورية الرومانية ، فلم تفلح فى ردها أو مقاومتها[١] .

دخل الوندال وأحلافهم أسبانيا ، عن طريق بوردو إلى بامبلون (بنبلونه) ثم تتبعوا الطريق الرومانى الـكبير إلى براجا (برغش) وليون وزامورة وسلامنكة (طلمنـكة) فماردة فأشبيليـة[٢] . وقد تبع الوندال وأحلافهم ، إلى أسبانيا ، برابرة آخرون ، هم القوط الغربيون ، بقيادة ملـكهم آتولف ، وحاربوا الوندال باسم الرومان ، ومن أجل مطامعهم الشخصية ، وهزموهم أكثر من مرة ، حتى قيل : إن الوندال ليسوا محاربين من الدرجة الأولى[٣] . وأدى هذا الصراع إلى تخريب الولايات الخصيبة المثمرة ، مما أضر بالمنتصر والمهزوم على السواء ، بل لقد بلغ الأمر بالجيش الوندالى، أن كان يشترى مكيال الدقيق بما يعادل نحو ٣٦ شلناً، ويقال ، إن أماً وندالية ذبحت أطفالها وأكلتهم[٤] .

لم يكن أمام الأمبراطور هونوريوس ، إلا أن يعترف بالأمر الواقع ، ويذكر المؤرخ بروكبيوس Procopius أن الأمبراطور عقد مع الوندال ما يشبه الهدنة أو المعاهدة ، سمح لهم بمقتضاها ، أن يقيموا فى أسبانيا بشرط ألا يقوموا بنهب أو تخريب أو اعتداء[٥] . وهكذا استقر الوندال بفرعيهم السيلى والأسـدى ، فى أسبانيا ، فاستوطن الفرع الأسدى منطقة غاليسيا Golloecia فى الشمال

---

(١) Deanesly, op. cit., P. 75 ; Villari, op. cit., P. 96 ; Karsten, op. cit., 219 P. Davis, R.H.C., A Hist. of Mediaeval Europe (Lond., 1957), P. 23; Boissonnade, P., Life & Work in Mediaeval Europe, (Lond.), 1937),; PP. 15-16.

(٢) Gautier, P. 102 ; Souttar, P. 327.

(٣) Villari, op. cit.' P. 96 : Schmidt, op. cit., P. 304.

(٤) Hodgkin, P. 221.

(٥) Hist. History, P. 598.

الغربي ، وبجوارهم السويف[١]. أما الفرع السيلي فأقام في منطقة بايتيكا Baetica وهي التي عرفت باسم الوندال ، فصارت « الأندلس » وهنا من المؤرخين من يشك في نسبة الأندلس إلى الوندال ، ويقول إن كلمة الأندلس Andalusia أو Handalusia ، ليست سوى الصيغة العربية لكلمة هسبريا Hesperia التي أطلقها المغاربة أصلاً على كل أسبانيا[٢]. والراجح أن الأندلس نسبة للوندال الذين أقاموا فيها فترة من الزمن . أما العناصر البربرية الأخرى التي صحبت الوندال في اقتحامهم أسبانيا ، أو جاءت في أعقابهم ، فهي الآلان الإيرانيون الذين أقاموا في البرتغال ، والقوط الغربيون الجرمان الذين استقروا في الشمال الشرقي من أسبانيا[٣] .

وحدث في عام ٤١٦م أن قبض الضابط الروماني قنسطانطيوس[٤] . على فرديبال Fredibal ملك الوندال السيلين ، بطريقة خادعة ، وأرسله إلى الأمبراطور هونوريوس ، واحتفل هورنويوس بهذا النصر في العام التالي ، وسيق الأسير أمام عربة الأمبراطور في موكب النصر . والواقع أن الخطر الحقيقي الكامن على الوندال في أسبانيا ، لم يكن من جانب الأمبراطورية الرومانية

---

(١) نظر الاستقرار السويف في غاليسيا ، وهي التي عرفها العرب باسم « جليقية » ، عرف السويف كذلك ، في الكتب العربية ، باسم « الجلالقة » .

(٢) Hodgkin, P. 223, N. I; Hartmann, R., Art. 'Andolusia' (Encycl. of Islam).

(٣) راجع دولة القوط الغربيين ص ٨٥ — ٩٣ .

(١) القائد قسطانطيوس ، شجاع مظفر ، خدم الإمبراطور هونوريوس ، تزوج من بلاسيديا Balcidia أخت الإمبراطور وإبنة تيودسيوس العظيم : وذلك على كره منها ، تم الزواج عام ٤١٧ عقب عودتها من بلاط القوط الغربيين حيث كانت أسيرة ، بعد أن كانت متزوجة من أتولف ملك القوط الغربيين ، الذي أحبته ، وأعيدت عند ما تم تبادل الأسرى . وزواج قسطانيوس منها صار شريكاً للأمبراطور في الحكم باسم قسطانطيوس الثالث ، ولكنه لم يلبث أن مات بعد أن أنجبت له ولداً ، هو الذي صار الإمبراطور فالنتنيان الثالث وهو طفل بوصاية أمه بلاسيديا ، ولهذه السيدة الوصية أثرها الكبير في دعم التعاون بين بلاط القسطنطينية وبلاط رافنا ، وكذلك في ضياع أفريقيــة الرومانية على يد الوندال بسبب سوءتدبيرها .
Hist. History, P. 572; Schmidt, op. cit., PP. 275-599.

المهارة ، وإنما جاء من ناحية القوط الغربيين ، وملكهم يومئذ والياً Wallia (٤١٥ — ٤٢٠م) ؛ ففي عام ٤١٨م ، قضى القوط نهائياً على الوندال السيلين في الأندلس ، كما قضوا على الآلان في البرتغال ، واستطاع من نجا من الآلان ، أن يفر إلى الوندال الأسديين في غاليسيا حيث اندمجوا فيهم ، حتى أضحى ملك الوندال في غاليسيا يعرف باسم « ملك الوندال والآلان » Rex Vandalorum et Alanorum[1] .

وفي الحرب التي شب أوراها في غاليسيا عام ٤١٩م بين السويف من جانب ، وبين الوندال الأسديين وحلفائهم الآلان من ناحيـة أخرى ، انتصر الوندال بقيادة ملـكهم جوندريك ، فهرب ملك السويف هرمانريك Hermanric بقومه أمام بطش الوندال ، وانحازوا إلى منطقة اشتوريا الجبلية في أقصى شمالي أسبانيا[2] . فتعقبهم الوندال وحاصروهم ، ولم يرفع الوندال حصارهم إلا عنـدما تدخل الـكونت استوريوس Asterius الحاكم الروماني في أسبانيا ؛ استجاب الوندال وتركوا السويف ، لـكنهم توجهوا مباشرة إلى منطقـة بايتيكا (الأندلس) في الجنوب ، واستقروا فيها في ذلك العام (٤١٩) ؛ أي أنهم حلوا مكان أشقائهم السيلين السابقين ، ويحتمل أنه كان في هذه المنطقة قلة باقية من السيلين ، لم تلبث أن اندمجت وذابت في الأسديين[3] . ومن هذا المكان بدأ الوندال يتطلعون إلى البحر الأبيض والمحيط الأطلسي ، كما بدأوا يحلمون بالعظمة البحرية .

غير أن بلاط رافنا لم يقف مكتوف الأيدي أمام تقدم الوندال السريع الظافر في أسبانيا ، فقرر في عام ٤٢٢ م ، وهي آخر سنوات حكم الأمبراطور هونوريوس ، المغلوب على أمره ، أن يقوم بتحرير بايتيكا ، وانبرى لهـذا

---

(١) Gautier, PP. 103-105.

(٢) Gibbon, Ed., Decline & Fall of the Roman Empire, (Lond., 1954), III, P. 328.

(٣) Hodgkin, P. 224.

المشروع القائد العام للجيوش الرومانية ، وهو قسطينوس Castinus ، وكان القوط الغربيون يساعدونه فى حرب الوندال ، وكاد قسطينوس ينتصر ، لولا الانقسام الذى مزق هيئة القيادة الأمبراطورية ، مما أغضب بونيفاس Bonifacius وهو الذى يلى قسطينوس فى القيادة العامة ؛ ورغم أنه أشجع ضباط الأمبراطورية.

ورغم أن بونيفاس أشجع قادة الأمبراطورية ، وأكفأ من رئيسه ، إلا أنه لم يحتمل غطرسة قسطينوس ، فانسحب فى هدوء وعبر إلى أفريقية ، التى وليها فيما بعد من قبل بلاسيديا وابنها فالنتنيان الثالث[١] . ومع قيام هذا الانقسام ، انتصر قسطنيوس فى أول الأمر على الوندال ، وحاصرهم فى إحدى مدن بايتيكا ، حتى قاسوا من الجوع ، وكانوا على وشك الاستسلام ، لولا حماقته وتسرعه فى الدخول فى معركة مع قوم جياع ، وذلك فى الوقت الذى خدعه فيه حلفاؤه من القوط ، فانهزم هزيمة منكرة وفر إلى طركونه Tarragona[٢] .

لم يقنع الوندال بمنطقة بايتيكا كدولة لهم ، بل أخذوا على أثر انتصارهم على الرومان ، يغيرون على البلاد والموانى ، فنهبوا ميناء قرطاجنة الجديدة بأسبانيا ، كما نهبوا أشبيلية ، ودمروا ولاية طركونة ؛ وتعقب الوندال ضحاياهم من الأسبان الذين هربوا لاجئين إلى جزر البليار ، فاستولوا على هذه الجزر عام ٤٢٥ م ، وتشمل جزر البليار : ميورقه Majorca ومينورقه Minorca ويابسة . ومن المحتمل أن الوندال استولوا على بعض السفن فى الموانى التى استولوا عليها ؛ وبهذا

---

(١) على أثر وفاة الأمبراطور هونوريوس فى عام ٤٢٣ م قامت مشكلة حول ولاية العرش ، فهناك فالنتنيـــان الثالث بن بلاسيديا ، وعمره ٤ سنوات ، يعيش مع أمه منفياً فى القسطنطينية ، ومعنى توليته تدعيم الصداقة بين الشرق والغرب ، وهذه أمنية عزيزة للحزب المنادى بتوليته ، ولكنها تؤدى فى نفس الوقت إلى منافسة ونزاع مسلح بين الأوصياء ، نظراً لصغر سنه . والرأى الثانى انتخاب إمبراطور من غير الأسرة الأمبراطورية ، وهذا ما يزكيه قسطنيوس القائد العام فى الغرب ، نجح هذا الرأى وتولى حنا رئيس الموثقين ، وهو رجل بيروقراطى مجرب ، ولكنه آلة فى يد القائد العام (C. Med. H. (Sh.), I, P. 88).

(٢) Gibbon, op. cit., PP. 328-29.

الوضع الجديد ، تحول الوندال إلى أعمال القرصنة فى البحر ، بل امتدت غزواتهم إلى ولاية مرطانية Mauritania الأفريقية ، عبر الزقاق[١] . ولكن يبدو أنه لم يكن لهم هدف واضح يومئذ فى الاستقرار على ساحل أفريقية الشمالى .

* * *

وبعد أن استقر الوندال « معاهدين » فى أسبانيا نحو عشرين سنة ، من ٤٠٩ إلى ٤٢٩م . حان الوقت الذى اضطر فيه الكونت بونيفاس حاكم أفريقية الرومانى (٤٢٢ — ٤٣٢م) إلى دعوتهم إلى أفريقية .

وتفسير ذلك : أن الأمبراطور تيودسيوس الثانى (٤٠٨ — ٤٥٠م) ، أمبراطور القسم الشرقى من الأمبراطورية الرومانية . صمم على إحياء الأمبراطورية الرومانية بشطريها ، وتوحيدها تحت سيادته ، فأرسل جيشاً ، تحت إمرة أقدر قواده ، وهما أردا بوريوس Ardaburius الآلانى وابنه أسبار Aspar وتتلخص مهمة هذا الجيش فى طراد الأمبراطور « حنا الموثق » الذى عينه قسطينوس وتولية فالنتنيان الثالث ابن عمته بلاسيديا . تحمس تيودسيوس لهذا المشروع وكاد يتولى قيادة الجيش بنفسه ، لولا نصيحة الأطباء له رعاية لصحته[٢] . نجح الجيش فى القضاء على حنا وقتله عام ٤٢٥ وكان المتحكم فى القسم الغربى من الأمبراطورية آنذاك ، القائد العظيم أيتيوس Aëtius ؛ فلما رأى انتصار جيش الشرق ، اقتنع بما تم ، رغم أنه كان من أنصار حنا ، وأنجده بنحو ٦٠ ألف من مرتزقة الهون . قبل أيتيوس أن يتولى منصب القيادة العامة فى الغال بلقب « كونت » ؛ وتمت مراسيم تتويج فالنتنيان الثالث فى عام ٤٢٤ م فى إيطاليا ؛ والملاحظ ، أن تيودسيوس الثانى ، رأى ألا يرهق نفسه بتحمل أعباء الغرب ومشاكله ، فضلا عن أخطار البرابرة المحدقة به فيما وراء الألب ، ولذلك اطمأن

---

(١) Deanesly, op. cit., P. 76 ; Lot, op. cit., P. 87.

(٢) Hist. History, P. 573.

بولاية ابن عمته ، وزوجه من ابنته فيما بعد ؛ وحكم فالنتنيان الثالث من ٤٢٥ م إلى ٤٥٥ م(١) .

وفى نظير جهود الأمبراطور تيودسيوس الثانى فى تولية فالنتنيان الثالث ، تنازلت الأمبراطورية الغربية له عن إقليم الليريا الغربى ؛ ومعنى هذا ، انضمام دالماشيا البحرية الغنيـة ، وكذلك تنازلت الأمبراطورية الغربيـة عن بانونيا ونوريكوم للأمبراطورية الشرقيـة . ولما كان عمر فالنتنيان الثالث عند ولاية العرش ، ست سنوات ، فقد قامت أمه بلاسيديا وصية عليـه بلقب أوغسطا Augusta ؛ وبجانبها فيلـكس Felix القائد العـام لجيوش الأمبراطورية فى الغرب (٤٢٦ — ٤٣٠م) .

والمعروف عن بلاسيديا الوصية ، أنها تحكمت فى الأمبراطورية الغربية باسم ابنها مدة ربع قرن من الزمان ، واشتهرت بالحقـد وسوء التدبير والعجز عن سياسة الأمبراطورية ، على عكس زوجة ابنها يودكسيا Eudoxia التى زانها العقل وجملتها العبقرية(٢) .

وبالإضافة إلى سوء القيادة العليا وعجزها ، كانت القوة الحربية الرومانيـة فى الغرب ، وقد وصلت إلى درجة كبيرة من التدهور والانحلال ، وغدا الاعتماد الأساسى فيها على المرتزقة من البرابرة(٣) . وأبرز شخصيتين فى القيادة العسكرية فى ذلك الوقت هما : أيتيوس وبونيفاس ؛ أما شخصية البطريق فيلـكس ، فلم تـكن شيئاً مذكوراً بالقياس إلى شخصيتى ايتيوس و بونيفاس ، وهما اللذان نظر إليهما باعتبارهما آخر الرومان . كان تعاون هاتين الشخصيتين أمراً هاماً

---

(١) Villari, op. cit., PP. 91-92.

(٢) Hist. History, P. 574 ; Benthelot, M.A., Le Monde Barbare, L'Ivasions. (Hist. Générale) T. I, P. 66.

(٣) Katz, S., The Decline of Rome; & the Rise of Med. Europe, (New York, 1955) PP. 74-75 ; Mott, G.F., & Dee, H.M., Middle Ages (New York, 1952). PP. 7-11 ;Boissonnade, op., cit,PP. 14-17.

من أجل انقاذ الأمبراطورية ، غير أن منافستهما وانقسامهما ، كانا السبب المباشر في فقدان أفريقية ، فضلاً عن تمزيق الأمبراطورية برمتها .

أخذ أيتيوس يتقرب من بلاسيديا وابنها ، ويوطد صداقتـه مع القصر الأمبراطورى فى رافنا ، مظهراً ولاءه وإخلاصه ، ولما كانت بلاسيديا ضعيفـة التدبير وسيئة التقـدير ، فقد خضعت لرغبات ايتيوس ، ودسائسه ضد غريمه ومنافسه بونيفاس ؛ وذلك على الرغم من ولاء بونيفاس للأسرة الأمبراطورية ، بدليـل أنه لم يقف موقف المتفرج إبان محنة بلاسيديا وإبنها حين كانا منفيين بالقسطنطينية ؛ وضع بونيفاس قوات أفريقية وأموالها فى خدمة بيت تيودسيوس العظيم ، وقمع أيضاً — الأمبراطور حنا المغتصب ، على حين كان حنا يلقى التأييد والمساعـدات من جانب ايتيوس وأحلافه من الهون[١] . ولـكى يحكم نسيج مؤامراته ، بعث فى الخفاء إلى بونيفاس ، ينصحه[٢] . بعـدم الاستجابة إلى أمر الأمبراطورة .

أما أحوال بونيفاس ، « كونت أفريقية » فى ذلك الوقت ، فكانت متطورة ، إذ حدث عقب وفاة زوجته الـكاثوليـكية ، أن رغب فى التفرغ إلى العبادة والنسك وترك خدمة الدولة ، بعد أن نجح فى حماية ولايته من غزوات المغاربة ، غير أن صديقه القديس أوغسطين ، نصحه بالبقاء فى خدمة الدولة ، فتزوج من وارثة أسبانية ثرية ، ولـكنها على المذهب الأريوسى ، وانصرف إلى اللهو بعض الوقت ، وأهمل شئون ولايته ، فتجددت اعتداءات المغاربة ، حتى أن القديس

---

(١) أيتيوس بن جودنتيوس Gudentius الإسكيثى الأصل ، وقائد الفرسان فى الأمبراطورية الغربية ، وأمه نبيلة إيطالية ، ومنذ كان أيتيوس شاباً ، وهو يعمل فى الجندية ، وكان من بين الرهائن الذين قضوا وقتاً طويلا فى معسكرات الهون حتى تكونت صـداقة بينه وبينهم (Villari, P. 92 ; Gibbon, P. 326, N. 4 ; Lot, La Fin du Monde Antique et le Debut du Moyen Age, (Paris, 1951), PP. 239-40 ; Souttar, op. cit., PP. 212-15 ; Benthelot, op. cit. P. 69

(٢) Gibbon, P. 328 ; Hist. History, P. 575 ; Villari, P. 91.

أوغسطين بعث إليه برسالة ينبهه فيها إلى العناية بواجباته[١]. استدعته الأمبراطورة بلاسيديا إلى إيطاليا فى عام ٤٢٧ م ، فرفض إطاعـة الأمر ، فجاءت الجيوش الأمبراطورية لتجبر بونيفاس على الطاعة والولاء ، لـكنه هزمها وشتتها ، ثم جاءت حملة أخرى بقيادة قوطى يعرف باسم سجسفولت Sigisvult ، فاستطاعت هذه الحملة أن تنتصر عليه وتستولى على قرطاجنة العاصمة ، وعلى هيبو ، مركز أسقفية القديس أوغسطين[٢] .

ويبدو أن بونيفاس رأى ألا طاقة له بجيوش الأمبراطورية ، التى لا شك تفوق ما تحت يده من قوات فى أفريقية ، فتملـكه اليأس فضلاً عما اعتلج فى نفسه من صراع عنيف ، بين الولاء للأمبراطورية والانتقام منها ، إذ لا يزال يشعر بخيبة أمل عندما لم يعين فى منصب القيادة العامة بعد قسطينوس ، وهو الذى خلفه فيلـكس بعد القضاء على حنا وأنصاره وتولية فالنتنيان الثالث ؛ كذلك يبدو أنه بدأ يتطلع فى نفس الوقت لأن يصير الحاكم بأمره على أفريقية الرومانية بمساعدة المراطقة الموتوريين من الأريوسيين وغيرهم .

وبعد تردد طويل ، بعث بسفير من من قبله إلى معسكر الوندال فى أسبانيا يدعوهم إلى أفريقية ، وذلك فى عام ٤٢٨ م . ويحتمل أن مبعوثه إلى الوندال هو نفس القائد القوطى سجسفولت[٣] .

كان يتزعم الوندال فى ذلك الوقت قسيمان فى السلطة همـا : جونديريك وأخ غير شرعى له هو جزريك ؛ ويقـال إن رسالة بونيفاس إلى الوندال كانت تتضمن اقتسام السلطة فى أفريقية بين ملـكى الوندال و بين بونيفاس ، لـكن يشك فى صحة هذا الخبر ، لأنه لم يرد فى مرجع سوى ما كتبه بروكبيوس

---

(١) يوجد بعض أجزاء من هذه الرسالة فى : Villari, P. 94.

(٢) Gibbon, P. 328 ; C. Med. H. (Sh.), I, PP. 89, 90 ; Lot, P. 88.

(٣) C. Med. H. (Sh.), I, P. 90 ; Hodgkin, P. 246 ; Hist. ;History, PP. 575-76 ; Souttar, P. 327 ; Berthelot, op. cit., P. 68.

Procopius ، وهو ليس مرجعاً أصيلاً لهـذه الفترة . مات جوندريك ، وانتخب الوندال جزريك ملكاً عليهم، وحام الشك حول موت أخيه جوندريك، وهل لجزريك دخل فى ذلك ؟ والراجح أن وباء انتشر فى جيش الوندال قبيل الغزو الأفريقى ، وكان جوندريك من بين ضحاياه(١) .

والواقع لم يكن الوندال بحاجة إلى مثل هذا الاستدعاء من جانب بونيفاس لغزو أفريقية ، فقد أضحى الوندال قوة بحرية مخيفة ، وهناك ثراء أفريقية ومطامع الوندال واحلامهم فى تكوين دولة مترامية الأطراف ، فلم يقنعوا بحدود باتيكا كدولة لهم . وأحوال أفريقية فى غاية الملاءمة لتنفيذ مشروعهم التوسعى ، ففيها الانقسام المذهبى بين الدوناتيين والكاثوليك ، والحروب الأهليـة فيها وغزوات المغاربة المستمرة فضلاً عن الحروب والصراع فى إيطاليا نفسها وفى بلاط رافنا(٢). لذلك لم تـكن رسالة بونيفاس سوى عامل من عوامل التنفيـذ الفورى دون إبطاء .

انفرد جزريك بالسلطة على الوندال عام ٤٢٨م ، وظل نحو خمسين عاماً ، عد خـلالها أقوى وأشهر شخصية فى أوربا ، باستثناء فترة بروز أتيلا الهونى القصيرة(٣). كما كان بطل الوندال ، والعدو الرهيب لروما والقسطنطينية . كتب اسم جزريك بأشكال مختلفة ، فكتاب القرن الخامس الميلادى أمثال ايداتيوس

---

(١) انتشرت إشاعة بعد هذه الفترة بنحو قرن ، مؤداها ، أن جزريك قتل أخاه لينفرد بالحكم ، كما أشيع مقتل بليد Bleda على يد أخيه أتيلا الهونى ؛ وكان بروكبوس هو الذى أشاع هذه الشائعة : ثم نفاها بقوله : إن الوندال لا يصدقونها . وذكر كذلك أنه سمع من بعض الوندال ، ان جوندرك وقع أسيراً فى أيدى أعدائه من جرمان أسبانيا ، وأنهم اعدموه صلباً ، أما المؤرخ ايداتيوس Idatius المعاصر ، فيربط موت جوندرك بحـادث تدنيس مقدسات أشبيليـة ، على أثر استيلائه على هسباليس Hespalis ، وهى أشبيلة ، إذ اعتدى على كنيستها ، ولكنه سرعان ما هلك على يد مارد أو شيطان . (Hodgkin, PP. 226-27)

(٢) Villari, PP. 94-95.

(٣) Lot, Les Jnasions, P. 87

Idatius الأسبانى ، وبروسبر ؛ Prosper الأكويتانى وغيرهما ، كتبوه بهذه الصيغة Gaisericus ويقرب منها الصيغـة التى استخدمها المؤرخ القوطى جوردين Jordanes ، والمؤرخ البيزنطى بروكبيوس ، من مؤرخى القـرن السادس الميـلادى ، وهذه الصيغة هى Gaizerichus ؛ وكتبـه غيرهم Gesericus, Gensericus وهكذا . ويبدو أن مرجع هـذا الاختلاف الشكلى ، هو أن مثل هـذه الصيغة كان شائع الاستعمال فى بيزنطة . ورغم أن أغلب المراجع يكتبه «جنزريك» إلا أن الباحث الألمانى فريدلندر Friedländer وهو الذى كتب عن المسكوكات الوندالية ، يفضـل استعمال Gaiserich ، ويفسر هذه الكلمة بأنها مشتقة من كلمتين : Gais بمعنى « رمح » ، Reiks بمعنى « ملاك »(١) .

اقترن اسم هـذا الملك دائماً بالتدمير والتخريب ، والفزع للأمبراطورية الرومانية . ورغم ما قاساه الوندال من محن وهزائم متلاحقة ، سواء منذ كانوا فى مورافيا ، أو أمام الفرنجـة على ضفاف الراين ، أو أمام القوط الغربيـين فى أسبانيا ، مما يدل على أنهم لم يكونوا محاربين من الدرجة الأولى مثل جيرانهم البرابرة ، وهذا ما يؤيد وجهة النظر القائلة بهمجيتهم (Varbaricum) ؛ رغم هذا ، فإن هـذه الصفة لم تلصق بهم خلال حياة جزريك الطويلة ، فهو يمتاز بعقل جبار، وشجاعة منقطعة النظير، بثت فى الوندال روحاً جديدة . حقيقة أنه كان قاسياً وحشياً ، إذا ما قيس بأقرانه من ملوك البرابرة الذين صار مصيرهم خيراً من مصيره أمثال ألاريك وآتولف من ملوك القوط الغربيين . هذا ويفترق جزريك عن أى زعيم من غزاة الشماليين فى أنه لم يدانه أحد منهم فى شدة نهمه للـكسب والغنيمة ؛ وباستطاعته أن يكون صادق الحدس والتقدير لموارده وموارد أعدائه ،

---

(١) Halphen L. Les Barbares (Paris 1926). P. 38 ; Hodgkin P. 227 Gibbon P. 329.

وأن ينسج خيوط المحالفات السياسية لصالحه وصالح شعبه ، ولديه مقدرة فائقة على تكييف الوسائل التى تؤدى إلى تحقيق أهدافه المحددة ؛ وقد ظل الناس يتحدثون عنه بعد وفاته بقرن من الزمان ، باعتباره أمهر الرجال ، ويشبهه من بعض الوجوه ، صنوه ألاريك التيوتونى أو البروسى ، الذى استولى على المدينة الخالدة فى العالم اللاتينى . ويقول بعض الكتاب : « إذا كان أتيلا هو نابليون القرن الخامس الميلادى ، فأحرى بجزريك أن يكون بسمارك ذلك القرن »(١) .

يصفه المؤرخ القوطى جوردين بأنه يعرج فى مشيته ، نتيجة وقوعه مرة عن جواده ، وبسبب مذابحه فى الرومان ، ذاع صيته فى العالم ، ثم هو قليل الكلام عميق التفكير ، عزوف عن الترف لأنه يرى فيه تشبهاً بأمه ذهبت ريحها(٢). ممتلىء بالأهداف البعيدة لتحطيم الشعوب ، وعلى الأهبة دائماً لأن يبذر بذور الخصام والشحناء بين أعدائه ، وأن يفيد من نتائجها .

وفى نظر مالكوس Malchus الأديب البيزنطى أن تغيراً خطيراً ألم بالوندال بعد جزريك ، أعظم ملوكهم ، فقد استهدفوا لكل أنواع الاضطراب والتدهور والانحطاط ، فضلاً عن الميوعة أو التخنث ، ولم تعد لديهم تلك القوة التى كانت لهم ، وفشلوا فى الاحتفاظ بقواتهم الضاربة ، تلك التى حرص جزريك على أن تكون معدة دائماً لأى مشروع ، مما جعله أسرع فى الانقضاض على عدوه قبل أن يهيىء نفسه للدفاع أو الهجوم .

سخر جزريك جميع موارده ، وقد دبرها أحسن تدبير ، لهدفين كبيرين هما : إذلال الأمبراطورية الرومانية والقضاء على المذهب الكاثوليكى . ويفسر الأسقف الأسبانى إيداتيوس كراهته الشديدة للكاثوليكية أن جزريك كان أريوسياً ، وإذا صح هذا ، فإن أساس هذه الكراهة يرجع إلى أنه إبن سرية

---

(١) Hodgkin P. 229, Gautier PP. 110-114.

(٢) Historian's Hist. P. 576; Villari PP. 96-7.

أو محظية أسبانية أو غالية ، فنشأ فى فجر حياته على مذهب أمه ، لكنه سرعان ما جحد هذه العقيدة وارتد عنها واعتنق الأريوسية مذهب أسلافه العسكريين (١).

— ٣ —

وفى شهر مايو من عام ٤٢٨ م ، حشد جزريك كل شعبه من الوندال والآلان الخاضعين له ، على ساحل الأندلس المقابل للزقاق — وهو مضيق جبل طارق — استعداداً لتلبية دعوة الكونت بونيفاس ، غير أنه علم قبيل رحيله بأن عدوه هرمجاريوس Hermigarius ملك السويف ، يقوم بتخريب وتدمير بعض الولايات الواقعة بالقرب من خط سير جزريك ، وأنه سوف ينقض على أملاك الوندال فى الأندلس ، فعاد مسرعاً على رأس فرقة منتخبة من رجاله ، وتعقب ملك السويف وأنزل به هزيمة ساحقة ماردة وذبح كثيراً من السويف ، ولكن هرمجاريوس تمكن من الهرب ممتطياً صهوة جواده السريع ، الذى قيل فيه أنه أسرع من الرياح الشرقية ، غير أنه لم يلبث حتى غرق فى نهر جوديانا Guadiana ؛ وعلق رجال الدين فى مارده على غرقه على مشهد منهم ، إن موته عقاب من السماء بسبب إهانته السابقة لزعيمتهم القديسة ولاليا Eulalia ، وهى إحدى الأطفال الذين استشهدوا زمن الأمبراطور دقلديانوس (٢) .

وبعد أن ألقى هذا الدرس القاس على السويف ، عاد على الفور إلى ساحل البحر ، ليعبر إلى أفريقية ؛ ولكى يطمئن إلى سهولة عبور قومه فى أمن ونظام ، قام بإحصاء جميع الذكور من الوندال « من الشيخ المسن إلى الطفل الوليد »

---

(١) Gautier op. cit. PP. 110-117.

(٢) عرفت القديسة ، بأنها من أجمل الشهيدات العذارى ، بين زميلاتها اللاتى أقيمت لهن تماثيل فى كنيسة القديس أبو الليناري Apollinare فى رافنا ، ونسبت كرامات إلى هذه القديسة ، منها إنقاذ رافنا من تخريب تيودريك الثانى ملك القوط الغربيين فى عام ٤٥٦ م .

ووجد أن عددهم ٨٠ ألف ، ويبلغ المحاربون منهم نحو ٥٠ ألف ، وعبأ جيشه ، ووضع على رأس كل ألف مقدماً Chiliarch . وكان بونيفاس قد أعد السفن اللازمة لنقل الوندال عبر المضيق(١) .

والملاحظ أن أفريقية وأسبانيا ، مرتبطتان معاً ، منذ أقدم العصور ، فكلتاهما نقطة وثوب على الأخرى ، ففى التاريخ القديم والوسيط ، اتخذ الغزاة أفريقية مركز للوثوب على أسبانيا ، هكذا فعل الفينقيون قديماً ، ومن بعدهم العرب فى العصور الوسطى ؛ وكذلك كان الشأن بالنسبة لأسبانيا ، كما فعل الوندال(٢) ؛ إذ بدت إفريقية للوندال ، كما بدت ملوك القوط الغربيين من قبل — زمن الأريك ت ٤١٠ — إنها الملجأ الأمين الدائم(٣) .

أبحر الوندال من الميناء الذى عرف فيما بعد باسم ميناء طريف ، فى مايو ٤٢٩ م ، ونزلوا بساحل موريتانيا ، وهى أقرب مناطق شمالى إفريقية إلى أسبانيا ؛ وعلى الرغم من وجود اثنتى عشرة فرقة من المشاة الرومان ، وتسع عشرة فرقة من الفرسان ، فإن الاضطراب والانقسام بينها ، كل ذلك أعجزها عن حماية أفريقيا ، بل أن هذه الفرق كلها ، لا تعدل فى قوتها وروحها ، فرقتين فقط من الجيوش الرومانية زمن يوليوس قيصر .

والمعروف ، أن حدود موريتانيا المتآخمة للصحراء والمحيط الأطلسى ، كانت محاطة بقبائل متوحشة قوية تشتعل حقداً وكراهية للرومانى ، وتتحين الفرصة للانتقام ، هؤلاء هم المغاربة البدو ، وصل بعض المغاربة منهم إلى قرب الساحل ، حيث شهدوا معسكر الوندال ، ولابد وأنهم شعروا بالخوف والفزع والدهشة من هذا الغازى الجديد ، الذى يتميز بزى معين وسلاح خاص ، وتقدم حربى فريد ،

---

(١) Davis op. cit. PP. 21-22.

(٢) Bury op. cit. P. 89.

(٣) Lot Les Invasions... P. 88.


فضلاً عن صفاتهم الجثمانية التى بدت لهم ، كالشقرة وزرقة العيون ؛ على عكس الأفريقيين الذين أكسبهم المناخ الإفريقى لوناً زيتونياً ؛ وبعد إزالة بعض الصعوبات الخاصة بجهل الفريقين ، كل بلغة الآخر ، رحب المغاربة بالتحالف مع الوندال ، أعداء الرومان ، دون ملاحظة أو إدراك لأى نتائج فى المستقبل ، وسرعان ما اندفع عدد كبير من هؤلاء الوطنيين من وديان وغابات جبال أطلس، فقد حانت الفرصة للانتقام من جلاديهم ؛ ولعل فى هذا الترحيب ، مايشبه ترحيب الأقباط المصريين بالفاتحين العرب المسلمين ، فراراً من ظلم البيزنطيين وإضطادهم لهم ، والقياس مع الفارق(١) .

لانعلم كثيراً عن تفاصيل فتوحات الوندال الأولى فى شمالى إفريقية ، عقب نزولهم ، وكل ما نستطيع أن نقوله أنه فى أوائل عام ٤٣٠ م كان شمالى أفريقية قد استهدف لتخريب الوندال ونهبهم ، باستثناء ثلاث مدن حصينة استطاعت أن تقاوم ، وهذه المدن هى . هيبورجيوس وكيرتا والعاصمة قرطاجنة .

أما حصار هيبورجيوس ، فقد بدأ حوالى نهاية شهر مايو من عام ٤٣٠ م ، وتقع هذه المدينة غربى قرطاجنة على بعد حوالى ١٨٠ ميلاً ، ومكانها الحالى هو المدينة الفرنسية بونا Bona . وهيبو محل إقامة القديس أوغسطين ، كان عاكفاً على بحوثه وكتبه عندما وصلته أنباء الغزو الوندالى ، وسمع بما فعله الوندال من قتل ونهب وإبادة أشجار الفاكهة وتدمير الكنائس ، فى ولاية هادئه تبدو تربتها من كل جانب كأنها تبتسم للزائر على قول فيكتور فيتنسس؛ تقدم الأساقفة إلى أوغسطين ملتمسين نصحه وإرشاده فى هذه الأزمة الطاحنة ، وسألوه النصح فيما إذا كان ينبغى عليهم أن يهربوا إلى أحد الحصون القوية التى لم تخضع بعد

---

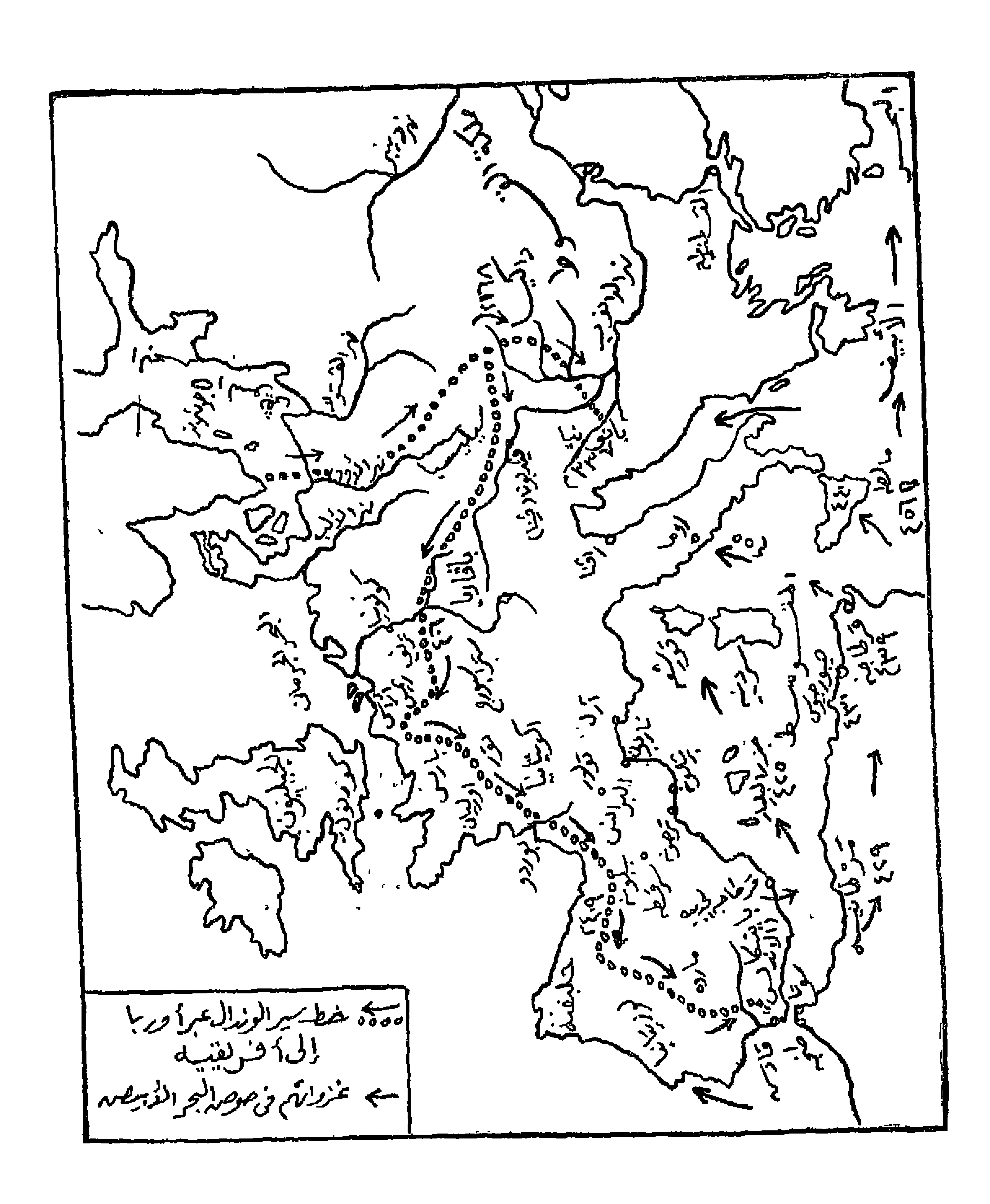
(١) Historian's Hist. P. 577 ; Gibbon PP. 330-31 ; Gautier PP. 167-173; Dich' (Ch.) et Marçais (G.) Histoire du Moyen Age, (Paris, 1944), P. 39 ; Berthelotl op. cit., ;P. 68 ; Schimidt, L., op. cit., P. 305.



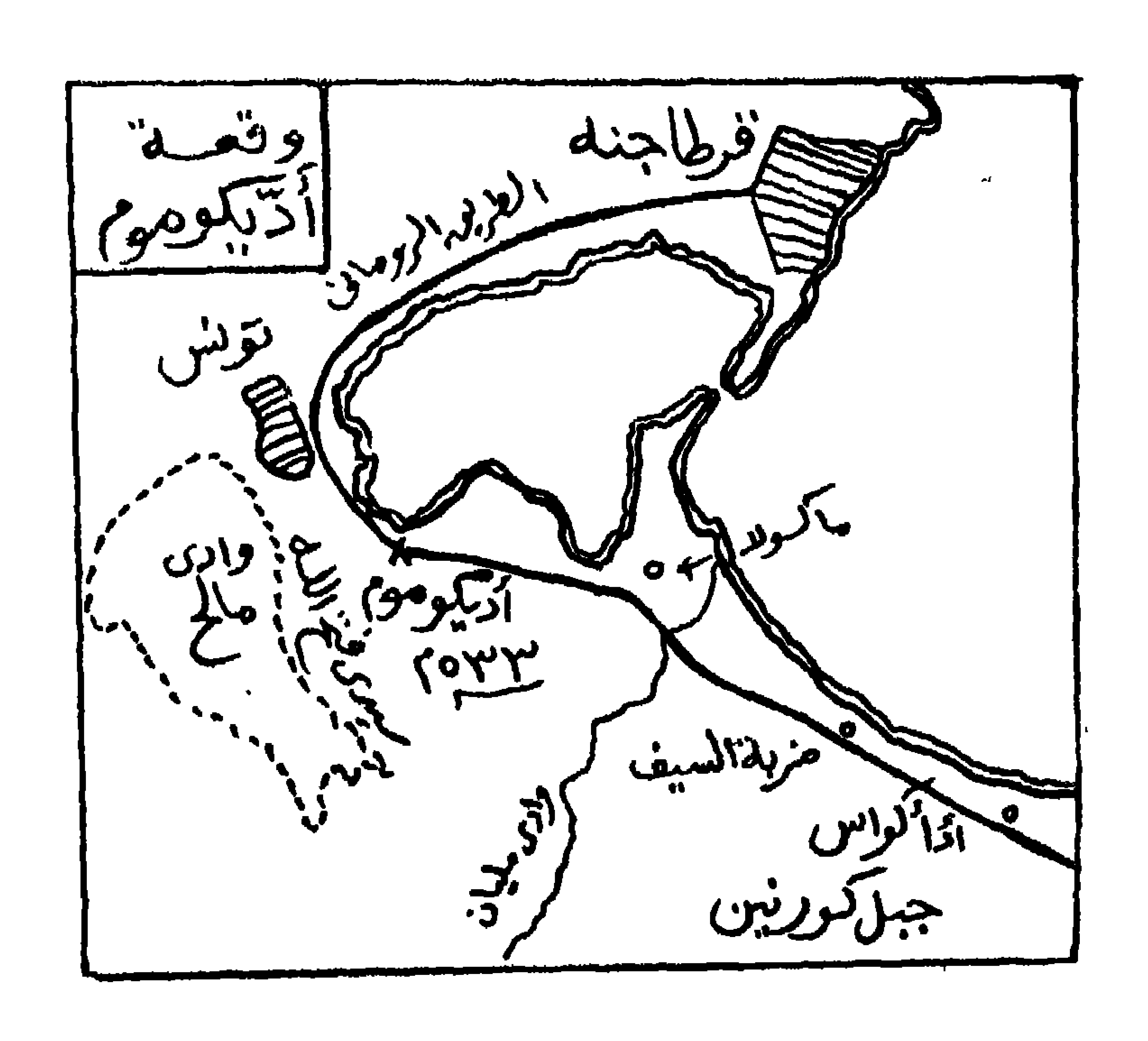
شمالى أفريقيه
الرومانى
فى القرن الخامس الميلادى
البحر الأبيض المتوسط
صقلية
قرطاجنه
موريتانيا الطنجية
موريتانيا القيصرية
نوميديا
الجيتوليون
المور (المغاربه)
الموزولاميون
طنجه
وهران
طرابلس
خليج سرت الكبير
خليج سرت الصغير
لبده الكبرى
برقه
مارمريكا
النساموينون



مملكة الوندال الجرمانية
في
شمالي أفريقيه
٤٣٩ - ٥٣٤م
ooooo حدود أملاك الوندال
البحر الأبيض المتوسط
جزر البليار
قورشقة
سردينيه
صقلية
مالطه
قوصره
قرطاجنه
نوميديا
موريتانيا
القيصرية
طنجه
سبتة
قادس
قرطبة
مملكة القوط الغربيين
مملكة القوط الشرقيين
روما
طرابلس
لبده الكبرى
أفريقيه
أرسنوى
برقه
مارماريكا



خط سير الوندال عبر أوربا
إلى أفريقية
غزواتهم في حوصة البحر الأبيض


وقعة أديكوموم
قرطاجنه
الطريق الروماني
تونس
وادي ملح
سيدي فتح الله
أديكوموم
ماكسولا
ضربة السيف
جبل كورنين
وادي مليان

للوندال ، أو يبقوا حيث هم ، يمارسون أعمالهم . فأجابهم القديس أوغسطين : « إبقوا مع شعبكم وشاركوهم فى المحن » ، غير أن الأساقفة لم يقوو على تحمل البقاء ؛ وقال قائلهم : وما الفائدة فى بقائنا ، سوى أن نرى الرجال تقتل والنساء تهتك ، والكنائس تحرق ، أما نحن فسوف يحل بنا التعذيب والتنكيل حتى نجبر على فتح خزائن الكنوز الخفية التى لا نملكها ! ؛ ثم أخذوا يرددون معنى قول المسيح : « إذا عذبوك فى مدينة ، فاهرب إلى المدينة الأخرى » .

أطرق أوغسطين بعض الوقت ، وفكر أن يحذو حذو البطريقين كبريان Cyprian وأثناسيوس ، اللذين اضطروا للتخلى عن منصبهما فترة من الزمن . ثم وافقهم بعد شىء من التردد ، غير أنه ما كاد ينتهى إلى هذه النتيجة حتى قدم عليه بوسيديوس Possidius أسقف كالاما Calama ، وهو الذى ندين له بالمعلومات عن هذه الأيام الأخيرة من حياة أستاذه أوغسطين ، قدم مع عدد من أساقفة البلاد القريبة من هيبو ، وأبوا إلا أن يشاركوا أستاذهم فى البقاء فى هيبو رغم الحصار ، وجلسوا أمام أقدام القديس العظيم ، منصتين إلى عذب حديثه الفياض ، الذى كان قبلا أحلى من العسل ، ولكنه اليوم ينم عن الخوف ، ظل الجميع يتناقشون فى هذه المحنة الكبرى ، ويتضرعون إلى الله أن يرفع عنهم هذا البلاء(١) .

وكان فى مدينة هيبو المحاصرة ، رجل آخر ، هو المسئول عن كل هذه الكوارث ، هو الكونت بونيفاس ، الذى يكاد الحزن والأسى والأسف يأكل قلبه ، إذ كان قد عاد إلى الصفاء مع بلاط رافنا . فقد كان من الغريب حقاً أن بطلاً شجاعاً مثل بونيفاس ، يفعل هذه الفعلة النكراء ، بعد كثير من الخدمات الجليلة التى أداها للامبراطورية ، فيستدعى البرابرة لتدمير الولاية التى عهد إليه

---

(١) Lot, La Fin., PP. 240-50, Gautier, PP. 177-179.

بقيادتها وسياستها (٤٢٢ — ٤٣٢م) ظل أصدقاء بونيفاس يعتقدون أن سلوكه الشائن يمكن أن يغتفر ويتـدارك ، فاتفقوا مع الأمبراطورة بلاسيديا وابنها ، في غيبة ايتيوس ، على الدخول في مفاوضة مع بونيفاس ، وقام داريوس Darius سفيراً من بلاط رافنا إلى كونت أفريقية . وداريوس من الضباط الرومان العظام، ومعروف بحسن سمعته ؛ عقد اجتماعاً مع كونت أفريقية في العاصمة قرطاجنـة ، ونوقشت الأحداث التي أدت إلى هذه النتيجة ، أظهر بونيفاس كتب ايتيوس إليه ؛ وأظهرت بلاسيديا على لسان سفيرها أسفها وندمها على موقفها من بونيفاس، كما أظهر بونيفاس ندمه وتوبتـه ، ومن ثم عاد الصفاء.(١) . وكان القـديس أوغسطين ، وقد علم بالمفاوضـة دون أن يبحث أسبابها الأصليـة ، قد بعث برسالة إلى بونيفاس ينصحه فيها بالقيام بواجبـه باعتباره مسيحياً ورعيه من رعايا الأمبراطورية(٢) .

غير أن الأمر أفلت من يده ، فلم يعد بإمكانه أن يربيء الصـدع الذي أصاب الأمبراطورية ، وعبثاً حاول بونيفاس إقناع جزريك بالجلاء عن أفريقية ، وبذلك في كل ما استطاع من وعود وإيمـان ومواثيق ، ولـكن ملك الوندال العنيد لم يرحم ولم يلن ، فازدرى كل شرط أو عهد تقدم به بونيفاس ، ورفض في عناد وإصرار أن ينزل عن شبر واحد مما فتحه من الأرض ، إذ كان يعتقد أن بونيفاس يخدعه .

لم يكن أمام كونت أفريقية سوى الانقلاب ضـد حليفه ، وحار به حرب حياة أو موت ، وحشد له جميع فرقه المدربة ، فضلا عن الحاميات الأقليمية ، ومع ذلك هزمه الوندال ، فلجأ إلى هيبو — عاصمة ملوك نوميديا القدماء — وحصنها واستعان في حمايتها بفرقة من مرتزقة القوط ، وعجزت الأمبراطورية عن إمداده

---

(١) Gibbon, PP. 332-33 ; Hist. History, P. 577.

(٢) Gibbon, P. 333 N. 4

بمزيد من القوات »(1) . واستماتت بونيفاس فى القتال والدفاع ؛ أدت بسالة بونيفاس ومن معه ، فضلاً عن أن البحر كان دائماً مفتوحاً أمام هيبو لإمدادها بما يستطاع من مؤن ، أدى فى ذلك ، بالإضافة إلى صلوات القديس أوغسطين ، وعدم مهارة الوندال فى حصار المدن المسورة إلى صمود هيبو ومنعتها لمدة أربعة عشر شهراً .

وفى الشهر الثالث من الحصار مات القديس أوغسطين ، وكان يومئذ فى السادسة والسبعين من عمره ، وفى الأربعين من أسقفيته . وفى الشهر الرابع عشر من الحصار (يولية ٤٣١ م) ، اضطر الوندال بسبب الجوع والإرهاق ، نتيجة تدمير المناطق المجاورة التى لم تعد قادرة على تموينهم ، إلى رفع الحصار ؛ فأغرى هذا بونيفاس ، بمنازلة الوندال فى وقعة حربية ، مكشوفة ، لعله يقضى عليهم ، ويشفى غلة صدره ، وكانت أمداد قد وصلته من الأمبراطورية ، كذلك قد جاءته من بيزنطة بقيادة أعظم قادتها « أسبار » الألانى(2) ، وكانت بلاسيديا قد توسلت إلى الأمبراطورية الشرقية لإنقاذها . تولى بونيفاس القيادة لجيشى الشرق والغرب ، غير أنه منى بهزيمة كبرى ، قررت فى الواقع مصير أفريقية نهائياً ؛ فعاد أسبار إلى بيزنطة ، كما توجه بونيفاس إلى إيطاليا حزيناً آسفاً يائساً ، وذلك بدعوة من الأمبراطورة ، ليلى منصب القائد العام للجيوش الرومانية بعد مقتل فيلكس Felix(3) .

والمعروف أن أيتيوس كان قد حرض الجنود ضد فيلكس فقتلوه فى رافنا عام ٤٣٠ م ، وولى منصب القيادة العامة للجيوش الرومانية عن طريق الاغتصاب ، ولكن بلاسيديا ، رأت أن تسند هذا المنصب إلى الكونت بونيفاس ، بعد أن ثبت وفاؤه وندمه وإخلاصه ، فاستدعته فى عام ٤٣١ م أو ٤٣٢ م ، وعينته

---

(1) Lot, Les Invasions, P. 88.

(2) Gautier, PP. 179-183 ; C. Med. H. (Sh.), I, P. 90.

(3) Gibbon, PP. 325-26 ; C. Med. H. (Sh.), I, PP. 89-90.

فى منصب القيادة العامة ، بدلاً من أيتيوس المغتصب ، فكان ذلك مدعاة لنشوب حرب أهلية بين بونيفاس وأيتيوس . كان أيتيوس قد عاد فى ذلك الوقت من الغال ومعه جيش من أحلافه البرابرة ، فالتقى به بونيفاس قرب مدينة ريمنى Rimini وأنزل به هزيمة منكرة ، فر بعدها أيتيوس إلى أحلافه من الهون ، ولكن الجرح الذى أصاب بونيفاس فى الوقعة ، لم يمهله طويلا ومات عام ٤٣٢م، فخلفه فى القيادة العامة سباستيان Sebastian زوج إبنته، لكنه لم يلبث أن طرده أيتيوس فى العام التالى ، ومن ثم أضحى أيتيوس سيد الموقف والحاكم بأمره فى الغرب(١) . وهكذا غرقت الأمبراطورية الرومانية فى الغرب ، فى حمأة الحروب الأهلية والمنافسات على السلطة ، فى وقت هى أشد ما تكون فيه حاجة إلى تركيز جهودها وتوحيد قواتها ضد الوندال .

أما الوندال ، فقد تمكنوا من فتح هيبو ، بعد أن دكوا حصونها وأثخنوا القتل والأسر فى أهلها الذى هبوا للدفاع عنها على أثر رحيل بونيفاس .

واقد هدد انتصار الوندال ، الأمبراطورية الرومانية بشطريها ، لأن أفريقية لم تكن مجرد مخزن قمح للأمبراطوية الغربية، بل أن وقوع موانئها فى يد الوندال يهدد السيادة الرومانية فى البحر المتوسط ، ويحرمها من أحسن موانئها وأقوى حصونها(٢) .

وبعد هذه المرحلة العاصفة من حياة الأمبراطورية الرومانية فى الغرب ، وضح للبلاط الأمبراطورى فى رافنا استحالة اقتلاع الوندال من أفريقية ، كما وضح لجزريك من ناحية أخرى ، أهمية العمل على تثبيت فتوحه وتدعيمها ، وقد أدرك ملك الوندال صعوبة الاستيلاء على قرطاجنة العاصمة ، ليقظة المدافعين

---

(١) Hist. History, P. 580.

(٢) سعيد عاشور : أوربا العصورالوسطى ج ١ ص ٧١ ، ٧٢
C. Med.;H. (Sh.), I, P. 90 ;

عنها ، ومناعة أسوارها وحصونها ؛ يضاف إلى ذلك أن جزريك كان فى حاجة إلى فترة هدوء ، لكى يدعم عرشه الذى بدأ يهتز تحته لسبب نزاع عائلى اشتد فى ذلك الوقت ، ذلك أن أبناء أخيه جوندرك ، دأبوا على الطعن فى خلق جزريك ، وتعييره بأصله ، إذا كان أخاً غير شرعى لجوندرك . حقيقة أعدمهم جزريك وأغرق أمهم فى نهر امبساجا Ampsaga ، إلا أن تذمراً عاماً دب بين قومه ، وأدى إلى قيام مؤامرات ضده ، فأخذ يقتل كل من يشك فى ولائه من الوندال حتى قيل أن ما أراقه من دماء قومه بيده، يفوق ما أريق من دمائهم فى ميادين القتال . وهناك ثورة المغاربة والدوناتيين والكاثوليك ، كل ذلك هدده وهدد فتوحه الحديثة ، بل حدث أن عجز عن التقدم إلى قرطاجنة ، فاضطر إلى التقهقر بقواته ، وساعد أعداءه أن البحر كان مفتوحاً أمامهم دائماً ، مما يهدد بوصول الأساطيل الحربية من إيطاليا وأسبانيا ، فضلاً عن أنه قد تفكر بيزنطة فى معاودة الكرة والاشتراك مع رافنا فى قتال الوندال . وفى قلب نوميديا ، كانت مدينة كيرتا Cirta الحصينة — وهى قسطنطينة الحالية — لا تزال تقاوم بعنف وعناد . كل هذه الصعوبات ، جعلته يطلب الصلح وهو فى أوج انتصاره[١] ؛ بل أنه عرض استعداده لإرسال إبنه هنريك رهينة لضمان ولاء الوندال ، وطلب أن يعطى ما فتح ؛ والواقع أن جزريك لم يكن صادقاً فى عرضه بالولاء والقناعة بما فتح ، وإنما هى المشاكل الداخلية وحاجته إلى الراحة فترة ، هى التى دفعته إلى طلب المفاوضة والصلح[٢] .

أشارا أيتيوس على الإمبراطور وأمه بقبول المعاهدة مع الوندال ، فأرسل الإمبراطور سفيراً من قبله لمفاوضة الوندال ، وكان هذا السفير تريجتيوس Trigetius [٣] أتم السفير الأمبراطورى الصلح ووقع فى هيبو فى ١١ فبراير

(١) Gibbon, PP. 336-338 ; Gautier, PP. 184-186 ; Berthelot, op. cit., P. 68.

(٢) Lot Les Invasions P. 89.

(٣) كان تريجيتوس أحد أعضاء الوفد الذى صحب البابا ليو فى عام ٤٥٢ فيما بعد لمقابلة أتيلا ملك الهون .

٤٣٥ م . وأهم شروطه : السماح للوندال بالبقاء فى ولايات أفريقيـة الرومانية كمعاهدين ، باستثناء منطقة قرطاجنه ، وأن يدفعوا جزية سنوية(١) .

والمهم فى هذه المعـاهدة أن الأمبراطورية الرومانية اعترفت رسمياً بشرعية استقرار الوندال فى أفريقية ، وأصدر الأمبراطور فالنتنيان الثالث عدة تشريعات إنسانية للتخفيف عن الرعايا الذين قاسوا من الوندال فى موريتانيا ونوميديا ، فأعفاهم من ديونهم ، وأنقص الجزية المفروضة عليهم إلى الثمن ، ومنحهم حق استئناف الأحكام الصادرة من حكامهم إلى روما(٢) . أما تنفيذ شروط المعاهدة فلم يكن تاماً ، فلم يدفع جزريك الجزية التى اعترف بها ، كما أن الرهينة هرب ، وحنث ملك الوندال فى إيمانه بعدم الاعتداء .

أخذ جزريك من مركزه الجـديد المعترف به فى موريتـانيا وقيصرية استفنسس(٣) نقطة وثوب على ما بقى من أملاك الرومان فى شمالى أفريقية ، كما جعله مركزاً للقرصنة فى البحر الأبيض .

وقبل أن تنقضى خمس سنوات على توقيع المعاهـدة ، حتى قام جزريك واقتحم قرطاجنة عنوة ، ونهبها واستباحها فى ١٩ أكتوبر ٤٣٩م ، فقد تراخت يقظة الحامية الرومانية فيها خلال تلك الفترة ، استولى على قرطاجنة بدون حرب تذكر ، فظفر بذلك بأحسن ميناء فى غربى البحر الأبيض ، كما ظفر بحقول القمح التى طالما طمع فيها منذ أمد طويل(٤) . واتخذها عاصمة لمملكته فى شمالى أفريقية ، وتعد قرطاجنة ، فى نظر المعاصرين « روما العالم الأفريقى »(٥) .

---

(١) Deanesly P. 76 ; Hodgkin PP. 248-50; Hist. History PP. 579, 599.

(٢) Gibbon, P. 337, N. 2.

(٣) أنظر الخريطة

(٤) Moss, PP. 48-50 ; Gautier, PP. 189-191 ; Gibbon, PP. 338-339 ; C. Med. H., P. 91 ; Schmidt, op. cit., P. 306.

(٥) Gibbon, P. 338 ; Deanesly, P. 76 ; Hodgkin, PP. 250-51.

وقد تعرض سكان قرطاجنة لأقسى أنواع الاضطهاد والعنف ، إذ أمر جزريك جميع السكان باظهار ما لديهم من ذهب وفضة وجواهر وأثاث، وتسليم ذلك كله إلى مندوبيه ، ومن يحاول أن يخفى شيئاً ، يعاقب بالقتل والتعذيب باعتباره خائناً للدولة ، ولقى النبلاء وأعضاء السناتو أشد أنواع الاضطهاد والتشريد، وهرب الكثير منهم لاجئاً إلى إيطاليا أو الولايات الشرقية . ومن هؤلاء كايلستيان Caelestian عضو السناتو النبيل فى قرطاجنة ، اضطر إلى التسول هو وزوجته وأسرته وخدمه فى البلاد الأجنبية ، كذلك مارى Maria ابنة أحد نبلاء قرطاجنة ، افتداها بعض التجار السور يين من الوندال ، لكنهم باعوها بعد ذلك فى بلادهم ، حتى قيض الله لها بعض الأيدى الرحيمة فأنقذتها(١) . وهكذا ، كانت شنائع الوندال فى قرطاجنة ، ولم تستطع الأمبراطورية الرومانية أن تفعل شيئاً .

أضحى الوندال سادة أفريقية الرومانية ، ويبدو أن جزريك اتخذ لقب « ملك » منذ استيلائه على قرطاجنة ، بدليل أن المؤرخ المعاصر فكتور فيتنسس V. Vitensis قال : إن هجوم جزريك على روما (٤٥٥) كان فى السنة الخامسة عشرة من حكمه ، كذلك أرخ له بروكبيوس وپروسپر ، باعتباره ملكاً منذ ذلك الحادث ؛ ثم أن القرارات والمراسيم التى أصدرها جزريك ، على أثر استيلائه على قرطاجنة كانت تنعته بلقب « ملك الوندال والآلان » وأحياناً « ملك قرطاجنة » أو « ملك إفريقية » ؛ ويقول المؤرخ البيزنطى ثيوفانيز Theophanes : « لقب جزريك نفسه ملك البر والبحر(٢) » .

* * *

وبعد أن ثبت جزريك حكم الوندال فى هيبورجيوس وقرطاجنة ، وجه

---

(١) Ibid, PP. 339-40 ; Hist. History, P. 579.

(٢) Oman, PP. 7-8.

همته لبناء السفن ، رغم أن الوندال ، كمعظم غيرهم من البرابرة لم يمرنوا على بنـاء السفن ، إلا أنهم أفادوا من نواة البحرية التى كان بونيفاس قد أمدهم بها سابقاً ، ومن ثم صار جزريك يمتلك أكبر قوة بحرية ضاربة فى البحر المتوسط(١) .
وأمضى جزريك بقية حياته ، حتى وفاته عام ٤٧٧ م ، فى أعمال القرصنة ضد البلاد المساحلة للبحر الأبيض ، فتعرضت لغزوه ونهبه : إيطاليا وصقلية ومالطة وسواحل أسبانيا المطلة على المحيط الأطلسى ، بل وصلت غزوات الوندال البحرية إلى سـاحل الليريا وبلاد البلوبونيز وجزر بحر ايجه ، وحتى الأسكندرية مفتاح البحر الأبيض(٢) .

على أن البلاد التى تعرضت لهجوم القراصنة الوندال ، لم تـكن مقصودة بعينها أو لذواتها ، إذ لم يكن هناك هدف معين فى الهجوم على بلد دون آخر ، وإنما الهدف العام هو الحصول على المغنم بجانب الانتقام ممن عرفهم الوندال واشتبكوا معهم ، وهم الرومان بشطريهم فى الشرق والغرب . ويقال إن رجال البحرية الوندالية كانوا لا يعرفون الجهة التى سوف يهاجمونها ، فحينما تستعد السفن للابحار من ميناء قرطاجنة ، جرت العادة ، أن ينزل جزريك من قصره الذى يقيم فيه ، وكان هذا القصر قبلاً مقر حكام الولاية القنصلية الرومانية ، فيسأله ربان السفن عن أوامره ، وإلى أى اتجاه يسيرون فيه ، فلا يجهد الملك جزريك نفسه طويلاً فى تحديد الهدف ، بل يجيبه على الفور : «دعنا نذهب إلى مساكن أولئك الذين حلت عليهم لعنة الله ، ثم يترك الرياح والأمواج توجهه حيث شاءت(٣) .

والمرة الثانية ، وبعد نحو ستة قرون ، يبرز اسم قرطاجنة مخيفاً مرعباً لسكان ضفاف التيبر (روما) ، حتى أن الشعراء المعاصرين وتبعهم المتأخرون منهم ،

---

(١) Guaiter, PP. 217-21.
(٢) Deanesly, P. 77.
(٣) Hodgkin, PP. 251-52.

وصفوا غزوات جزريك لإيطاليا بأنها صورة أخرى من صور الحروب البونية ، واعتبروها حرباً بونية رابعة ، يقول سيدونيوس .

"Heu Facinus ! in bella iterum quartosque labores Perfida Eliseae crudescunt classica Byrsae".(١)

وخلال السنوات التى تلت سقوط قرطاجنة مباشرة ، أضحت جزيرة صقلية الهدف الرئيسى لغزوات الوندال ، لشهرتها فى إنتاج القمح(٢) . فنى عام ٤٤٠ م اقتحم جزريك هذه الجزيرة ، وعاث فيها نهباً وتدميراً ، واضطر للوقوف فترة قصيرة والعودة إلى أفريقية ، حين بلغه نزول القائد الرومانى الشجاع سباستيان زوج ابنة بونيفاس ، فلما علم أن هذا الضابط ما جاء محارباً ، ولكن جاء لاجئاً من اضطهاد ايتيوس ، استأنف عملياته الحربية فى صقلية . وفشلت الحملة البيزنطية التى أرسلها الأمبراطور الشرقى تيودسيوس الثانى فى عام ٤٤١ م ، لمعاونة الأمبراطورية الغربية فى حروبها ضد الوندال ، ورجع فشلها إلى اختلاف كلمة قادتها ، من ناحية ، واضطرار بيزنطة لإعادتها عام ٤٤٢ م من ناحية أخرى لمواجهة خطر أتيلا ملك الهون . و بذلك ضاعت الفرصة الوحيدة لإعادة أفريقية ، خلال انشغال جزريك فى صقلية(٣) .

حينئذ شعر الأمبراطور فالنتنيان ومستشاره أيتيوس باليأس من ناحية مساعدة بيزنطة ، و بالعجز عن مقاومة الوندال ، فاضطرا لعقد معاهدة فى عام ٤٤٢ م مع جزريك سلم بمقتضاها صقلية أو جزءاً كبيراً منها الوندال ، واعترفت المعاهدة كذلك بحقوق الوندال فى مملكتهم بأفريقية كمعاهدين . ولم يكن فى يد الرومان من ساحل أفريقية الشمالى سوى الجزء الأوسط والشرقى من الساحل — الجزائر الحالية تقريباً — وطرابلس(٤) .

---

(١) (1) Hodgkin, P. 253 ; Gautier, P. 217.

(٢) Deanesly, P. 76.

(٣) Hodgkin, P. 254 ; Gautier, PP. 221-225.

(٤) Villari, PP. 99-101 Boissonnade, P. 27 ; Gautier, PP. 226-32.

ولضعف الأمبراطورية الغربية ، ظل ايتيوس يرضى مطامع ملك الوندال ، لكى يحول دون اعتداءات جديدة ، بل اقترح المستشار الرومانى أن يتزوج هنريك أكبر أبناء جزريك من ابنة فالنتنيان الثالث الطفلة ؛ وكان هذا الطعم قد أغرى ملك الوندال بإعادة زوجة ابنه السابقة ، وهى ابنة ثيودريك الأول ملك القوط الغربيين فى عام ٤٤٥م ؛ أعادها إلى أبيها فى حالة سيئة مشينسة ، إذ قطع أذنيها وجدع أنفها ، بحجة أنها تآمرت على ابنه بدس السم له(١) . فكان هذا الحادث إهانة بالغة ، فضلا عن كونه نقضاً لاتفاقية سابقة بين القوط والوندال ، مما أثار القوط للانتقام من الوندال(٢) .

ومما لاشك فيه ، أن جزيرة صقلية ، أصبحت فى ذلك الوقت ، أو بعده بقليل ، جزءاً من أملاك الوندال المعترف بها ؛ ومن المحتمل ، أنه قبيل وفاة جزريك فى عام ٤٧٧م . كان الجزء الأكبر من الجزيرة ، قد تنازل عنه الوندال لأدواكر Odoacr الذى شل عرش أباطرة الغرب وأنهى الأمبراطورية الغربية منذ عام ٤٧٦م ، وكان هذا التنازل نظير جزية يدفعها أدواكر لملك الوندال(٣) .

الخلاصة ، لم تعد صقلية جزءاً من إيطاليا ؛ وهى التى ارتبطت بها منذ أقدم عصور التاريخ ، فضلاً عن الارتباط الجغرافى ؛ ورغم توقيع المعاهدة ، فلم يكف جزريك عن الغزوات وأعمال القراصنة ، إذ لم تزل لديه المبررات الكافية للغزو فى كل ربيع ، وذلك للنيل من البلاد التى « حلت عليها لعنة الله(٤) . »

---

(١) Hist. History, P. 582.

(٢) دولة القوط الغربيين ص ٩١ . ؛ C. Med. H. I, P. 91 ; Bradley, H., The Goths, PP. 110-111.

(٣) إبراهيم طرخان نهاية : الأمبراطورية الغربية (مجلة الآداب — جامعة القاهرة — العدد التذكارى ١٩٦٢) ; Hodgkin, P. 255, N.G., PP. 503-504.

(٤) Hodgkin, P. 255.

أما جزائر البحر الأبيض الأخرى ، مثل سردينيا وقورشقه وجزر البليار ، فالمعروف أن سيطرة الوندال عليها . كانت أسبق وأقوى من سيطرتهم على صقلية ، بل أن هـذه الجزائر كانت أكثر ارتباطاً بمملكة الوندال . من صقلية .

وبعد سبع وعشرين سنة من دخول البرابرة الوندال أفريقيـة ، وبعد اتخاذهم قرطاجنة عاصمة لدولتهم ، بستة عشر عاماً ، استصرخت الأرملة أيودكسيا Eudoxia ، عقب مقتل زوجها الأمبراطور فالنتنيان الثالث ، فى ١٦ مارس من عام ٤٥٥ م ، بنحو ثلاثة شهور ، طالبـة تدخل جزريك ملك الوندال لمساعدتها ، فقد حدث أن تخلص الأمبراطور من ايتيوس ، فانتقم أنصاره بقتل الأمبراطور[1]. ولم يتحرك أحـد للدفاع عن الأمبراطور ، مما يدل على أنه كان كريهاً لشعبه وحكومته ، وبمقتـله انقرض فرع تيودسيوس العظيم ، وانتخب الناس والجيش بترونيوس ماكسيموس Petr-Maximus عضو السناتو وكان فى السنين من عمره فى ذلك الوقت ، فأجبر أيودكسيا على الزواج منـه ، وعلى تزويج ابنـه قيصر بلاديوس C. Palladius من إحـدى بناتها لـكى يضمن العرش لابنـه من بعده ، فضلاً عن تدعيم سلطته ، ولـكنه فشل فى كسب قلب الأمبراطورة الحزينة وفى الاحتفاظ بعرشه . ومن ناحيـة أخرى لم يفعل شيئاً نحو قتلة الأمبراطور فالنتنيان ، بل على العكس قربهم منـه ، مما يحمل على الظن أن له يداً فى مقتل سلفه[2] . أو أنه كان يخشى بطش البرابرة ، أو يخشى مصيراً مثل مصير فالنتنيان .

لم تـكف ايودكسيا عن الحزن على زوجها ، وكانت معروفة بأنها أجمـل

---

(١) راجع تفاصيل هذه الأحـداث فى بحث : نهاية الأمبراطورية الرومانية الغرب ، (مجلة كلية الآداب — جامعة القاهرة البدد التذكاري ١٩٦٢) .

(٢) Villari, P. 123.

نساء روما ، وكانت تحب زوجها رغم سلوكه الشخصى وخيانته الزوجية ، شعرت بالحزن والعار لزواجها من كهل وهى لم تتجاوز الرابعة والثلاثين من عمرها(١) . وفقدت كل أمل فى مساعدة القسم الشرقى من الأمبراطورية ، إذ كانت عمتها بلكاريا Pulcharia ، ابنة الأمبراطور اركاديوس ، قد ماتت فى بيزنطة منذ عام ٤٥٣ م ، وهى آخر فرع تيودسيوس فى الشرق ، وكانت تحكم فى الشرق باسم أخيها تيودسيوس الثانى . لم تجد ايودكسيا بدأ من الاستغاثة بملك الوندال ، ووصل سفيرها سراً إلى قرطاجنة ، حيث أبدى استعداده التام لغزو المدينة الخالدة ، وسيدة المدن ، تحت ستار نصرة أسرة فالنتنيان .

ولما شاع فى روما نبأ قدوم الوندال ، هرب نبلاء المدينة، ولم يفعل الأمبراطور ماكسيموس شيئاً للدفاع أو المقاومة ، بل أصدر مرسوماً أباح فيه الهروب لمن يريد مغادرة المدينة ، والواقع أنه كان فى قصره يمهد لنفسه الطريق للهرب ، غير أن المخلصين من أبناء روما ، غضبوا من هذا التصرف العاجز ، بعد أن وضعوا فى الأمبراطور ثقتهم وتوقعوا أن يقوم بأى إجراء لمقابلة هذه الكارثة ، التى كان سبباً فيها ، ثار الجنود وحال خدم القصر وحراسه دون فرار الأمبراطور ، ودخلوا عليه وقطعوه بسيوفهم ، وجروه فى شوارع المدينة ، فشاركهم الناس فى التمثيل ، ثم ألقوه فى نهر التيبر ، حتى لا تقام له طقوس الدفن (٢) . وقع هـذا الحادث فى ٣١ مايو ٤٥٥ م ، أى بعد ولايته العرش بأقل من ثلاثة شهور(٣) .

لم يكن جزريك بحاجة إلى رسالة من ايودكسيا ، تدعوه فيها لغزو روما ، فهو يتحرق شوقاً لمداهمة المدينة الخالدة ، وهى التى « حلت عليها اللعنة » فى هذه المرة . وسرعان ماشوهد أسطول الوندال فى أوستيا Qstia ميناء روما ، وذلك

---

(١) Ibid.
(٢) Villari, P. 125.
(٣) Hist. History, P. 600; Hodgkin, PP. 195-205.

فى اليوم الثالث بعد مقتل ماكسيموس (٢ يونية)[١] . تقدم جزريك نحو روما بحشوده من الوندال والمغاربة[٢] . فلم يسع البابا ليو الأول إلا الخروج على رأس وفد من رجال الدين ، بعد أن ألقى خطبة حماسية فى كنيسة القديس بطرس وكان يرجو أن يفعل شيئاً لحماية المدينة ، كما نجح من قبل عندما التقى بملك الهون أتيلا على ضفاف نهر منشيو Mincio منذ ثلاث سنوات . كان نجاح البابا ليو محدوداً ، كما كان الشأن فى مقابلته السابقة مع الهون[٣] . والواقع إن جزريك لم يهدف من غزوته هذه إلى شىء سوى النهب والغنيمة ، ولم يطمع فى السلطان أو الحكم . قبل جزريك أن يحقن دماء أهل المدينة ، وألا يحرق المبانى العامة أو الخاصة ، كذلك وافق ، بعد كثير من التردد ، على ألا يعذب أحداً ليعترف بكنوز ثروة مخبوءة ؛ غير أن أوامر جزريك لرجاله لم تكن جادة ، أو أنها لم تنفذ .

دخل ملك الوندال مدينة روما ، بعد هذه المقابلة ممتطياً صهوة جواده ، وتجول فى هدوء داخل شوارعها ، وظل بها خمسة عشر يوماً ، تعرضت فيها روما لشر أنواع النهب والسلب والاستباحة ، فلم يتقيد كثيراً بما اتفق عليه مع البابا ، نهب ما استطاع الحصول عليه من ذهب وفضة ونحاس من القصر الأمبراطورى ، ونهب الكنائس ، فاستولى على ما فيها من كنوز وجواهر وأوانى ، وانتزع نصف سقف الكابتيول وهو معبد الإله جو بتير كبير آلهة الرومان ، وكان مصنوعاً من أجود أنواع البرونز ومغطى بطبقة سميكة من الذهب فى غاية الروعة الفنية ، ويحتمل أن الوندال ظنوا فى بادىء الأمر أن السقف كله مصنوع من الذهب فلما بدأوا ينتزعونه ، وجدوه من النحاس ، ولعل هذا هو سبب اكتفائهم بنصفه ، استولوا كذلك على أروع التماثيل التى وجدوها ، غير أن السفينة التى

---

(١) Gautier, PP. 232-33

(٢) Hist. History; P. 601.

(٣) Villari, P. 125.

شحنت فيها هذه التماثيل ، غرقت بها فى عودتها ، فاختفى بذلك أجمل التماثيل لآلهة الرومان مثل الإلهة فون Faun آلهة الحقول نيمف Nymph إلهة الغابات وغيرهما(١) .

ورغم شنائع الوندال فى البلاد التى غزوها ، فإنهم لم يشنوا حرباً مبيدة ضد العمارة والفنون ، وكل ما كان يهمهم هو الذهب والفضة والأحجار الكريمة ؛ ومع ما فعلوه هذه المرة فى روما ، فإنهم لم يفعلوا الكثير بالمقارنة بما فعله غيرهم مثل القوط الشرقيين والبيزنطيين واللومبارد ، وعلى رأس المدمرين جميعاً النورمان ، بل البارونات الرومان أنفسهم فى العصور الوسطى ، ولذا لا يلام الوندال ، على الرغم من المثل السائر بالوندله 'Vandalism' أو التخريب ، فإنهم أقل إجراماً من غيرهم فى تدمير الآثار الفنية .

كان من بين المنهوبات التى نقلت إلى قرطاجنة الأوانى المقدسة الخاصة بالمعبد اليهودى ، مثل المنضدة الذهبية والشمعدان الذهبى ذى السبعة فروع ويؤكد بروكبيوس سكرتير بلزاريوس ، أنه عند القضاء على الوندال فيما بعد ، عثر فى قصر جليمر Gelimer آخر ملوك الوندال ، على هذه الأوانى وعلى الكثير من الجواهر والتحف مثل السروج الذهبية ، والعربات المذهبة المخصصة لسيدات القصر ، وكميات كبيرة من الذهب ، والأحجار الكريمة . وهذه كلها حملت إلى بيزنطة ، وأضفت على انتصار بلزاريوس روعة وبهاء(٢) .

---

(١) Sehmidt, op. cit., P. 308 ; Historian's Hist., P. 601 ; Hodgkin, PP. 284-86 ; Guaiter, PP. 235-38.

(٢) نقلت الأوانى المقدسة الخاصة بالمعبد اليهودى ثانيا إلى القدس ، حيث وضعت فى الكنائس المسيحية ، وعندما رآها أحد اليهود ، علق بقوله لأحد أصدقاء الأمبراطور ، بأنها شؤم على المكان الذى تحل به ، فقد أدى وجودها فى روما إلى غزو الوندال لها ، ثم أدى نقلها إلى قرطاجنة إلى القضاء على الوندال أنفسهم . وهى فى ذلك تشبه وجود « سفط موسى » فى مدن فلسطين (Hodgkin, P. 286. أنظر ما يلى ; Davis, P. 23

أخذ جزريك فى عودته من روما عدداً كبيراً من الأسرى ، يقدر ببضعة آلاف من الذكور والأناث ، ومن بين الأسرى أيودكسيا — وهى أرملة اثنين من الأباطرة ، وابنة أمبراطور ثالث (تيودسيوس الثانى) — وكذلك أسر ابنتيها أيودكسيا وبلاسيديا Placidia ، ويبدو أنه كان فى أسر الأمبراطورة وابنتيها حماية لهن من غضب الرومان ، حتى لا يقعن فريسة لأهل روما الساخطين. ومن بين الأسرى كذلك جودنتيوس Gudentius بن ايتيوس ، وكان هذا الابن قد تقدم من قبل للزواج من إحدى ابنتى الأمبراطور . زوج جزريك أيودكسيا الأبنة ، وهى الكبرى ، من هنريك أكبر أبنائه ، فى نفس الشهر (يونية ٤٥٥)(١) ، أما أيودكسيا الأم والبنت الثانية ، فعاملهما ملك الوندال بكل احترام ورعاية ، ووفر لهما الحياة الكريمة فى القصر الملكى بقرطاجنة ، وظل أمرهن على هذا النحو لمدة سبع سنوات(٢) .

وضم الأسرى عدداً كبيراً من المدنيين وأرباب الحرف وأصحاب الكفاءات النادرة ، وقد وزع هؤلاء الأسرى رقيقاً على رجاله ، ولذا لابد وأن الدماء الرومانية قد امتزجت بالسكان فى أفريقية الشمالية ، وكثير من سكان جبال الأطلس الحاليين ، لابد وأنهم من سلالة هذا المزيج ؛ ومع أن الأسرى الرومان لم يلقوا الكثير من سوء المعاملة من جانب الوندال ، إلا أن ديوجراتياس Diogratias أسقف قرطاجنة ، بذل ما استطاع من جهد لمساعدة الأسرى والتخفيف عنهم ، إذ باع جميع الأوانى الذهبية ومجوهرات الكنيسة وكنوزها ، وافتدى كثيراً من الأسرى ، ولكى لا تنفصم الروابط الأسرية ، نتيجة افتراق الكثير من هؤلاء الأسرى عن عائلاتهم ، إذ كان جزريك فى توزيعه الأسرى

(١) Lot, Les Invasions, P. 115 ; Deanesly, P. 77 ; Dill, PP. 335-6 ; Souttar, P. 328.

(٢) أعاد جزريك أيودكسيا الأم وإبنتها بلاسيديا إلى القسطنطينية ، تحت إلحاح الأمبراطور الشرقى ليو ، وفى بيزنطة تزوجت بلاسيديا من أوليبريوس Olbyrius عضو السناتو ، وهو الذى صار إمبراطوراً على الغرب فيما بعد .

على قومه ، كان يفرق بين الزوجة وزوجها وأطفالها وأبويها ، عمل أسقف قرطاجنة على توفير المسكان الصالح لجميع أفراد عائلات الأسرى ، ممن لم يستطع افتداءه ، وذلك بأفراد كتدرائيتين لهم ، وحول هاتين الكدرائيتين إلى مستشفيات وأعد فيهما الفراش وجميع ما يلزم لإقامة الأسرى ، وتولى بنفسه الإشراف عليهم ومواساتهم ، فكان يزورهم مرتين فى كل يوم ، ويشرف على طعامهم ، ويصحب الأطباء لمعالجتهم ، وخلال قيامه بهذا العمل العظيم ، مات مأسوف عليه ، فحزن الأسرى عليه أعمق الحزن ، ودفن فى مكان سرى ، حتى لاتتعرض جثته إلى السرقة على هواة جمع آثار القديسيين(١) .

* * *

وهكذا قامت دولة الوندال فى شمال أفريقية ، وعجزت الأمبراطورية الرومانية بشطريها عن صد أخطارهم أواقتلاعهم من أفريقية ، وظلت الأمبراطورية الغربية فى الفترة ما بين ٤٥٦ م ٤٧٢ م فى اضطراب داخلى متصل الحلقات ، حتى سقطت نهائياً فى عام ٤٧٦ م(٢) .

— ٤ —

بدأ حكم الوندال فى شمالى أفريقية، من العاصمة قرطاجنة عام ٤٣٩م ؛ وكانت الأمبراطوية الرومانيسة فى الغرب ، قد اعترفت بوصفهم « معاهدين »Foedrati منذ عام ٤٣٥ م ثم اعترفت باستقلالهم فى عام ٤٤٢ م(٣) .

وحكومة الوندال ملكية استبدادية ، وظلت كذلك زمن جزريك وخلفائه من بعده ، حتى زال ملكهم من أفريقية ، والملاحظ أن هذا النظام الاستبدادى، لم يكن سائداً عند الجرمان الآخرين الذين أخذوا بنظام الملكية ، مثل القوط

---

(١) Hodgkin, PP. 286-89 ; Hist. History, P. 602 ; Villari, P. 127.

(٢) نهاية الأمبراطورية الرومانية فى الغرب .

(٣) Deanesly, P. 78.

والفرنجة ، ولذا فإن حكومة الوندال أقرب ما تكون إلى حكم الطغاة ، الذين عرفوا فى تاريخ الإغريق القديم ، حقيقة تشابهت حكومة الوندال مع بعض حكومات الجرمان ، من حيث إن الملكية محصورة فى بيت معين ، ذى أصول مقدسة ، إلا أن سلطة المجالس الملكية كانت تختلف ، فلم يكن لمجلس نبلاء الوندال من السلطة والوزن مثلما كان لمجلس نبلاء الفرنجة أو مجلس طليطلة القوطى(١) .

انحصرت الملكية الوندالية فى بيت الأسديين Asdingi ، وهو البيت الذى انحدر منه الملك جزريك وخلفاؤه . ومن دلائل قوة الملكية وطغيانها ، أن جزريك ، أقدر البرابرة فى عصره(٢) ، قد طرح ذلك التقليد الذى نشأ بين حكومات البرابرة الأخرى ، وهو تقسيم الملك أنصبة كأنه إرث ، بين الأبناء ، مما كان من أخطر معاول الهدم لتلك الملكيات بعد زوال مؤسسيها . لقد أوصى جزريك ولى عهده ، بأن يكون الحاكم الأعلى ملكاً على جميع أملاك الوندال كتلة واحدة غير مجزأة ، فدلت هذه القاعدة على حصافته السياسية ، كما قوبلت قاعدة ولاية العرش لأكبر أعضاء الأسرة المالكة ، بالرضا التام ، إذ ليس من الضرورى أن يكون أكبر أبناء الملك ، وهذا تقليد تيوتونى قديم(٣) .

غير أن هذا التقليد أدى إلى بعض المشاكل حول وراثة العرش من بعد جزريك ، إذ حدث أن حاول هنرريك أكبر أبناء جزريك وخليفته من بعده ، أن يولى إبنه من بعده ، ومن أجل ذلك ذبح أخوته وأبناءهم باستثناء اثنين هما ولدا أخيه الأصغر جنزو Genzo ، فقد تمكن هذان الإبنان من الهرب(٤) .

---

(١) دولة القوط الغربيين للمؤلف ص ١٣٢ — ١٤١ .

(٢) نفس (نفسه) ص ٣٠ .

(٣) Deanesly, P. 77 ; Oman, P. 11 ; Schmidt, P. 318.

(٤) Oman, P. 11.

وربما كان من أسباب قوة الملكية الوندالية ، أن منابع الثروة عند الوندال ، لم تعتمد اعتماداً كلياً على الأرض ، أو على أعمال وخدمات طبقة من المحاربين يحاربون أساساً على الأرض ، وذلك على عكس الفرنجة الذين اتجهوا إلى الأرض ، على أثر استقرارهم فى الغال ، بعد فترة الإضطرابات والفتوح ، فاعتمدوا على ماتغله أراضيهم وأملاكهم ، وكذلك على ما يجبونه من مكوس وضرائب على التجارة ، أما الوندال فاعتمدوا بصفة أساسية على ما يحصلون عليه من أسلاب ومغانم عن طريق القرصنة ، إذ استولوا على كثير من السفن الإغريقية ، وأصبح لهم أسطول بحرى ضخم يتحكم فى البحر المتوسط ، حتى أضحت روما ، لأول مرة ، منذ الحرب البونية الثالثة فى القرن الثالث قبل الميلاد تحت ، رحمة بحرية تفوقها قوة وضخامة(١) واستطاعت البحرية الوندالية أن تنتزع منها صقلية وسردينية وقورشقة وجزر البليار وغيرها ، أدرك الوندال أن النهب المباشر أسهل منالا وأسرع ربحاً وأكثره ، وإن لم يكن أبقاه ، وأهملوا المصدر الأصيل فى احتكار مصادر هذا الربح مثلا ، كتجارة البحر المتوسط ، مما أدى فى نهاية الأمر إلى القضاء على هذه التجارة ، وعلى الوندال أنفسهم . ومن ناحية أخرى ، أدرك ملك الوندال أن رعايا ، أو أتباعاً أثرياء ، عن طريق القرصنة ، أقل خطراً على عرشه وسلطانه من منافسات طبقة من ملاك الأراضى والنبلاء المحاربين(٢) .

وفيما يتعلق بالجهاز الإدارى فى دولة الوندال ، ترك جزريك الشيء الكثير منه إلى الموظفين الرومان لخبرتهم الطويلة فى الحكم والإدارة ، ومن غير شك كانت رغبات الوندال وتدخل الملك واضحة فى جميع الشؤون ، فعمل كبار النبلاء وجميع الموظفين ، كل فى اختصاصه ، داخل إطار الطاعة والخضوع دون أدنى معارضة أو احتجاج ، مهما كانت أوامر الملك(٣) ، أبقى جزريك على فروع الإدارة

---

(١) Deanesly, PP. 78-9.

(٢) Hodgkin, P. 263.

(٣) Oman, PP. 28-30; Hodgkin, P. 263; Stephenson, PP. 52, 78.

اليومية فى أيدى البيروقراطية الرومانية ، وهذه مما لا طاقة للجرمان بالصبر عليها وممارستها وتنظيمها ، وهذا هو السبب فى أننا نجد ، تحت حكم الوندال ، حاكما على قرطاجنة ، بلقب نائب قنصل Proconsul ، وكذلك حاكم الأقليم فى حكومة الوندال بلقب Primarius Provinciae ، وهناك رئيس الحجاب أو رئيس الديوان الملكى: Praepositus sacri cubiculi. أما الاختصاصات التفصيلية المحددة لهؤلاء الموظفين ، فغير واضحة زمن الوندال(١) ، إذ المعروف أن الوندال لم يأخذوا بالحضارة الرومانية قبل دخولهم أفريقية ، ولم يتشبعوا بها وهم فى أفريقية(٢).

أما سياسة الوندال نحو الأراضى التى فتحوها فى أفريقية ، فلم تتقيد بالمبدأ القديم الذى طبق فى الأمبراطورية الرومانية لصالح البرابرة المتسلطين ، وهو مصادرة ⅓ أو ⅔ الأراضى للمعاهدين منهم . كضيافة إجبارية لهم وقد فعل ذلك ، أدواكر وثيودريك فى إيطاليا ولكنهم صادروا معظم الأراضى واستولوا عليها ووزعوها بينهم(٣) ، وبدأ جزريك هذه العملية ، وأكملها بعد فتح قرطاجنة مباشرة . والملاحظ ، أنه بمقتضى معاهدة ٤٤٢م ، كانت هناك بعض الأراضى التى ظلت بيد الأمبراطورية فى طرابلس وموريتانيا ولكن ملك الوندال أكمل استيلاءه على جميع هذه الأراضى ، عقب وفاة الأمبراطور فالنتنيان الثالث(٤) .

اختار جزريك أجود الأراضى المملوكة لكبار أهل أفريقية الرومانية من النبلاء والأشراف والأثرياء ، ووزعها وأصحابها رقيقا Servi على ولديه هنريك وجنزونى Genzoni . ومعنى ذلك أنه احتفظ لنفسه ولأولاده بولايات : بيزاكينا وأباريتان Abaritan وجيتوليا Gaetulia وجزء من نوميديا ، وهذه هى أجود الأراضى

---

(١) Hodgkin, P. 263; Oman, P. 28.

(٢) Chapot, P. 466.

(٣) Deanesly, P. 78.

(٤) Hodgkin, P. 263; Oman, P. 8.

في شمالي أفريقية ، ومن هذه الأراضي المنتخبة تكون الخاص الملكي أو الدومين Dominicum ، وهي على حد تعبير المؤرخ فيكتور فيتنسس : « أرض سيدنا جزريك : "Dominicus noster ,Gaisericus . أي أن هذا الدومين الضخم يمثل تقريباً كل الولايتين الكبيرتين ، نوميديا و بيزا كينا و بعض أجزاء الولاية القنصلية زوجتانا Zeugitana (١) . وهذه الولاية الأخيرة أصغر الولايات ، إذ تبلغ نحو مائة ميل في خمسين ميل ، لكنها من غير شك أغنى الولايات ، وتقع قرطاجنة في وسطها(٢) .

وصادر جزريك معظم أملاك عامة الأفريقيين الرومان ، ووزع هذه الأملاك إقطاعات على قومه من الوندال ، ولكنه تلطف مع هؤلاء الأفريقيين ، وسمح لهم باسترداد أراضيهم نظير دفع أثمانها ، أي يشترونها مرة ثانية ، إلا أن الجزء الأكبر من أراضيهم قسم بين الوندال ولاسيما الأراضي الخصبة أما الأقل جودة والمتطرفة فقد تركها لهم ، ووزع مما صادر على طبقة المحاربين من قومه ، اقطاعات وراثية ، بشرط أداء الخدمة الحربية ، مع إعفائهم من جميع الضرائب(٣) .

وعرفت التوزيعات الإقطاعية ، أو الأراضي التي وزعها إقطاعات باسم : إقطاعات الوندال Sortes Vandalorum(٤) . والمعنى الحرفي لهذا المصطلح : الحصص أو التقسيمات الوندالية ، وكلمة سهم أو حصة أو نصيب Sors ، عرفت عند القوط الغربيين وعند الفرنجة البريين على الراين ، وكذلك عند البرجنديين على شواطىء بحيرة جنيف(٥) .

---

(١) Gautier, PP. 203-210 ; Hodgkin, PP. 257-8.

(٢) Gibbon, P. 339 ; Hist. History, P. 579.

(٣) Hodgkin, PP. 257-8.

(٤) Oman, P. 8.

(٥) Deanesly, P. 78 ; Hodgkin, PP. 256, 259.

ومن هذا التوزيع تبدو بذور النظـام الإقطاعى الذى تمخض عنه تدهور المجتمع الفرنجى إبان حكم الـكارولنجيين ، مع العلم بأن له أصولا كذلك ترجع إلى الميروفنجيين أسلاف الـكارولنجيين(١) .

وليس من المعقول أن يترك الوندال أغلبية سكان دولتهم الجديدة فى أفريقية أحراراً ، فإن الضياع الواسعة التى حازها الملك وأولاده ورجال جيشه ، كانت فى حاجة كبيرة إلى جيش كبير من العبيد لزراعتها واستغلالها ، ولذلك انحدر جميع رعايا الوندال من الأفريقيين إلى طبقة العبيد ، وبصفة خاصة ، أولئك الأثرياء من الملاك الذين صودرت أملاكهم ، مما يدل على صلف البرابرة وعتوهم ، ولـكن بمرور الزمن ، أثبت أصحاب المدينة القديمة والثقافة العالية وجودهم وأهميتهم ، إذ لم يلبث أولئك الأرقاء الأرستقراطيون من المستوطنين الرومان ، أن صاروا القوة المحركة لزملائهم من الأرقاء الخاضعين للوندال ، حتى قيل ، إنه إذا طال أمد الحـكومة الوندالية ، على النحو الذى سارت إليه فى طريق الانهيار ، لن يكون هـذا إلا لحساب هذه الطبقة المستنيرة ، التى سوف تسيطر على مجرى الحوادث وعلى مصير الوندال أنفسهم .

أما طبقة الفقراء ، فهم وإن تركوا أحراراً فيا أبقى لهم الوندال من أملاك ، إلا أنهم أثقلوا بأنواع الضرائب المختلفة ، حتى حاول الـكثير منهم الفرار ، ومن قبض عليه أعدم(٢) . وهكذا قاسى جميع السكان من رعايا الوندال . ويمكن أن نتبين طبقتين فقط فى مجتمع الدولة الوندالية فى شمالى أفريقية هما : الطبقة العليا ، وتشمل الوندال وما اندمج فيهم من العناصر البربرية الأخرى مثل الآلان . وهذه الطبقة معفاة من الضرائب . والطبقـة الثانية هى الطبقة الدنيا ، وتشمل جميع من

---

(١) Ganshoff, F.L., Feudalism, PP. 100-101 ; Seigngbos, Ch., L'Europe Féodale (Hist. Générale), T. II, P. 1.

(٢) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٧١ — ٧٢ و Oman, PP. 7-8.

عدا الوندال من الرعايا ، وعلى هذه الطبقة كل الغرم . ومثل هذا التقسيم الجائر وجد فى فرنسا فى العصور الوسطى ، ولم يقض عليه إلا بقيام الثورة الفرنسية أواخر القرن الثامن عشر(١) .

ومن حيث الجيش الوندالى ونظامه ، فالمعروف أن القوة الحربية عند الوندال كانت تتكون من الوندال أنفسهم ومن حلفائهم الذين ارتبطوا بهم أو اندمجوا فيهم مثل : الآلان الإيرانيين والهيروليين(٢) . الجرمان و بعض القوط وبعض السويف . اندمجت هذه العناصر بالوندال ، حتى لم يعد هناك تمييز بينها وبين الوندال . و بجانب هؤلاء البرابرة كان هناك فرقة من المغاربة دخلت فى خدمة الوندال ، ولها رؤساؤها الوطنيون من المغاربة أنفسهم ، وكثيراً ما كان جزريك يرسل المغاربة سنوياً لغزو إيطاليا أو صقلية(٣) .

وامتلاك الوندال قوة بحرية ضخمة ، أصبحت فى وقت من الأوقات أخطر قوة بحرية فى البحر المتوسط ، واكتسب بحارتهم خبرة بحرية ساعدتهم على بث الرعب والفزع عند سكان شواطىء هذا البحر ، ولو أن حروب الوندال البحرية كانت أقرب إلى القرصنة منها إلى الحرب المنظمة .

و بذل جزريك جهداً كبيراً فى الأخذ بأساليب الجيش الرومانى من حيث التنظيم ، فنظم جيشه على الأساس العشرى ، كما يقول المؤرخ بروكبيوس ، وهو نظام قديم عرف فى الشرق والغرب على السواء . واقتضى هذا التنظيم أن يكون على رأس كل فرقة مكونة من ألف محارب ضابط بلقب دوق Dux أو مقدم ألف Chiliarck أو Millenarii(٣) .

---

(١) Gautier, PP. 203-210 ; Hodgkin, PP. 259 ; Schmidt, P. 316.

(٢) الهيروليون أعظم القبائل الجرمانية وحشية ، وأقام بعضهم فى أول الأمر عند شواطىء بحر أزوف شمالى البحر الأسود (Lot, P. 52) .

(٣) Deanesly, P. 80 ; Hodgkin, P. 256 ; Schmidt, P. 320

أما سياسة الوندال الدينية ، فكانت متعصبة لمذهبهم الأريوسى ، ويعتبر الوندال فريدين بين البرابرة من حيث شدة التعصب(١) ؛ جاءوا إلى أفريقية وهم على المذهب الأريوسى منذ قرن مضى ، وكانت أفريقية فى تلك الفترة بيئة تتنازعها الأهواء الدينية مما سهل عليهم فتحها(٢) . فبدأت علاقتهم بالرعايا الكاثوليك سيئة منذ أول ، إذ لم يلبث جزريك ملك الوندال ، أن صادر أملاك الكنائس الكاثوليكية ونقلها إلى الكنائس الأريوسية(٣) . وكتب المؤرخ المعاصر فكتور فيتنسس V. Vitensis رسالة عن الاضطهادات الوندالية "De Persecutione Vandalorum" وقال فيها : إن الوندال دمروا الكنائس والكتدرائيات والمقابر والأديرة ، وأحرقوا جميع بيوت العبادة ، وقتلوا الأساقفة ورجال الدين ، وأذاقوا من لم يقتلوه ألواناً مختلفة من العذاب ، كأن يفتحوا أفواههم ويتركونها مفتوحة بالأوتاد والخوابير، وقد يملأونها بالقاذورات، ووضعوا الصخور على ظهورهم ، وأهانوا النساء وكبار القوم وخطفوا الأطفال من أمهاتهم ، وهكذا . غير أنه مما لاشك فيه إن هذا المؤرخ كان مبالغاً فيما كتب إذ كان يكتب تحت تأثير قوميته وتعصبه لمذهبه ، رغم أنه معاصر ، حقيقة ارتكب الوندال الكثير من المنكرات ، شأن البرابرة المتسلطين واسترقوا بعض رجال الدين ونفوا الكثير منهم ، لكن من المبالغة أن نقول : إنهم قتلوا أسراهم أمام المدن المسورة ، فهناك خطر انتشار الأوبئة ، وهم يدركون تماماً أنهم أول ضحايا الأوبئة ؛ ويحتمل أن لكلمة الوندال والوندالية أو الوندلة 'Vandalism' علاقة بالاضطهاد الدينى أكثر من دلالتها على الكراهة الجنسية لأولئك القراصنة ، وما اقترن باسمهم من تخريب وتدمير(٤) .

---

(١) Lot, P. 89 ; Schmidt, P. 321

(٢) Gautier, PP. 199-200 ; Hodgkin, P. 265.

(٣) Oman, P. 9.

(٤) Deanesly‘ P. 79 ; Hodgkin, PP. 296-71.

حاول جزريك أن يحول بعض الكاثوليك البارزين إلى المذهب الأريوسى ومن هؤلاء : الضابط سباستيان ، صهر بونيفاس ، الذى هام على وجهه فى الأرض فراراً من اضطهاد ايتيوس ، فاتجه إلى القسطنطينية أولاً ، ثم إلى بلاط القوط الغربيين ، واستولى على برشلونة من الأمبراطورية الغربية ، لصالح ثيودريك ملك القوط الغربيين ، ولما ساءت علاقته مع القوط ، توجه إلى جزريك فى أفريقية حيث رحب به ، بعد أن اطمأن إليه ، وعينه فى منصب رفيع ، ولما كان سباستيان كاثوليكيا ، لم يطمئن جزريك إلى ولائه ، فدعاه يوماً إلى حضرته ، وعرض عليه اعتناق المذهب الأريوسى ، فأبى سباستيان فى أدب وشجاعة ومنطق ، غضب جزريك ، وأمر باعدامه بعد ذلك(١) .

كذلك أعدم جزريك أربعة آخرين من الكاثوليك ، وهم من أصل أسبانى ، أخلصوا لملك الوندال ، حتى صاروا من أقرب مستشاريه ، وهم : أركاديوس وبروبس Probus وباسكاسيوس Paschasius ويوتكيوس Eutychius ، وذلك على أثر رفضهم اعتناق المذهب الأريوسى ، وأظهر هؤلاء الضحايا شجاعة نادرة وصلابة محمودة فى الحفاظ على عقائدهم ، ولم تغرهم الوعود بالثروة والجاه أما العاديون من الكاثوليك الذين يخدمون فى حكومة الوندال ، فلم يتعرضوا للاضطهاد العنيف الذى حل بكبار الكاثوليك ، مهما كانت خدماتهم للوندال .

لم يكن جزريك وخلفاؤه ، من بعده ، يعترفون إطلاقاً بحق الفرد فى اختيار العقيدة التى يؤمن بصحتها ، ويحتمل أن الوندال تعصبوا لمذهبهم خلال الجيل الأول الذى تلا الفتح مباشرة .

وبعد وفاة جزريك فى ٢٥ يناير ٤٧٧م ، خلفه ابنه هنريك ، زوج الأميرة

---

(١) **Hodgkin, PP. 275-6.**

الرومانية أيوذكسيا . ولما شعر هنريك بخطورة النزاع بينه وبين بيزنطة حول مصير أيودكسيا . فكر فى إعادة هيئة الأكليروس الكاثوليكى فى قرطاجنة عام ٤٨١م لكنه لم يلبث أن أدرك أنه لم يعد هناك ثمة مايخشاه من جانب روما الشرقية(١)، ولذلك تابع سياسية سلفه فى اضطهاد الكاثوليك ، ولم يعبأ بتأثير زوجته فيه ، انتقم ممن كان يخشى خطرهم ، سواء أكانوا داخل قصره أو خارجه من أتباعه وخدمه وحشمه من الكاثوليك . وعلق المؤرخ بروكبيوس على سياسة هنريك الدينية ، بأنه لم يكن هناك ملك اضطهد المسيحية بمثل القسوة التى عالجها هنريك إذ كان من بين وسائل الاضطهاد عنده الإحراق بالنار . وبمقتضى القرار الذى أصدره هنريك فى ٢٤١ يناير من عام ٤٨٤م ، أمر بتطبيق جميع القرارات الانتقامية أو الاضطهادية التى كان أباطرة الرومان قد أصدروها ضد أصحاب المذاهب المخالفة ، إلا إذا تحولوا للعقيدة الرسمية الوندالية (الأريوسة) فطرد الكثير من الأساقفة ، الكاثوليك إلى جزيرة سردينيا ، واستخدم الأموال التى جباها من مصادرة أملاك الكنائس الكاثوليكية فى بناء كنائس أريوسية جديدة ، وفصل الموظفين الكاثوليك من مناصبهم ، وفرض غرامات مالية على جميع الكاثوليك ، كل بحسب ثروته ومكانته ، وكلف الأريوسيين بتنفيذ قرارته التعسفية . ولم تجد احتجاجات الأمبراطور البيزنطى واحتجاجات البابا(٢).

خلف هنريك حاكمان أكثر اعتدالا منه ، هما الأخوان جونثاموند (٤٨٤ — ٤٩٦ م) ، ثراسـاموند Thrasamund (٤٩٦ — ٥٢٣ م) . لقد اضطهد جونثاموند الكاثوليك ، ولكن على نحو أقل قسوة وعنفاً من هنريك ، ومن بين من لقوا الاضطهاد على يديه أعظم الشعراء المعاصرين يومئذ دراكونتيوس Dracontius ، إذ سجن هذا الشاعر لأنه تغنى

---

(١) Deanesly, P. 80; Schmidt, P. 311.

(٢) Gautier, PP. 201-203; Schmidt, P. 312

بمحامد الإمبراطور الشرقى زينو Zeno وإن لم يفصح عن إسمه(١) . غير أن جونتاموند لم يلبث أن أعاد فتح الكنائس الكاثوليكية فى عام ٤٨٧ ، رغم أن بعض الأساقفة الكاثوليك ظل منفياً فى جزيرة سردينية(٢). وازدادت سياسة اللين والاعتدال زمن تراساموند ، الذى يعتبر الملك الوحيد بين الملوك الوندال ، الذى ظفر بتمجيد معاصريه من الإغريق واللاتين ، فهو فضلا عن ثقافته الممتازة وبروزه فى الخطابة والخلق الحسن ، كان حليف ثيودريك العظيم ملك القوط الشرقيين ، ومتزوجاً من أختـه ، أمالافريدا Amalafrida(٣) وكان المعروف عن ثيودريك فى ذلك الوقت ، إنه متسامح مع الكاثوليك ، فكذلك كان ملك الوندال حليفه وزوج أخته(٤) .

أما الملك هلدريك بن هنريك ، الذى حكم فى الفترة ما بين ٥٢٣ و ٥٣١م ، فأمه أبودكسيا البيزنطية ، وكان قد مكث مدة طويلة فى القسطنطية ، بلغت نحو ٤٠ سنة ، تشبع خلالها بالمدنية الرومانية والثقافة الرومانية ، ولذلك برهن على أنه ملك رومانى أكثر منه وندالى . عطف على الكاثوليك ، حتى قيل عنه فاق عطفه على كاثوليكية أمه عطفه على أريوسية أبيه : من أجل ذلك بدا هلدريك غريباً وسط قومه ، ولما كان معروفاً بالجبن فضلا عن تقدمه فى السن ، خشى تراساموند قبل وفاته أن ينقض هلدريك سياسة أسلافه المتعصبة ، وإن عرف تراساموند نفسه بالتسامح ، إلا أنه أوصى هلدريك ألا يعيد الكنائس الكاثوليكية إلى أصحابها . لم يستمع هلدريك لهذه الوصية ، بل أمر بإعادة الكنائس الكاثوليكية بأساقفتها إلى ما كانت عليه ، أكثر من ذلك أمر بسجن أمالافريدا

---

(١) Bury, P. 125.

(٢) Deanesly, P. 81.

(٣) زفت أما لافريدا إلى ملك الوندال فى موكب فخم ، وجاءت إلى أفريقية وفى صحبتها بعثة شرف من ألف محارب من نبلاء القوط .

(٤) Deanesly, P. 81 ; Bury, P. 125.

أخت ملك القوط الشرقيين ، وهى الأميرة الأريوسية العظيمة، ثم أمر بإعدامها .

وفى عام ٥٣١ م عزل هلدريك وسجن ، وخلفه جليمر Gelimer الذى قضى عليه بلزاريوس(١) .

— ٥ —

بعد مقتل الأمبراطور ماكسيموس فى عام ٤٥٥ م ، ونهب روما على يد جزريك فى ذلك العام ، كان المتحكم الفعلى فى الأمبراطورية الغربية المتدهورة ، القائد أفيتوس Avitus ، وهو الذى تمكن من الوصول إلى منصب الأمبراطور الشاغر يومئذ ، لكنه لم يلبث أن طرد على يد القائد ريكمر Ricemer ، الذى أشتهر فى ذلك الوقت على أثر تحطيمه لأسطول وندالى يتكون من ٦٠ سفينة ، هاجم جزيرة كورسيكا فى عام ٤٥٦م(٢) .

وتم اختيار مايوريانوس Majorianus فى عام ٤٥٧ م ، من أعظم الأباطرة المتأخرين الذين حاولوا إنقاذ الأمبراطورية الغربية من الأخطار المحدقة بها ، انعقدت الآمال عليه ، لوقاية الأمبراطورية من أخطر أعدائها الخارجين فى ذلك الوقت ، وهو جزريك ، إذا كان ملك الوندال ، لقوته ، وصفاته ، وموقع دولته ، أخطر عدو يهدد إيطاليا .

لم يكن الوندال قد كفوا عن أعمال الغزو والنهب والقرصنة ، فقد جاء أسطول وندالى مغربى فى مطلع حكم الأمبراطور مايوريانوس، واقتحم رجاله جنوبى إيطاليا وأخذوا ينهبون المنطقة حول نهر جارليانو Garighliano فأسرعت الجيوش الأمبراطورية وفاجأت الوندال فى منطقة كامبانيا Compania. وأعملت فيهم السيف ،

---

(١) Lot, Les Invasions, P. 142 ; Deanesly, P. 82 ; Schmidt, P. 314,320.

(٢) Hist. History, P. 605.

حتى قتل الكثير منهم ، ومن بين القتلى القائد الوندالى نفسه ، زوج أخت جزريك
لم يكتف الأمبراطور مايوريانوس بهـذا النصر ، بل صمم على غزو الوندال
فى أفريقية ، والقضاء عليهم نهائياً . ويدل هذا المشروع الخطير على جرأة وشجاعة
الإمبراطور مايوريانوس ، ولو قدر لهـذا الأمبراطور أن ينجح فى بث الروح
العسكرية فى الشبيبة الإيطالية ، إذاً لا ستطاع أن ينازل جزريك ، على رأس
جيش من الطراز الرومانى القديم ، غير أنه لسوء الحظ ، الذى لازم الأمبراطورية
الغربية فى أواخر أيامها ، أنه وقع فى أسوأ ما وقع فيه أسلافه من خطأ ، عندما
استعان بالبرابرة ، وأحلهم محل الرومان ؛ ومع ذلك فله فى هذا واسع العذر ، بعد
أن وضح له ضعف الروح الحربية عنـد الرومان ، وأن الأخطـار المحدقة به
لا تحتمل التأخير(١) .

استهوت سياسته ونشاطه وشهرته ، الشعوب البربرية الضاربة حول نهر
الدانوب ، من البـورستينيين Borysthenes والتانيين Tanais والجبيديين
Gepidae والقـوط الشرقيين والروجيين Rugii والبرجنـديين والسويف
والآلان ، فانثالت حشود هؤلاء جميعاً على إيطاليا ، وقادهم الإمبراطور بنفسه ،
وكانوا فى الواقع مفرقين ، تمزق صفوفهم الشحناء والانقسامات ، وذلك كله
يرجع إلى أنهم من عناصر مختلفة وأهواء متباينة ولهم مطامع متنوعة ؛ عبرت
هذه القوات جبال الألب فى البرد القارس ، وكان الأمبراطور ، بين حين وآخر ؛
يسبر غور الثلج برمحه الطويل ، ويشجع السكيثيين Scythians الذين أظهروا
ألمهم من قسوة البرد ، وذلك بتجـديد وعوده إليهم وإلى غيرهم ، وأنهم جميعاً
سوف يعوضون عن ذلك العناء ، بدفء شمس أفريقية .

امتلأت معسكرات مايوريانوس بالبرابرة الحلفاء ، ويظاهره الشعب الرومانى
بحماسه وولائه نحو الإمبراطور ، الذى انعقدت عليه الآمال ، أدرك الأمبراطور

(١) Schmidt, op. cit. P. 309.

بثاقب نظره ، استحالة فتح أفريقية والسيطرة عليها ، ما لم يكن أسطوله البحرى قوياً كافياً ، وتذكر أنه خلال الحرب البونية الأولى ، أن جمهورية روما فطنت لأهمية القوة البحرية ، وأنها استطاعت بفضل حماس أبنائها أن تعد أسطولا قوياً فى خلال ستين يوماً ، بعد أول ضربة ضربها أبناؤها لقضم الأخشاب من الغابات ، وأن تنزل فى البحر ١٦٠ سفينة .

ورغم اختلاف الأحوال ، زمن الجمهورية الرومانية ، وخلال النصف الأخير من القرن الخامس الميلادى ، فإنه نجح فى حشر العمال الرومان فى غابات الابنين لقطع الأخشاب ، وفى إصلاح دور الصناعة فى رافنا وميسنوم Misenum ؛ كذلك عاونته بلاد الغال ، فى مشروعه الضخم ، ولم يلبث أن تجمع للامبراطور ماريوريانوس أسطول مكون من ٣٠٠ سفينة ، امتلأت به ميناء قرطاجنة الجديدة فى أسبانيا(١) .

ويدل هذا النشاط المنقطع النظير ، أن الأمبراطور مايوريانوس ، كان من خير ما تمخضت عنه حوادث العهد الأخير من الأمبراطورية الغربية ؛ كان مايوريانوس يتحرق شوقاً للنصر ، ويعد عدته له . ويذكر المؤرخ بروكبيوس أن الأمبراطور أراد أن يقف بنفسه على قوة الوندال ، قبل المغامرة بمشروعه الكبير ، فتنكر بصبغ شعره ، وزار قرطاجنة عاصمة الوندال ، بوصفه سفيراً للأمبراطور ، فلم يعبأ به جزريك وبسفارته وطرده ، ولما علم بعد ذلك بحقيقة أمره ، حزن أشد الحزن على إفلاته من بين يديه ، ومثل هذه القصة قد تكون أسطورة غير تاريخية ، إلا أن مثل هذه الأساطير لا تنسج إلا فى حياة الأبطال(٢) .

---

(١) Hist. History, P. 608 ; Hodgkin, P. 426.

(٢) Hodgkin, PP. 428-29.

لم تخف عبقرية مايوريانوس عن جزريك ، كما لم يجهل ملك الوندال نوايا الأمبراطور الرومانى نحو الوندال ، وما أعده من استعدادات وخطط . ولذا صمم جزريك على اصطناع الحيلة واستخدام الخديعة ، ولا سيما وأن ملك الوندال كان غير مطمئن إلى شجاعة رعاياه الذين أضعفهم ما آلوا إليه من ترف فى الجو الدافىء الأفريقى ، كما أنه كان يشك فى ولاء المغلوبين الذين لم يعتبروه سوى طاغية أريوس ، فضلاً عما أصاب بلادهم من تخريب ومصادرة ومظالم ، كان جزريك على يقين من أن الرومان يستطيعون أن ينزلوا فى أية بقعة على الساحل ؛ ولذلك رأى أن يصطنع الحيلة ، ويتقدم طالباً الدخول فى مفاوضات الصلح ، وبعث إليه سفارة تطلب منه المهادنة والصلح : فرفض الأمبراطور مايوريانوس(١) . متمسكاً بالمبدأ القديم القائل بأنه لا أمان لروما طالما كانت قرطاجنة فى يد الأعداء.

استطاع جزريك أن يفلت مما أعده له خصمه العنيد ، بعد أن فشلت خديعته ، فاستعان ببعض الخونة من رعايا الأمبراطور ، أولئك الذين حز فى نفوسهم نجاحه وشهرته ، وفاجأ جزريك جزءاً من الأسطول الرومانى فى خليج قرطاجنة الجديدة بأسبانيا قبل أن يتحرك ، وأغرق أكثره أو أحرقه ، وذلك فى مايو ٤٦٠ ؛ وبذلك دمرت استعدادات ثلاث سنوات فى يوم واحد(٢) .

ولقد دل سلوك كل من الخصمين القويين ، بعد هذه الكارثة ، على أنهما قادران على المثابرة كل فى مشروعه ، فلم ييأس الأمبراطور ، كما لم يباه الوندال بهذا النصر السريع الغادر . جدد الوندال مفاوضاتهم من أجل الهدنة والصلح ، وفى هذه المرة ، وافق الأمبراطور ، حتى تتاح له الفرصة لإصلاح أسطوله وإعادة بناء قوته لمعاودة الكرة ؛ ومن ثم عاد الأمبراطور مايوريانوس إلى إيطاليا ليتابع جهوده من أجل بلاده . كان الأمبراطور يدرك تماماً سلامة موقفه وتصرفاته ،

---

(١) Gautier, P. 248.

(٢) Gautier, P. 248 ; Hist. History, P. 609 ; Oman, P. 9.

ونزاهة أهدافه ، ولكن الشيء الذى لم يخطر له على بال ، هو تلك المؤامرات التى كانت تحاك حول عرشه(١) .

حدث أن زعزعت كارثة قرطاجنة ، ذلك المجد الذى تمتع به الأمبراطور مايوريانوس ، بسبب انتصاراته وتوفيقاته ، والواقع أن الحكومة الأمبراطورية فى روما ، كانت منهارة ، ففيها الكثير من رجال الحرب والسياسة ، الذين لا يفيدون إلا فى جو المؤامرات وخلال أحداث الفتن ؛ فلم يتمخض عمله الدائب فى تطهير أداة الحكم ، إلا عن قيام مؤامرة ضده ، نسج خيوطها ريكمر ، أثار البطريق ريكمر أحقاد البرابرة ضد الأمبراطور بحجة أنه لم يعد صالحاً لحكم الأمبراطورية . وسرعان ما ثار البرابرة ضد الأمبراطور ، وأجبروه على التنازل عن العرش ، وبعد ذلك بخمسة أيام أشيع موته ، بسبب مرض الدوسنتاريا ، والحقيقة أن ضباط القائد ريكمر ، قبضوا عليه ونزعوا عنه شارة الملك وقطعوا رأسه فى ٧ أغسطس ٤٦١ م(٢) . وبمقتل مايوريانوس ، انقطع آخر خيط فى أمل انقاذ الأمبراطورية ، أو على الأقل فى تأجيل سقوطها إلى حين .

أضحى ريكمر الحاكم بأمره فى الغرب ، واختار لنفسه أن يكون صانعاً للأباطرة ، دون أن يكون هو امبراطوراً ؛ ولم تكن الحال فى الشرق خيراً منها فى الغرب ، إذ كان المتحكم فيها يومئذ القائد أسبار Aspar الآلانى الأريوسى ؛ اختار أسبار لعرش الأمبراطورية فى الشرق اشباداره ليو الأول (٤٥٧ — ٤٧٤م) ليكون طوع أمره ، لكنه جاء على غير ما كان يتوقعه أسبار ، إذ عمل على تدعيم مركزه فى الداخل والضرب على أيدى أسبار لكى يتفرغ لقهر الوندال ، بعد أن ظهر عجز الأمبراطورية الغربية بعد مايوريانوس ؛ ولم ير أسبار من وسيلة

---

(١) Deanesly, P. 77 ; Villari, P. 129.

(٢) Hist. History, P. 609.

للانتقام من الأمبراطور الذى عينه ، سوى الاتصال سراً بجزريك الوندالى ، لاتفاقهما معاً فى المذهب الأريوسى فضلاً عن تشابه المصالح(١).

وبعد أن نجح ليو فى تحرير نفسه من استبداد أسبار ، بتكوين قوة حربية ضاربة من الأيسوريين الأسيويين ، لموازنة قوة أسبار ، استجاب لآلام الايطاليين وتوسلاتهم لإنقاذهم من خطر الوندال ، وأعلن على الفور تحالفه مع الأمبراطورية الغربية ضد الوندال ، لكنه لم يعترف بالأمبراطور ساويرس (٤٦١ — ٤٦٥م) الذى عينه ريكمر خلفاً لمايوريانوسى ، وظاهره فى ذلك حاكما الغال ودالماشيا .

ولما مات الامبراطور ساويرس ، بعد أربع سنوات صاخبة ، ظل ريكمر صاحب السلطة الفعلية نحو أكثر من سنة . لكنه اقتنع خلال هذه الفترة ، باستحالة قهر الوندال دون الاستعانة بقوة بيزنطية بحرية ، لذلك اتفق مع السناتو الرومانى للتقدم إلى الامبراطور ليو ليختار أمبراطوراً للغرب ، فاختار لهم انثميوس Anthemius (٤٦٥ — ٤٧٢م)(٢) .

اتفق الامبراطوران على إنقاذ الغرب من خطر الوندال ، وعاد الأمل قوياً ، بفضل هذا الاتحاد ، فى استعادة أفريقية والنفوذ الرومانى فى البحر المتوسط(٣) . أعد ليو أسطولاً ضخماً فى عام ٤٦٨ م ، أنفق على إعداده أموالاً ضخمة وجهوداً مضنية ، وكان هذا مما شجع ماركلينوس Marcellinus حاكم دالماشيا على إعلان ولائه للامبراطور انثميوس ، فقام على رأس أسطول من مثله ، وأنزل هزيمة بالوندال واستخلص منهم جزيرة سردينيا وصقلية مؤقتاً (٤) ، وفى نفس

(١) Hist. History, P. 611.

(٢) الأمبراطور أنثميوس هو ابن بروكوبيوس ، من أصل شريف ، ويمتاز بالخلق والفضائل ، وكان من أعظم حكام الشرق ، تزوج من يوفيميا Euphemia إبنة الإمبراطور مارقيان ، فكانت هذه المصاهرة من أسباب ترقيته السريعة إلى كونت فقائد عام فبطريق ، يضاف إلى ذلك مجده الحربى الذى حققه بانتصاراته السابقة على الهون عند الدانوب .

(٣) Gautier, PP. 252-53.

(٤) Hodgkin, P. 447.

الوقت ، نزل هرقل Heraclius القائد البيزنطى على شاطىء أفريقية فى طرابلس واستعاد بعض المدن من أيدى الوندال ، ثم تقدم نحو قرطاجنة ليلتقى بالحملة الأساسية التى جاءت إلى قرطاجنة عاصمة الوندال(١) .

نزلت القوات البحرية الضخمة عند رأس بون Bon ، على بعد نحو ٤٠ ميلاً من قرطاجنة ، وكان لواء القيادة العليا معقوداً للقائد البيزنطى بازيلسكوس Basiliscus إبن زوجة الأمبراطور ليو . جاء نزول القوات البيزنطية الرومانية على الساحل الأفريقى مفاجأة مزعزعة للثقة فى قلب جزريك ، حتى أسرع يطلب الدخول فى مفاوضات الصلح ، بأى شروط يمليها الرومان ، وطلب هدنة لمدة خمسة أيام ، لإتمام شروط الصلح ، والواقع أن ملك الوندال لم يكن يرمى إلا إلى كسب بعض الوقت لإعداد نفسه ، ولإيجاد انقسام بين قادة الحملة الرومانية ، حول ما عرضه ملك الوندال ، وفى كلا الحالين يستفيد جزريك. استجاب بازيلسكوس لخديعة جزريك ، إما لأنه قصير النظر سيء التدبير ، وأما لأن أوامر سرية وصلته من أسيار الحقد على الإمبراطور ليو ، وكان بازيلسكوس يطمع فى العرش البيزنطى ، وإما لأن الوندال رشوه بكمية كبيرة من الذهب . وأياً كانت الأسباب ، فإن حيلة جزريك جازت على القائد الرومانى ، وتمكن جزريك خلال الخمسة أيام التى جرت فيها المفاوضة ، أن يستعد استعداداً عاجلاً ، وفى جنح الليل حشد حراقاته بالقرب من أسطول الرومان ، وفى مكان تسهل الحركة فيه ، أشعل فيها النيران وأرسلها إلى سفن الرومان فاحتكت بها ، وأشعلت النيران فيها ، وحينئذ هجم الوندال هجمة صادقة ، استولوا فيها على سفن المؤن الرومانية ، وأغرقوا أكثر الأسطول ، فكانت خسارة الرومان فادحة ، وقعت هذه الكارثة فى ربيع عام ٤٦٨ م(٢) .

---

(١) Gautier, P. 250.

(٢) Hodgkin, PP. 446-50 ; Hist. History P. 613 ; Gautier, PP. 252-8.

لم يستطع القائد بازلسكوس أن يعمل شيئاً ، سوى النجاة بنفسه والعودة سريعاً إلى القسطنطينية ، حيث لجأ إلى كنيسة أياصوفيا ، إلى أن ظفر بالعفو ، ونجا من حكم الإعدام . وفشل إذن مشروع القضاء على الوندال .

وخلال الفترة من ٤٦٨ — ٤٧٦ م كانت الأمبراطوية الغربية قد بلغت ذروة الاضطرابات والفوضى ، فوليها عدد من الأباطرة الأشباح ، كانوا صنيعة صناع الأباطرة أمثـال ريكمر وأورستيز ، ومن هؤلاء الأباطرة ، أوليبريوس Olybrius حمو ريكمر ، ولاه الأخير بعد أن قتل أنثميوس فى عام ٤٧٢ م ، ولما كان أوليبريوس متزوجاً من بلاسيديا التى أعادها جزريك إلى القسطنطينية فقد طمع جزريك فى صداقة الرومان عندما ولى أوليبريوس العرش ، ومن أجل ذلك أوقف جزريك غزواته على بلاد الإغريق ، وأعلن أن « اللعنة حلت على إيطاليا فقط » ؛ فتكررت صوائفه على إيطاليا وصقلية ، وكانت أهدافه هى القرى والمدن غير المسورة ، خشية من وجود الحاميات القوية فى المدن الـكبرى[١] . ولما قتل أوليبريوس فى ذلك العام ازدادت أحوال الأمبراطورية اضطراباً إلى أن سقطت نهائياً فى عام ٤٧٦م على يد أدواكر وأصبح زينو أمبراطور الشرق هو الأمبراطور الوحيد على شطرى الأمبراطورية[٢] .

وفى أوائل عام ٤٧٧م ، أى بعد نصف سنة فقط من سقوط الأمبراطورية الرومانية فى الغرب ، و بعد طرد الأمبراطور أغسطلوس آخر الأباطرة فى الغرب ، مات جزريك ملك الوندال ، بعـد أن ظل نحو نصف قرن ، الشـبح المخيف للرومان ، ولـكنه مات بعد أن ماتت الأمبراطورية الغربية نفسها ، وسرعان ما تدهورت مملكة الوندال من بعـده ، ولم يكد يمضى أكثر من نصف قرن

---

(١) Hodgkin, PP. 516-36 ; Villari, PP. 148-9.

(٢) أنظر : نهاية الأمبراطورية فى الغرب للمؤلف (مجلة كليـة الآداب جامعة القاهرة — العدد التذكارى ١٩٦٢) Souttar, P. 335.

بقليل ، بعد وفاة جزريك ، حتى أضحت دولة الوندال فريسة سهلة الاقتناص أمام الأمبراطور الشرق يوستانيوس .

ماتت عظمة الوندال وقوتهم بموت جزريك ، رغم ما خلفه من أسطول ضخم قوى ، وخزانة مليئة بالأموال ، فضلاً عن القصر الرائع التى تزينه التحف المنهوبة من روما . لم يستطع خليفته من بعده أن يفيد مما خلف سلفه . كما لم تستطع أيودكسيا البيزنطية زوجة هنريك أن تحمله على التخفيف من حدة تعصبه ضد الكاثوليك ،وقد هربت زوجته هذه من قرطاجنة بعد أن عاشت معه ١٦ سنة وأنجبت له ولدين ، هربت سراً إلى القدس حيث ماتت(١) .

كان على الأمبراطورية الشرقية أن تصفى حسابها مع الوندال ولاسيما وقد أصبحت هذه الأمبراطورية هى المسئولة الوحيدة عن مصائر الرومان ومصالحهم فى الشرق والغرب ، ولم ينقطع الوندال خلال تلك الفترة ، أى منذ وفاة جزريك حتى قيام يوستانيوس فى العرش ٥٢٧ م ، عن مهاجمة شواطىء البلقان وشرق البحر الأبيض ، وكان سلف يوستانيوس وخاله جستين الأول (٥١٨ — ٥٢٧م) قد وجه أنظار الكاثوليك المضطهدين من رعايا ملوك الجرمان الأريوسيين عامة إلى الشرق ، وجاء خليفته بمشروعه العظيم لإعادة الأمبراطورية الرومانية وإحياء السيطرة الرومانية Roman Imperium . فضلاً عن إحياء الروح الرومانية Romanitas (٢) . واستعادة أفريقية الوندالية جزء حيوى فى هذا المشروع الضخم.

كان الوندال يشكلون الخطر الحقيقى على الأسطول البيزنطى فى البحر الأبيض ، وانتهز يوستانيوس فرصة عزل الملك الوندالى هلدريك(٥٢٣ — ٥٣١م)

---

(١) Diehl & Marçais, PP. 54-55 ; Deanesly, P. 82.

(٢) Oman, PP. 10-11 ; Lot, La Fin, P. 289.

وهو الملك الذى تجرى فى عروقه الدماء البيزنطية(١) . وأعد عدته للتدخل ، فأنهى ما هنالك من مشاكل ، بأن عقد صلحاً مع كسرى الأول الفارس ٥٣٢م وأخمد فتنة Nika فى نفس السنة(٢) ، ورغم الارهاق الذى لقيه الجنود البيزنطيون فى الحرب الفارسية ، فضلاً عن النفقات ، هناك عوامل شجعت الأمبراطور يوستانيوس على تنفيذ مشروعه ، منها أن التجار الأغريق صاحوا بضرورة الحرب مع الوندال ، كما أن أساقفة الوندال أنفسهم كانوا يؤكدون أن أهل الولايات على تمام الأهبة لمساعدة جيوش الأمبراطورية ، ولعل هذا من أهم العوامل التى شجعت يوستانيوس ، على المضى فى خططه ، يضاف إلى ذلك : تلك الثورة الوطنية التى قامت فى طرابلس ، ضد سيادة الوندال ، وتزعمها بودنتيوس Pudentius ، زمن جليمر ، آخر ملوك الوندال ، وكان زعيم الثورة على اتصال بالأمبراطور الشرقى ، وجاءته فعلاً فرقة حربية صغيرة من قبل الأمبراطور ، وارتكب ملك الوندال غلطة كبرى فى أنه لم يعمل على قمع الثورة والقضاء عليها ، ومعنى هذا ، أن جيوش الامبراطور سوف تنزل فى أرض صديقة(٣) .

وقبل هذا الحادث بقليل ، ثار الحاكم الوندالى فى جزيرة سردينيا وأعلن استقلاله عن قرطاجنة ، وكان هذا الحاكم قوطياً دخل فى خدمة الوندال ، اسمه جوداس Godas ، فلما علم بمشروع الامبراطور يوستانيوس ، أعلن خضوعه له ، فأرسل جليمر حملة قوامها خمسة آلاف محارب و ١٢٠ سفينة ، لقمع الثورة وهذا ما حرمه من خدمات هذه الحملة فى صد جيوش الأمبراطور ، كما حرمه من معظم سفن الأسطول الوندالى وأحسن البحارة(٤) . هذا وهناك العداء الذى

---

(١) Diehl & Marçais, PP. 64-67.

(٢) Ibid.

(٣) Bury, II, P. 128.

(٤) Ibid ; Diehl et Marçais, P. 66

الذى استحكم فى ذلك الوقت بين الوندال والقوط الشرقيين ، نتيجة سجن امالافريدا Amalafrida القوطية، زوجة تراساموند ملك الوندال السابق ، فقد سجنها الوندال بعد وفاة زوجها وقتلوها مما أدى إلى قطع علاقة الصداقة بين القوط الشرقيين فى إيطاليا و بين الوندال فى أفريقيـة ، أى بين بلاطى رافنا وقرطاجنة(١) . ولذلك ساعد القوط الشرقيون على اقتلاع الوندال وإبادتهم ، وذلك بوضع موانى صقلية تحت تصرف الجيوش الأمبراطورية(٢) .

تذللت أذن جميع مصاعب يوستانيوس ، ولا سيما مشكلة تأمين طريق المواصلات وخط السير . رسمت الخطة على أساس إنزال جيوش الفتح أو إعادة الفتح الرومانى لأفريقية Reconquesta ، على الشاطىء قرب قرطاجنة(٣) .

أبحرت قوات الأمـبراطور يوستانيوس من القسطنطينة فى ٢٢ يونيو من عام ٥٣٣م ، وعلى رأسها كونت بلزاريوس، أقدر قواد الأمـبراطورية ويليه فى القيادة العامة القائد الأرمنى الـكف، حنا Joannes(٤) ، وبارك البطريق هذه الحملة قبيل ابحارها(٥) . بلغت عدة سفن النقل ٥٠٠ سفينة ، وعليها عشرة آلاف من الجنود الرجالة وخمسة آلاف من الفرسان ، هـذا بالإضافة إلى فرقتين من الرماة المعاهدين (Laeti, Foederati) من الهون وعددهم ٦٠٠ محارب، ومن الهيرولين Heruli وعدد ٤٠٠ مقـاتل(٦) ، صحب كونت بلزاريوس فى حملة . زوجته أنطونيـا ومستشارة المؤرخ بروكبيوس Procopius ، أحد قادة الفكر فى بيزنطية فى القرن السادس الميلادى(٤) ؛ وكذلك رئيس حرس

(١) Villari, P. 197.

(٢) Bury, II, P. 129.

(٣) Deanesly, P. 83.

(٤) Villari, P. 198.

(٥) Bury, II, P. 129.

(٦) Oman, PP. 76-77 ; Bury, P. 127, Lot, Les Invasions, P. 142 ; Schmidt, P. 315.

(٧) بروكبيوس من مؤرخى القرن السادس الميلادى ، صحب الحملات البيزنطية ضد فارس والوندال والقوقاس الشرقيين ، ووضع كتباً عن هذه الحروب مثل :
De Bello Vandalorum etc... (Bury, PP. 129, 143)

بلزاريوس الخاص وهو الخصى سولومون العراقى الأصل ، ومن أقدر الخصيان وأشجعهم ، وهو الذى ولى افريقية بعد القضاء على الوندال(١) .

ركب بلزريوس وزوجته ومستشاره ورئيس حرسه فى سفينة القيادة Navis Praetoria ، ولقى الجيش مصاعب جمة خلال رحلته ، من ذلك عواصف فى بحر ايجه ، ونفاد الماء العذب الطازج ، ويذكر بلزاريوس أن سفينة القيادة لم تشك قلة المياه نظراً لمهارة زوجته فى طريقة حفظ الماء ، إذ كانت خزنت المياه فى أوانى زجاجية فى أسفل السفينة وغطتها بالرمال ، ومن ثم بقى الماء طازجاً بارداً(٢) . وعند صقلية ، وقف الأسطول البيزنطى قرب سرقوسة ، حيث أخذ حاجته من التموين(١) ، فضلاً عن الأخبار الخاصة بالعدو ، وهذه جمعها بروكبيوس عندما نزل إلى الجزيرة . وعلم أن الوندال مشغولون فى إخماد ثورة سردينيا ؛ استأنف بلزاريوس رحلته ، وساقته الرياح إلى رأس فادوا Caput Vada أوراس كبوديا على بعد ١٦٢ ميلاً من قرطاجنة ، ونحو ٦٦ ميلاً جنوبى هادروميتوم Hadrumetum (سوسه)، ويقول بروكبيوس إن المسافة بينها وبين قرطاجنة تستغرق خمسة أيام سيراً على الأقدام(٢) .

وقبيل نزول بلزاريوس وجيشه إلى البر ، عقد مجلساً حربياً على سفينة القيادة ، وناقش خطط الهجوم على قرطاجنة ، وفى الشهر الثالث منذ خروجهم من القسطنطينية ، نزلوا على الساحل الأفريقى فى سبتمبر ٥٣٣م ، واتخذت القوات البيزنطية أماكنها فى معسكرات محاطة بالأسوار ، ومن بين الأسوار سور من الأوتاد والخوابير ، تم ذلك فى سرعة فائقة ، وفى يوم واحد . وكان معسكر البيزنطيين بالقرب من بئر فيها مياه كافية لتموينهم وتموين خيولهم بالماء ، مما كان من أكبر

(١) Ibid.

(٢) Deanesly, P. 82.

(٣) من المحتمل أن جزريك كان قد عقد معاهدة مع أدواكر قبل وفاته عام ٤٧٧ تنازل بها من معظم جزيرة صقلية ونظير أن يدفع له أدواكر جزية سنوية Hodaku, P. 256Oman, P. 10.

(٤) Bury, II, P. 130.

العوامل التى ساعدت على نجاح الحملة . أمضى بلزاريوس وجيشه ليلة للراحة والاستجمام ، وكان يتولى الحراسة على كل سفينة خمسة عشر من الرماة الأفذاذ .

وفى اليوم التالى تقدم بلزاريوس ، وأوصى رجاله بعدم التعرض لقمح أهل الولايات وثمارهم بأى أذى ، مذكراً إياهم بأن الأفريقيين ليسوا سوى سلالة الرومان الأوائل ، وهم يكرهون الوندال أشد الكراهة ؛ ثم طمأن بلزاريوس الأفريقيين بقوله ، أنه على وشك أن يزيح عنهم هذا الكابوس الطاغى .

أرسل بلزاريوس فرقة من ثلثمائة فارس بقيادة حنا الأرمنى للاستطلاع ، وكذلك فرقة من الهون من ٦٠٠ فارس للسير على جانب طريق الزحف لحماية الجيش من هجوم مفاجىء أو كمين ، واستولوا على أول مدينة وهى سيلكتم Syllectum (Selekta) بدون أى مقاومة أو حرب ، بل أخذوها بالخدعة والحيلة ، إذ كان المشرف على خيول الوندال فيها ، قد سلم الخيول إلى بلزاريوس فكافأه بكمية من الذهب ، وسلمه رسالة الأمبراطور إلى زعماء الوندال ليقرأها عليهم ومضمون هذه الرسالة : « أن غرض الجيش الرومانى ليس حرب الوندال ، أو أنه يريد نقض المعاهدة التى أبرمها جزريك (٤٧٦م) ، ولكن الهدف الوحيد هو إزالة حكم الطاغية (جليمر) الذى استخف بوصية جزريك وسجن ملك الواندال (هلدريك) وقتل أقرباءه وسمل عيون الباقين ، وآثر إبقاءهم لتعذيبهم ، ولذلك انضموا إلينا لإنقاذكم وتحريركم من حكم الطاغية ، وسوف تنعمون بالأمن والحرية ونعاهدكم أمام الله ، بأننا سوف نحقق لكم هذه الوعود »(١) .

ولكن الرجل الوندالى الذى تسلم الرسالة ، لم يستطع أن يقرأ الرسالة على الملأ ، واكتفى بعرضها سراً على أصدقائه الذين يثق فيهم ، ومن ثم لم تكن لها أية نتيجة . وعندما تقدم بلزاريوس ، ساعده الأهالى بالمؤن ، ومر الجيش فى طريقه

---

(١) Bury II, P. 130.

بالمدن : تابوس ، ولبــده وسوسه ، ثم إلى جراس Grasse حيث يوجد قصر بحديقة جميلة لملك الوندال ، ومكان هذا القصر حالياً « سيدى خليفة » . كان جليمر فى ذلك الوقت فى مدينة هرميان Hermiane بولاية بيزاكينا ؛ ولما علم بتقدم الزحف الرومانى ، بعث برسالة سريعة إلى أخيه أماتاس Ammatas فى قرطاجنة ، يأمره بقتل هلدريك ومن معه بالسجن ، والاستعداد بكل قواته لمهاجمة الرومان ، وكان جليمر يريدأن يحاصر الرومان قرب تونس(١) .

وفى ١٣ سبتمبر ٥٣٣م ، التقى بلزاريوس بجيش جليمر الوندالى ، وهزمه على بعد عشرة أميال جنوبى قرطاجنة ، فى موضع اديكم Ad-Decimum ، فهرب جليمر إلى نوميديا غرباً ، ولم يلق الـكونت بلزاريوس صعوبة تذكر فى الظفر بهذا النصر السريع ، حتى أنه تمـكن فى أمسية ذلك اليوم ، أن يتوجه إلى قرطاجنة مع زوجته ، حيث كان الهدوء يسودها ، ولم تـكن هناك أية عقبة تحول دون دخوله فيها ، إذ كان القرطاجانيون قد فتحوا أبواب مدينتهم ، بعد أن شاع هرب ملك الوندال ، وإضاءوا المصابيح ، حتى بدت المدينة فى تلك الليلة كأنها فى عيد(٢) .

أما الوندال المقيمون فى قرطاجنة ، فقد لجأوا إلى الـكنائس يتضرعون فيها فيها إلى الله ، لم يدخل بلزاريوس المدينة فى ذلك الوقت خشية أن يكون بها كمين ، وفى اليوم التالى وصلت سفنه إلى ما ندركيوم Mandracium — ميناء قرطاجنة — وأزال المرشدون القرطاجانيون السلاسل من مدخل الميناء ، وأفسحوا الطريق حتى دخلت السفن .

وفى ١٥ سبتمبر ، دخل بلزاريوس قرطاجنـة ، وأمر رجاله بعدم التعرض

---

(١) Ibid PP. 130-32 ; Diehl et Marçais, P. 66.

(٢) Oman P. 78 ; Gautier, P. 309

للسكان بأى أذى ، لحسبهم ما قاسوه زمن الوندال ، ودخل قصر جليمر وجلس على عرشه(١) . ويصف بروكبيوس الحفل الذى أقامه بلزاريوس، ابتهاجاً بالنصر، فى قاعة الحفلات بالقصر الملكى الوندالى ، حيث اعتاد ملوك الوندال أن يقيموا حفلاتهم فيها ، مع أمراء قومهم . ويطلق الرومان على قاعة الحفلات عادة فى القصور الأمبراطورية اسم « القاعة الدلفية » ، حيث توضع منضدة ذات ثلاثة أرجل، وعليها يضع السقاة الأمبراطوريون Pincernae الكؤوس ونظراً لاستعمال هذا التقليد لأول مرة فى مدينة دلفى اليونانية ، أضحى الرومان يطلقون كلمة « الدلفية » على هذه المنضدة ، واستعار البيزنطيون هذا المصطلح وأطلقوه على قاعة العشاء فى القصور الأمبراطورية ، فسموها : الغرفة الدلفية . كانت هذه القاعة معدة بالأوانى والطعام والشراب ، استعداداً لحفلات جليمر ، فآلت هذه الاستعدادات جميعها إلى بلزاريوس ورجاله ، وقام خدم جليمر بتقديم الطعام والشراب للمنتصرين(٢) .

ورحب السكان بالفاتح ، وأبحر الأسطول الإمبراطورى إلى بحيرة تونس ؛ وفى تلك الأثناء بعث المغاربة فى نوميديا بسفرائهم إلى بلزاريوس مظهرين خضوعهم وإذعانهم للفاتح ؛ وكان من عادة زعماء المغاربة أن يمنحهم أباطرة الرومان شارات الأمرة على أقوامهم ، وهذه الشارات عبارة عن : عكاز مصفح بالفضة وقلنسوة فضية على شكل تاج ، ومعطف أبيض ، وتيونك Tunias أى رداء رومانى ، وحذاء منخفض . أرسل بلزاريوس بهذه الشارات ، دليلاً على عودة الأمور إلى ما كانت عليه(٣) .

---

(١) Lot, Les Invasions, P. 143 ; Deanesly, PP. 83-4 ; Bury, II, P. 135.

(٢) Deanesly, P. 84.

(٣) Ibid.

(٤) Bur, II, PP. 13°-36y.

وعلى أثر هذا النصر المبين ، استعاد الأساقفة الكاثوليك مراكزهم وكنائسهم ، وطهروا الكنائس من آثار الأريوسية ، وعلقوا فيها التحف والهدايا التي نذرها المؤمنون للكنيسة ، والتي كانت أخفيت خلال سيطرة الوندال ، وظلت مخبوءة طوال تلك الفترة ، ومن بينها الطاسات الجميلة المزخرفة ، والمشكاوات وغيرها ، أعيد كل شيء إلى حاله ، وهرب رجال الدين الأريوسيون وتفرقوا في شتى الجهات .

أما جليمر الآبق ، فقد كان لاجئاً في ذلك الوقت عند بعض القبائل المغربية ، التي ظلت على ولائها له ، وذلك في مدينة بولارجيا Bulla Regia في نوميديا ، وهي المعروفة حالياً باسم « حمام دراجي » ؛ خرج جليمر واستأنف كفاحه ، رغم انتصارات بلزاريوس ، فقطع الماء العذب عن قرطاجنة ، وحاصرها ، فهزمه بلزاريوس مرة أخرى في منتصف ديسمبر من نفس العام (٥٣٣) عند مدينة تريكاماروف Tricamarum — ومكانها الآن غير معروف ، وكانت تقع على بعد نحو ٢٠ ميلاً غربي قرطاجنة . حينئذ عاد جليمر إلى مخبأه مرة ثانية ولكن في تلال بابوا ,Pappua في مفاوز نوميديا عند أنصاره من المغاربة ، وعاش في هذا الملجأ في بؤس وجوع ، وقاسى من شدة البرد ، ولا سيا وكانت فرقة الهيروليين بقيادة زعيمهم الهيرولي فراس Pharas قد أحاطت بهذا الجبل وحاولت دون اتصاله خارج هذه المنطقة ، وأرسل القائد الهيرولي إليه رسالة ودية ينصحه فيها بالتسليم ، إذ لم يعد هناك جدوى في أية مقاومة ، فسلم(١) .

وفي تلك الأثناء كان بلزاريوس قد تقدم إلى هيبو رجيوس واستولى عليها ، واحتاط على الموجود فيها من كنوز الوندال ؛ ثم أرسل جيشاً من قبله لفتح سردينيا وقورشيقة وجزر البليار ؛ وأخيراً استولى بلزاريوس على مدينة سوتا Ceuta (سبتـه) في أقصى المغرب ، واستعاد كذلك جزر البليـار وقورسقه وسردينيا .

---

(١) Gautier, PP. 309-10 ; Lot, La Fin, PP. 289-90 ; Bury, PP. 135-36.

وبتسليم جليمر ملك الوندال فى مطلع عام ٥٣٤م ، تكون دولة الوندال قد زالت نهائياً(١). واقتنع الأمبراطور يوستانيوس بهذه النتيجة الطيبة ، فإن الوندال ذهبت ريحهم ، ولم يعد هناك أى خوف من ناحيتهم ، واستدعى قائده المظفر واحتفل بالنصر فى القسطنطينية ، حيث سار الملك جليمر الوندالى الأسير ، فى موكب النصر ، واتخذ يوستانيوس لقباً جديداً على أثر هذا النصر وهو « الوندالى والأفريقى أى قاهر الوندال وفاتح أفريقية Africanus Vandalicus & ، وأعيدت الحكومة الرومانية بكامل مظاهرها وتقاليدها فى أفريقية(٢) .

ومن بين المغانم التى استولى عليها بلزاريوس وعاد بها إلى القسطنطينية ، الأوانى الذهبية التى كان القيصر تيتوس Titus Caesar قد استولى عليها يهوذا Judaea من قبل ؛ وعومل جليمر ملك الوندال بالرحمة والتقدير فأعطاه الأمبراطور يوستانيوس ضيعة كبيرة فى منطقة فريجيا بأسيا الصغرى ، حيث ظل يعيش جليمر وأسرته فى هدوء ونعمة(٣) . وقد عثر فى عام ١٨٧٥م بالقرب من مدينة Feltre على وعاء فضى مكتوب عليه : جليمر ملك الوندال والآلان Geilamir Vandalorum et Alanorum Rex ولا بد وأن هذا الوعاء كان من بين كنوزه التى استولى عليها بلزاريوس ، ويقول المؤرخ ممسن Mommsen إنه ربما كان بلزاريوس أهداه إلى ضابط هيرولى ، ويحتمل أن هذا الضابط هو الذى نقله معه إلى إيطاليا(٤) .

وكان من بين الأسرى عدد كبير من الجنود الوندال ، فكون منهم الأمبراطور يوستانيوس خمس فرق « نسبت إلى الأمبراطور نفسه » وندال

---

(١) Villari, P. 199 ; Bury, II, PP. 137-138 ; Gautier, P. 310.

(٢) Oman, P 79 ; Lot, La Fin P. 290; Bury, II, PP. 138-39. Halphen, L., Les Barbares, P. 96 ; Moss, PP. 97-100.

(٣) Bury, II, P. 179.

(٤) Bury, II, P. 139.

يوستانيوس : 'Vandali Justiniani' . ووضعها عندا لحدود الفارسية ، كما دخل عدد من الوندال الأسرى فى خدمة بلزاريوس (١) .

لم تكن هناك من مصاعب فى فرض السيادة الرومانية من جديد على أفريقية الرومانية ، سوى ما صدر من مقاومات عنيفة وثورات عارمة ، شنها الوطنيون المغاربة ضد السيادة البيزنطية ، مما حمل بلزاريوس على العودة من صقلية إلى أفريقية لقمع الثورات . وتكررت الثورات ضد سولومون Solcmon أول حاكم بيزنطى عقب زوال الوندال ، وكذلك ضد حلفائه من بعده ، فمثلا كان على سولومون ، أن يطارد أنتالاس Antalas زعيم قبيلة فركس Frexi البربرية وحلفاءها من القبائل الآخرين بزعامة كاتسنا إذ كان هذا الحلف يهدد ولاية بيزاكينا ، كذلك كان الزعيم لابداس Labdas ملك بربر جبل أوراس يهدد نوميديا ويخرب فيها ولذلك عاش سكان نوميديا فى رعب وفزع من البربر المقيمين بجبال أوراس ، أما بربر موريتانيا ويشغلون أغلب مساحتها، فكان يتزعمهم إثنان فى ذلك الوقت هما : ماسونا Masuna وماستيجاس ثم إن ولاية طرابلس كانت معرضة دائما لغزوات قبائل لواته البربرية (٢) .

وفشل سولومون فى القضاء على أخطار الثورات الوطنية التى شنها البربر ، ضد كل سيادة أجنبية ، وكان الجيش الرومانى ضعيفاً فى أفريقية ، وفشل حكام الرومان فى تهدئة البربر ولم تجد الحصون التى أقامها الرومان بعد الوندال ، فى الحيلولة دون غزوات البربر ، وإن حاولت دون ثورات السكان فى المدن ، بل لم يحل دون انهيار الحكومة الرومانية فى تلك الفترة سوى تفكك القبائل البربرية الوطنية وعدم الوحدة بها ، بسبب الأحقاد والمنافسات ، ولذا استغل الرومان هذا الانقسام ، فاستعانوا بالبعض ضد البعض الآخر .

---

(١) Ibid.

(٢) Bury, II, P. 141.

الخلاصة يمكن القول : إن الظاهرة المميزة لتاريخ شمالى أفريقية منذ طرد الوندال ٥٣٤م حتى الفتح العربى فى منتصف القرن السابع الميلادى ، هو الحروب المتصلة ضد البربر ، تخللتها فترات هدوء قصيرة ، ولم تنجح الحكومة الرومانية البتة فى يوم ما فى فرض سيادتها الكاملة وسيطرتها التامة على الوطنيين[١] .

أما أسباب سقوط دولة الوندال فتتلخص فى عدة عوامل ، منها : أن عدد الوندال كان قليلاً بالقياس إلى عدد رعاياهم من المستوطنين الرومان والبربر الوطنيين حقيقة زاد عددهم إلى ثلاثة أمثال العدد الأصلى الذى غزا أفريقية ، ومع ذلك ظلوا أقلية صغيرة غريبة من الناحية الجنسية . ورغم أن الوندال أقاموا فى أفريقية نحو قرن من الزمان ، وعاشوا بين المستوطنين الرومان أو الرومان الأفريقيين Romano-Africano ، ولا سيما فى الولاية القنصلية وبيزاكينا ، واستعاروا الكثير من نظم الإدارة الرومانية ، وإلى حد ما أبقوا على اللغة اللاتينية ، بل أن منهم من شجع الآداب اللاتينية ، رغم كل ذلك فإن الوندال ظلوا منفصلين عن أهل الولايات الذين لم يصفو لهم النية ، ولم يندمجوا فيهم ، حقيقة أن دركونتيوس Dracontius [٢] الشاعر والخطيب المعاصر للملك الوندالى جنتاموند (٤٨٤ — ٤٩٦م) يقول بأن أطفال الوندال والأفريقيين كانوا يترددون معاً على مدرسته، وكان يمكن أن يتم التقارب والامتزاج على طول الزمن ، لكن لم يكن كافياً لتحقيق الامتزاج بين العنصرين .

هذا ولم يتعد حكم الوندال الفعلى عن المنطقة المحيطة بقرطاجنة وهيبو رجيوس ، أى ولاية أفريقية — وهى تونس الحالية تقريباً ، أما طرابلس ونوميديا وموريتانيا فكانت فعلاً فى يد الأمراء والبربر وإن عدت هذه الأجزاء ضمن مملكة الوندال

---

(١) Ibid, PP. 142-43.

(٢) دراكونتيوس الشاعر الأفريقى ، أعظم الشعراء المشهورين فى تلك الفترة الحالكة فى الأدب اللاتينى ، وربما كانت الشخصية الوحيدة التى برزت فى بيت الوندالية .

ولا يعترفون إلا بالسيادة الإسمية للوندال ؛ ولم يكن التوسع ، فى عرف الوندال ، هو تدعيم سيطرتهم واستقرارارهم شرقاً وغرباً على طول الساحل ، وإنما كان مدلوله لديهم هو القرصنة البحرية ، وهناك الخلاف المذهبي العنيف ، فقد عرف الوندال بتعصبهم الشديد للأريوسية وهى هرطقة ، إن لم تكن كفراً فى نظر الأرثوذكسى أو الكاثوليكى ، ولم يفعل الوندال ما فعله أشقاؤهم من الجرمان الآخرين مثل القوط الشرقيين أو الغربيين ، وتسامحوا مع رعاياهم الكاثوليك ، ولذا تعد الأريوسية سبباً جوهرياً فى زوال ملك الدول الجرمانية التى دانت بها[١] .

ثم إن جزريك ، ملك الوندال ، كان قد هدم جميع أسوار المدن ، باستثناء المدن التى أقام فيها الوندال تحصينات وندالية جديدة ، مثل قلعة سوتا المطلة على الزقاق ، وهيبورجيوس وقرطاجنة ، واعتقد جزريك أن هذا يحول دون تمرد السكان ، ويحرم الجيوش الغازية من استخدام هذه التحصينات ، ولكن الأمر جاء على عكس ما تصور ملك الوندال ، إذ أن إزالة الأسوار وهدم الحصون ، يسهل مهمة الغازى أكثر من تعويقها ، والذى حدث فعلاً خلال تقدم بلزاريوس ، أنه لم يلق مقاومة تذكر[٢] . كذلك دل هذا التدبير الوندالى ، من ناحية أخرى ، على قصر نظر زعيم الوندال ، ولذا يمكن أن يقال إن منشىء دولة الوندال فى شمالى أفريقية ، قد وضع بذور ضعفها وانهيارها[٣] .

يضاف إلى ذلك ، تلك الحملات المتكررة من جانب روما وبيزنطة ، وكثرة المعارك التى خاضها الوندال ضد ثورات البربر الوطنية ، فهؤلاء لم يخضعوا لحاكم قط ، فقد دوخوا الرومان من قبل ، ورغم إن جزريك قمعهم مؤقتاً ، وذلك بتجنيدهم فى جيشه ، كما فعل الرومان سابقاً ، فإن خلفاء جزريك قد تعرضوا

---

(١) راجع (Bury, II, P. 12° ; Schmidt, P. 322)

(٢) راجع ما سبق .

(٣) Oman, P. 10 ; Hodgkin, PP. 523-24.

لثورات مستمرة من جانب البربر ، واشتبكوا معهم فى حروب متقطعة ، ولكنها ليست حاسمة ، ولا سيما ضد بربر جبل أوراس(١) . فمثلا حدث زمن هنريك (٤٧٧ — ٤٨٤ م) أن اكتسح البربر من سكان جبال أطلس ، المستوطنين الرومان والوندال على السواء ، ومات هنريك وهو يستعد لحربهم(٢)، كذلك شغل تراساموند (٤٩٦ — ٥٢٣) فى حرب طويلة ضد البربر ، مما حمله على مهادنة الكاثوليك ليتفرغ للبربر ، وفى زمنه أفنى البربر عدداً كبيراً من الوندال . والملاحظ أن طرق البربر فى حربهم فضلا عن أسلحتهم الطويلة واستخدام الجمال ، وإتقان حرب العصابات والاختفاء فى الصحراء التى خبروا دروبها ومسالكها ، كل ذلك أنهك الوندال وأضعفهم ؛ ويقال أن خيول الوندال كانت تجفل من منظر الجمال وحركاتها(٣) . ولم يكن البيزنطيون الذين خلفوا الوندال فى شمالى أفريقية بأحسن حالا من أسلافهم ، فيما يتعلق بمتاعب البربر وثوراتهم .

أما القول بأن مناخ أفريقية ، لم يكن ملائماً للوندال ، فهو وإن كان يختلف عن مناخ البقاع الباردة التى هبطوا منها ، إلى أنه ليس أساسياً ، إذ أن الوندال منذ دخولهم أسبانيا فى عام ٤٠٩ م ثم أفريقيـة فى عام ٤٢٩ م ، كانوا تعودوا على هذا المناخ وألفوه ، ولكن ليس معنى هذا التقليل من أهمية هذا العامل الجغرافى ، فالواقع أن المائة عام التى قضاها الوندال فى أفريقية ، قد غيرتهم ، فأمسوا أقل قدرة على الحرب ، وأقل رغبة فيها ، ولا سيما بعد أن انغمسوا فى اللهو والترف والرخاء ، فى ذلك الجو الأفريقى الدفىء ، حتى أنه منذ وفاة جزريك ، يمكن أن يقال أن روحهم الحربية قد ضعفت . بل إن من بين الوندال أنفسهم زمن جليمر (٥٣٠ — ٥٣٤) آخر ملوك الوندال ، من كان يتطلع إلى منقذ من الرومان ، ليقضى على الأحقاد والتنافس والانقسامات التى مزقت صفوف الوندال .

---

(١) Basset, op. cit..

(٢) Oman, P. 11.

(٣) Deanely, P. 81.

وإذا سأل سائل ، عن الدور الذى أسهم به شمالى أفريقية فى نقل المدنية الرومانية والتراث الرومانى ، فإن هذا السهم كان كبيراً ، غير أنه تم قبل وصول الوندال إلى أفريقية بصفة أساسية[١] . حقيقة أبقى الوندال على كثير من مظاهر المدنية الرومانية ، سواء فى الإدارة أم فى إقامة المؤسسات والعمائر على النسق الرومانى ، ولا سيا زمن ثراساموند ، إلاأن ذلك كان قليلاً ، ولم يضيف الوندال شيئاً جديداً . ويذكر للملك الوندالى ثراساموند (ت ٥٢٣م) إن عهده اشتهر ببعض الهدوء ، وأنه كان يشجع الأدب ، وفى عهده وعهود خلفائه من بعده ، قام نشاط أدبى ملحوظ فى أفريقية الوندالية ، فمثلاً برز الشاعر دراكونتوس Dracontius زمن ثراساموند ويعد أعظم شعراء اللاتينية فى تلك الفترة ، وتغنى الشاعر Florentius بمدح ثراساموند ، وكذلك الشاعر فيلكس Felix ؛ وكتب الشاعر لكسوريوس Luxorius فى رثاء دوميرا Domira الطفلة إحدى قريبات الملك الوندالى هلدريك (٥٢٣ — ٥٣٠)[٢] . والملاحظ أن مثل هذا النشاط كان يقوى زمن هدوء العلاقات بين الوندال وبيزنطة ، كما كان الشأن زمن هلدريك الذى كان صديقاً لبيزنطة ، نظراً لصلة القرابة الدموية ، إذ كان جده فالنتنيان الثالث ، وقامت علاقة ود وصداقة بينه وبين الأمبراطور يوستانيوس ، حتى حاول أن يجعل مملكته تابعة لبيزنطة ، فلما طرده جليمر ، تدخل يوستانيوس[٣]

والواقع ، أن الوندال لم يتشبعوا بالمدنية الرومانية ، ويعملوا على تقليدها ، كما فعل القوط الشرقيون والغربيون[٤] والفرنجة مثلاً ، ولم يصيبوا من الروح

---

(١) راجع ما سبق فى القسم الأول من البحث .

(٢) Bury, P. 125 ; Schmidt, P. 322

(٣) راجع ما سبق .

(٤) انظر دولة القوط الغربيين للمؤلف .

الرومانية Romanitas إلا بعض قشورها ، منذ غادروا مواطنهم فى وديان المجر الفسيحة وشقوا طريقهم إلى أفريقية .

ورغم أن حكمهم امتد فى أفريقية مايقرب من قرن من الزمان ، منذ استيلائهم على قرطاجنة فى ٤٣٩م حتى استسلام جليمر للكونت بلزاريوس فى مطلع عام ٥٣٤م ، فإن الآثار التى خلفوها ، لم تعد أدوات زينة وأوانى منزلية ، تدل فى زخرفتها على الطابع الجرمانى أو البربرى الذى عرف عند الشعوب الجرمانية الأخرى . فمن الآثار الوندالية التى عثر عليها : بعض رؤوس الدبابيس والمشابك والأبازيم والجوهرات ؛ فعثر قرب مدينة هيبورجيوس (بونا الحالية) فى أحد قبور الوندال على بعض الجوهرات وأدوات الزينة ، وعثر فى قبر سيدة وندالية على عقد جميل من العقيق والزجاج الأحمر والأخضر ؛ ووجد فى قبر رجل وندالى مشبكان كبيران ، مما يستعمل لتثبيت الثوب على الكتف ، وكذلك وجدت مجموعات أخرى من هذه الأدوات ، وعلى بعضها صور المحار بين ؛ وربما تلتمس أصول الزخرفة الوندالية ، ولا سيما فى الألوان التى استعملوها مثل اللون الأزرق والأحمر والأخضر ، فى الفن الذى ساد فى جنوبى روسيا ، وهذه على أية حال دون مثيلاتها من الجوهرات القوطية والميروفنجية(١) .

وربما كان أهم من هذا ، من حيث الأثر التاريخى للوندال ، هو أن فتح الوندال لإفريقية ، وتقدمهم لها ، لا يمكن تجاهله عند دراسة أوربا الجرمانية ، فإن حركات الوندال دون غيرهم من حركات الشعوب الجرمانية ، كانت عاملاً هاماً فى التطور الاقتصادى لأوربا ، لأن سيادة الوندال على البحر المتوسط وتحكم أسطولهم فيه ، وقطع التجارة الرائجة بين الموانىء التجارية الشهيرة أمثال : بيزنطة وأزمير وصيدا والأسكندرية ولبدة (Leptis) وقرطاجنة وأوستيا ومرسيليا ، أدى ذلك

---

(١) Deanesly, PP. 77-78.

إلى نقل أوربا من طور الاقتصاد المعتمد على نقود الأمبراطورية الرومانية بصفة أساسية إلى طور الاقتصاد القائم على الاكتفاء الذاتي بقدر المستطاع ، وذلك داخل الممالك الجرمانية التي قامت على أنقاض الأمبراطورية الرومانية(١) .

* * *

ومن العجيب أن الوندال اختفوا من التاريخ نهائياً ، إذ تفرق من بقي من شراذمهم في أطراف الأمبراطورية الرومانية ، وعلى حدود فارس(٢) ، أما من بقي في أفريقية ، فقدصودرت أملاكهوأنزل إلى مرتبة الرقيق ، كما فعل الوندال أنفسهم من قبل ، مع سادة المستوطنين الرومان في أفريقية . وإذن ، فالوندال ، من أولئك البرابرة الذين لم يتركوا أثراً في التاريخ ، ومثلهم في ذلك مثل أشقائهم الجرمان من الهيروليين والروجيين Rugin ، والقوط الشرقيين والسويفي ، ولم توجد إلا آثار ضئيلة من بقايا اللغة الوندالية(٣) .

* * *

أما عن أحوال شمالى أفريقيــة بعد طرد الوندال ، فيمكن أن تلخص في الاضطراب المستمر من جانب البربر الوطنيين ومن جانب الحامية الرومانيــة نفسها . والمعروف أن البيزنطيين حكموا شمالى أفريقية ، على أثر طرد الوندال ٥٣٣/٥٣٤م إلى منتصف القرن السابع الميــلادي ، عندما جاء الفتح العربي الاسلامى ، أى ما يربو على قرن من الزمان

الظاهرة الــكبرى المميزة لتاريخ شمالى أفريقية ، خلال ذلك القرن ، هى الصراع الدائم ضد الوطنيين من البربر ، ولاعبرة لفترات الهدوء القصيرة الأجل ،

---

(١) Deanesly, PP. 116 Sqq.

(٢) راجع ما سبق

(٣) Kartsen, PP. 219-220 ; Boissonnade, PP. 18-26.

التى كانت تتخلل ذلك الصراع . بل إن خطر البربر الوطنيين بدأ فعلا ولما يزال بلزاريوس فى أفريقية ، وقبل أن تستقر أوضاع السيادة البيزنطية الجديدة ، أو تنظم قوة دفاعهم عن الولاية . وكما دوخ البربر ، الوندال من قبل ، كذلك لم يكن البيزنطيون بأسعد حالا من أسلافهم فى حكم تلك البقاع(١) .

وخلال الفترة التى تلت زوال السيادة الوندالية مباشرة ، كان البربر يكونون ثلاث مجموعات رئيسية فى سواحل شمالى أفريقية :

١ — فى الشرق قبيلة لواته وأحلافها من القبائل البربرية الأخرى مثل هوارة وأوريغة ونفراوة وأوربة . وهذه تنتشر فى طرابلس وبرقة وجبل أوراس وماوالاه .

٢ — صنهاجة فى الغرب ، وتنتشر فروعها داخل المغرب الأوسط والمغرب الأقصى . وتشمل كتامة وزواوا وزناتة وبنى فريدة وغماراو برغواطة ومصمودةوجزولة ولمطة ، ويلاحظ أن صنهاجة وفروعها هم المعروفون بالملثمين(٢) .

٣ — زناتة وتنتشر فروعها فى منطقة ممتدة من طرابلس شرقاً إلى الغرب(٣) .

أى أن جميع الساحل الأفريقى كان مهدداً دائماً بهذه القبائل فى أى جزء من أجزائه .

---

(١) Basset, op. cit.

(٢) الاستقصاء ج ٢ ص ٣ .

(٣) Bury, P. 141 ;Basset op. cit.

وظهر فى تلك الفترة زعماء من البربر ، أمثال يبداس Yabdas ويتزعم بربر جبل أوراس ، ويتزعم البربر فى موريتانيا إثنان هما ماسيناس Massinas وماسونا Masuna ، وكذلك الزعيم أنتالاس Antalas فى بيزا كينا — وهى ولاية أفريقية الرومانية سابقاً أى تونس الحالية تقريباً — وبجواره الزعيم كاتسنا Cutsina [١].

لم يكف البربر عن مهاجمة الحاميات الرومانية ، الموزعة فى مواقع متباعدة ، ومهاجمة سكان المدن من المستوطنين الرومان ، وربما كان بربر جبل أوراس من أخطر القبائل البربرية التى هددت المدن الساحلية .

وكان باستطاعة القوات البيزنطية أن تحمى الحدود الطويلة الممتدة ، ضد هجمات البربر ، ولا سيما وأن البربر يعتمدون على فرق الفرسان الخفيفة ، مع العلم أن البربر يتفوقون على الرومان بأعدادهم الكبيرة ، غير أنه يمكن التغلب على قلة عدد الرومان بالنسبة للبربر ، إذا أخلص جنود الحامية الرومانية فى أداء واجباتهم ، وإذا كفوا عن الأحقاد والضغائن الفاشية بينهم ، وإذا نجح قادتهم فى سياستهم ؛ ولكن هذا كله ، افتقر إليه البيزنطيون فى شمالى أفريقية ، ولم يكن للسيادة البيزنطية أن تظل قرناً فى شمالى إفريقية ، إلا لإنقسام قبائل البربر أنفسهم وكثرة الصراع بينهم ، فهذا وحده هو الذى مزق وحدة البربر ، حتى كان الرومان يستعينون بفريق ضد آخر ، كما حدث فى انتصار القائد الرومانى تروجليتا Troglita على قبائل لواته فى طرابلس الذين هاجموا الرومان بزعامة كاركسان Carcasan عام ٥٤٧ م فلم يتحقق النصر على لواته إلا بفضل مساعدة بربر جبل أوراس [٢] .

---

(١) Bury, P. 141.

(٢) Bury, PP. 147-48 ; Basset op. cit.

يضاف إلى ذلك كثرة تمرد جنود الحامية الرومانية فى شمالى أفريقية ، لتأخير رواتبهم باستمرار ، وللخلاف المستحكم حول اقتسام الغنائم ، فضلاً عن وجود عدد كبير من الأريوسيين ، وهم الذى يكونون فرق المعاهدين ، التى تحارب بين صفوف الرومان ، أساء هذا الفريق ، سياسة التعصب الدينى التى مارسها الرومان ضد الأريوسية ، إذا أعيدت الكنائس التى انتزعت من الكاثوليك زمن الوندال ، إلى ما كانت عليه ، وهناك عدد كبير من الرومان الذين تزوجوا من النساء الونداليات ، وحاولوا استرداد الأملاك التى كانت لزوجاتهم أو آبائهن السابقين زمن السيطرة الوندالية ، وصادرتها الحكومة الإمبراطورية وأعادتها إلى ما كانت عليه سابقاً ، مما أدى إلى وجود مشاكل معقدة لإثبات حق الملكية ، فضلاً عما تخلل ذلك من تزوير الوثائق وقيام قضايا لا حصر لها(١) .

ثم إن السياسة الأمبراطورية فشلت فى إقرار السلام الدائم فى شمالى أفريقية ، حقيقة هى نجحت فى حماية الحدود ، وفى الاحتفاظ بالسيطرة الرومانية ، لكنها لم تنجح فى إقامة سلام مستمر ، والدليل على ذلك كثرة الولاة الذين تعاقبوا الحكم فى أفريقية زمن الأمبراطور يوستانيوس نفسه ، وكثرة الشقاق الذى وقع بين هؤلاء القادة الولاة و بين جنودهم . وفشل هؤلاء الحكام فى الضرب على أيدى البربر . وأول هؤلاء الولاة ، بعد بلزاريوس ، هو القائد سولومون الذى صحب بلزاريوس فى الفتح وولى الحكم بعد رحيل بلزاريوس ، بلقب جديد هو قائد جيش أفريقية ، اضطر إلى الهرب من أفريقية إلى صقلية أمام غزوة البربر الكاسحة فى عام ٥٣٦م وخلفه جرمانوس Germanus الذى ظل سنتين ، ثم أعيد سولومون (٥٣٩م) ، لكنه ذبح فى معركة كليوم Cllium عام ٥٤٤م أمام قبيلة لواته وأحلافها ، وشجع هذا النصر قبائل البربر الأخرى فهاجمت الأملاك الرومانية ، حتى أن القوط الغربيين فى أسبانيا ، أغرام فشل الرومان فأرسلوا جيوشهم عبر الزقاق

---

(١) Bury, P. 143.

واستولوا على ميناء سوته ؛ وكان خليفة سولومون فى أفريقية سرجيوس Sergius دوق طرابلس ، الذى كان السبب بسوء تدبيره وجبنه وقصر نظره ، فى إثارة لواته وغيرها ، ووقع سرجيوس فى شقاق مع جنوده ، فعين الأمبراطور اريو باندوس Areobandus قسيماً له فى السلطة ، ولما لم يتفقا ، أعفى سرجيوس وانفرد زميله بالحكم(١) . ومع ذلك ظلت الأحوال مضطربة ، وفشل فى إقرار النظام ، وخلفه تروجليتا Troglita ، وهكذا لم يستقر الحكم الرومانى فى شمالى أفريقية فى وقت من الأوقات .

وبالإضافة إلى هذه الاضطرابات ، وتمرد الجنود ، وسوء الإدارة ، وقع طاعون فى مطلع حكم البيزنطيين فى شمالى أفريقية ، بعد القضاء على دولة الوندال ، واستمر من ٥٤٢ إلى ٥٤٣ م ، وقضى على أعداد كبيرة من سكان الأمبراطورية . ومن بين ضحاياه ، عدد ضخم من الرومان فى شمالى أفريقية(٢) .

وهذا كله عبد الطريق للفتح العربى الإسلامى فى منتصف القرن السابع الميلادى .

ابراهيم على طرخان

---

(١) Ibid. P. 146.

(٢) راجع ما كتبه مؤنس فى (فتح العرب للمغرب) ص ١١ — ٤٧ .
Bury, op. cit. P. 135 ;

(ملوك الوندال فى أفريقية)

٤٣٩ — ٥٣٤ م

جوديجسكلس Godigisclus

قتل عام ٤٠٦ م عند نهر الراين

- (١) جزريك مؤسس مملكة الوندال فى أفريقية حكم من قرطاجنة (٤٣٩ — ٤٧٧ م)
  - ثيودريك
  - جنزو Genzo
    - جلاريس Gelaris
      - تزازو Tzazo
      - أماتاس Amatas
    - (٤) ثراساموند (٤٩٦ — ٥٢٣ م) Thrasamund
    - (٢) جونثاموند (٤٨٤ — ٤٩٦ م) Gunthamund
      - (٦) جليمر (٥٣٠ — ٥٣٤ م) Geilamir
  - (١) هنريك = إيودكسيا البيزنطية (٤٧٧ — ٤٨٤م)
    - (٥) هلدريك (٥٢٣ — ٥٣٠ م) Hilderic
- (١) جوندريك Gunderic قتل عام ٤٢٨ م فى الأندلس

الأباطرة الرومان المعاصرون لدولة الوندال

منذ قيامها فى أفريقية ٤٢٩ إلى زوالها ٥٣٤ م

رقم مسلسل	اسم الامبراطور	مدة حكمه	ملاحظات
١	هونريوس Honorius ابن ثيودوسيوس	٣٩٥–٤٢٣ م	
٢	حنا الموثق Joanner	٤٢٣–٤٢٥	قتله جيش الشرق
٣	فالنتنيان الثالث Valentinian III	٤٢٥–٤٥٥	حكم بوصاية أمه بلاسيديا ابنة هونوريوس ، وقتله أنصار أيتيوس
٤	ماكسيموس Petr. Maximus	٤٥٥	مات بعد ثلاثة شهور
٥	أفيتوس Avitus	٤٥٥–٤٥٦	رشحه القوط الغربيون وعزله ريكمر صانع الأباطرة وتحكم فى السلطة حتى أبريل ٤٥٧ م
٦	ماريووانوس Majorianus	٤٥٧–٤٦١	أعظم أباطرة تلك الفترة
٧	ساويرس Severus	٤٦١–٤٦٥	رشحه ريكمر ، وتحكم فى السلطة بعد وفاته إلى ٤٦٧ م
٨	أنثميوس Anthemius	٤٦٧–٤٧٢	مرشح الشرق ، عزله ريكمر وقتله
٩	أوليبريوس Olybrius	٤٧٢	رشحه ريكمر والوندال
١٠	جليكريوس Glycerius	٤٧٣–٤٧٤	رشحه البرجنديون طرده أورستيز Orestes زعيم المعاهدين
١١	يوليوس ينبوس J. Nepos	٤٧٤–٤٧٥	رشحته بيزنطه
١٢	روملوس أوغسطلوس R. Augustlus	٤٧٥–٤٧٦	ابن أورستيز ، طرده أدواكر وقتل أباه عام ٤٧٦ م ، وأقام حكومة فى ايطاليا من ٤٧٦ – ٤٩٣ م .
١٣	زينو Zeno	٤٧٤–٤٩١	إمبراطور الشرق والغرب ، وافق على تبعية حكومة ادواكر للعرش البيزنطى . لكنه استعدى عليه القوط الشرقيين .
١٤	أناستاسيوس الأول Anastasius I	٤٩١–٥١٨	
١٥	جستين الأول Justin I	٥١٨–٥٢٧	
١٦	يوستانيوس Justinianus	٥٢٧–٥٦٥	قضى على دولة الوندال فى أفريقية وأعاد شمال افريقية إلى السيادة الرومانية البيزنطية ٥٣٣/٥٣٤ م .

القرماطيـــون

ظهر هذا الاسم فى المصادر العربيـة ، لأول مرة فيما نعلم ، فى أخبار ثورة الزنج التى قامت فى البصرة وهددت كيان الدولة العباسية ما يقرب من أربعـة عشر عاماً (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ / ٨٦٩ — ٨٨٣ م)[١] .

ولعل أكثر الذين اشتركوا فى هذه الثورة كانوا من الذين نزحوا من البلاد الأفريقيـة ، ولا سيما بلاد الزنج (أى السومال) ، واستخدمهم ملاك الأرض فى إزالة الطبقة الملحية — السباخ — التى تغطى الأراضى فى سهول البصرة ، وكشف التربة الصالحة للزراعة ، ونقل السباخ وجعله فى أكوام أو تلال للافادة منه فى الوقت نفسه[٢] .

كان من بين هؤلاء الإفريقيين زنج سوماليون كما قلنا ، ولعلهم كانوا أكثر عدداً لقرب بلادهم من العراق وسهولة النزوح إليـه ، وكان منهم النوبة الذين انتقلوا من سودان وادى النيل ، وكان منهم «القرماطيون» ، وهم — كما سنرى — جنس من أجناس السودان الغربى .

اشتهر من القرماطيين فى هـذه الثورة « راشد القرماطى » ولعب فيها دوراً هاماً[٣] .

---

(١) أهم ما كتب عن ثورة الزنج :
أ — تاريخ الطبرى جـ ١١ (ط الحسينية بمصر)
ب — Nöldeke, Sbetches From Eastern Hist. (Lordon 1892)
جـ — عبد العزيز الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة (ط بغداد ١٩٤٥) ص ٧٥ — ١٠٥
د — ثورة الزنج لفيصل السامر (طبغداد ١٩٥٤)

(٢) فيصل السامر ص ٢٣ ، دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) مجلد ١٠ (زنج) .

(٣) تاريخ الطبرى ١١/١٧٤ .

ذكر المسعودى أن أول من صنف فى أخبار ثورة الزنج فى العراق محمد بن الحسن بن سهل المتوفى حوالى ٢٨٥ هـ[١] . ولا نعرف عن هـذا الـكتاب إلا ما نقله عنه ابن جرير الطبرى فى تاريخه (مثلاً ج ١١ ص ١٩٠) . ولم يحفظ لنا الزمن وصفاً معاصراً كاملاً لثورة الزنج إلا ما أورده ابن جرير الطبرى فى تاريخه (ولد الطبرى ٢٢٤ هـ وتوفى ٣١٠ هـ) .

لهذا يعد تاريخ الطبرى من أقدم المصادر التى روت أخبار هذه الثورة ودور القرماطيين فيها . ولابد أن يكون الطبرى قد عاصر أحداث هذه الثورة وشهد بعضها على الأقل .

ومن بعـده أشار المسعودى (ت ٣٤٦ هـ) إلى « القرماطى » من بين الشعوب السودانية التى أمعنت فى المغرب وذكر أن لهم ملكاً ودار مملكة[٢] .

وهناك كاتب عربى آخر ، عاش فى القرن الرابع الهجرى ، وهو المقدسى ، أورد فى كتابه « أحسن التقاسيم » (كتبه حوالى ٣٨٥ هـ / ٩٨٥م) تعريفاً سريعاً موجزاً بالقرماطيين ، فوصفهم بأنهم جنس من أجناس السودان الـكثيرة التى تتاخم أرضهم بلاد المغرب ومصر من قبل الجنوب ، وأنهم يتعاملون بالملح والنوبة والحبشة بالثياب[٣] .

وفيما عدا هـذه المصادر لا نكاد نجد من كتاب العرب من أضاف شيئاً جديداً إلى الإشارات القليلة التى وردت فيها . وهـذا أمر يسترعى انتباهنا ، ويدعونا إلى أن نتساءل عن حقيقة هـذا الاسم ، وكيف نعلل سكوت معظم المؤرخين والجغرافيين العرب عن أخبار هذه الجماعة وتاريخها ؟

---

(١) مروج الذهب (نشر محيى الدين عبد الحميد) ٤/١٩٥ .

(٢) مروج الذهب (ط مصر نشر محيى الدين عبد الحميد) ج ٢ ص ٢٠ (القوماطى صوابها القرماطى) .

(٣) أحسن التقاسيم ص ٢٤١ — ٢٤٢ .

أما التعرف على حقيقة هذه التسمية ، فالسبيل إليـه أحد احتمالين : فإما أن يكون لفظ القرماطيين قد أطلق على هذه الجماعة بعد انتقالهم إلى العراق ، كأن يكون مشتقاً من لهجة أو مصطلح عراقى ، فهو فى هذه الحالة ليس مكتسباً من موطنهم الإفريقى الأول . وإما أن يكون هذا الإسم — من مادته الأصلية — علماً معروفاً على شعب قـديم من شعوب السودان الغربى حملوه معهم من موطنهم الإفريقى .

وإذا كان من اليسير أن نرد بعض الأسماء التى أطلقت على زنوج البصرة إلى مصطلحات محلية نشأت فى العراق ، مثل قولهم : الفراتية ، وهم الزنوج الذين سكنوا منطقةفرات البصرة ، والشورجية ، وهم الزنوج الذين عملوا فى إزالة الشورج ، وهو الزبد الملحى الذى كانت تجلبـه المياه إلى أرض العراق الأدنى ثم تنحسر عنها — فليس من اليسير أن نرد كلمة مثل « القرماطيين » إلى اصطلاح عراقى . ولا أظن أن الأستاذ ماسينيون قدأدرك وجه الصواب فيما أورده فى مقالتيه : الزنج والقرامطة[1] من ربط مصطنع بين لفظى القرامطة والقرماطيين . ويقول فى مقالته الثانية (والأكثر احتمالاً أن يكون لفظ القرامطة مأخوذاً من لهجة « واسط » الآرامية المحلية إذ ورد فيها لفظ (قرمطا) ومعناه المدلس . وقبل أن تقوم حركة القرامطة بسنوات ، أى منذ سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٨ م ، ظهرت فى هذه المنطقة ذاتها ، فرقة تسمى « القرماطية » إلى جانب فرقة الفراتية ، وكانت من بين فرق الجند المحاربة فى ثورة الزنج .

فالواقع أن محاولة الربط بين هذين اللفظين هى خلط بين جماعتين وحركتين ، مبنى على مجرد التشابه اللفظى . وإذا جاز أن يكون لفظ القرامطة مشتقاً من لهجة محلية ، على اعتبار أن معظم أفرادهم كانوا من العرب والأنبـاط الذين رسخت

---

(١) الأولى فى دائرة المعارف الإسلام (مجـلد ١٠ — الترجمة العربية) والثانية فى Shorter Eneyc of Islam (Karmitians)

أصولهم فى البيئة العراقية وما جاورها من عهود بعيدة ، فإنه من المستبعد أن يكون لفظ القرماطيين من نفس الاشتقاق ، ولاسيما إذا عرفنا أن حركة الزنج قد اختلفت إلى حد كبير ، فى زمانها ووسائلها وطبيعتها عن حركة القرامطة ، وأن الوصف الذى أورده كل من المسعودى والمقدسى عن القرماطيين قد أكد أنهم جنس كسائر أجناس السودان ، ولم يشر أى منهما إلى صلتهم بالبيئة العراقية ، ولا ولا بثورة الزنج فى العراق . وكلاً منهما — على اقتضابه — يدل على أنهم جنس معين فى إفريقية ، لهم طريقة فى التعامل (فى موطنهم الإفريقى طبعاً) تختلف عن طريقة النوبة والحبشة ولهم ملك ودار مملكة . فالأرجح أن يكون إسمهم مكتسباً من موطنهم الأصلى فى أفريقية ، وأن يكونوا قد حملوه إلى العراق ، كما حمل الزنج والنوبة إسميهما من أفريقيــة واحتفظوا بهما فى المهجر العراقى وغـيره من المهاجر .

وهنا نقف عنــد السؤال الثانى : كيف نعلل سكوت معظم المؤرخين والجغرافيين العرب عن التعريف الكافى بهذا الشعب وتاريخه فى موطنه الأفريقى ، على الرغم مما نعرفه من حرص هؤلاء وأولئك على تدوين كل ما انتهى إليهم عن شعوب السودان وممالكهم وأخبارهم ؟

والواقع أن الشعوب التى عرفها العرب فى منطقة السودان الغربى وتحدثوا عنها حديثاً مفصلاً ، هى الشعوب التى برزت فى صورة ممالك أو سلطنات اسلامية واستمرت علاقاتها بالعالم الإســلامى زماناً غير قصير . ولا ريب فى أن أكثر شعوب السودان الغربى قد أبرزها النشاط الإسلامى والنشاط التجارى متضافرين فى تلك العصور ، فلمعت أسماؤها فى ميادين الحرب والسياسة والتجارة والدعوة إلى الإسلام ، وظفرت بنصيب غير قليل مما كتبه العرب .

ولم يكن القرماطيون — على ما يظهر — من جملة هذه الـكثرة الغالبة من شعوب السودان الغربى التى لمعت أسماؤها ، ولم يتح لهم فى بلادهم — فى العصور

الإسلامية — ما أتيح لإخوانهم من فرص التفوق فى أى مجال من المجالات المشار إليها . ومن أجل هذا — فيما نرجح — أغفل المؤرخون العرب ذكرهم إلا فى القليل النادر .

وإذا أردنا أن نبحث عن مثال من تلك الشعوب القليلة التى ضعف شأنها بانتشار الإسلام فى المنطقة الواقعة جنوبى بلاد المغرب ، فإن لدينا حالة معينة ذكرها الإدريسى فى كتابه « نزهة المشتاق » ، وهى حالة أهل « ودان » إذ يقول[١] : « وأما أرض ودان فإنها جزائر نخل متصلة بين غرب وشمال إلى ناحية البحر ، وكانت فيما سلف أكثر الأرض عمارة ، وكان الملك فى أهلها ناشئاً متوارثاً ، إلى أن جاء دين الإسلام ، فخافوا من المسلمين ، فتوغلوا هرباً فى بلاد الصحراء فتفرقوا ، ولم يبق بها الآن إلا مدينة « دواد »[٢] وهى الآن (أى فى القرن السادس الهجرى) خراب ليس بها إلا بقايا قوم من السودان معايشهم كدرة وأمورهم نكدة .

ولعل هذا النص يعبر عن جزء من حادث كان أوسع مجالاً مما ذكره الإدريسى . فلم تكن أرض ودان — فى حقيقة الأمر — إلا مركزاً واقعاً فى طريق تجارى طويل عامر بسكانه ، أهم مراكزه : فزان — جرمه — ودان. وكان هذا الطريق مزدهراً منذ عصور قديمة ، قبل الإسلام ، وظل كذلك ، إلى أن تفرق أهله بسبب الغزوات الإسلامية من جهة ، واشتداد العواصف الرملية وعجزهم عن مقاومتها من جهة أخرى ، مما حدا بالتجار إلى التحول عنه إلى طريق آخر هو : طريق سجلماسة — أودغشت — منحنى النيجر .

عاش على ذلك الطريق التجارى (طريق فزان . جرمه . ودان) ، منذ

---

(١) وصف أفريقيا الشمالية (قطعة من نزهة المشتاق للادريسى) تحقيق بيريس (ط الجزائر ١٩٥٧) ص ٢٣ .

(١) قرأها بالمر (The Bornu, Sahara & Sudan 1936,) (واو) وربما سمتها (ودان) .

عصور ما قبل الميلاد ، شعب سماهم اليونان الجرمانت Garamantes ، ازدهروا في زمان المؤرخ هيرودوت (حوالى ٥٠٠ ق م) وامتدت مساكنهم على طول ذلك الطريق . وفي جنوب فزان تقع منطقة جرمه Garama التي نسبوا إليها ، وهي مركزهم الأول ، وفيه استقرت جماعات منهم ، ونالت نصيباً من الحضارة، وامتصت قدراً صالحاً من الثقافة المصرية أو الليبية القديمة ، واستخدمت مركبات الخيل . ومنهم من امتدت مساكنهم إلى داخل الواحات الواقعة غربي مصر .
فإذا اتجهنا إلى المراكز الجنوبية من هذا الطريق ، وجدنا فريقاً من الجرمانتيين قد ضربوا خيامهم في الصحارى الجنوبية ، بعيداً عن مركزهم الأول « جرمه » ، وبلغت مساكنهم واحة العوينات . ومنهم جماعات أقاموا في المنطقة التي سميت فيما بعد « بلاد الكانم » ، وفي تيبستي(١) .

ويتضح من هذا كله أن الجرمانتيين كانوا قائمين على مراكز هذا الطريق ، وما تفرع منها إلى الشرق . وظلوا كذلك في خلال عصور ما بعد الميلاد ، إسماً لا معاً يجد عناية المؤرخين من اليونان والرومان ، ويملك قدراً كبيراً من السيطرة والنفوذ .

ثم هجر التجار هذا الطريق في العصور الإسلامية الأولى للأسباب التي ذكرنا ، وتفرق أهله ، وتقطعت الوشائج بين جماعات الجرمانتيين ، والتمس بعضهم سبيل الهجرة إلى مناطق أخرى ، وصارت كل فئة وقد اختلطت بعناصر حامية وزنجية مختلفة على حسب مؤثرات البيئات التي عاشوا فيها أو انتقلوا إليها ، وعرفت فئات منهم بإسم خاص غير الإسم القديم المشترك . فهؤلاء الذين عاشوا في تيبستي وما حولها كانوا هم النواة التي كونت جماعة « التبو » . ولعل هذه الجماعة نفسها هي التي عرفت في شمالي دارفور بإسم الجروان أو القرعان . ولا تزال بقاياهم تؤلف جزءاً من سكان دارفور في الوقت الحاضر .

---

(١) بالمرض ٤ ، ٨ ، ١٧ هامش .

أما الإسم القديم المشترك ، وهو الجرمانتيون ، فلا يطلق فى الوقت الحاضر على أية جماعة من هذه الشعوب التى تسكن إفريقية . فقد عفى عليه الزمن ، واندرج فى طى النسيان على مر العصور .

على أنه من المستغرب أن يختفى إسم الجرمانتيين دفعة واحدة حتى من المصادر العربية المبكرة ، ولا سيما إذا عرفنا أن العرب المسلمين لابد أنهم أدركوا فترة ما من قوة هذا الشعب ، قبل أن يصل إلى حضيض الوهن والضعف والتفرق . بل لقد عرف الفاتحون الأولون من العرب المسلمين ، مدينة « جرمة » مركز الجرمانتيين الأول ، فعندما قدم عقبة بن نافع « ودان » وافتتحها سأل أهلها هل من ورائكم أحد ؟ فقيل له : جرمه وهى مدينة فزان العظمى ، فسار إليها ثمانى ليال من ودان ، فدعا أهلها إلى الإسلام فأجابوا(١) .

وقد يزول هذا الأمر المستغرب ، إذا انتهينا إلى احتمال أن يكون بعض كتاب العرب الأوائل ، ممن نقل عنهم الطبرى والمقدسى والمسعودى قد عرفوا هذا الإسم القديم المشترك ، وذكروه فى كتبهم فى صيغة « القرماطيين » وما أشبه أن يكون تعريباً للفظ الجرمانتيين .

من المحتمل أن يكون الفاتحون من العرب الأوائل عرفوا هذه الجماعة بإسمها عندما غزوا جرمه وودان ، وربما حملوا معهم أسرى منهم إلى البلاد الإسلامية .

فإذا صح هذا أمكن القول بأن فئات من الجرمانت كانوا من جملة الجماعات التى انتقلت من أفريقية إلى العراق فى تجارة الرقيق أو غيرها ، فى عصور الإسلام المبكرة ، قبل أن يعفى الزمن على إسمهم القديم المشترك ثم ظهروا فى ثورة الزنج فى القرن الثالث الهجرى وكان لهم دور فى هذه الثورة .

---

(١) فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم (تحقيق عبد المنعم عامر) ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ — وأنظر (جرمة) فى معجم البلدان لياقوت .

أما القرماطيون (الجرمانت) فى موطنهم الأصلى ، فى أفريقيا ، فمن المحتمل أن سلطانهم قد استمر — كما قد يفهم من كلام المسعودى — إلى القرن الرابع الهجرى ، ولعله لم يستمر كثيراً بعد زمن المسعودى . لعله كان آخذاً فى الضعف والانحلال ، مع انقضاء القرن الرابع الهجرى .

وعندما أخذ مؤرخو القرون التالية ، « القرن الخامس ومايليه » ، يسجلون شعوب السودان الغربى وممالكهم ، لم يكن للجرمانت أو القرماطيين شأن ولا سلطان فى بلادهم فأغفلوا ذكرهم .

عبد المجيد عابدين

تاريخ بنـــاء القرويين ...

٢٤٥ - ٢٦٣ - ٣٠٦

إن كل أولئك الذين كتب لهم أن يزاولوا الدراسات التاريخية بصفة عامة وتاريخ المغرب بصفة خاصة يذكرون جيداً أن ابن أبى زرع فى كتابه القرطاس نقلاً عن أبى القاسم ابن جنون فى تاريخه لمدينة فاس ، وكذا سائر الذين حذوا حذوه من أمثال الجزنائى فى زهرة الآس ، وابن خلدون فى تاريخه : العبر ، وابن القاضى فى جذوة الاقتباس وغير هؤلاء يجمعون على أن مسجد القرويين بمدينة فاس شرع فى حفر أساسه والأخـذ فى أمر بنائه أول رمضان من سنة ٢٤٥ (٣٠ نوفمبر ٨٥٦) بمطالعة العاهل الإدريسى يحيى الأول ، وأن أم البنين فاطمة الفهرية هى التى تطوعت ببنائه وظلت صائمة محتسبة إلى أن انتهت أعمال البناء وصلت فى المسجد شكراً لله » ، وهذه حقيقة تاريخية لا يسمح الباحث لنفسه لإستسلام للشك فيها والترددأمامها سيما وهى ترجع لوقت مبكر من تاريخ المغرب أعنى وقت بنى مرين أوائل القرن الثامن الهجرى ، بيد أننا نجد أنفسنا اليوم أمام وثيقة معاصرة للادارسة ، أنها لوحة منقوشة عثر عليها — عند أعمال الترميم — فى البلاط الأوسط فوق قوس المحراب القديم الذى كان للقرويين قبل قيام المرابطين بتوسعة المسجد ، لقد اكتشفت مدفونة تحت الجبس وقد كتب عليها — فى جملة ما كتب — بخط كوفى إفريقى عتيق : « ... بنى هذا المسجد فى شهر ذى القعدة من سنة ثلاثة وستين ومائتى سنة مما أمر به الإمام أعزه الله داود بن أدريس أبقاه الله ... ونصره نصراً عزيزاً » .

وما دمنا فى استعراض الآراء حول تاريخ بنـاء القرويين لابد أن نعرض لرأى ثالث الدكتور أوسكار لانز(١) ، فلقد ساق ترجمة لنقش قيل أنه عثر عليه

---

(١) Oskar Lens : Voyage au Maroc Paris 1886 Vol 2.

فوق « صفيحة فضية » مغروزة فى أحد جدران المسجد وتوجد ضمن هذا النص العبارة التالية : « ... بنى يوم الخميس من سنة ٣٠٦ أول شهر ربيع النبى ... » أى أى فى أيام ولاية يحيي الرابع ...

وحتى نرجع إلى حديث فاطمة وداود نشير إلى أن رواية الدكتور لانز لانعيرها أى وزن من الناحية التاريخية لأنها خالية من كل سند ملموس سيا مع ما حكاه عن الطالب إدريس الذى زوده بهذه الوثيقة والذى لم يكتمه أنه وجد صعوبة فى الوصول إلى بقية النقش ، الأمر الذى يقرب إلى « أساطير » السياح أكثر مما يخدم الحقيقة التاريخية ، هذا مع العلم بأن أول ربيع الأول يوافق — حسابياً — يوم الثلاثاء وليس يوم الخميس... وبعد فلنرجع إلى ابن أبى زرع، واللوحة المنبعثة ولكن قبل أن نفتح الموضوع يجب أن نتعرف فى كلمة وجيزة عن عن الإمام داود بن أدريس تاركاً التفصيل للبحث الذى كنت كتبته خصيصاً عن هذه الشخصية(١) :

بالرغم من أن جميع المؤرخين بخلوا على داود هذا بأكثر من كلمة واحدة تتلخص فى أنه « لما توفى إدريس الثانى قام بالأمر بعده ابنه محمد ، وأن هذا الأخير قسم بلاد المغرب بين كبار أخوته ترضية لهم وكان من بينهم داود الذى استأثر بإقليم تازة . وقد رددت سائر المصادر صدى « الفتنة » التى نشبت بين بنى إدريس على أثر هذه « الترضية » لكنها لم تعد بحال لذكر اسم داود ، وقد كاد هذا الإسم يعد فى عداد الضائعين لولا عناصر ثلاثة :

أولها : اليعقوبى(٢) الذى يذكر أن داود بن ادريس كان والياً على عدوة

---

(١) التازى ، مجلة « دعوة الحق » العدد السابع ، السنة الثالثة إبريل ١٩٦٠ — مجلة « مجمع اللغة العربية » بدمشق المجلد ٣٦ جزء ٢ ص ٢١٢ .

(٢) اليعقوبى ، أخبار البلدان ، طبعة ليدن ١٨٩٠ — ص ١٣٧ Blsohöra Heapêria T. 18 - 1934 Page 41 - 42 - 43.

الأندلس وأنه كان «يدافع» يحيى صاحب عدة القرويين المعروفة بالمدينة المطمى .

ثانياً : الدرهم الموجود بالمكتبة الوطنية بباريز الذى يحمل اسم الإمام داود ابن أدريس [١] .

ثالثاً : هذه اللوحة الأثرية التى يحتفظ بها الآن فى المركز الرئيسى لمصلحة الآثار بالمملكة المغربية .

وبعد هذا نرجع إلى الحديث ...

هل القرويين من تأسيس فاطمة ؟ أو من عمل داود ؟ .

لقد كنت كتبت بمجرد وقوفى على اللوحة كلمة فى الموضوع نشرت فى مختلف المجلات العلمية سواء بالمغرب [١] أو القاهرة [٢] أو تونس [٣] وأسبانيا [٤] ، وكنت قصدت كما صرحت بذلك أن أثير انتباه الناس عليهم يساعدون على إضفاء الضوء على هذا الحقائق ، ومن سوء الحظ أننى إلى الآن لم أقف على « رد فعل » من طرف الذين يهمهم أمر التاريخ حاشا بعض « الفروض » التى تلقيتها من بعض الأساتذة الأجلاء الذين حرصوا على أن يجعلوا نقل القرطاس فى نجوة من الشبهة والريب .

ففى الناس من أوصى بنبذ أمر هذه اللوحة لأنها فى نظره تناهض « تواتراً » متوارثاً عبر الأجيال ، وفيهم من رجح أن تكون اللوحة قد نقلت من مكان آخر وغرزت هنا . . . وأن ذلك تم على عهد الوطاسيين فى الفترة القصيرة التى رجع فيها النفوذ للشرفاء الأدارسة بواسطة محمد بن على الجوطلى [٥] .

---

(١) التازى — مجلة التربية الوطنية ، العدد الرابع سنة ١٩٦٠ ص ١٠

(٢) مجله الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، العدد الثامن ١٩٥٩ ص ٢٤٤

(٣) التازى — مجلة الفكر — السنة الخامسة عدد ٦ مارس ١٩٦٠

(٤) التازى — مجلة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد — المجلد السادس ١٩٥٨ ص ٢٧٧ — ٢٧٨ .

(٥) Deverdun mèlanges d' histoire et d' Archèologie T. 11 page 72

وفى النـاس طائفة ثالثة يصممون على أن يأخذوا بما ورد فى مدلول اللوحة نظراً أولاً لـكونها « وثيقة معاصرة » ، وثانياً لما أثر فى هفوات عن القرطاس ، وثالثاً لـكون بعض الرحالة والمؤرخين القدامى من أمثال اليعقوبى والبـكرى وابن عذارى تحدثوا عن مدينة فاس بمسجديها العتيقين لـكنهم لم يعرجوا على تأسيس القرويين على النحو الذى عرف فى القرطاس ...

فماذا تـكون الحقيقة ؟ .

أما « التوصية » بنبذ اللوحة فأمر سلبى لا يسمح به المؤرخ النزيه ، وأما عن أمر نقل اللوحة وخاصة أيام الوطاسيين فإنه يبعده عندى أن التاريخ ظل صامتاً صمتاً مطلقاً عن مؤسسات داود ابن إدريس فى مناطق نفوذه فلايمكن أن ندعى إذن أنه أسس هناك « مسجداً » وأن « اللوحة » التى كانت على ذلك المسجد هى التى نقلت! لـكن الابعد هو القول بأن عملية النقل تمت على عهدالوطاسيين مع أنها وجـدت تحت الجبس الذى ضرب — منذ نهاية دولة المرابطين — على سائر جهات البلاط الأوسط ، ولم يتحدث التاريخ أبداً عن إزاحة « التبليط »[1] الذى قام به فقهاء فاس أوالمسؤولون فى الدولة الموحدية ، لذا فأمام قوة هذه الوثيقة الناطقة واعتباراً لما نقل عن اليعقوبى وعرف من أمر السكة الداودية واحتراماً لما نقل عن أبى القاسم بن حنون[2]،وأبى محمد عبدالملك بن محمود الوراق[3] مما تردد صداه فى الأنيس المطرب وانعكس فى زهرة الآس والعبر والجذوة ، ونظراً لأننا لم نعثر لحد الآن على نص تاريخى آخر يعزز بناء الإمام داود لجامع القرويين ،

---

(١) مجلة كلية الآداب — الاسكندرية ، العدد ١٤ سنة ١٩٦٠ ص ٦٠ — ٨٨ — المؤتمر الثالث للآثار العربية ، نشر الجامعة العربية صفحة ٤٤٥ — ٤٦٥ ، التـازى : جامعة القرويين فى أحد عشر قرناً ، طبعة المحمدية ص ٨ .

(٢) رسالة فى ذكر من أسس مدينة فاس (مخطوطة) مجهولة المؤلف بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية تحت رقم ٩٧٠/٢/٢٠ ح .

(٣) مخطوط فى تاريخ الادارسة عن كوبنهاجن مصور بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية .

ونظراً لـكون النقش المشار إليه لم ينص بصفة واضحة على لفظ القرويين ، أقول مراعاة لـكل ذلك نجد أنفسنا بين احتمالين :

فإما أن يكون ابتداء البناء كان فى رمضان ٢٤٥ فى أيام يحيى ولـكنه استمر إلى سنة ٢٦٣ أيام داود بن إدريس وتـكون فاطمة استغرقت فى صومها كل هذه المدة ، ويؤيد هذا الرأى أولا ما استهدفت له البلاد من حالة الجفاف فى هـذه الأثناء ، وثانياً ما تعهدت به فاطمة والتزمت من استخراج كل مواد البناء من نفس البقعة تحرياً ، وثالثاً أن المصادر التاريخية إنما تحدثت عن ابتداء البناء ولم تتحدث عن انتهائه ، فكل هذا مما يبرر استغراق كل هذه المدة .

وأما أن يكون البناء تم فى نفس السنة نظراً لـكون الجامع — ومساحته لا تصل إلى ألف متر مربع — لا يمكن التهاون فى أمر بنائه طيلة ثمانيـة عشر عاماً . . . ويفسر وجود داود بن إدريس هنا بأنه فى الفترة التى كان « يدافع » فيه يحيى ، تمـكن فى بعض الظروف من الاستيلاء على عدوة القرويين وتخليـداً لهذا الفوز الذى حصل عليه فى عدوة القرويين ورغبة فى أن تعرف الأجيال القادمة أنه « كان هنا » فقد شاء أن ينقش اسمه كنصب تذكارى فى هذه الجهة ، ولما كان الملوك ، والرؤساء يختارون أبرز مكان وأشهره لتخليـد أسمائهم ، وكان أفضل مكان فى المسجد وأطهره هو المحراب فقد تم ضرب هذه « الأرزة » عليه حتى تظل أمام المتعبدين والقاصـدين . بقى أن يتسائل عن اختفاء اسم فاطمة من اللوحة مع أن النصوص المذكورة تتضافر على أنها المؤسسة ؟

فإنا نعلم أن التقاليـد القديمة لا تلح فى ذكر أسماء النساء على المبانى سيما مع ما أثر من أن الشعوب قد تقوم بالمشاريع وترجو إلى الملوك تبنيها تقـديراً لهم وتـكريماً لمقامهم .

وبعد . . . فهل ستـكون هذه كلمتنا الأخيرة حول تاريخ بناء القرويين ؟

عبد الهادى التازى

السجاد الاسلامى ومشتقاته فى أسبانيا

لم يحكم المسلمون بلداً من البلدان إلا وكان أثرهم واضحاً فى تطورها وتقدمها . تطوراً وتقدماً نلمسهما فى مختلف مظاهر الحضارة والثقافة . فهذه أسبانيا أو الأندلس كما كان يسميها العرب ، كانت على عهدهم مناراً للعلم والمعرفة فى الوقت الذى كانت فيه بقية البلاد الأوربية تعيش فى الظلام والجهـــالة ، وكانت كعبة يحج إليها الراغبون فى التعلم والاستزادة من مناهل العلم والمعرفة بها .

وازدهرت بها الفنون والصناعات فخلبت مظاهر البذخ والترف التى كان عليها بلاط الخلفاء وقصور الأمراء المسلمين انظار من كان يفد إليها من الأوربيين وعرفت أسبانيا إبان هذا العهد أنواعاً من الصـناعات لم يكن لها بها عهد من قبل ومن هذه الصناعات صناعة السجاد ، بل إن أوربا نفسها لم تعرفه قبل أسبانيا ، وكان ظهور السجاد الإسبانى فى لندن عام ١٢٥٥ مثار دهشة الانجليز ذلك أنه فى هذا العام احتفل بهذه المدينة بعقد قران ليونور القشتالية إلى ادوارد الأول وغطيت الطرقات والحجرة المخصصة للأميرة بالكنيسة بالسجاد . بل إن كثيراً من السجلات الأوربية وبخاصة فى فرنسا تنسب السجاد إلى أسبانيا(١) .

ومما يعزز القول بأن المسـلمين هم أصحاب الفضل فى إدخال صناعة السجاد فى أسبانيا هو أنه لم يصل إلينا من مخلفات الفنون التى ازدهرت فى شبه جزيرة أيبيرية قبل أن يفتحها المسلمون ما يدل على أن أهلها كانوا على علم بصناعة السجاد(٢) . وعن أسبانيا عرفت أوربا السجاد .

ولقد اشتهرت عدة مدن أندلسية بصناعة السجاد وحازت منتجاتها شهرة

---

(١) José Ferrandis: Alfombras Antiguas Espanolas p. 31.

(٢) F. Castany Saladrigas · Diccionario de Tejados: articulo, Alfomras

عظيمة بين سجاد البلاد الشرقية . ووصف بعض الـكتاب العرب سجاد مدينة جنجالة بأنه لم يعلم له نظير وسجاد مدينة بسطة بأنه لا يقدر بثمن(١) ، ومن البلاد الأخرى التى صنعت الـسجاد قرطبة(٢) وبياسة(٣) وقونـكة(٤) والمرية(٥) وغرناطة(٦) ومرسيه(٧) وبنشته(٨) وبلانة(٩) وبنيالة(١٠) أو تنتالة(١١) التى اختصت بصناعة تسفر إلى بلاد المشرق .

ونلاحظ أن هناك خلافاً بين الأساتذة الأسبان حول بنيالة وتنتالة وهى التى يقابلها فى اللغة الأسبانية chinchilla (جنجالة) إذ يذهب بعضهم أن مركز صناعة السجاد كان فى بنيالة اعتماداً على ما ورد على لسان ابن سعيد والشقندى فى حين يرى البعض الآخر أنها تنتالة على حد قول المقرى ولـكن chinchilla (جنجالة)(١٢) هذه بلدة أخرى خلاف السابقتين وتقع فى إقليم البسيطة albacete بينما توجد البلدتان السابقتان فى إقليم مرسية فليس لنا أن نخلط بين الاثنين وربما

(١) الحميرى : الروض المعطار مادة بسطة (طبعة ليفى بروفنسال) .

(٢) C. Sanchez-Albornoz : La Espana Musulmana vol I p. 332.

(٣) الحميرى : المصدر السابق ص ٤٥ ، ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٦٢٤ ؛
Torres Ballas : Ars Hispaniae vol. IV p. 205 ; Ibid : Alfombras Hispanomoriscas Al-Andalus t. IX, fasc. I, p. 233.

(٤) الأدريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ص ٢٣٧ ؛
Sandchez-Albornoz : op.cit., vol. I p. 332 ;
J. Ferrandis : Alfombras Moriscas p. 104.

(٥) Torres Balbas : op.cit. Al Andalus, p. 233.

(٦) Torres Balbas : Ars Hispamae, vol. IV, p. 205.

(٧) Simorret : Crestomatia Arabigo. Espcinola p. 52. Gloss. 26.

(٨) المصدر السابق .

(٩) Torres Balbas : Ars Hispaniae, vol. IV, p. 387 ; Florence May. Hispano Moresque Rugs, p. 65.

(١٠) Simonet : Crestomatie, p. 52, 39 Glossario ; Garcia Gomez : Elogia del Islam Espanol Al Suqundi p. 115 ; Lozoya : Historia del Arte Hispanico, vol. III, p. 313.

(١١) المقريزى : نفح الطيب ص ٢ ص ٩٤ (طبعة القاهرة) .

(١٢) الحميرى : المصدر السابق ص ٨٤ ؛
J. Ferrandis · Alfombras Hispano Moriscas, p. 103-104 ;

اسم بنيالة وتنتالة يدل على بلدة واحدة وأن الخلط نشأ من تصحيف فى نشر النصوص الأصلية للكتب العربية الوارد فيها هذا الاسم .

وقد امتدت صناعة السجاد إلى مدن أسبانية أخرى فاشتهرت كل من الكرز(١) ولينور(٢) وليانور(٣) وبلنسية(٤) وميورقة(٥) بإنتاج أنواع معينة من السجاد ومما يدل على مبلغ الأثر الإسلامى فى هذا الشأن استخدام كثير من الألفاظ العربية للدلالة على السجاد فى اللغة الأسبانية فقد ظل لفظ القطيفة والطنفسة(٦) مستخدماً فى غرناطة بمعنى السجاد بعد زوال الحكم الإسلامى عنها ، كما أقتبس اسم الخمرة (alfombra) وزربية (Garbia) للدلالة على السجاد .

ولقد استخدمت أسبانيا عقدة خاصة فى صناعة السجاد اشتهرت بها وأصبحت علماً عليها ونسبت إليها وإن لم تكن قد نشأت أصلاً بها وهى العقدة الأسبانية إحدى العقد الثلاث التى استخدمت فى صناعة السجاد الإسلامى . أما العقدتان الاخريان فهما العقدة (سنة) الفارسية والعقدة (جورديز) التركية (شكل ١) .

وتعقد الخصل فى العقدة الأسبانية على خيط واحد من خيوط السداة التى تقسم إلى خيوط فردية وأخرى زوجية ويكون عمل العقد على صف من الخيوط الفردية وعلى الصف التالى له من الخيوط الزوجية(٧) (شكل ٢) الأمر الذى ينتج عنه تعرج الخطوط المكونة للرسم(٨) . أما فى العقدة الفارسية أو التركية

---

(١) J. Ferrandis: op.cit. p. 104; ibid : Alfombras Antiguas Espanolas, p. 38.

(٢) Florence-May: Hispano-Moresque Rugs, p. 55.

(٣) المصدر السابق: (٧) J. Ferrandis: Alfombras Antiguas Espandas, p. 48

(٤) ibid: Alfombras Moriscas, p. 104; Florence May, op.cit., p. 65.

(٥) Florence - May. op.cit., p. 61.

(٦) J. Ferrandis: Alfombras Antiguas Espanolas, p. 29, 62.

(٧) Florence - May. op.cit., p. 24.

(٨) J. Ferrandis: op.cit., p. 19.

اللتان سادتا فى الشرق فتعقد الخصل حول خيطين من خيوط السداء على ما بينهما من خلاف فى طريقة عمل العقدة .

ويجب أن نشير هنا إلى أن العقدة الأسبانية ظلت هى العقدة الوحيدة المستخدمة فى أسبانيا حتى القرن ١٧ م حيث أقبل الصناع على استخدام العقدة التركية التى قدر لها أن تسود فى صناعة السجاد الأسبانى ابتداء من هذا التاريخ وبخاصة فى كل من قونكة وسلمنكة ومدريد وأقليم بلنسيه[١] .

ونعتقد أن الفضل فى إدخال صناعة السجاد بالأندلس يرجع إلى المصريين إذ أنهم كانوا يستخدمون هذه العقدة فى صناعة السجاد كما يدل على ذلك أقدم ما وصل إلينا من السجاد المصرى المنسوب إلى العصر الفاطمى[٢] .

وليس ببعيد أن تكون شهرة إقليم مرسية فى إنتاج السجاد راجعة إلى إسكان المصريين هذا الإقليم فى عهد أبى الخطار حسام الدين بن ضرار الكلبى وذلك عندما قام بتوزيع الجنود على ولايات الأندلس عام ٧٤٢ م وكان من نصيب المصريين إقليم بلنسية[٣] .

والعقدة الأسبانية هى التى نراها مستخدمة فى أقدم نماذج السجاد الأسبانى التى قدر لها أن تصل إلينا إلا وهى سجادة المعبد ومجموعة سجاد الاميرال وسجاد هولبين .

ويحتمل أنه كانت هناك طريقتان لعمل العقدة الأسبانية تشاهد إحداها

---

(١) J. Ferrandıs : Alfombras Antiguas Espanolas, p. 18 ; Florence - May. A single-warp knot carpet, p. 94 ; Lozoya : op.cit., p. 394

(٢) Dimand : A Handbook of Mohammedan Decorative Art., p. 279, Fig. 186.

(٣) Levy Provençal : Espana Musulmana (Trad. Esp: par Garcia Gomez) p. 31.

انظر ترجمته فى الضبى : بغية الملتمس ص ٢٦١ — ٢٦٣ .

فى سجادة المعبد والأخرى فى سجاد الأميرال وهولبين ، أو لعل الطريقة القديمة التى استخدمت فى سجادة المعبد قد أصابها تغير فى سجاد الأميرال وهولبين . لأن سجادة المعبد أقدم من سجاد هاتين المجموعتين فهى ترجع إلى القرن ١٤ م فى حين أن أقدم ما وصل إلينا من سجاد المجموعتين الأخيرتين يرجع إلى القرن ١٥ م . فنجد فى سجادة المعبد أحد طرفى الخصلة يمر أسفل خيط السدى صاعداً إلى الظهور فوق سطح الرقعة ليمر فوق خيط السدى والطرف الآخر للخصلة الملامس له محتضناً إياها معاً من أسفل ليبرز من جديد على سطح الرقعة بجوار الخيط من الجانب الآخر(١) . أما فى سجاد الأميرال أوهولبين فتمر الخصلة من فوق الخيط غائصاً طرفاها إلى قاع الرقعة مارين متقاطعين خلف الخيط ليظهر طرفاها على سطح الرقعة فوق الخصلة . هذا ويحتوى السنتيمتر المربع فى أقدم السجاجيد على ٢٠ أو ٢٥ عقدة كما فى سجادة المعبد(٢) .

وقد شاع استخدام الصوف فى صناعة السجاد كما نجد شعر الماعز أيضاً ولكن بدرجة قليلة جداً . أما الحرير فقد ندر استخدامه وإذا استخدم فيكون ذلك عن طريق النسج أو التطريز لا العقد . وفى السجاد الفاخر كان الحرير يمتزج بالصوف(٣) .

أما الألوان فهى الأزرق والأحمر والأصفر والأبيض وكانت كلها ألوان نباتية وذلك فضلاً عن الألوان الطبيعية للصوف . وفى أقدم السجاجيد بقيت خيوط السداة على لونها الأصلى وكذلك اللحمة ثم لونت بعد ذلك باللون الأصفر والأحمر والكستنائى وقد يصل عدد خيوط اللحمة إلى ست خيوط

---

(١) Sarre: 14thC Spanish Synagogue Carpet., p. 89.

(٢) زرة المصدر السابق : وفراندز المصدر السابق ص ١٩ .

(٣) فراندز : المصدر السابق ص ٢٠ .

بعد كل صف(١) كما نجد خيطاً واحد(٢) .

هذا وقد سكتت المصادر العربية كما هو شأنها عن ذكر البيانات أو إيراد المعلومات التى تهمنا فى دراساتنا وتنير لنا سبيل التعرف على أنواع السجاد وعناصره الزخرفية وتساعدنا على نسبة التحف التى وصلت إلينا إلى مراكزها التى أنتجتها، غير أن بعض المصادر الأوربية وصفت لنا بعض زخارف السجاد الذى كان يصنع فى غرناطة فذكرت أنها كانت من عناصر هندسية مثل الدوائر والمعينات وما شابه ذلك(٣) . واعتماداً على هذا نسب البعض قطعتى السجاد المحفوظتين فى متحف غرناطة الأثرى إلى أسبانيا معتمدين بصفة خاصة على الأطباق النجمية التى تزخرف إطار القطعتين . ولقد سبق أن أوضحت فى بحث لى نشر فى مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد(٤) أن هاتين القطعتين مصريتان اعتماداً على الصناعة والزخرفة وقلت أن وجود مثل هذه الأطباق النجمية لا ينهض دليلاً على عدم نسبتها إلى مصر وأضيف أن هـذه الأطباق النجمية ظهرت على آثار مصرية فنجدها تزخرف منبراً خشبياً يرجع إلى القرن ١٤ م موجود الآن بمسجد الظاهر بيبرس وكان أصلا فى مسجد قرشوط وهو من صناعة نجار مصرى إسمه يعقوب بن بركات الهوى كما نجـدها منقوشة على الحجر بإحدى واجهات قبة الجلشنى بمقابر العباسية وترجع هذه القبة إلى القرن الخامس عشر الميلادى .

ويحتفظ متحف النسيج بواشنطن بأقدم ما وصل إلينا من سجاد إسبانى والقطع المحفوظة مصـنوعة من الصوف الذى اتخذت منه خيوط السداة أيضاً

---

(١) فوانرز : نفس المصدر ص ١٧ .

(٢) فلورنس ماى : المصدر السابق ص ٩٥ ، ش ٦ .

(٣) José Ferrandis: Alfombras Antiguas Espanolas, p. 30.

(٤) جمال محرز : سجادتان مملوكيتان بمتحف غرناطة الأثرى (مجلة الدراسات الإسلامية (المجلد الثانى) :

ويصحب العناصر الزخرفية المكونة من رسوم هندسية وأشكال مضلعة بداخلها عناصر أخرى وكتابات كوفية . وهذا التصميم يذكرنا بتصميم مماثل تشاهده فى السجاد المملوكى كما نجده فيما بعد فى بعض سجاجيد هولبين الأسبانية . وهذا يدل على استمرار الأثر المصرى فى صناعة السجاد الأسبانى .

وقد نسب الأستاذ كونل هذه القطع الموجودة فى واشنطن إلى مدينة جنجالة وأرجعها إلى القرن ١٢ — ١٣ م (١) (شكل ٣) .

أما السجاد غير الإسلامى فأنواع وأشهرها سجاد الأميرال وسجاد هولبين .

وقبل أن نتحدث عن هذين النوعين نذكر شيئاً عن أقدم سجادة إسبانية غير إسلامية وصلت إلينا ألا وهى السجادة المعروفة باسم سجادة المعبد وكانت محفوظة بمتحف برلين ويقال أنها كانت فى كنيسة بالتيرول ثم آلت إلى تاجر تحف فى ميونيخ ثم اشتراها منه متحف برلين(٢) .

وزخرفة هذه السجادة غريبة لا نجد لها مثيلاً فى السجاجيد الأخرى وهى عبارة عن عصا طويلة تنتهى بورقة محورة وتحتل هذه العصا منتصف السجادة بطولها فتنقسم ساحتها إلى قسمين ويتفرع من هذه العصى ثلاث عصى قصيرة على الجانبين بزوايا قائمة وتحمل ما يشبه بناء مستطيل الشكل له سقف مسنم (جمالونى) وللبناء باب من ضلفتين وكل ضلفة منهما مقسمة إلى أربعة أقسام بكل قسم زخرفة من خطين متقاطعين كأنهما علامة الضرب ويعلو الباب عقد مدبب والواجهة على جانبى الباب مقسمة إلى مربعات صغيرة بها رسوم طيور

---

(١) Kühnuel: Catalogue of Spanish rugs - 12th C to 19th C. Pls 1,3

(٢) زرة : المصدر السابق ص ٨٩ .

ونجوم وعناصر أخرى ويخرج من جانبى المبنى ستة أفرع تنتهى بشكل خطاف وأسفل البناء شكل مثلث ويزين أحد إطارات السجادة زخرفة من حروف كوفية غير مقروءة(١) . وقد لونت الأرضية بلون أحمر والأطار بلون أزرق .

وقد اختلف علماء الآثار فى تفسير هذا الرسم ودلالته فمنهم من رأى أن الرسم يمثل شجرة(٢) فى حين ذهب الأستاذ زرة إلى أن هذا الموضوع يمثل موضوعاً يهودياً هو عبارة عن صندوق من ذلك النوع الذى تحفظ به الألواح(٣) وأن العصا وأفرعها تمثل الشمعدان الذى نجد شبيها له على قطعة زجاج(٤) ويتفق الأستاذ ديماند مع الأستاذ زرة فى هذا الرأى(٥) . ولما كانت هذه الزخرفة شبيهة بزخرفة استخدمت فى الفن اليهودى كفسيفساء معبد بيت ألفا(٦) والأسفار الخمسة المحفوظة بلينينجراد(٧) فقد ستنتج زرة أن السجادة قد صنعت لمعبد يهودى

ونحب أن نضيف هنا أن بعض الشمعدانات والأوانى الخاصة بحفظ رفات القديسين كانت تصنع فى العصور الوسطى على هيئة مبان فمنها ما يمثل كنائس وكتدرائيات وعناصر أخرى(٨) وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا يكون الرسم الذى يزين سجادة برلين هذه من هذا النوع وإن صح هذا الرأى لا تكون السجادة على هذا الأساس قد صنعت لمعبد يهودى .

---

(١) Thomson: Hispano. Moresque Carpets, p. 100.
وانظر شكل ٧٢٤ من اطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية للدكتور زكى محمد حسن.

(٢) تومسون ، المصدر السابق ص ٤٦ .

(٣) زرة : المصدر السابق ٩٥ .

(٤) نفس المصدر السابق شكل ١ .

(٥) ديماند : المصدر السابق ص ٣٢٢ والترجمة العربية للأستاذ أحمد عيسى ص ٣٠٦ .

(٦) زرة : المصدر السابق S .

(٧) نفس المصدر السابق H .

(٨) أنظر مثلا Gomez-Moreno: Provincia de Leon (Catalogo Monumental de Espana), Figs. 536, 600.

وترجع هذه السجادة إلى القرن الرابع عشر الميلادى وهى المثل الوحيد المعروف لنا إلى الآن من هذا القرن إذ أن المجموعات الأخرى من سجاد الأميرال وسجاد هولبين متأخرة عن هذا القرن .

وأول هاتين المجموعتين تلك التى تسمى بالأميرال نسبة إلى أميرال البحر الأسبانى الفونسو انريكز المتوفى عام ١٤٢٩ م و فراد أسرته لأن هذه السجاجيد تحمل رنوكهم . فنجد رنك الفونسو ورنك نوربك انريكز المتوفى عام ١٤٧٣ م وزوجته ماريا دى أيالا المتوفاة عام ١٤٦٨ م وخـوان دى روخاس وزوجته ماريا انريكز وقد عاشا فى عهد خوان الثانى ملك قشتاله (١٤٠٧ — ١٤٥٤) وماريا دى كاستيلا زوج الفونسو الخامس ملك أراجون المتوفى عام ١٤٥٨ م . ويتراوح عدد الرنوك فى السجادة الواحدة بين ثلاث رنوك وتسع(١) .

وأهم النماذج التى وصلت إلينا من هذه المجموعة هى التى كانت محفوظة بدير سانتا كلارا بمدينة بلنسية وقد أهدت دونيا خوانا مندوزا بعضا منها عليه رنك زوجها إلى هذا الدير على ماتذكر وثيقتها المؤرخة فى ٢٢ يناير ١٤٣١ م وبدير سانتا ايزابلا بمدينة طليطلة . ونماذج هذا النوع من السجاد موزعة بين متاحف العالم والمجموعات الخاصة فنجد منها فى متحف بلنسيه دى دون خوان بمدريد ومتحف بنسلفانيا فى فيلادلفيا ومتحف شيكاغو ومجموعة الـكونتس دى بهاج ومتحف الدولة ببرلين ومتحف مدريد الأثرى والـكونت تيلنسك والسيدة لانورا وفى السوق عند تجار العاديات .

ولا يختلف هذا السجاد عن غيره من سجاد القرن ١٥ م من حيث طبيعة خيوط السداة أو اللحمة وألوانها الطبيعية(٢) . ويسود فى تلوين هذا السجاد اللون الأزرق

---

(١) فلورنس ماى : المصدر السابق ص ٣٢ .

(١) فراندز : المصدر السابق ص ٣٤ .

والأحمر الداكن والأسود القريب من اللون الكستنائى الداكن مع ميل إلى انقضاض اللون[١] .

أما المراكز الفنية التى أنتجت هذا السجاد فهى الكرز ولينور وليانور إلا أن اسم المركز الأول طغى على أسماء المراكز الأخرى وبخاصة فى القرن ١٦ م . وصناع هذا السجاد من المدجنين والموريسكبين[٢] وهم المدجنون الذين اضطروا إلى اعتناق الدين المسيحى بعد أن زال الإسلام عن الأندلس .

وكما هو الشأن دائماً فى زخرفة السجاد نجد ساحة تحيط بها أشرطة، والساحة هنا يزخرفها رسم كأنه الشباك مكون من مثمنات ومعينات ونجوم بحيث يخيل للناظر إليها أنه يرى خلية نحل . وداخل كل عنصر من هذه العناصر وحدات زخرفية مختلفة من رسوم نباتية وحيوانية وآدمية ورمزية (شكل ٤) .

ويحيط بالساحة أشرطة كثيرة العدد تصل أحياناً إلى تسع وقد تشغل سطحاً من السجادة أكبر من سطح الساحة وتملأ هذه الأشرطة بعناصر زخرفية كالتى نراها فى الساحة مع إضافة كتابة كوفيـة غير مقروءة أو هى رسوم تقلد الخط الكوفى (شكل ٥) ومناظر صيد وبخاصة فى الأشرطة التى تستعرض السجادة .

ومن العناصر الزخرفية التى تزين هذه السجاجيد الصليب المعقوف والخطاف وهذه تذكرنا بزخارف سجاد القوقاز . كذلك نجد الرسوم التى تمثل المياه غير أنها مهذبة . ويسود بين العناصر النباتية رسم شجرة محورة عن الطبيعة أحياناً لها أفرع أفقية متماثلة وأوراق هرمية الشكل ونجد ما يماثل شجرة الحيـاة فثمة عمود يسمى عمود العالم يقف على جانبيه حيوانان من الغريفون وهذا التصميم هو أصلاً تصميم ساسانى أخذه المسلمون واستخدموه فى زخارفهم . ونشاهد أيضاً جـذع شجرة ذات أفرع مائلة فى دورين .

---

(١) فراندز : كتالوج السجاد الأسبانى القديم ص ٣٥ .
(٢) فراندز : نفس المصدر : ص ٣٢ .

أما الطيور فنجد منها الحمام والبط والطاووس وهى أما وحيدة وأما منفردة أو فى مجموعات . ومن الملاحظ أن جسم الطيور يشبه المراكب (شكل ٦) ومن الحيوانات نجد الأسود الزاحفة التى تشابه ما هومنها على الرنوك ودببه وجمال وفيلة وثيران وكلاب . وهى وحيدة أو زوجية وقد يصاحبها بعض الطيور . ونلاحظ أحياناً بعض الكلاب واقفة على ظهور حيوانات أخرى (شكل ٧).

أما الرسوم الآدمية فهى مضحكة هزيلة ضئيلة وقد يرسم الأشخاص رافعى الأيدى يرتدون ملابس ضيقة الأطراف أو واسعة جداً وهم على ظهور جمال قد يقودها خدم وقد يمتطى بعضهم خيولاً .

وتظهر النساء واقفات أو تطل من نوافذ المنازل أو القلاع . والأشخاص فى العادة ذوو رؤوس كبيرة على عنق غليظ وذوو جذع قصير وأيد طويلة وشعورهم قصيرهم مرسلة أو معقوفة إلى أعلا .

ولا تختلف زخارف الأشرطة عن زخارف الساحة كما قلنا اللهم إلا فى الخطوط الكوفية غير المقروءة التى تحتل دائماً الإطار الخارجى كما يزخرف الضلع القصير للأشرطة مناظر الصيد التى تتخلل الأشجار وهى هنا طبيعية أكثر مما هو مرسوم منها فى الساحة فنجد فى إحدى السجاجيد صيادين بيض الوجوه أو سود مسلحين بالسيوف والحراب يهاجمون دببة بيضاء أو سوداء وحمر وعلاوة على ذلك نجد الخنازير والكلاب والطير .

والملاحظ بصفة عامة أن الزخارف محورة عن الطبيعة بدائيه فى رسمها بينها وبين سجاد القوقاز شبه كبير فى بعض العناصر الهندسية كالمعينات والخطاف والنجوم . كما يظهر فى هذا السجاد تأثير قوطى نلاحظه فى بعض الرسوم النباتية (شكل ٨) .

والمجموعة الثانية من السجاد الموريسكى هى التى أطلق عليها اسم سجاد

هولبين نسبة إلى المصور الألمانى هو لبين الصغير (١٤٩٧—١٥٤٢م) لرسمه بعض السجاجيد فى لوحاته ، ومن الغريب أن اسم هولبين هو الذى ذاع وانتشر فى حين أنه لم يكن أول الرسامين الغربيين الذين أظهروا هذه السجاجيد فى لوحاتهم . فقد سبقه أكثر من فنان . فمنهم مثلا جيرلنداجو Gherlandajo (عام١٤٨٤م) وفينزنزو فوبا Vinzenzo Foppa (عام ١٤٨٥ م) وكريفلى Crivelli (عام ١٤٨٦م) . ونذكر فى هذا الصدد أن اسم هولبين قد أطلق أيضاً على مجموعة أخرى من السجاد العثمانى نراها فى رسومه ورسوم غيره من الفنانين الغربيين .

والأسلوب الشائع فى زخرفةهذا السجاد هو تقسيم السطح إلى أقسام متفاوتة العدد تزين بالرسوم الهندسية من مربعات مثمنات ومتشابكات ونجوم إلى غير ذلك من العناصر الهندسية التى نشاهدها .

أما الأشرطة التى تحيط بساحة السجادة فمزخرفة بعناصر هندسية أو نباتية أو كتابات والألوان الغالبة فى هذا السجاد هى الأحمر والأخضر والأصفر والأبيض (شكل ٨ — ٩) .

ويمكن تقسيم هذا السجاد من حيث أسلوب زخرفته إلى نوعين رئيسيين الأول هو تقسيم السجادة إلى مربعات كبيرة تزين بالعناصر الهندسية ونوزع هذه المربعات فى أشرطة متفاوتة العدد (شكل ١٠ ، ١١ ، ١٢) والنوع الثانى قريب الشبه من النوع الأول غير أن عدد الأشرطة هنا أكثر والمربعات أقل مساحة فتظهر مساحة السجادة كأنها مزخرفة بعدد من المربعات المزخرفة بالعناصر الهندسية المختلفة (شكل ١٣ ، ١٤) .

وأسلوب زخرفة هذا النوع من السجاد أقرب ماتكون إلى أسلوب زخرفة السجاد المملوكى الذى تملأ مساحته الموضوعات الهندسية (شكل ١٥) .

ونلاحظ فى هذا النوع من السجاجيد تأثيراً قوطياً يتمثل فى الزخارف النباتية ببعض الأشرطة (شكل ١٦) .

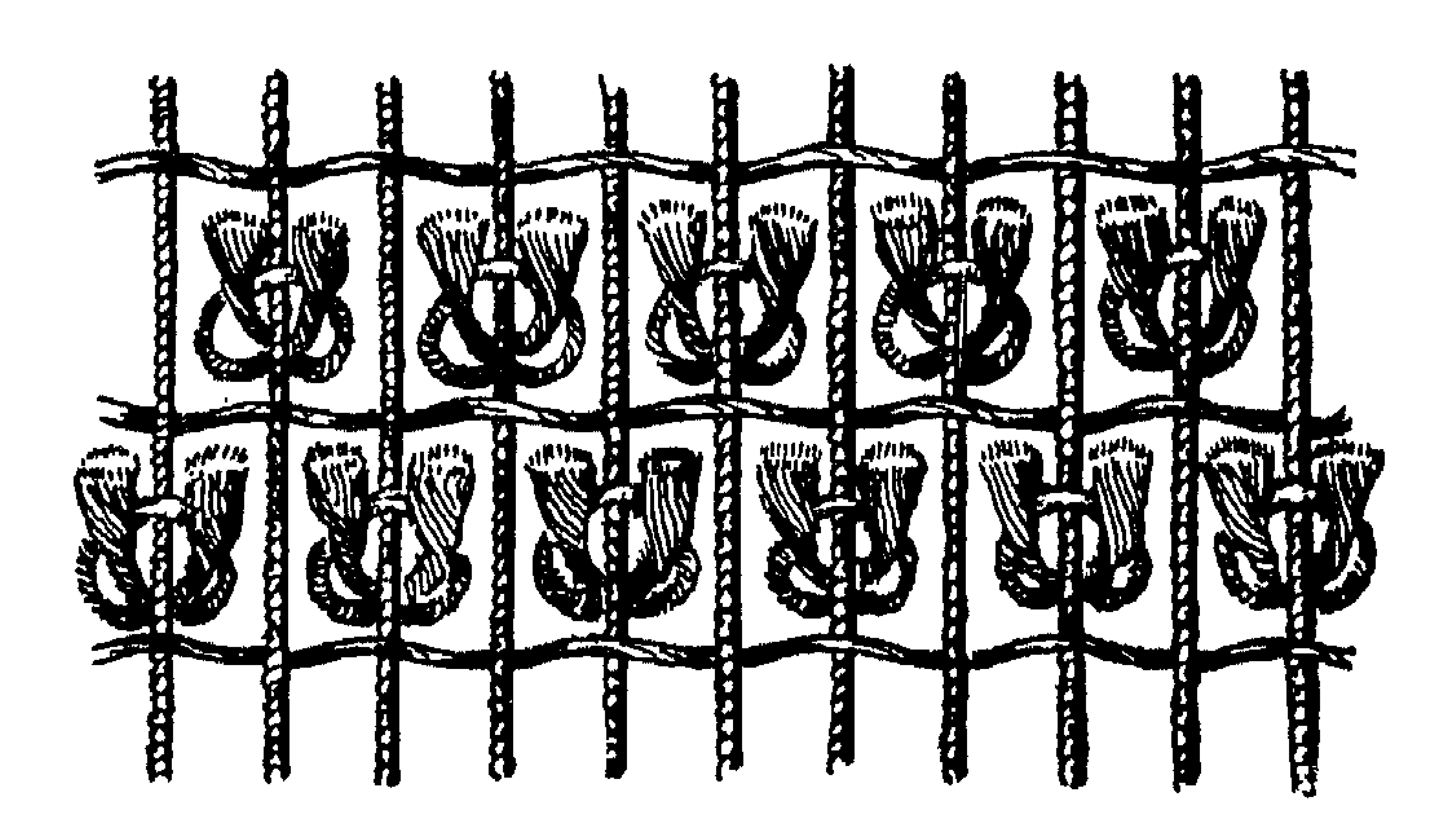
وقبل أن نختتم هذا البحث يحسن بنا أن نشير إلى تأثيرات إسلامية أخرى وفدت من الشرق وتظهر فى السجاد الأسبانى من القرن ١٧ م ونعنى بها استخدام عناصر زخرفية معينة مأخوذة من السجاد الإيرانى والتركى منها ذلك التصميم الزخرفى المنسوب إلى هراه (شكل ١٧)[١] وثمة سجادة محفوظة بمتحف الآثار بمدريد لا يشك أحد فى نسبتها إلى آسيا الصغرى لولا الرنك الموجود بها . (شكل ١٨) .

جمال محرز

---

(١) José Ferrandis: Alfombras Antiguas Espanolas, t. XXXIII.

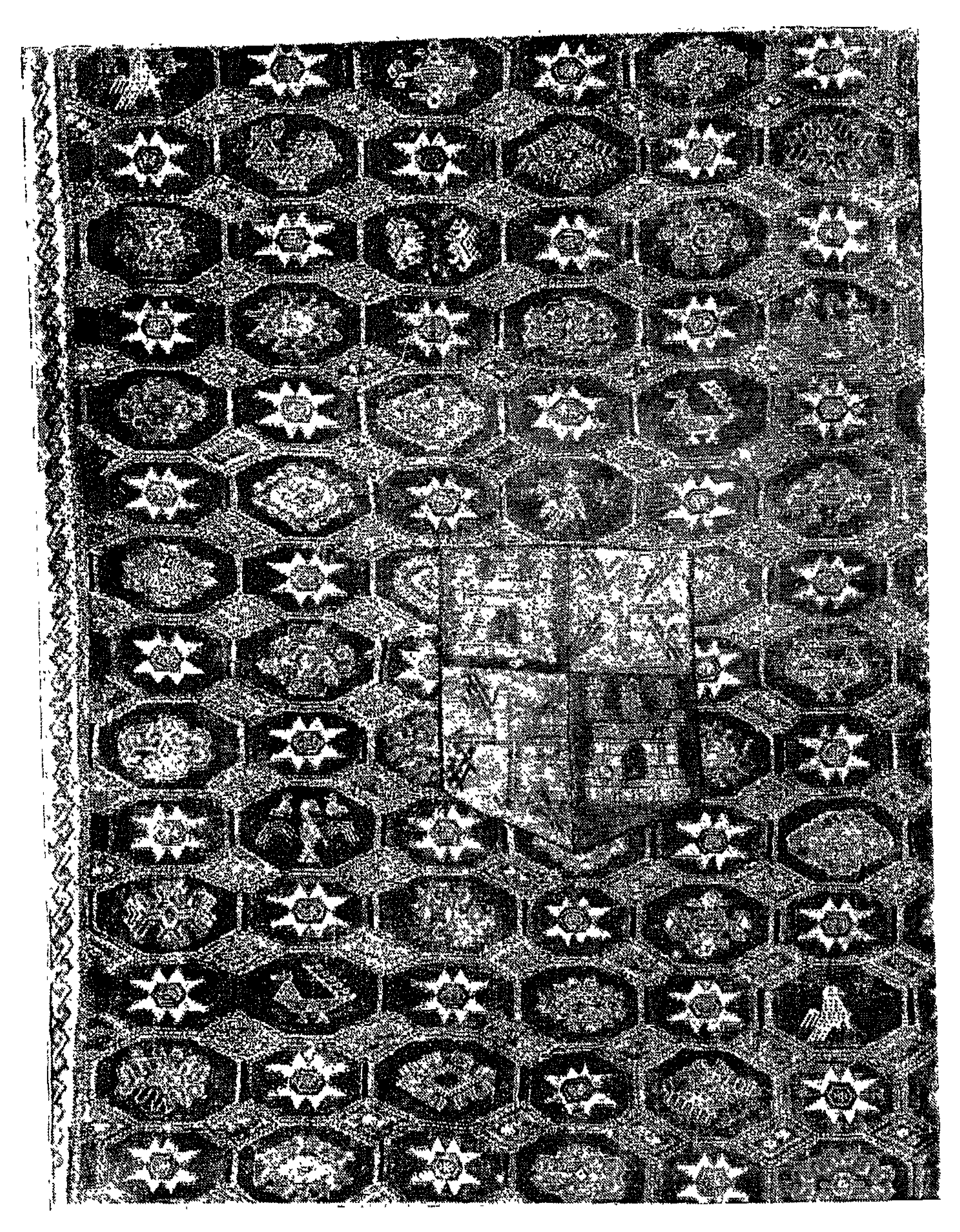
شكل ١ : أنواع العقد فى السجاد الإسلامى
الصف الأعلى : العقدة الفارسية
الصف الأوسط : العقدة التركية
الصف الأسفل : العقد الأسبانية



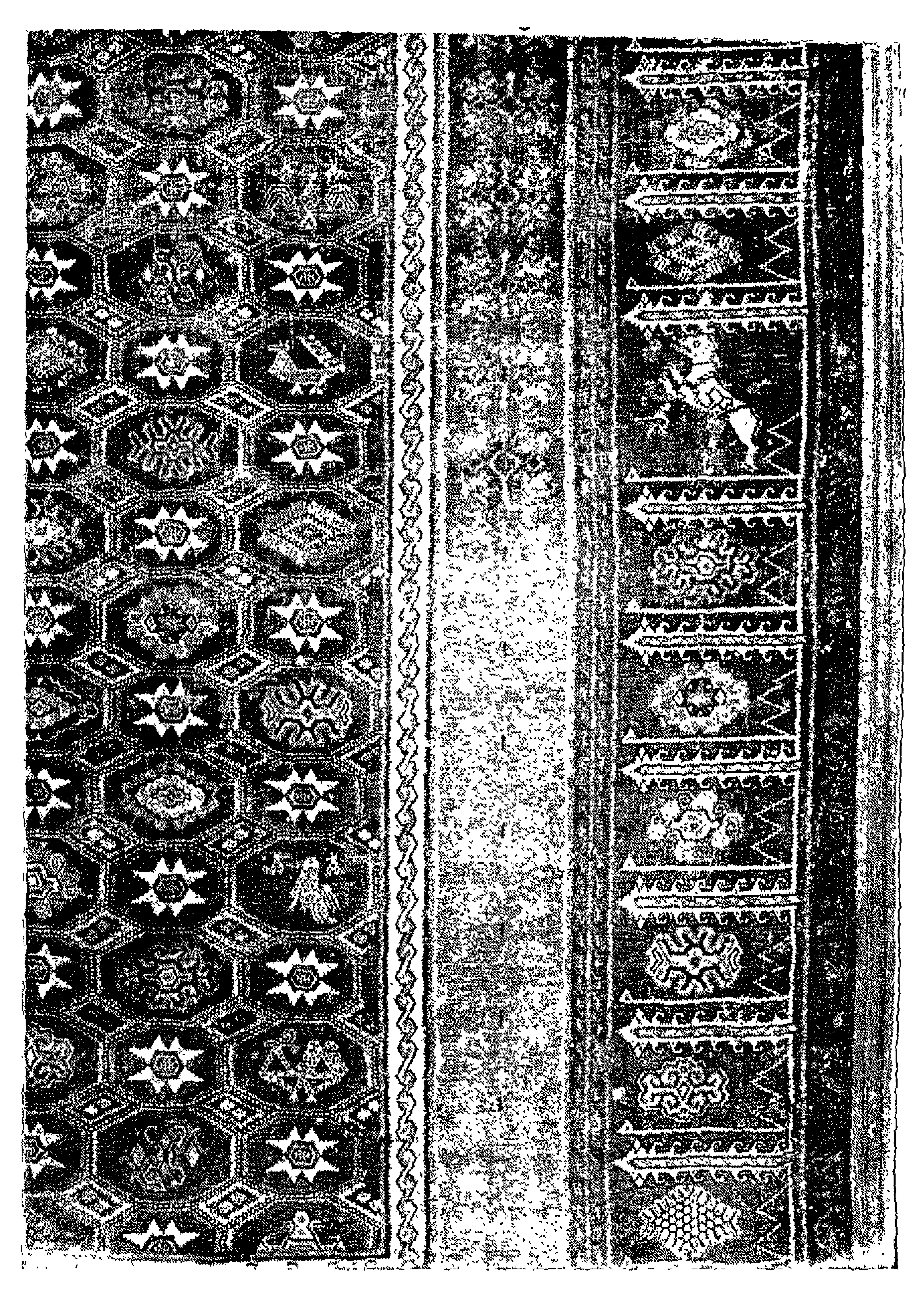
شكل ٢ : العقدة الأسبانية



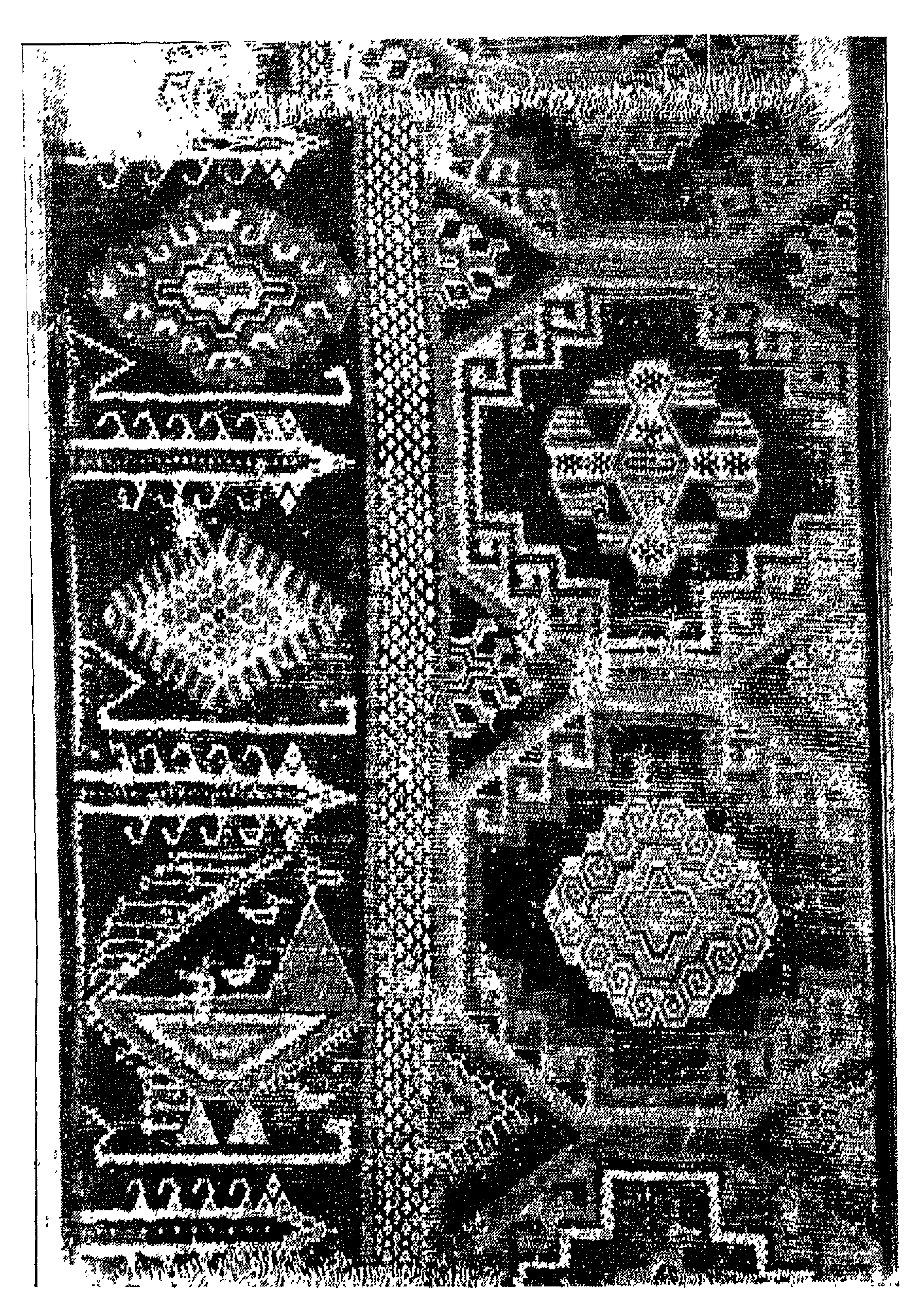
شكل ٣ : جزء من سجادة اندلسية . القرن ١٢ - ١٣ م عليها لفظ اليمن مكرراً



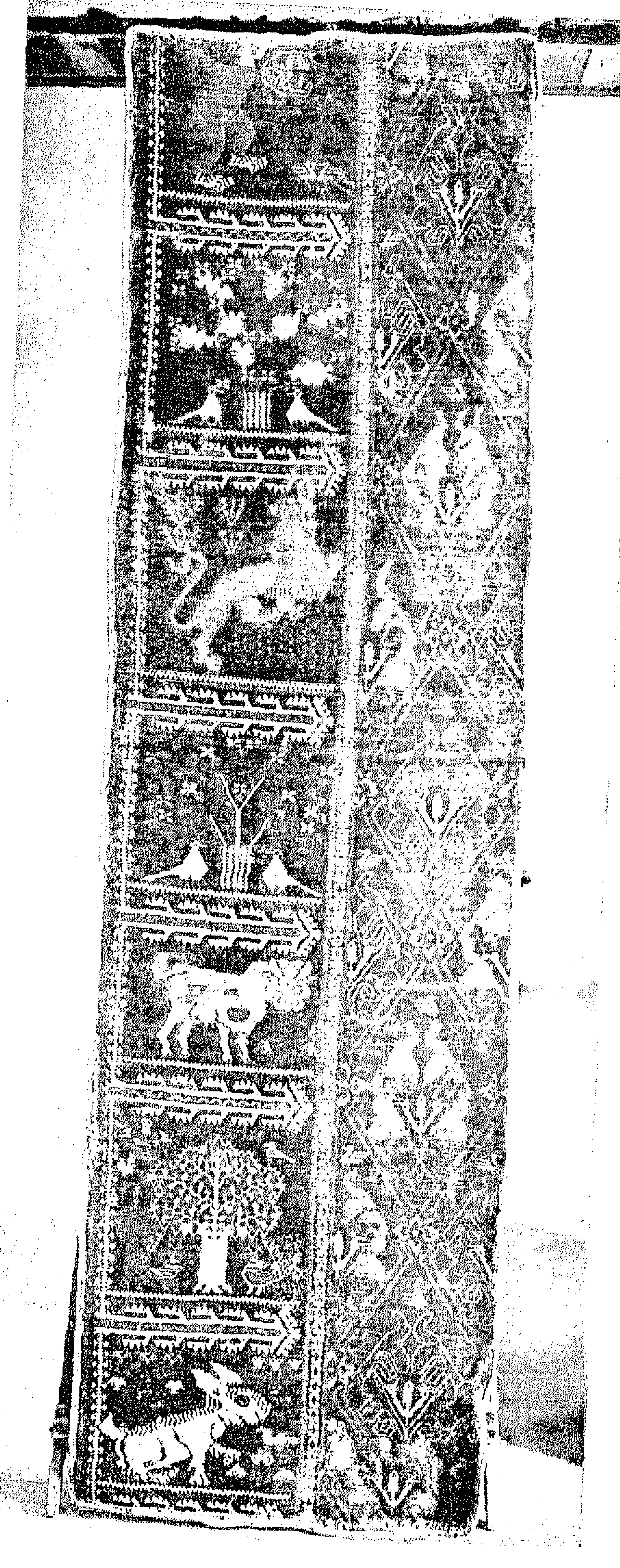
شكل ٤ : جزء من سجادة الاميرال . يظهر عليها رنك احد افراد أسرته .
أسبانيا — القرن ١٥ م



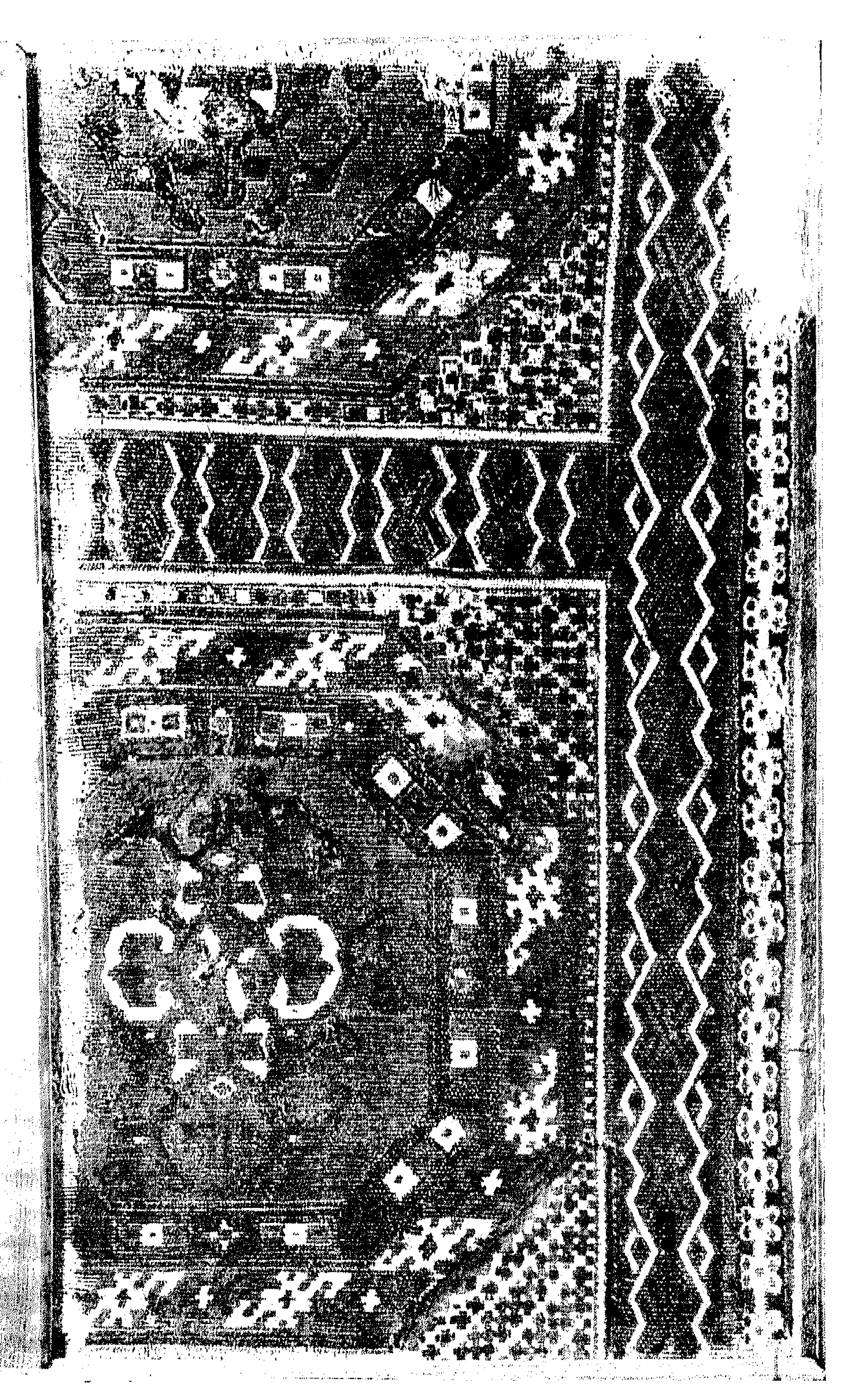
شكل ٥ : جزء من سجادة الأميرال : بالإطار زخرفة تقلد الكتابة الكوفية . أسبانيا
القرن ١٥ م



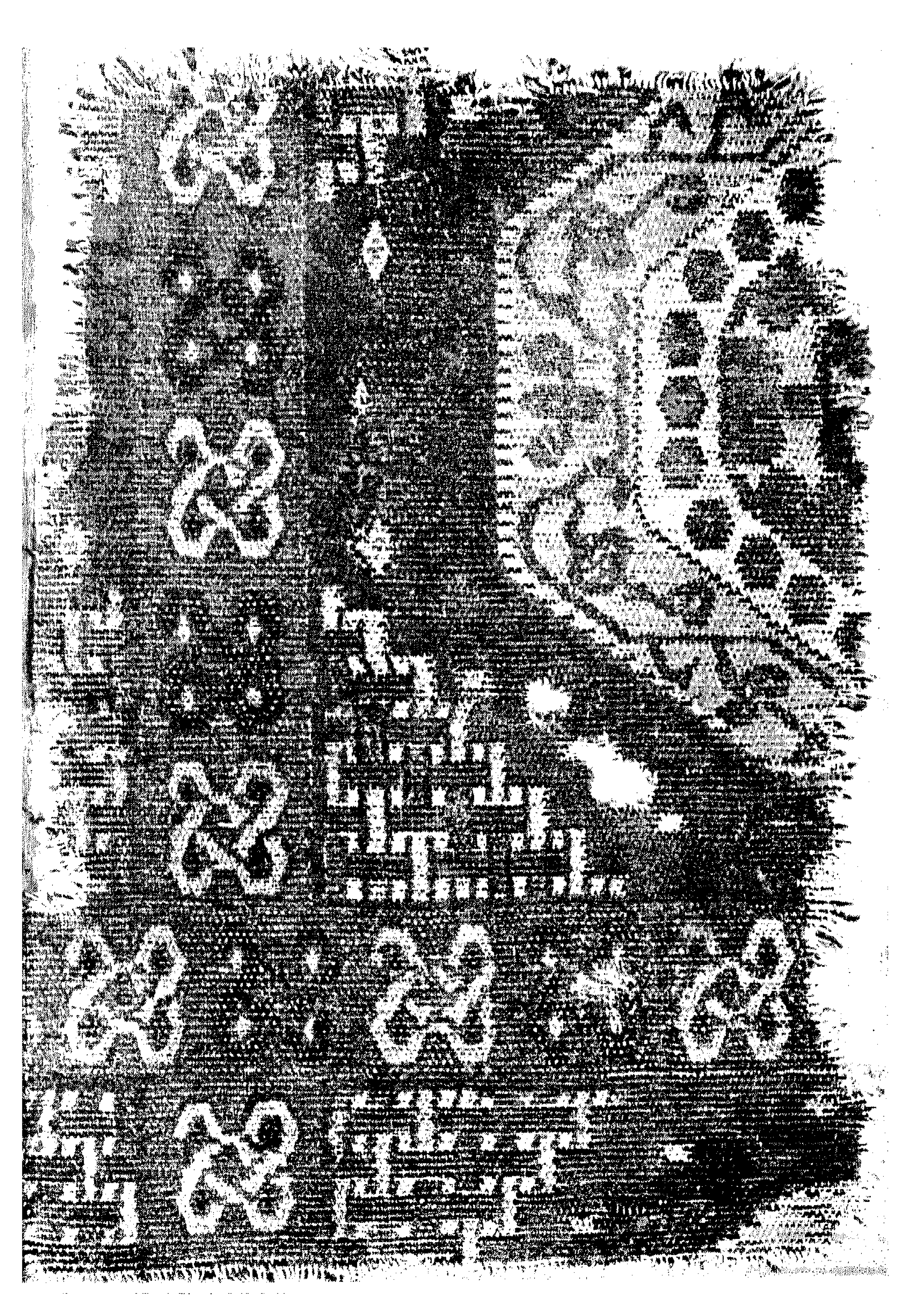
شكل ٦ : جزء من سجادة الأميرال : بالإطار زخرفة تقلد الكتابة الكوفية ، ورسوم للطيور شديدة التحوير . أسبانيا – القرن ١٥ م



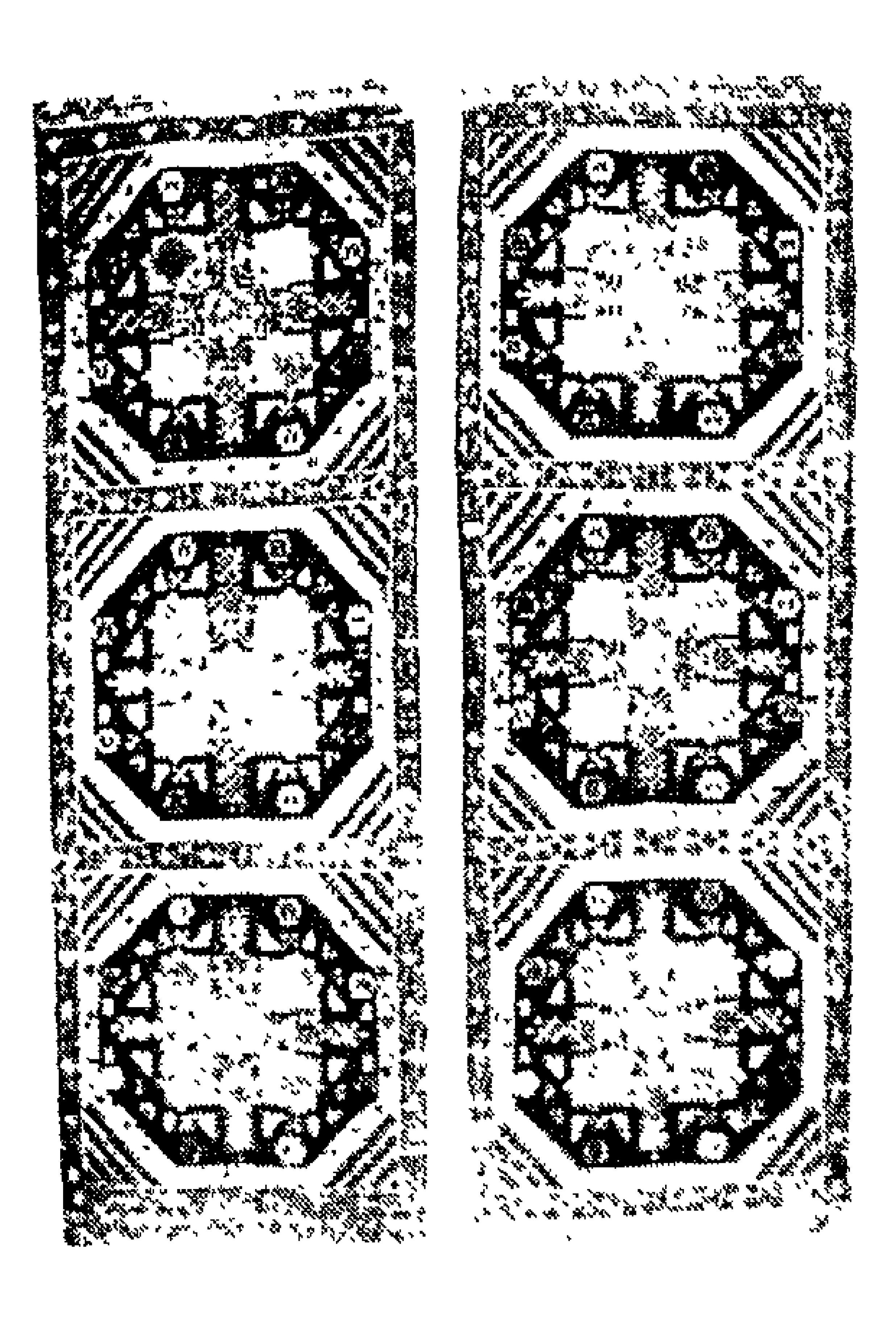
شكل ٧ : إطار إحدى سجاجيد هولبين . يظهر به التأثير القوطى
أسبانيا – القرن ١٥ م



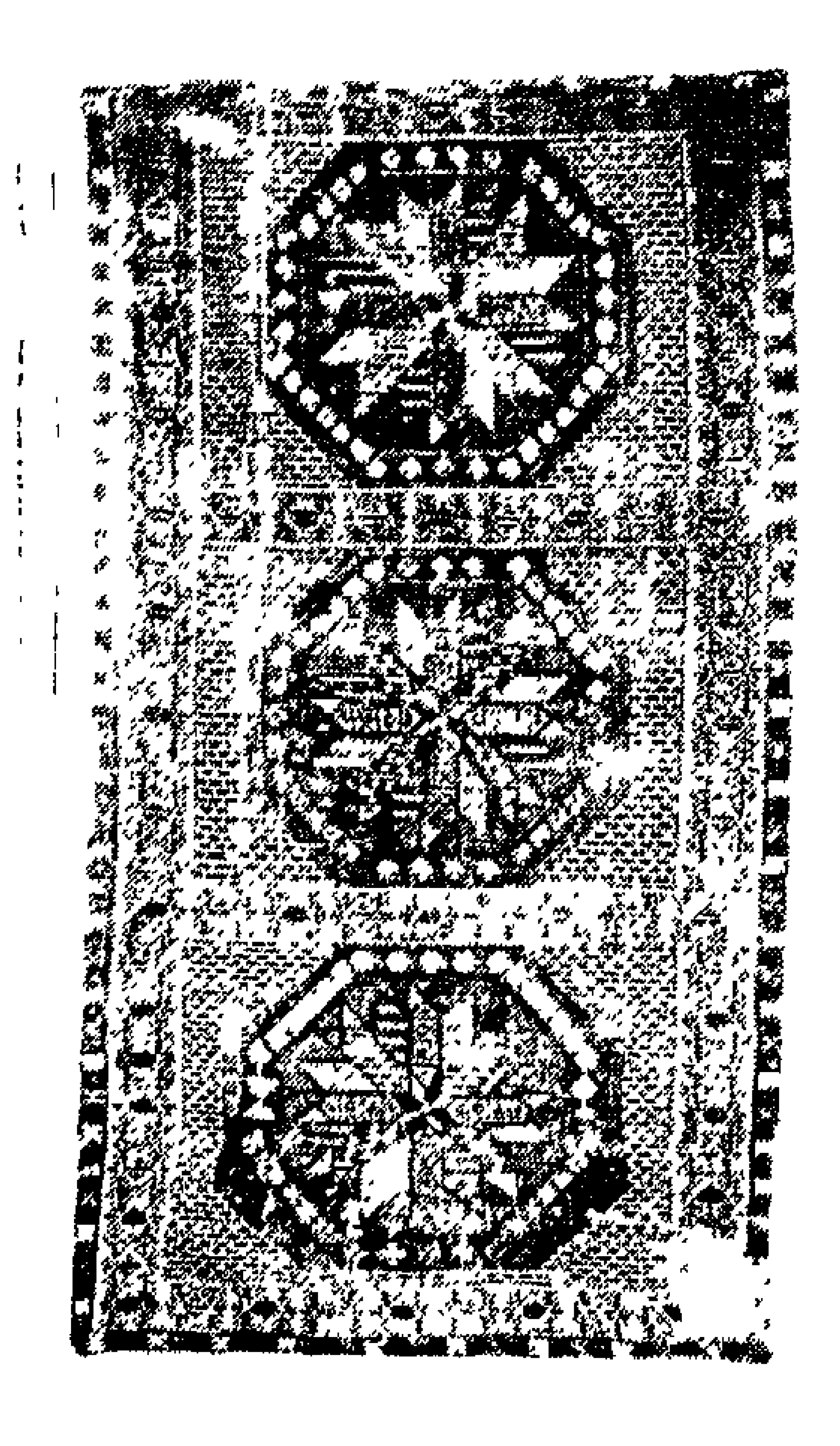
شكل ٨ : جزء من سجادة هولبين أسبانيا – القرن ١٥ م



شكل ٩ : جزء من سجادة هولبين . اسبانيا – القرن ١٥ م



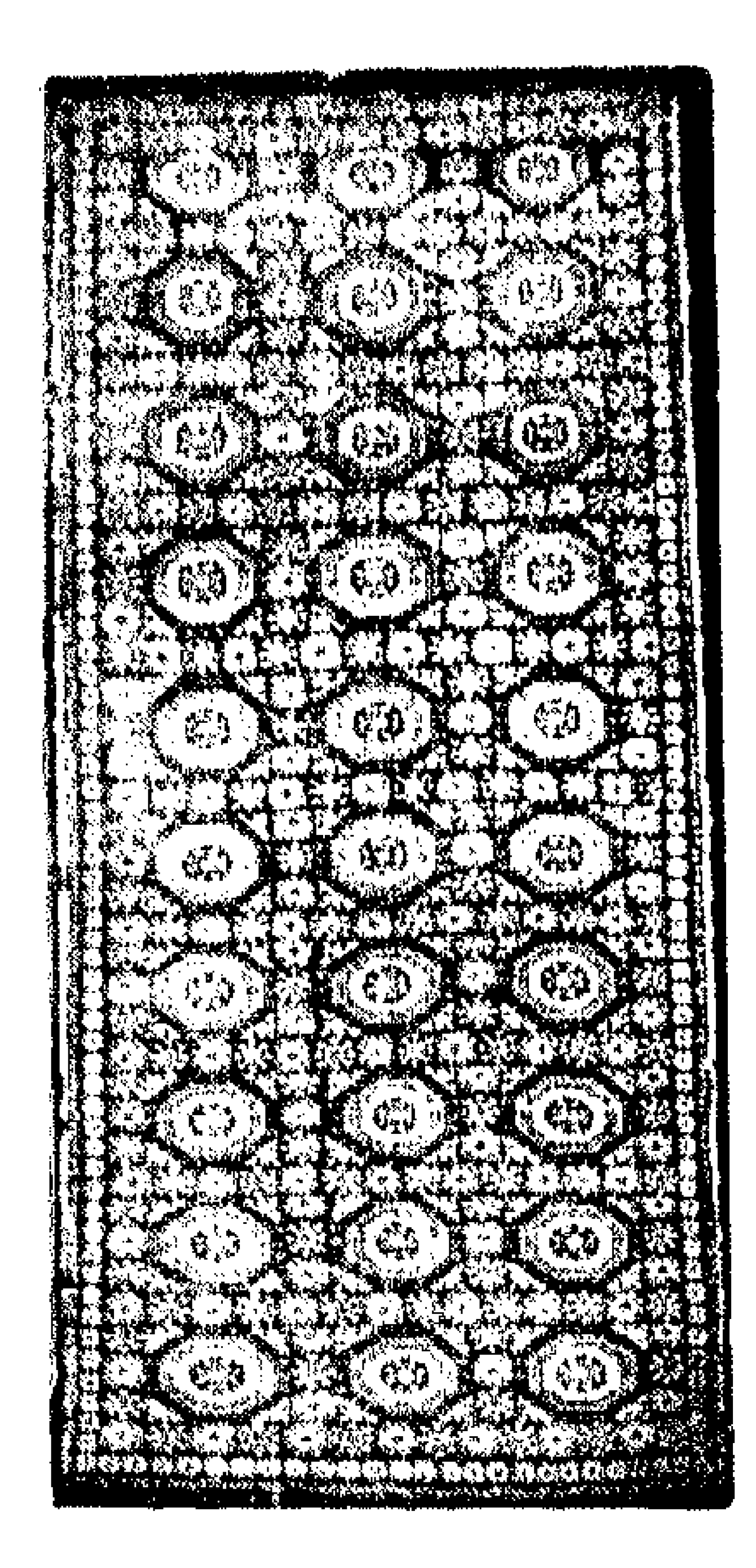
شكل ١٠ : سجادة هولبين
أسبانيا – القرن ١٥ م



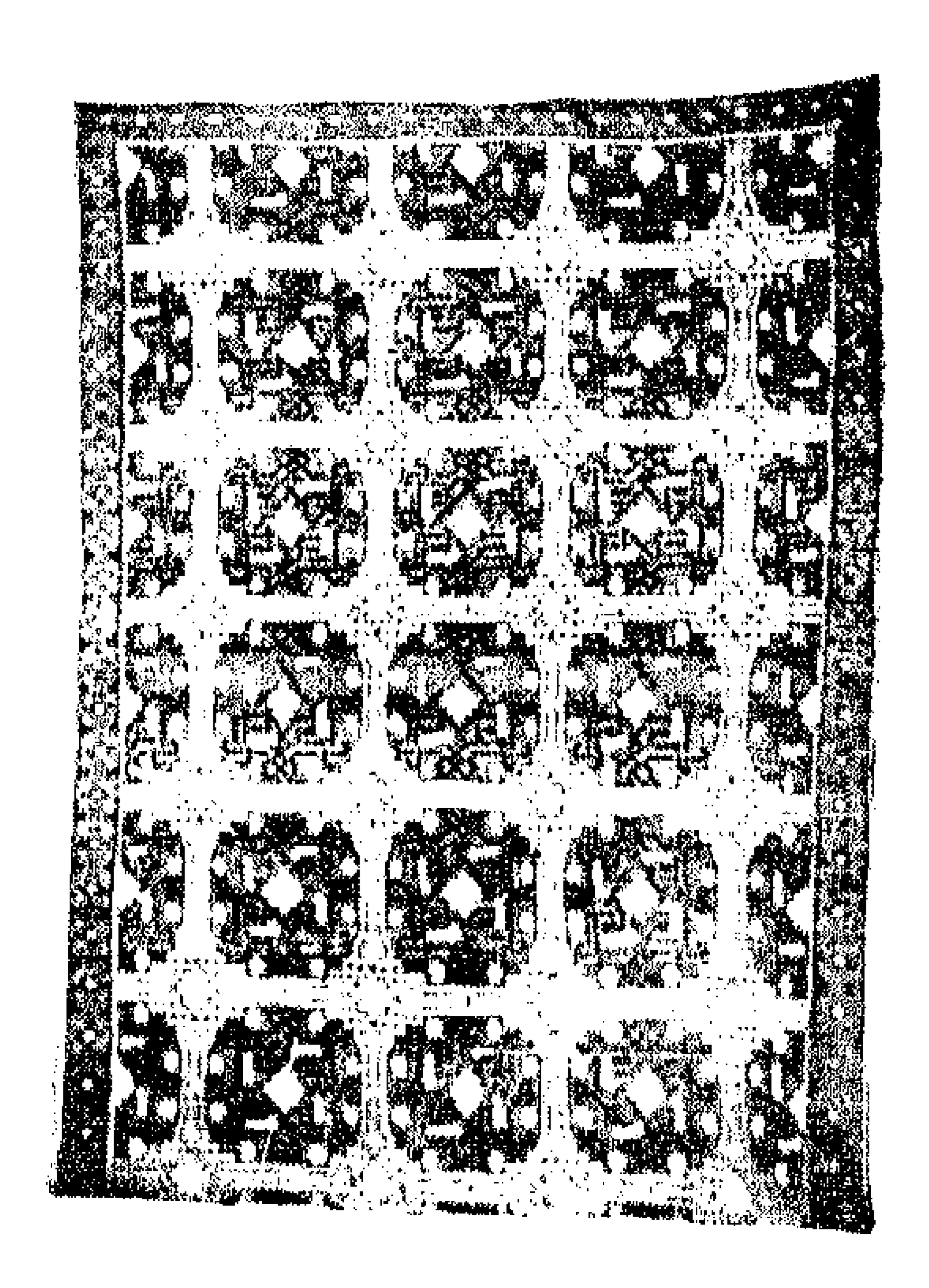
شكل ١١ : جزء من سجادة هولبين
أسبانيا – القرن ١٥ م



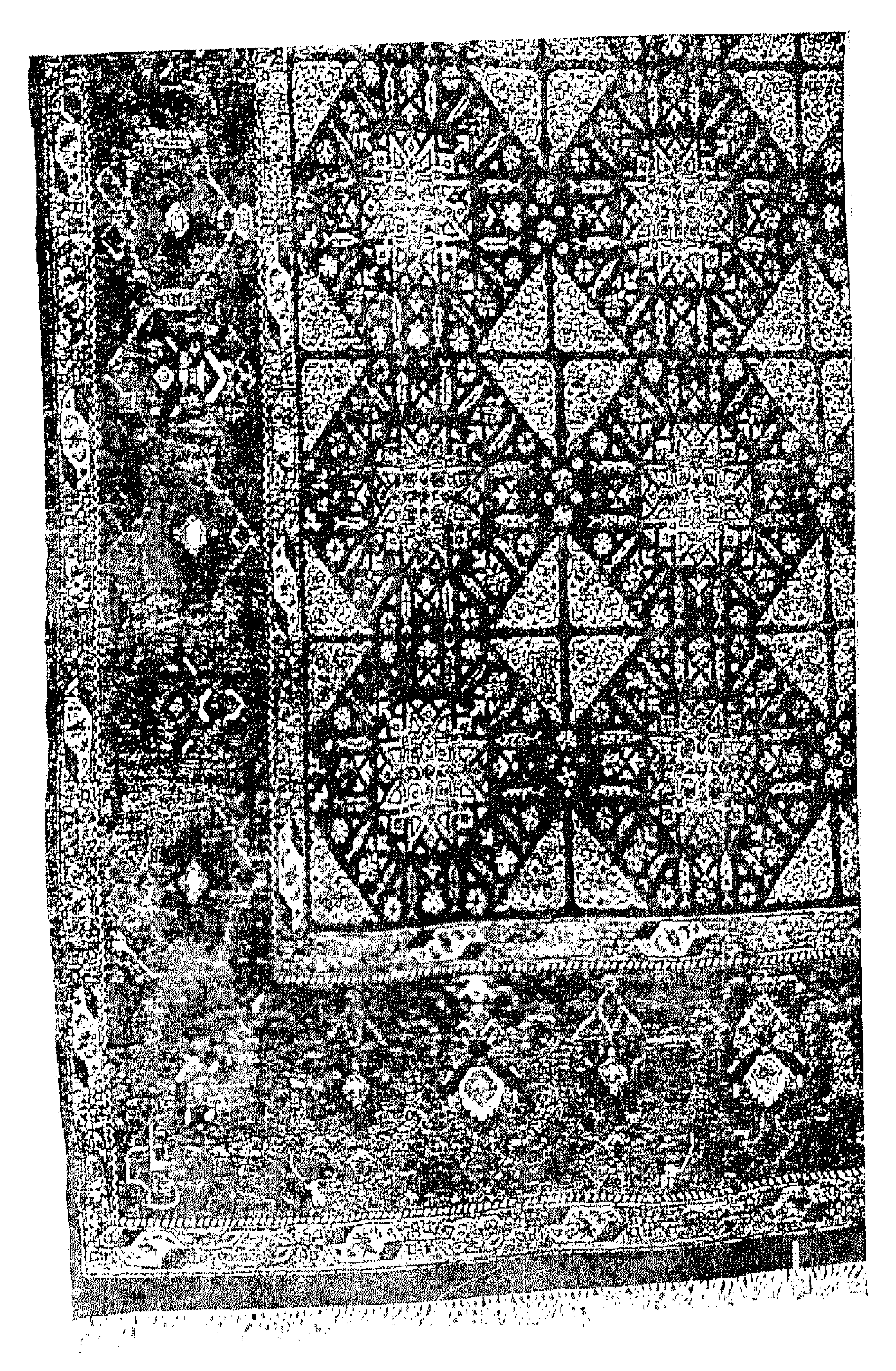
شكل ١٢ : سجادة من سجاجيد هولبين
بها تأثير قوطي فى زخارف الإطار.
أسبانيا – القرن ١٥ م



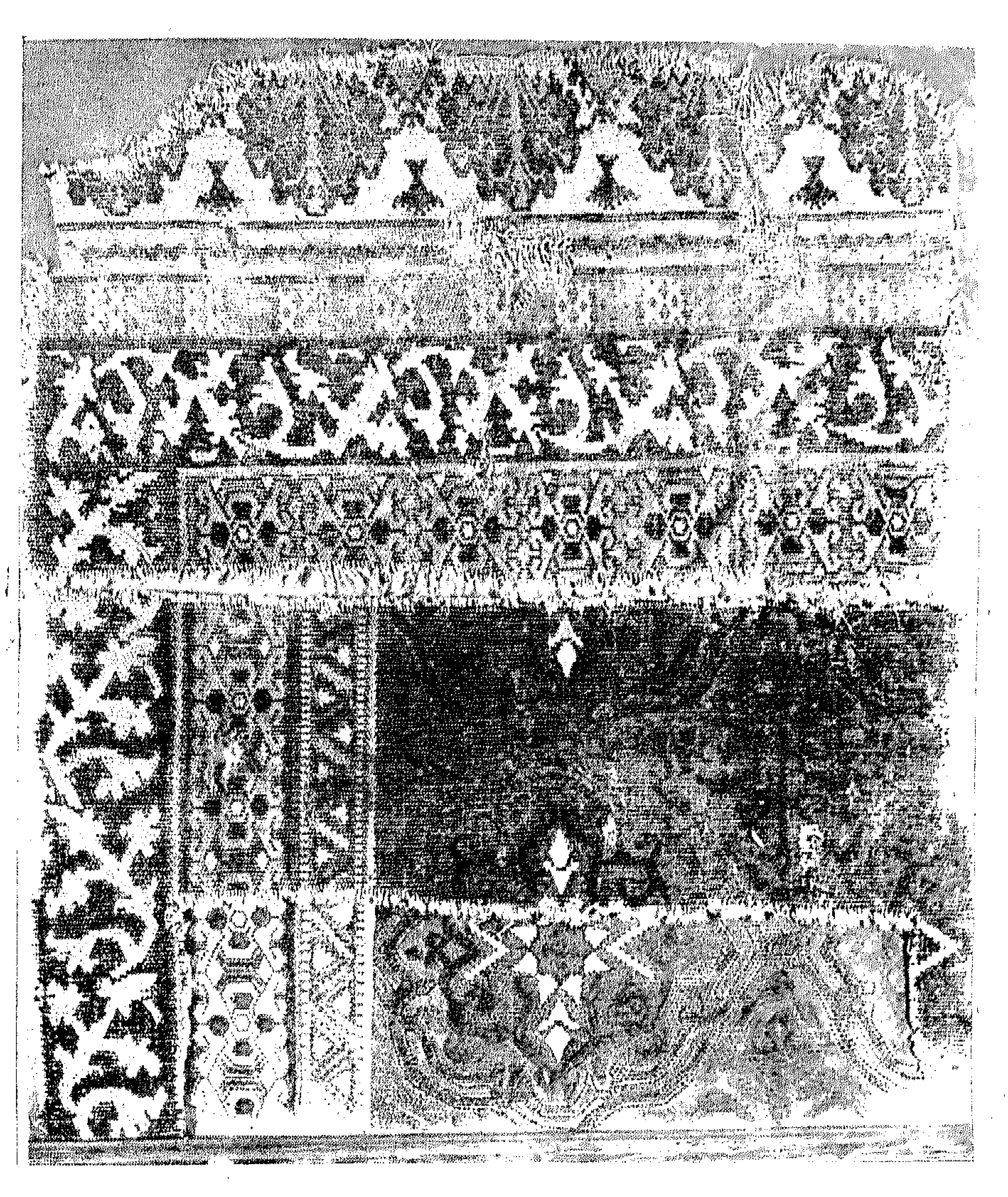
شكل ١٣ : النوع الثانى من سجاجيد
هولبين أسبانيا – القرن ١٥ م



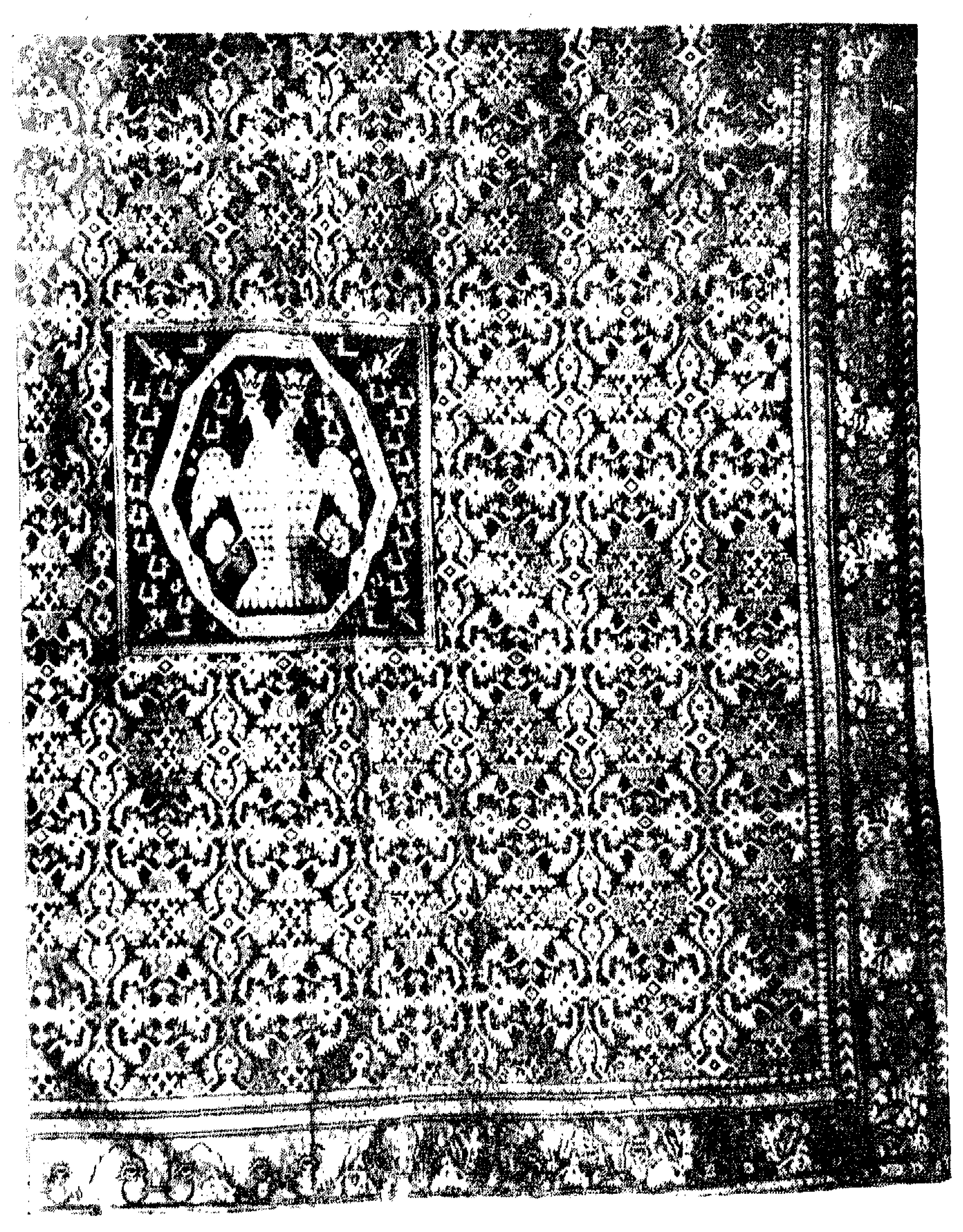
شكل ١٤ : النوع الثانى من سجاجيد هولبين
أسبانيا – القرن ١٥ م



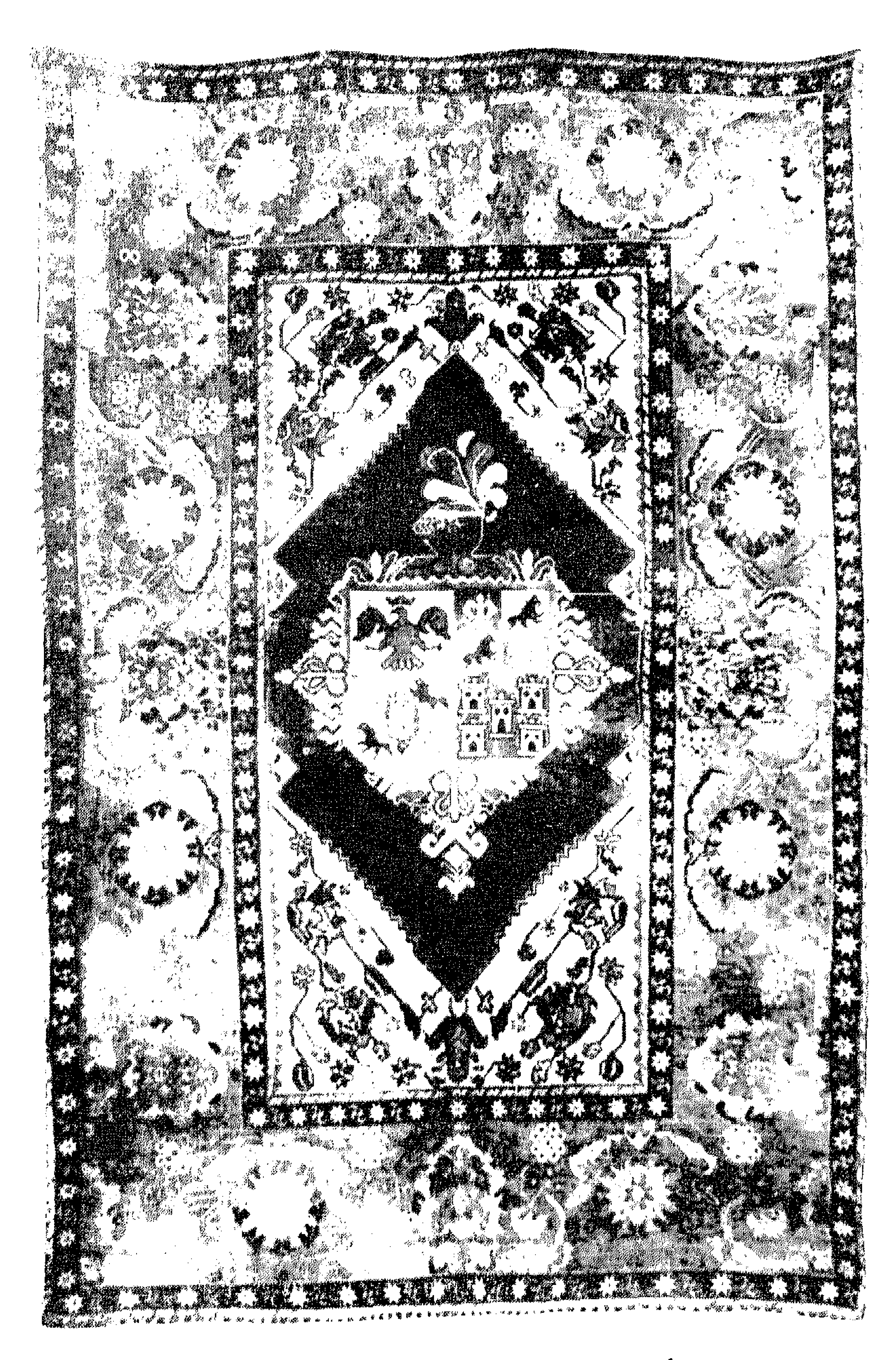
شكل ١٥ : سجادة مملوكية – القرن ١٦ م



شكل ١٦ : سجادة من سجاجيد هولبين . يظهر بها التأثير القوطى فى زخارف الإطار
أسبانيا — القرن ١٥ م



شكل ١٧ : سجادة أسبانية من القرن ١٧ م . يتضح بها التأثير الإيراني في الزخرفة



شكل ١٨ : سجادة أسبانية من القرن ١٧ م يظهر بها التأثير التركى فى التصميم والزخرفة

الأمبراطور فردريك الثانى والشرق العربى

ليس أطرف فى دراسة التاريخ من معالجة موضوع يجمع بين الشرق والغرب ؛ وفى الوقت نفسه ليس أخطر فى التاريخ من معالجة مثل هذا الموضوع لأنه يتطلب إلماماً واسعاً بالمراجع الشرقية والغربية سواء ، وقدراً كبيراً من الحرص عند مقارنة ما يرد فى المراجع الشرقية بما يرد فى المراجع الغربية ؛ وفوق هذا وذاك فإن معالجة هذا النوع من الموضوعات التاريخيـة يتطلب تقديراً لظروف الشرق وظروف الغرب وعقلية الشرق وعقلية الغرب وطبيعة الشرق وحضارته وطبيعة الغرب وحضارته . . . .

وتاريخ الإمبراطور فردريك الثانى مثل بارز لهذا النوع من الموضوعات ، فقد اعتلى عرش الأمبراطورية المقدسة فى النصف الأول من القرن الثالث عشر أى فى عصر ملىء بالأحـداث بالنسبة للغرب الأوربى وبالنسبة للشرق العربى ثم بالنسبة للعلاقات بين الشرق والغرب . ويكفى أن نذكر ذلك العصر بالذات شهد فى غرب أوربا دوراً من أعنف أدوار النزاع بين البابوية والأمبراطورية أو بين السلطتين الدينية والعلمانية من أجل سيادة العالم[1] ؛ وشهد فى الشرق العربى التطورات السريعة التى ألمت بمصر والشـام عقب وفاة صلاح الدين ؛ كما شهد الاتصال القوى الشديد بين الشرق والغرب وهو الاتصال الذى اتخذ طابعاً حربياً عنيفاً فى صورة الحروب الصليبية مثلما اتخذ طابعاً فـكرياً سلمياً فى صورة ازدياد النشاط التجارى بين الشرق والغرب فضلا عن إقبال الغرب الأوربى على علوم العرب وحضارتهم وامتصاص كل ما أمكن امتصاصه من رحيق الفـكر العربى والحضارة العربية عن طريق الترجمة والنقل والمحاكاة .

---

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٣٩٨ — ٤٠٩ .

وفى جميع تلك الأوجه المتباينة من النشاط البشرى الذى ساد الغرب والشرق جميعاً فى القرن الثالث عشر، أسهم الإمبراطور فردريك الثانى بسهم وافر ملحوظ، زاد من وقعه وأثره شخصية ذلك الإمبراطور ونشاطه الفكرى وغير الفكرى، مما جعل جمهرة الكتاب والمؤرخين يجمعون على تلقيبه بلقب واحد مشترك هو Stupor Mundi أعجوبة الدنيا(١)، والحق أن فردريك الثانى كان أعجوبة فعلا فى تصرفاته وسلوكه، أعجوبة فى آرائه وأفكاره. وربما كانت مظاهر العجب فى ذلك الإمبراطور لا تبدو أشد وضوحاً وجلاء منها فى علاقته بالعرب والمسلمين، ولا أقل من أن نلقى نظرة سريعة على الظروف التى أحاطت بذلك الإمبراطور فى الغرب الأوربى لنستطيع فى ضوئها أن نفسر تصرفاته إزاء العرب والحضارة العربية.

ولد فريدريك الثانى من أب ألمانى هو هنرى السادس وأم إيطالية هى الأميرة كونستانس وريثه صقلية، ونشأ وتربى وتعلم فى صقلية، وهى الجزيرة التى كانت فى العصور الوسطى بحكم موقعها وتاريخها ملتقى الحضارات العربية الإسلامية والبيزنطية اليونانية والرومانية اللاتينية، فنشأ فيلسوفاً محباً للجدل والرياضيات، يجيد ست لغات منها اللغة العربية، ويتذوق الشعر العربى وغير العربى، هذا كله فضلاً عن مهارته فى السياسة والقانون والعلوم الطبيعية(٢). وقد أفاض جمهرة المؤرخين — العرب والأوربيين سواء — فى وصف حب فردريك للمسلمين وإعجابه بحضارتهم وعلومهم وحياتهم وتقريبه لهم، واستخدامهم فى حاشيته حتى أن المؤذنين المسلمين كانوا يؤذنون عند موعد كل فرض فى معسكره. وذكر المقريزى أن فردريك كان « عالماً متجراً فى علم الهندسة والحساب والرياضيات »، وأنه بعث من صقلية للسلطان الكامل الأيوبى بعدة مسائل مشكلة فى الهندسة

---

(١) Bryce: The Holy Roman Empire, pp. 203-204.

(٢) Kantorowicz: Frederiĉk the Second, pp. 293-295.

والحكمة والرياضة ، فعرضها السلطان على الشيخ علم الدين قيصر المنفى — المعروف باسم تعاسيف — وأرسل جوابها إلى الأمبراطور(١) .

ولكن إذا كان فردريك الثانى قد نشأ تلك النشأة الغريبة التى ليس لها مثيل فيمن سبقه أو تبعه من أباطرة الدولة الرومانيـة المقدسة ؛ فإن هناك وجهاً للشبه بينه وبين أسلافه من أباطرة تلك الإمبراطورية فى الغرب ؛ وأعنى بذلك التشابه اشـتراك فردريك الثانى فى معركة الصراع بين البابوية والإمبراطورية بل إنه الإمبراطور الذى اختتم قصـة النزاع مع البابوية وأسهم فى آخر حلقاتها فى العصور الوسطى . حقيقة إن البابوية ساعدت فردريك الثانى فى الحصول على حقه فى عرش الإمبراطورية وأيدته حتى تم له القضاء على خصمه ومنافسه أوتو الرابع سنة ١٢١٤ وتوجته أمبراطوراً سنة ١٢٢٠ فى روما(٢) . ولكن الأمبراطور الجديد فردريك الثانى سرعان مانسى كل ذلك ولم يعد يذكر إلا شيئاً واحـداً هو أنه خليفة قيصر وأوغسطس وشارلمان وأنه بناءاً على ذلك يعتبر الزعيم الأوحد للعالم بوصفه ممثلاً للسلطة الإمبراطورية العليا ، وأن الكنيسة ورجالها وعلى رأسهم البابا يجب أن يعترفوا له بالسمو والزعامة . وهكذا لم يكتف الأمبراطور فردريك الثانى بتوطيد مركزه فى صقلية وجنوب إيطاليا بل أخذ يعمل على تأكيد سلطاته على المدن اللمباردية فى شمـال إيطاليا مما هدد بوقوع الأملاك البابوية بين شقى الرحى وجعل البابا ينظر إلى سياسة فردريك الثانى بعين ملؤها الشك والخوف مما سيتمخض عنه المستقبل(١) .

وكان ذلك سنة ١٢١٥ عند تتويجه بمدينة أكس عندما وعد فردريك — لأول مرة — بالقيـام على رأس حملة صليبية إلى الشرق ثمناً للمساعدة التى لقيها من البـابوية فى الوصول إلى حكم الإمبراطورية وفى سنة ١٢٢٠ جدد

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٣٢ .

(٢) Barraclough : The Origins of Modern Germany, p. 214 & Tout : The Empire and the Papacy, pp. 364-365.

الأمبراطور وعده الصليبي عند تتويجه أمبراطوراً بمدينة روما ، ولـكن السنوات أخذت تمر والأعوام تتوالى دون أن يقوم الإمبراطور بحملته المزعومة ، فى وقت كانت البابوية تتوق إلى ارسال حملة صليبية قوية لتحقق ما أخفقت فى تحقيقه الحملات الصليبيةالسابقة(٢) . على أن مماطلة الأمبراطور فردريك الثانى فى الخروج لمحاربة المسلمين أمر يسترعى الانتباه ولا يسعنا تفسيره إلا فى ضوء تخوف الأمبراطور من أن يترك الغرب من ناحية وحرصه على ألا يدخل فى حرب ضد المسلمين من ناحية أخرى . أما عن الجانب الأول فإنه لايخفى علينا أنه كان من المجازفة بالنسبة لفردريك أن يترك أمبراطوريته المقدسة فى ألمانيا وإيطاليا وصقلية فى الوقت الذى اشتدت سطوة كبار أمراء الإقطاع فى ألمانيا وتألبت المدن اللمباردية ضد الإمبراطور فى شمال إيطاليا ؛ وتربصت البابوية للأمبراطور وأرادت أن تحل به الـكوارث فى ألمانيا وإيطاليا جميعاً(٣) .

وأما بالنسبة لعدم رغبة فردريك الثانى فى الدخول فى حرب ضد المسلمين فهذا أمر ثابت لايستبعد على إمبراطور عرف بالتسامح الدينى الشديد فى عصر طفح بروح التعصب الدينى ؛ وعرف بحبه للمسلمين بل للاسلام ، زمن اشتدت كراهية الغرب الأوربى للعروبة والإسلام . وقد أفاض جمهرة المؤرخين العرب والأوربيين فى وصف حب فردريك الثانى للمسلمين وحضارتهم ، بعدما لمسوه من تصرفاته وأقواله . فالقاضى جمال الدين بن واصل يقول عن فردريك الثانى « وكان مايلاً إلى المسلمين لأن مقامه فى الأصل ومرباه بلاد صقلية . . . وأهل الجزيرة غالبهم المسلمين »(٤) . ثم إن أفعال الإمبراطور نفسه عندما حضر إلى الشام كانت خير دليل على شعوره تجاه الإسلام والمسلمين . من ذلك أن فردريك

---

(١) Banaclough: op.cit., pp. 222-228.

(٢) Cam. Med. Hist. vol., 6, pp. 144-146.

(٣) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٤٠٣ — ٤٠٤ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٢٥٢ ب (مخطوط) سنة ٦٢٥ هـ .

حرص أثناء وجوده فى بيت المقدس على زيارة المسجد الأقصى،وهناك أطال البقاء حتى يحل موعد الصلاة ويسمع آذان المسلمين ، ولـكنه لم يسمع شيئاً . ولما استفسر عن السبب فى ذلك قيل له أن السلطان الـكامل أصدر أوامره إلى المؤذنين فى بيت المقدس بعدم إقامة الأذان طيلة وجود الأمبراطور بالمدينة ، وذلك « إعظاماً الملك واحتراماً له » . وعندئذ استاء فردريك والتفت إلى مرافقه شمس الدين قاضى نابلسى وقال له « أخطأت فيما فعلت ؛ والله إنه كان أكبر غرضى فى المبيت بالقدس أن أسمع آذان المسلمين وتسبيحهم فى الليل ! »[١] .

وهنا يصح أن أضيف سبباً آخر دفع فردريك الثانى إلى التقرب من المسلمين والإسلام ، هو كرهه للبابوية والـكنيسة الغربية ، تلك الـكنيسة التى ناصبت آباءه وأسـلافه العداء والتى كرست جهودها لسحق الإمبراطورية وسلطانها فى الغرب . وقد ظهر هـذا الشعور أيضاً أثناء وجود فردريك الثانى فى الشام ، إذ يروى ابن واصل أنه سأل الأمير فخر الدين عن الخلافة الاسلامية وحقيقـة مركز الخليفـة عند المسلمين ، فأجاب الشيخ فخر الدين بأن الخليفة ينحدر من نسل العباس عم الرسول وأنه بناءاً على ذلك يمت إلى الرسول بصلة القربى ، مما يخوله حقاً شرعياً فى حكم المسلمين . وعندئذ أجاب فردريك بأن هذا هو المنطق السليم ، لا مثل البابا الدجال الذى لا تربطه أية رابطة بالمسيح ومع ذلك يدعى الحق فى حكم المسيحيين . وقد دفع هذا السلوك مؤرخاً مثل العينى إلى القول عن فردريك « الظاهر من كلامه أنه كان دهرياً وإنما كان يتلاعب بالنصرانية[٢]

وهكذا لا يستبعد أن تـكون كراهية فردريك الثانى للبابوية والـكنيسة الغربيـة هى التى دفعته إلى حب الإسـلام والمسلمين ، وقد قال بهذا الرأى فولتيير ومنتسكيو[٣] .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٣١ سنة ٦٢٦ هـ .

(٢) العينى : عقد الجمان ؛ حوادث سنة ٦٢٦ هـ .

(٣) Grousset : Hist. des Croisades, III, p. 280.

على أنه إذا كان فردريك الثانى قد أخذ يماطل البابوية طويلا فى تحقيق وعده الصليبى ؛ فإنه لم يستطع أن يستمر حتى النهاية فى تلك المماطلة لا سيما بعد أن استجدت ظروف فى الغرب والشرق شجعت الإمبراطور إلى اتخاذ تلك الخطوة على كره منه . أما فى الغرب فقد سعى البابا هنريوس الثالث إلى إتمام زواج فردريك الثانى من الأميرة يولاند ابنة حنا برين وهى وريثة مملكة بيت المقدس. وكان أن تزوج فردريك فعلا من تلك الأميرة سنة ١٢٢٥ وبذلك ظهر دافع جديد يجعل الإمبراطور يفكر فى الذهاب إلى الشام ليتوج مع زوجته بتاج مملكة بيت المقدس . ويقال إن الإمبراطور أعلن للمرة الثالثة عند زواجه عزمه على القيام بمشروعه الصليبى ، بل حدد سنة ١٢٢٧ لتنفيذ ذلك المشروع(١) .

وثمة سبب قوى شجع الإمبراطور فردريك الثانى على الخروج إلى الشرق هو أن الكامل الأيوبى صاحب مصر أرسل يستعين به ضد الأخطار التى واجهته من ناحية أخيه المعظم ثم من ناحية الخوارزمية الذين هددوا الجبهة الشرقية للدولة الأيوبية . ذلك أن الاتحاد الذى قام بين أبناء العادل الأيوبى الثلاثة — وهم الكامل صاحب مصر والمعظم صاحب دمشق والأشرف صاحب الجزيرة وخلاط — هذا الاتحاد لم يلبث أن انفرط عقده فى نهاية سنة ١٢٢٣ بعد أن تم التغلب على الحملة الصليبية الخامسة وطرد الصليبيين من مصر(٢) . ولم يلبث جشع المعظم عيسى صاحب دمشق أن أدى إلى إثارة العداء بينه من جهة و بين أخوية الكامل والأشرف من جهة أخرى ، فى الوقت الذى تحرك الخوارزمية على أطراف الجزيرة ، مما جعل الأشرف يتناسى الخلاف مع أخيه المعظم ويهرع إليه فى دمشق طالباً للعمل بسرعة على توحيد جبهة البيت الأيوبى ضد ذلك الخطر الجديد . ولكن المعظم استغل الفرصة التى أتيحت له فقبض على أخيه

---

(١) Kantorouwicz; op.cit., p. 139.

(٢) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٢٣ .

الأشرف فى دمشق ، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن تعهد له بمساعدته فى مهاجمة أخيهما الثالث وهو الكامل فى مصر . وقد تعهد الأشرف بكل ذلك ولكنه ما كاد يفلت من يد المعظم حتى فر إلى أخيه الكامل وأكد تحالفه معه ضد المعظم ، وبذلك وضع الأخوان خطة للتخلص من أخيهما المعظم(١) .

على أن وجه الخطورة فى النزاع الذى نشب عندئذ بين أبناء العادل هو أن الفريقين المتنازعين استعانا بقوى خارجية فاستنجد الملك المعظم بالخوارزمية فى حين استنجد الملك الكامل بالإمبراطور فردريك الثانى . وقد أسرع جلال الدين منكبرتى سلطان الخوارزمية بتلبية نداء المعظم فأرسل إليه « خلعه لبسها وشق بها دمشق وقطع الخطبة للملك الكامل »(٢) . أما الكامل فى مصر فقد أرسل إلى الأمبراطور فردريك الثانى فى صقلية مبعوثاً خاصاً هو الأمير فخر الدين يوسف بن حمويه ليطلب من الأمبراطور « أن يحضر إلى الشام والساحل ويعطيه البيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل »(٣). وقد أحسن الأمبراطور فردريك الثانى استقبال الأمير فخر الدين مبعوث الملك الكامل ؛ ومن ذلك الوقت نشأت صلة صداقة وطيدة بين فردريك الثانى من ناحية والأمير فخر الدين من ناحية أخرى ، إذ يبدو أن كلاً منهما أعجب بشخصية الآخر وأخلص له . ثم إن فردريك لم يكتف بأن وعد مبعوث الكامل بالحضور ومساعدته ، بل رد عليه بإرسال سفارة مماثلة إلى مصر معها « هدية سنية وتحف غريبة » فتلقى الكامل رسول الأمبراطور وهديته بالسرور البالغ « وإكرامه إكراماً زائداً » كما اهتم الكامل بإعداد هدية فاخرة للامبراطور « فيها من تحف الهند واليمن والعراق والشام ومصر والعجم »(٤) . وجدير بالذكر أن هذه السفارة الإمبراطورية

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٢٢ .

(٢) العينى : عقد الجمان سنة ٦٢٤ هـ & المقريزى : : السلوك ج ١ ص ٢٢١ — ٢٣٢ .

(٣) (2) Wielt : L'Egypte Arabe, pp. 350-351.

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٢٢ .

اختارت أن تمر فى طريق عودتها إلى الغرب بمدينـة دمشق لتطلب من المعظم تسليم بيت المقدس للامبراطور ؛ ولـكن المعظم أساء مقابلة مبعوث الإمبراطور « وأغلظ له وقال : قل لصاحبك (فردريك) ما أنا مثل الغير (الـكامل) وماله عندى سوى السيف »(١) .

هذا هو الموقف فى الشرق العربى فى الوقت الذى أخـذت البابوية تضغط على فردريك الثانى للقيام بحملته الصليبية ، علّه ينجح فى إصلاح الموقف الناجم عن فشل حملة حنا برين على مصر وهى الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٩ — ١٢٢١) . وإذا كان البابا هنريوس الثالث قد توفى سنة ١٢٢٧ فإن خليفته جريجورى التاسع امتاز بإرادة حديدية رغم تقدم سـنه ، فأبى قبول الأعذار التى طالما انتحلها فردريك الثانى لتأجيل حملته الصليبية وأصر على ضرورة رحيل الإمبراطور فوراً إلى الشرق (٢). وكان أن أبحر الإمبراطور فعلا من برنديزى قاصداً بلاد الشام ، ولـكنه عاد بعد أيام مدعياً المرض ، مما جعل البابا يعتبر المرض تمارضاً ، فأصدر قرار الحرمان ضد الإمبراطور فى أواخر سبتمبر سنة ١٢٢٧ .

وهنا يجدر بنا أن نشير إلى أن توقيع قرار الحرمان على الإمبراطور لم يكن سببه مماطلة فردريك الثانى فى الوفاء بعهـده الصليبى فحسب ، بل أيضاً تخوف البابوية من سياسة ذلك الإمبراطور فى إيطاليا بوجه عام وتجاه البـابوية بوجه خاص(٣) . ومهما كان الأمر فإن هـذا الإجراء فتح باب النزاع على مصراعيه من جديد بين البابوية والإمبراطورية . ويبدو أن البابا جريجورى التاسع كان عنيفاً فى هجومه على الإمبراطور ، الأمر الذى اضطر فردريك الثانى إلى الخروج قاصداً الشرق فى صيف سنة ١٢٢٨ على رأس قوة صغيرة من رجاله ، بعد أن انفض عنه كثيرون نتيجة لقرار الحرمان الصادر ضده(٤) .

---

(١) العينى : عقد الجمان سنة ٦٢٤ هـ .

(٢) (2) Cam. Med. Hist. vol. 6, p. 164.

(٣) Creighton : A Hist. of the Papacy, p. 26.

(٤) Archer : The Crusades, p. 381 & Setton : A Hist. of the Crusades, Aol. 2, p. 451.

وهكذا شاءت الظروف أن تكون الحملة الصليبية السادسة التى تزعمها الإمبراطور فردريك الثانى سنة ١٢٢٨ هى أغرب الحملات وأشدها طرافة فى تاريخ الحركة الصليبية فإذا كانت الحملات الصليبية السابقة واللاحقة قد تزعمها ملوك وأمراء ينعمون بدعاء البابوية وعطف الكنيسة حتى استمد أولئك الزعماء الصليبيون نفوذهم من ذلك العطف والرضاء ، فإن الحملة الصليبية السادسة خرجت إلى الشرق وعلى رأسها إمبراطور ملعون من البابوية مطرود من رحمة الكنيسة منبوذ من المجتمع المسيحى . وإذا كان زعماء الحملات الصليبية قد حرصوا عند خروجهم من الغرب على حشد الجيوش وجمع الجموع الغفيرة استعداداً لمنازلة المسلمين فى الشرق ، فإن الإمبراطور فردريك الثانى لم يصطحب معه عند مغادرته الغرب سوى خمسمائة أو ستمائة فارس وهى قوة لا تكفى للصمود فى معركة محلية صغيرة ضد المسلمين فى الشام . وإذا كانت الحملات الصليبية قد أتت إلى الشرق وهى تفيض بروح الكراهية والتعصب ضد المسلمين والرغبة فى الثأر والانتقام منهم ، فإن حملة فردريك الثانى امتازت بمسحة فريدة من التسامح الدينى ، بل شعور الود والمجاملة تجاه المسلمين .

وتدل جميع الشواهد على أن فردريك الثانى أتى إلى الشام ليفاوض لا ليحارب ، معتمداً على وعود السلطان الكامل له وهى الوعود التى نصت على تسليم بيت المقدس للامبراطور مقابل قيام الأخير « بشغل سر أخيه المعظم[1] » . وهنا نلاحظ أن فردريك الثانى لم يعتمد على وعود الكامل وحده ، وإنما يبدو أنه قام قبل مغادرة الغرب باتصالات واسعة مع غير الكامل من أمراء البيت الأيوبى بالشام بغية إعداد الجو للحصول على بيت المقدس دون عناء . وخير شاهد على ذلك تلك الرسالة التى أوردها القلقشندى وهى عبارة عن خطاب أرسله الملك الجواد أحد أمراء بنى أيوب بالشام إلى الإمبراطور فردريك الثانى رداً

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٢١ — ٢٢٢ .

على رسالة كان فردريك قد بعث بهـا إلى ذلك الملك الأيوبى . وتهمنا الفقرة الأخيرة من رسالة الملك الجواد الأيوبى والتى يقول فيهـا « وأما ما ذكره المقام العالى السلطانى الـكاملى الناصرى ... من أنه لا فرق بين المملـكتين ، فهذا هو المعتقد فى صدق عهده وخالص وده [١] » ... ومن هذا نخرج بنتيجتين هامتـين أولاهما أن مراسلات فردريك الثانى قبل قيامه بحملته الصليبية لم تقتصر على الـكامل وحده وإنما امتدت إلى غيره من ملوك بنى أيوب والنتيجة الثانية هى أن تلك المراسـلات حفلت بروح الود والأخاء هى أن الـكامل أرسل إلى فردريك يخبره بأنه لا فرق بين المملـكتين .

على أن فردريك الثانى لم يكد يصل إلى عكا فى سبتمبر سنة ١٢٢٨ حتى وجد الموقف فى بلاد الشام غير ما كان ينتظر . ذلك أن البابا — للمرة الأولى والأخيرة فى تاريخ البابوية والحروب الصليبية — أخذ يرسل الرسل إلى ملوك بنى أيوب بوجه عام والسلطان الـكامل بوجه خاص محرضاً إياهم على عدم تسليم بيت المقدس للامبراطور. ولا عجب فى هذا الموقف الغريب الذى اتخذته البابوية، إذ كانت المعركة بينهـا وبين الإمبراطورية أهم فى نظرها من المعركة القائمة بين المسلمين والصليبيين فى الشام . وكان البابا جريجورى التاسع يعلم جيداً أنه إذا قدر لفردريك الانتصار فى مهمته واسترداد بيت المقدس من المسلمين فإن ذلك سيكون فى نظر المعـاصرين بمثابة حكم الله للامبراطور المحروم ، وفى هذا فصل الخطاب بين فردريك وجريجورى أو بين البابوية والإمبراطورية .

ثم إنه إذا كان فردريك الثانى قد أتى إلى الشـام بعد أن وضع كل أمله فى وعود السلطان الـكامل بتسليم بيت المقدس ، فإن هذا الأمل انهار فجأة لتغير سياسة الـكامل . ذلك أن المعظم صـاحب دمشق الذى كانت أطماعه

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٧ ص ١١٧ — ١١٨ .

هى السبب فى استنجاد الكامل بفردريك ، كان قد توفى فى أواخر سنة ١٢٢٧ تاركاً إبنه الناصرداود وهو شاب صغير فى العشرين من عمره عديم الخبرة محباً للهو؛ مما مكن الكامل والأشرف من اقتسام أملاك أخيهما المعظم وإعطاء الناصر داود الكرك والشوبك وغيرها من الجهات الثانوية(١) . وما دام الوضع قد استقر بين أبناء البيت الأيوبى على ذلك فإن السلطان الكامل لم يعد فى حاجة إلى فردريك ومعونته . ويصور لنا المؤرخون العرب حيرة السلطان الكامل فى ذلك الموقف لأن فردريك الثانى لم يحضر إلى الشام إلا بناءاً على طلب السلطان ؛ وفى ذلك يقول ابن واصل والمقريزى « تحير الملك الكامل ، ولم يمكنه دفعه ولا محاربته لما كان تقدم بينهما من الاتفاق ، فراسله ولاطفه(٢) . ويبدو أن الكامل أحس بأنه ليس من مصلحته ولا مصلحة البيت الأيوبى أنه يصطدم بالصليبيين بالشام فى تلك المرحلة التى تعرضت بلاد العراق والشام ومصر لتهديد الخوارزمية ومن ورائهم المغول؛ وهذا هو السر فى ملاطفته للامبراطور فردريك . وفى الوقت نفسه أحس الكامل أن أى تساهل مع الصليبيين أو تفريط فى حقوق المسلمين سيثير ضده الرأى العام فى البلدان الإسلامية ، وبخاصة دمشق التى كانت أكثر إحساسا بخطر الصليبيين من غيرها(٣) .

وهكذا ساء موقف فردريك الثانى فى الشرق ، وتذكر أنه خرج من بلاده محروماً من الكنيسة مغضوباً عليه من البابوية ، وأنه اعتمد على وعد الكامل له باعطائه بيت المقدس فى إصلاح مركزه فى الغرب الأوربى . ولو كان فردريك يعلم أن الكامل سينكث بوعده لما خرج إلى الشرق أصلاً ، أو لأستعد استعداداً جدياً لحرب المسلمين وجلب معه جيشاً كبيراً عند خروجه إلى الشرق .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٢٦ & ابن الأثير : الكامل : حوادث سنة ٦٢٥ ﻫ.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٢٥٢ & المقريزى : السلوك ج ص ٢٢٩ .

(٣) Grousset, III, p. 300.

ولكن بعد أن جرت الأمور على ذلك الوضع ماذا يفعل فردريك بالخمسمائة فارس الذين أحضرهم معه ؟ إنه لا يستطيع الاعتماد تماماً على تعاون الصليبيين معه فى بلاد الشام ، لأن أى مسيحى مخلص كان يأبى أن يتعاون مع رجل محروم من الكنيسة مطرود من رحمتها حتى ولو كان هذا الرجل أمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . وإذا هو رجع فاشلاً إلى الغرب ماذا سيكون موقفه بعد أن أعطى البابوية سلاحاً جديداً للتشهير به والإقلال من شأنه ؟ إن المسألة بالنسبة لفردريك الثانى كانت تعنى مستقبل عرشه فى الغرب الأوربى ومستقبل معركته ضد البابوية ، لأن نجاحه فى استرداد بيت المقدس سيكون قبل كل شىء انتصاراً له على البابوية . ويفسر هذا الشعور ما قاله فردريك نفسه فى تلك المرحلة لصديقه الأمير فخر الدين من أنه «ماله غرض فى القدس ولا غيره ، وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج »(١) .

وهكذا لم يبق أمام فردريك الثانى سوى سلاح واحد هو سلاح المفاوضة والاستعطاف واستخدام كل الوسائل الدبلوماسية للوصول إلى غرضه والعودة إلى الغرب الأوربى موضوع الرأس .

لذلك أسرع فردريك الثانى إلى إرسال سفارة من رسولين إلى السلطان الكامل تحمل له هدايا نفيسة من منسوجات حريرية وأوان ذهبية وفضية ، وتطالبه بتحقيق وعده وتسليم بيت المقدس . غير أن الكامل أعلنها فى صراحة أنه كان سيعطى بيت المقدس للأمبراطور ثمناً للمساعدة التى يقدمها له الأمبراطور ضد أخيه المعظم ، أما وقد تبدلت الظروف ومات المعظم واستغنى الكامل عن المساعدة ، فلا داعى للتفريط فى بيت المقدس . ولم تفلح جهود الأمير فخر الدين يوسف مندوب السلطان فى المفاوضات بين الطرفين فى الوصول إلى حل يرضى

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٣٠ .

الإمبراطور والسلطان ، فساء موقف فردريك الثانى لاسيما بعد أن جاءته الأخبار من إيطاليا بأن البابا استغل فرصة غيابه واعتدى على ممتلكاته كما أشاع فى الغرب بأن الأمبراطور مات فى الشام وأنه لا يوجد من يحسن الوصاية على ابن الأمبراطور القاصر سوى البابا نفسه . ولعل هذه الأخبار كانت كافية لدفع فردريك الثانى وهو الأمبراطور العظيم إلى التذلل للسلطان الكامل حتى حكى أنه كان يبكى بكاءاً مراً فى مراحل المفاوضات(١) .

ولا أدل على هـذا الشعور من رسالة أرسلها الأمبراطور فردريك إلى السلطان الكامل أثناء المفاوضات ، ومع ما لهذه الرسالة من أهمية فإن مرجعاً واحداً من المراجع الأوربية أو العربية التى عالجت تاريخ فردريك الثانى لم يشر إليها . وقد جاء فى هـذه الرسالة على لسان الأمبراطور موجهاً خطابه للسلطان « أنا مملوكك وعتيقك وليس لى عما تأمره خروج وأنت تعلم أنى أكبر ملوك البحر . وقد علم البابا والملوك باهتمامى وطلوعى ، فإن رجعت خايباً انكسرت حرمتى بينهم ! وهذا القدس فهى أصل اعتقادهم وضجرهم . فإن رأى السلطان أن ينعم على بقبضـة البلد والزيارة فيكون صدقه منـه ! ويرتفع رأسى بين ملوك البحر »(٢) .

ولم تلبث هـذه الاستعطافات أن نجحت فى التأثير على السلطان الكامل للتنازل عن بيت المقدس لفردريك . ويبـدو أن ما قام به الأمبراطور فردريك أثناء المفاوضـات من تحصين يافا جاء بمثابة مظاهرة عسكرية جعلت الكامل يخشى اتفاق الأمبراطور وبقية الصليبيين بالشام للقيام بعمل حربى مشترك ضـد المسلمين . وقد فسر المقريزى هذا الشعور بقوله إن الكامل « خاف من غائلتـه عجزاً عن مقاومته »(١) .

---

(١) Kantorowicz: Fredrick the Second, p. 185.

(٢) المكتبة الصقلية ج ٢ ص ١٤ (ذيل الباب الثانى والسبعين من كتاب الوافى بالوفيات) .

(٣) السلوك ج ١ ص ٢٣٠ .

ولا شك فى أن المغامرة فى حرب ضد الإمبراطور والصليبيين عندئذ كانت تعنى بالنسبة للكامل وقوعه بين ثلاثة أعداءهم : ابن أخيه الناصر داود من ناحية والصليبيين من ناحية ثانية ثم الخوارزمية وسلطانهم جلال الدين منكبرتى — الذى استنجد به الناصر داود من ناحية ثالثة . وفى ضوء هذه الحقائق كلها وافق الكامل — تحت تأثير الأمير فخر الدين يوسف — على عقد اتفاقية يافا مع الإمبراطور فردريك الثانى فى فبراير سنة ١٢٢٩ . وبمقتضى هذه الإتفاقية تقرر الصلح بين الطرفين لمدة عشر سنوات،على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرة وتبنين وصيدا . وبخصوص بيت المقدس اشترط المسلمون أن تبقى المدينة على ما هى عليه فلا يجدد سورها ، وأن يكون الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى بأيدى المسلمين وتقام فيه شعائر الإسلام(١) .

وهكذا استطاع فردريك الثانى مع ضعف وسائله وإمكانياته أن يحقق من النتائج ما عجز عنه ريتشارد قلب الأسد بجيوشه الضخمة وإمكانياته الكبيرة ، مع ملاحظة أن فردريك حصل على بيت المقدس دون أن يدخل معركة أو يخسر رجلاً واحداً . على أن اتفاقية يافا قوبلت بالسخط الشديد من المسلمين والمسيحيين جميعاً . فمن ناحية المسلمين نجد أن تسليم بيت المقدس على ذلك النحو للصليبيين ، وهى المدينة التى استردها صلاح الدين للمسلمين بعد جهاد عنيف ، أثار موجة عامة من السخط والأسى فى العالم الإسلامى . وقد أسهب المؤرخون العرب فى وصف ألم المسلمين لضياع بيت المقدس وكيف أقيمت المآتم والجنازات فى المدن الكبرى مثل دمشق واشتد بكاء الناس وصريخهم ، كما « اشتد الإنكار على الملك الكامل وكثرت الشناعات عليه فى سائر الأقطار »(٢) . وسرعان ما أحس السلطان الكامل أنه « تورط مع ملك الفرنج » على قول المقريزى ، فحاول أن يهون

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٣٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٦٢٦ هـ & المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٣١ & العينى : عقد الجمان سنة ٦٢٦ هـ & أبو الفدا المختصر سنة ٦٢٦ هـ .

من أمر تسليم بيت المقدس للصليبيين ويبرر مسلكه فقال « إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس وأدر خراب والمسجد على حاله ، وشعار الإسلام قائم ، ووالى المسلمين متحكم فى الأعمال والضياع » ! . أما الإمبراطور فردريك فقد أحس من جانبه بما سببه من حرج للسلطان الكامل فاعتذر للأمير فخر الدين » بأنه لولا يخاف انكسار جاهه ما كلف السلطان شيئاً من ذلك(١) » .

ولم يكن المسلمون وحدهم هم الذين أظهروا استياءهم من هذه الإتفاقية ، بل غضب الصليبيون أيضاً فى الشام وفسروا غضبهم بصور شتى . فبعضهم قال إن كرامة المسيحية كانت تتطلب أخذ بيت المقدس بحد السيف لا عن طريق الاستجداء والاستعطاف مثلما فعل فردريك الثانى ! لا سيما وأنه ترتب على حصول الصليبيين على القدس بالطرق السلمية أن المسلمين احتفظوا بكثير من حقوقهم فيها واستبقوا لأنفسهم المسجد الأقصى وقبة الصخرة وهو ما لا يجب أن يكون !(٢) والبعض الآخر قال بأنه لا قيمة لحصول المسيحيين على بيت المقدس بدون الأردن والكرك ، وأنه لو أن المسيحيين رأوا أن هذا الحل مقنعاً لرضوا به عندما عرضه الكامل على الصليبيين فى مصر أيام الحملة الصليبية الخامسة ، ولكنهم رفضوه عندئذ لأنهم أدركوا أنه لابد من إحياء مملكة بيت المقدس كاملة بما فيها أراضى الأردن(٣) . أما الداوية والاسبتارية فقالوا أنه لا قيمة لأى عمل أو نجاح يحققه الأمبراطور ، ما دام ذلك الإمبراطور محروماً من الكنيسة مطروداً من رحمتها ، هذا فضلاً عن غضب الداوية لأن الإمبراطور سمح للمسلمين بالاحتفاظ بالمسجد الأقصى الذى كان مركزاً للداوية فى القدس حتى عام ١١٨٧(٤) .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٣٠ .

(٢) Stevenson: The Crusades, p. 313.

(٣) Runciman: A History of the Crusades, III, p. 188.

(٤) Setton: op.cit., II, pp. 426-427.

وعندما علم جيرولد بطرق بيت المقدس أن الأمبراطور فردريك الثانى ينوى زيارة المدينة ، وقع قرار الحرمان على القدس نفسها وعلى كل من يستقبل الأمبراطور فيها من سكانها المسيحيين . ومع ذلك فقد شق الأمبراطور طريقه إلى بيت المقدس ليتسلمها من مندوب السلطان ، وعندما رفض أحد من رجال الكنيسة أن يتوج الأمبراطور فى كنيسة القيامة لأنه محروم ؛ أمسك فردريك الثانى التاج بيده ووضعه على رأسه . ويرى بعض المؤرخين أن فردريك الثانى قصد أن يتوج نفسه بيده فى كنيسة القيامة ، ليعلن فى ذلك المكان العالى أنه لم يتسلق التاج الأمبراطورى عن طريق أحد من رجال الدين ، وأن الأمبراطور يتسلم سلطانه من الله مباشرة دون وساطة مخلوق[١] . وهذا تفسير له دلالته فى قصة النزاع بين البابوية والأمبراطورية . وجدير بالذكر أن الأمبراطور فردريك الثانى قام بكثير من الأعمال والتصرفات أثناء إقامته ببيت المقدس التى أثارت دهشة المسلمين والمسيحيين سواء . من ذلك أن فردريك الثانى رأى قسيساً بيده الإنجيل يهم بدخول المسجد الأقصى ، فزجره الأمبراطور وطرده وهدد كل من يدخل المسجد الأقصى من الفرنج بغير إذن وقال « إنما نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده ، وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الإنعام منه ، فلا يتعدى أحد منكم طوره ! »[٢] .

ومهما يكن من أمر فإن إقامة الأمبراطور فردريك الثانى لم تطل فى بلاد الشام ، لأن مصالحه فى الغرب كانت أهم بكثير فى نظره من مصالح الصليبيين فى الشرق . لذلك أبحر فردريك الثانى من عكا فى أول مايو عام ١٢٢٩ قاصداً قبرص حيث قضى عدة أيام ثم بارحها إلى إيطاليا فوصلها فى ١٠ يونيو عام ١٢٢٩ . وبذلك انتهت تلك الحملة الصليبية التى اتصفت بالغرابة من بدايتها حتى نهايتها . ومهما

---

(١) Kantorowiez: Frederick the Second, p. 199.

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٣١ .

يقال فى أمر فردريك وتصرفاته فإنه لا يمكن إنكار الكسب الكبير الذى حققته المسيحية باسترداده بيت المقدس . وهنا نشير إلى نقطة لم تهتم بها المراجع التى عالجت تاريخ فردريك الثانى وحملتــه الصليبية ، هى أنه ما كان لذلك الإمبراطور أن يصل إلى ما وصل إليه من نجاح فى حملته الصليبية لولا أن الظروف شاءت أن يكون على رأس البيت الأيوبى فى مصر والشام عندئذ سلطان اتفق مع فردريك الثانى فى طباعه وكثير من صفاته . فإذا كانت المراجع قد أجمعت على حب فردريك للعلم والعلماء ، وعلى حرصه على مجالسة رجال العلم واشتغاله بالرياضيات والحكمة فإن ابن واصل والمقريزى يذكران عن السلطان الكامل أنه « كان يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم ... وكان يناظر العلماء وعنده مسائل غريبة من فقه ونحو يمتحن بها فمن أجاب عنها قدمه وحظى عنده ... وكانت تبيت عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم ... فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريره ليسامروه »(١) . وإذا كانت المراجع قد أسهبت فى وصف تسامح فردريك الثانى وعدم تعصبة ، فإن الكامل أيضاً اشتهر بتسامحه المطلق وبعــده عن التزمت ؛ وهو التسامح الذى بلغ حــد التفريط فى بيت المقدس وإصدار الأوامر المشددة إلى المؤذنين فى المسجد الأقصى بعدم إحياء أذان الصلاة طيلة مدة بقاء الإمبراطور فى المدينة حرصاً على شعوره(٢) .

وهكذا نستطيع أن نقرر أنه لولا التوافق الشديد بين الكامل وفردريك فى الطباع والميول والعقليــة لتعذر على الأمبراطور فردريك الثانى أن يصل إلى ما وصل إليه من نتائج بتلك السهولة .

وخير ما يثبت أن العلاقة بين الكامل وفردريك لم تعد علاقة مصالح متبادلة، وإنما أدى التقارب النفسى والفكرى بين الرجلين إلى نوع من الصــداقة ، أن

---

(١) ابن واصل ج ٢ ورقة ٢٢٦ & المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٥٨ — ٢٥٩ .
(٢) العينى : عقد الجمان ؛ ج ١٨ قسم ١ ص ٨٢ — ٨٣ .

العلاقات بينهما لم تتوقف برحيل فردريك إلى الغرب ، وإنما تمسك كل منهما بصداقة الآخر وظلا حتى النهاية خير مثال للصديقين الوفيين . ويقال إن فردريك بعد عودته إلى الغرب كان لا يفتأ يردد أمام أصدقائه « إن صديقى السلطان المسلم أثمن لدى من أى شخص آخر ما عدا ولدى الملك كونراد » كذلك كان من ألقابه التى اعتز بها دائما « فردريك هو هنشتاوفن صديق الملك المسلم » . ويقال إنه فى أخريات أيام حياته كان كلما وقع فى ضيق يتنهد قائلاً « آه لو كان صديقى الكامل على قيد الحياة ! »[٢] .

ثم إن هذه الصداقة بين فردريك والكامل استمرت تعبر عن نفسها عملياً بعد عودة فردريك إلى الغرب . من ذلك ما يرويه أبو المحاسن من أن فردريك أرسل إلى السلطان الكامل عام ١٢٣٣ عدة هدايا « فيها دب أبيض وشعره مثل شعر السبع ينزل البحر فيصعد بالسمك فيأكله ومعه أيضاً طاوس أبيض »[٣] .

وقد استمرت الصداقة قائمة بين فردريك الثانى وسلاطين مصر بعد وفاة الكامل . من ذلك ما أشارت إليه المراجع من أن الإمبراطور فردريك حرص على تحذير الصالح أيوب عندما علم بنية لويس التاسع ملك فرنسا بتوجيه الحملة الصليبية السابعة ضد مصر عام ١٢٤٩ . والغريب أن جميع المؤلفات العربية التى صدرت فى السنوات الأخيرة عند حروب لويس التاسع فى مصر والشرق اكتفت بالإشارة إلى ماوردته المراجع الأوربية من أن فردريك حذر الصالح نجم الدين أيوب من نية الملك الفرنسى فى مهاجمة مصر ، وخلت جميع هذه المؤلفات من إشارة إلى ورود هذا التحذير فى مرجع من المراجع العربية المعاصرة . ويسرنى أن أشير إلى أننى عثرت أخيراً على نصوص صريحة فى بعض المراجع العربية المعاصرة تؤيد ماورد فى المراجع الأوربية من قيام الأمبراطور فردريك

---

(١) Kantorowicz: Frederick the Second, p. 192.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٨٣ .

بتحذير السلطان الصالح . ومن ذلك ما يقوله المقريزى بالحرف الواحد « ونزل (السلطان الصالح نجم أيوب) بقلعة دمشق ، فورد عليه رسول الإمبراطور ملك الفرنج الألمانية بجزيرة صقلية فى هيئة تاجر ، وأخبره سراً بأن بواشن الذى يقال له رواد فرنس (لويس التاسع) عازم على المسير إلى أرض مصر وأخذها ؛ فسار السلطان من دمشق وهو مريض فى محفة ونزل بأشموم طناح فى المحرم سنة سبع وأربعين »(١) .

ومن الواضح أن هذا النص العربى يؤيد صحة الرواية التى وردت فى الوثائق اللاتينية الغربية من قيام فردريك بتحذير الصالح نجم الدين أيوب فعلاً مما يدل على استمرار الصلات الودية بين الإمبراطور فردريك الثانى وحكام الشرق العربى حتى وفاة ذلك الإمبراطور فى منتصف القرن الثالث عشر .

سعيد عبد الفتاح عاشور

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ؛ ج ١ ص ٢١٩ (طبعة بولاق) كذلك ذكر سبط ابن الجوزى ما نصه « إذ كانت الأخبار تتواتر إلى الملك الصالح بحركة ريد افرنس من جهة الانبرور ملك بلاد الانبردية وانبولية ، فإنه كان مصافياً للملك الكامل أبيه فكذلك له » . (المكتبة الصقلية ج ٣ ص ٥١٧) .

سلطنة دارفـور

تاريخها و بعض مظاهر حضارتها

شهد القرن السابع عشر الميلادى ، قيام سلطنة إسلامية فى إقليم دارفور ، ولم تلبث هـذه السلطنة — التى عرفت باسم هذا الإقليم — أن احتلت مكاناً بارزاً بين مجموعة الممالك السودانية الإسلامية ، الواقعـة على طول نطاق السافانا ، بين الصحراء الـكبرى ومصر فى الشمال ، و بين الغابات الاستوائية فى الجنوب . وتمتد من البحر الأحمر شرقاً ، إلى المحيط الأطلنطى غرباً ، وتشمل ممالك سنار ، وكردفان ، ودارفور ، ووادای ، و بجرمى والـكانم — أو برنو ، وممالك الهوسا ، ثم مملـكة مالى .

ويتصف الإقليم الذى قامت فيه سلطنة دارفور بصفات طبيعية خاصة ناشئة من الوضع الجغرافى لهذا الإقليم . ففى الشمال ، ينتهى إقليم دارفور عند الصحراء الليبية ، وهـذه الصحراء تمتد إلى البحر المتوسط ، فى مساحات غـير ذات ماء أو زرع ، تمثل حاجزاً مانعاً لامتداد الفور شمالاً ، ماعدا بعض الواحات الجنوبية ، التى استطاع الفور الوصول إليها ، و بسط نفوذهم عليها فى بعض الأحيـان . وفى شرق إقليم دارفور ، سلسلة عريضة من التلال الرملية تعرف بالأقواز ، وهذه تحجز بينها و بين جارتها كردفان . وفى جنوبى دارفور حاجز من نوع آخر ، هو بحر العرب ، والمنطقة التى ينتشر فيها ذباب تسى تسى ، وهـذه المنطقة تمنع الفور من الانتشار فى هذا الاتجاه . أما من الناحية الغربية من إقليم دارفور ، فليس بينها وبين المساحات الممتدة غرباً مثل ، وادای ، و بجرمى ، ومنطقـة تشاد ، حواجز جغرافية ، ولا فروق جوية أو نباتية ، بل خضعت حدود دارفور من تلك الناحية ، إما لعوامل سياسية أو قبلية(١) .

---

(١) Lampen, G.D.: "History of Darfur". S.N.R., XXXI, part II, pp. 177-178.

وينقسم إقليم دارفـور من حيث التضاريس إلى ثلاث مناطق عرضية : ففي الشمال منطقة برارى وسهوب ، تتخللها تلال وأودية ذات أشجار وأعشاب ، وأهلها من البـدو وأشباه البدو ، وقوام حياة هؤلاء وأولئك الجمل . وفي الوسط منطقة جبلية ، أكثر مطراً ، بالقياس إلى المنطقة الشمالية وتقوم حياة أهلها على الزراعة . وفي الجنوب منطقة رعوية ، كثيرة الأمطار ، وقوام حياة أهلها تربية الماشية . ولعل أبرز ظاهرة طبيعية في إقليم دارفور ، هي سلسلة جبال أشهرها جبل مرة ، وهذه تخترق البلاد من الشمال إلى الجنوب ، وتصل أعلى قممها في الجنوب إلى عشرة آلاف قدم فوق سطح البحر(١) .

ويؤدى إلى إقليم دارفور ، طريقان صحراويان : أولهما درب الأربعين من أسيوط ، وثانيهما الطريق الليبي والطرابلسي ، ويستغرق نيفاً وأربعين يوماً . وظل هذان الطريقان ، وسيلة الاتصـال التجارى والحضارى ، فيما بين دارفور ومصر وطرابلس ، عبر الأجيال والعصور ، حتى العصر الحديث ، حيث امتدت السكة الحديدية من الخرطوم إلى الأبيض ، وأخيراً إلى نيالا ، فتغيرت وسائل النقل ، وبطل استعمال هذين الطريقين القديمين(٢) .

ويتصف إقليم دارفور كذلك بصفات بشرية خاصـة منشؤها ، تعـدد سلالاته ، واختلاف ثقافات سكانه ، ذلك أن هـذا الإقليم تتنازعه سلالات بشرية مختلفة ، بعضها قديم ، وبعضها الآخر مهاجر إليه من الشمال أو من الشرق أو من الغرب ، مما أدى إلى تعقيده جنسياً وثقافياً ، ولو أنه شملت جميع سلالاته تقريباً ، الثقافة العربية ، والديانة الإسلامية . غير أن تأثر سلالاته بالثقافة العربية والديانة الإسلامية ، تختلف عمقاً وسطحية من سلالة إلى أخرى حسب نشأة كل

---

(١) Ibid : Op.Cit., p. 178.
C/f. Arkell, A.J. : 'The History of Darfur'. S.N.R. XXXII, part I, pp. 38-39.

(٢) Balfour - Paul, H.G. : History and Antiquities of Darfur p. 2.
Lampen, G.D. Op.Cit., p. 178.

منها ، ومدى قدمها أو قرب عهد هجرتها واختلاطها بالعرب الطارئين . ويبدو مدى التعقيد الجنسى والثقافى فى إقليم دارفور ، إذا علمنا ، أنه يشتمل على نحو ثمانى عشرة سلالة غير عربية[١] . تتحدث إثنتا عشرة لغة مختلفة ، بالإضافة إلى اللغة العربية ، التى تعرفها الغالبية العظمى من سكان دارفور[٢] .

ومما لا شك فيه أن الفور هم أصحاب البلاد الأصليون ، ويستقلون بالمنطقة الجبلية الوسطى ، وبها جبل مرة[٣]. ومنذ حوالى القرن السابع الميلادى ، وفد على هذا الإقليم قبائل من الشمال عن طريق النيل من ناحية ، وعن طريق الصحراء من ناحية أخرى . فمن ناحية النيل جاءت جماعات نوبية من الميدوب والبرقد ، على حين جاءت جماعات ليبية من البدايات والزغادة من شمال إفريقيا. واستطاعت هذه القبائل النوبية والليبية ، بفضل ما امتازت به من الغلبة العقلية ، وما لديها من وسائل حربية جديدة ، أن تطرد جماعات السود إلى الجبال ، وأن تقيم فى هذه المنطقة ممالك خاصة ، وأدت هذه الهجرات الشمالية كذلك إلى ازدياد تجارة الرقيق ، كما يشير إلى ذلك الإدريسى المتوفى سنة ١١٥٣ م[٤] .

أما الهجرات العربية الرئيسية إلى هذا الإقليم ، فيبدو أنها جاءت من مصر وشمال إفريقيا ، عبر السهوب والبرارى الواقعة بين النوبة وإقليم تشاد ، وذلك بعد أن قامت فى مصر وشمال إفريقيا دول إسلامية مستقلة كالطولونيين والإخشيديين ، والأدارسة والفاطميين والمماليك ، وبنى مرين ، وبنى حفص . والمعروف أن القبائل العربية التى هاجرت إلى إقليمى كردفان ودارفور ، كانت تحترف رعى الإبل ، ولما انتقلت جماعات منها إلى الجنوب ، لم تلبث أن استبدلت

---

(١) MacMichael, H.A. : A History of the Arabs in;the Sudan Vol'I . pp. 52-89, Lampen, G.D. Op.Cit., p. 181

(٢) Arkell, A.J. : Op.Cit., p. 51.

(٣) MacMichael, H.A. : Op. Cit., p. 91.
Lampen, G.D. : Op ·Cit., pp. 181-182.

(٤) C/f. Balfour — Paul, H.G. : Op. Cit., p. 7.

البقر بالإبل ، ومن ثم عرف هؤلاء بالبقارة ، على حين ظل أبناء عمومتهم في الشمال يرعون الإبل(١) .

وعلى الرغم من أن قبائل البقارة والأبالة في كردفان ودارفور ، تضم بطوناً من قبائل عربية من غير جهينة ، إلا أنه غلب عليهم جميعاً النسب إلى جهينة(٢). والمعروف أن الأقاليم التي احتلتها القبائل الجهنية وغيرها لم تكن خالية من السكان ، بل اشتملت على عناصر حامية في الشمال وعناصر زنجية أو شبه زنجية في الجنوب . ولذا فإن اختلاط القبائل الجهنية من الأبالة بالعناصر الحامية في الشمال ، لم يؤثر كثيراً في صفاتها الجسدية ، على حين أن القبائل الجهنية ، التي انتقلت جنوباً ، وهي البقارة ، اكتسب أفرادها بعض الصفات الزنجية ، لاتخاذهم زوجات وإماء من الزنجيات . ومع أن البقارة لم يكونوا أقوى عنصر في دارفور فإنهم استطاعوا أن يشطروا هذا الإقليم شطرين ، فاحتلوا السهول الواقعة جنوبي جبال مرة ، وحصروا الفور شمالاً في منطقة الجبال ، حيث بقوا أجيالاً بعد أجيال ، على حين دفعوا قبائل الشط والبنجا والبندا والفروجية جنوباً إلى إقليم المستنقعات شمالي بحر الغزال ، حيث عرفوا باسم الفرتيت(٣) .

وعلى هذا يمكن تقسيم سكان دارفور الحاليين إلى مجموعتين : إحداها وهي المعروفة بالمجموعة غير العربية ، والأخرى هي المجموعة العربية . أما المجموعة الأولى ، فإنها تضم — فضلاً عن الفور أهل البلاد الأصليين الذين يسكنون المنطقة الجبلية الوسطى — المساليط والإرنجا والقمر في الغرب ، والرغاوة والقرعان والبدايات في الشمال ، والميدوب في الشمال الشرقي ، والبرتي والبرقد في الشرق ، والداجو والبيقو في الجنوب الشرقي ، والفلاتا في الجنوب ، والتنجور في الوسط(٤).

---

(١) Lampen, G.D. . Op. Cit., p. 182.

(٢) راجع محمد عوض : السودان الشمالي ، ص ٢٠٩ — ٢٥٠ .

(٣) Lampen, G.D.: Op. Cit., pp. 182-183.

(٤) Balfour-Paul, H.G.: Op. Cit., pp. 7-8.
C/f MacMichael, H.A.: Op. Cit., pp. 52-91.

أما المجموعة العربيــة فإنها احتلت السهول وتضم الهبانية والرزيقات والمسيرية والتعايشة و بنى هلبة والماليا فى الجنوب ، والحمر فى الشرق ، والزيادية فى الشمال والماهرية والمحاميد و بنى حسين فى الغرب[١] .

* * *

أما عن تاريخ هذه البلاد ، فليس لدينا عنه شيء مكتوب ، ومن ثم فإن المعلومات القليلة التى وصلت إلينا خاصــة بتاريخها ، تعتمد أساساً على الروايات الشفوية التى حفظها أهل البــلاد جيلاً بعد جيل[٢] . وهى روايات يكتنفها التناقض أحياناً ، والغموض أحياناً أخرى ، ولذا تعين على الباحث فى تاريخ دارفور ، الرجوع إلى ماسجله عن تاريخها ومظاهر حضارتها ، الرحالة الذين زاروا هذه البلاد فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاد .

وأول أولئك الرواد الذين زاروا إقليم دارفور ، الرحالة الانجليزى براون W. G. Browne[٣]. وذلك فى عهــد سلطان دارفور السلطان عبد الرحمن الرشيد . وسلك براون فى رحلته إلى دارفور طريق درب الأر بعين من أسيوط إلى الفاشر ، وظل فى دارفور نحو ثلاث سنوات ، من يوليو سنة ١٧٩٣م إلى مارس سنة ١٧٩٦م ، إلا أنه ظل فى أثنائها شبه سجين ، فلم يسمح له بالتجول فى البلاد ، أو جمع معلومات عنها بسبب ارتياب السلطان فى نواياه باعتباره أور بياً مسيحياً ، وفى المهمة التى من أجلها جاء هذا الأوربى المسيحى إلى دارفور . ثم أن براون لم يعثر فى دارفور على تاريخ مدون لهذه البلاد ، ولذا جاءت المعلومات التى استطاع الحصول عليها من أهلها قليلة سطحية ، يشوبها الاضطراب وعدم العمق ، وذلك باستثناء بعض ملحوظات خاصة بأحوالها الاقتصادية وقتذاك[٤].

---

(١) محمد عوض محمد : السودان الشمالى ص ٢٣٨ — ٢٥٠ .

(٢) Batrh, H. Travels in Central Africa Vol. III, p. 425.

(٣) Browne, W.G.: Travels in Africa, Egypt and Syria.

(٤) Arkell, A.G.: Op. Cit., p. 40.

و بعد حوالى سبع سنوات من رحلة براون إلى دارفور ، أى فى عام ١٨٠٣م زار هذه البـلاد رحالة عربى ، هو محمد بن عمر التونسى ، وأتيح للتونسى أن يلم إلماماً واسعاً بأحوال دارفور الاجتماعيـة والاقتصادية ونظمها السياسية والإدارية والحربية ، وعلاقاتها بجيرانها ، فضلاً عن ذكر تاريخها فى كتابة القيم : « تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان »(١) .

وفى المدة من عام ١٨٤٩م إلى عام ١٨٥٥م قام الرحالة المعروف هنرى بارث Henry Barth برحلته المشهورة من طرابلس الغرب إلى بحيرة تشاد ، وقد ارتاد خلال هذه المدة بلاد السودان ما بين تمبكت و بجرمى . والمعروف أن بارث لم يقم بزيارة دارفور أو واداى ، ولـكنه استطاع — أثناء مقامه فى برنو — أن يجمع نتفاً قليلة عن تاريخ هـذه الأقاليم ، معتمداً فى ذلك على بعض الروايات الشفوية التى نقلها عن أهل البـلاد أنفسهم ، فضلاً عن إشارات قليلة لبعض المؤلفين القدامى من العرب(٢) .

وفى عام ١٨٧٤م ، وصل الرحالة الألمـانى جوستاف ناختيجال Gustav Nachtigal إلى دارفور ، بعد أن أنفق ستة أعوام تقريباً فى رحلته التى بدأها من طرابلس الغرب متجهاً إلى دارفور ، عن طريق بحيرة تشاد و بجرمى وواداى . وفى مدينـة الفاشر عاصمة دارفور وقتذاك ، قضى ناختيجال ستة شهور ، جمع أثناءها كل ما استطاع جمعه من روايات شفوية ومكتوبة ، عن تاريخ دارفور الوسيط ، بمساعدة السلطان إبراهيم بن محمد حسين ، وأحد الأمراء الفوراويين ، واسمه باسى طاهر . وعلى الرغم من هذا فإن ناختيجال لم تتح له الفرصة الكاملة لدراسة إقليم دارفور دراسة كافية ، تتفق ومواهبه الفذة . ذلك بأن السلطات

---

(١) التونسى : تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان .
تحقيق عساكر ومسعد .

(٢) Barth, H.: Travels in Central Africa Vol. III, pp. 528-553.

الحاكمة فى دارفور ، لم تسمح له بالتجول فى أنحاء البلاد ، فلزم الطريق الرئيسى الذى يقطع دارفور من الغرب إلى الشرق . ثم أنه جمع بياناته عن دارفور فى مدينة الفاشر . وقد يكون هذا راجعاً إلى ارتياب السلطان فى مهمته ، لاسيما وأن الحكومة المصرية كانت تستعد آنذاك لضم دارفور إلى بقية أقاليم السودان التى كانت تحت إدارتها . وتقع رحلة ناختيجال المسماة Sahara und Sudan فى ثلاثة أجزاء ضخمة ، أشرف المؤلف بنفسه على نشر الجزءين الأولين منها ، ومات قبل أن يراجع ما أملاه من مذكرات خاصة بالجزء الثالث ، وهو الجزء المتعلق بواداى ودارفور . فقام أحد أصدقائه بإخراج هذا الجزء من مذكراته . ورغم القصور الذى لازم الجزء الأخير من رحلته إلى واداى ودارفور ، فانه يعد مصدراً أصيلاً لتاريخ هذين الإقليمين ، ولا سيما مايتعلق بتاريخ الأسرة الحاكمة فى دارفور ، ونظم البلاد السياسية والإدارية فى عصره[1] .

هذا عرض موجز للرحالة الذين أسهموا بجهودهم فى محاولة إجلاء بعض ما غمض من تاريخ سلطنة دارفور . وسواء أكان الهدف من هذه الرحلات التى قام بها أولئك الرحالة ، خدمة مصالح استعمارية ، أو البحث عن الحقيقة وخدمة العلم ، فإنهم كانوا جميعاً — باستثناء محمد بن عمر التونسى — موضع ارتياب السلطات الحاكمة فى دارفور وقلقها ، فلم يتمكنوا من التنقل بحرية فى أنحاء البلاد ، ومن ثم لم يتيسر لهم دراسة أحوال البلاد دراسة كافية .

أما محمد بن عمر التونسى ، فيختلف عن أولئك الرحالة الأوربيين . فهو تونسى الأب والجد ، مصرى الأم والتربية . أفادته عروبته فى الوصول إلى دارفور موطن كثير من القبائل العربية ، التى تربطة وإياها رابطة الأصل واللغة والدين ، وتربطه بأهلها من السودان — ومعظمهم وقتذاك من المسلمين — العروة الإسلامية

---

(١) Arkell, A.J.: Op. Cit., pp. 43-47.

الوثيق . صحيح أن محمد بن عمر التونسى لم يذهب إلى دارفور حباً فى الاستطلاع أو الدراسة أو الكشف الجغرافى ، ولكن ذهب للحاق بأبيه عمر التونسى الذى كان رحل إلى سنار ، ثم إلى دارفور ، ومن قبل رحل جده سليمان إلى سنار . وأفاد محمد بن عمر التونسى فى الإلمام بأحوال البلاد السياسية والاجتماعية والتاريخية ، علاقة أبيه وجده من قبل بهذه البلاد ، التى صاهرا أهلها ، وأضحى لمحمد بن عمر التونسى فيها إخوة وأعمام . وقد اشتغل هؤلاء جميعاً بالعلم والتجارة ، وتنقلوا بين تونس ومصر والحجاز وسنار ودارفور ووادای . وصارت لهم مصالح تجارية واسعة ، ومراكز سياسية مرموقة ، ومكانة دينية عظيمة عند ملوكها وفقهائها ، ومما لا شك فيه ، أن خبرة هؤلاء جميعاً تضيف كثيراً إلى ما اكتسبه محمد بن عمر التونسى نفسه من خبرة بأحوال هذه البلاد خلال إقامته بها . ومما يسر للتونسى التعرف على نواحى الحياة فى البلاد ، سهولة التخاطب مع كافة الطبقات باللغة العربية ، التى لا يجهلها سوى القليل من أهل دارفور ، وأتيح للتونسى — بما ناله أبوه عمر من مكانة ، لدى السلطان والأمراء والوزراء والفقهاء وكبار التجار كذلك ، أن يكون من ذوى الحظوة لديهم جميعاً ؛ فحضر مجالس السلطان ، ووقف على كثير من أسرار السياسة ، وتقاليد البلاط ، ونظم الحكم والإدارة والقضاء ، وشهد بنفسه بعض الحوادث السياسية والحربية الهامة . وأتيح للتونسى أن يتجول فى كل أنحاء دارفور فى حرية تامة ، وأن يمر بمدنها وقراها وأسواقها ، وأن يدخل المناطق الجبلية الوعرة ، التى لا يسمح لأحد الدخول فيها إلا بإذن من السلطان ، وهى المناطق التى يسكنها « أعجام الفور » على حد قول التونسى . ولذا تتميز كتابات التونسى عما شهد فى هذه البلاد — رغم حداثته وقتذاك — بالدقة وقوة الملاحظة ، والقدرة على النفاذ إلى أعماق الأمور . وبذا استطاع التونسى ، أن يدرس حياة الناس على اختلاف سلالاتهم وطبقاتهم ولغاتهم دراسة عملية دقيقة .

حاول بعض الباحثين التعرف على مراحل تاريخ دارفور القديم ولكن

جهودهم فى هذا الميدان ، لم تأت بنتائج ذات بال . ومن ثم فإننا لا نعرف عن تاريخ دارفور القديم شيئاً على وجه التحقيق، وربما تكشف الأبحاث الأثرية فى المستقبل عما غمض من تاريخ ذلك العصر .

ويظهر أن ثمة علاقة نشأت بين إقليمى كردفان ودارفور من ناحية وبين دولة كوش من ناحية أخرى وربما كان هذا هو السر فى أن الجماعات التى تتحدث اللغة النوبية فى كردفان ودارفور ، تحاول دائماً أن تستعيد ماضيها وعلاقتها بدولة كوش بتمسكها بأصلها القديم ، باعتبارهم « أهل كوش » ، أو « ناس كوش » أو « كاش » التى تقابل « كاج » . ومن هؤلاء جماعات « كاجدى » Kajiddi فى الطرف الجنوبى من جبل « كاجا » فى شمال كردفان . ويزعم هؤلاء الكاجدى أنهم أتوا من ناحية الشرق بقيادة ملكة ، وأن هذه الملكة مدفونة فى قبر قريب من جبل كابويجا Kaboija فى الطرف الجنوبى الشرقى من جبل ميدوب ، وليس من المستبعد أن تكون الأسرة المالكة فى كوش ، أو فروع منها ، لجأت إلى الأقاليم الغربية من دولتهم المنهارة ، عقب سقوط عاصمتهم مروى فى منتصف القرن الرابع الميلادى على يد عيزانا ملك أكسوم ، وأن الجماعات التى تتحدث اللغة النوبية فى كردفان ودارفور ترجع أولى هجراتها إلى هذا العهد(١) .

وتذكر روايات أهل البلاد أن الداجو أول من أسس دولة فى إقليم دارفور، ثم تلاهم التنجور ، ثم أسرة كيرا من الفور ، ومن هذا الاسم الأخير جاء إسم سلطنة دارفور .

أما الداجو فأصلهم غير معروف تماماً ، ويذكر الرحالة بارث ، أنهم كانوا فى زمنه (١٨٤٩ — ١٨٥٥ م) يطلقون على أنفسهم « ناس فرعون » ويرى أنهم جاءوا من إقليم فازوغلى جنوبى سنار(٢) ، على حين أن آركل — اعتماداً

(١) Arkell, A.J.: A History of the Sudan, pp. 174-178.

(٢) Barth, H.: Op. Cit., p. 426.

على ما ذكره براون — يرى أنهم من البربر الذين جاءوا من الشمال، من تونس[1] أما التونسي فيجعلهم أحد الشعوب الخمسة القديمة الرئيسية لسكان دارفور[2] والراجح أن الداجو سلالة سودانية قديمة، غير أنهم مدينون فى قيام دولتهم هذه إلى مهاجرين أرقى منهم حضارة، وأنشأ أولئك المهاجرون طبقة حاكمة خضع لها الداجو. وليس من المعروف تماماً مصدر هذه الطبقة الحاكمة، ويغلب على الظن أنها جاءت من الشرق، أى من وادى النيل، فإن توزيع جماعات الداجو. وامتدادهم من الشرق إلى الغرب، قد يساعد على هذا الاستنتاج ذلك أن للداجو مواطن موزعة بين كردفان ودارفور وداصليح، وفى إقليم بحيرة تشاد[3].

ويذكر كل من Arkell [4]، Palmer [5] أن الداجو هم « التاجوين » الذين ورد ذكرهم فى مؤلفات الإدريسى وابن سعيد والمقريزى وابن خلدون، وأنهم كانوا يقطنون فى المدة بين القرنين الثانى عشر والخامس عشر، على مقربة من قبيلة الزغاوة وغربى الواحات المصرية، بين النوبة فى الشرق والكانم فى الغرب.

وأشار الإدريسى إلى مدينتين فى بلاد التاجوين أو الداجو : إحداها تاجوه، وهى غير معروفة، والأخرى سمنة. وربما كانت هذه البلدة الأخيرة تقع فى تلال سيميات على بعد عشرين ميلاً شرقى مدينة الفاشر الحالية، حيث يعيش جماعة تعرف بهذا الإسم، ثم انتقلت جماعات سيميات إلى حدود واداى، وهناك عرفوا بإسم سيميار Simyar ويزعم هؤلاء الانتساب إلى الداجو القدماء. ويذكر

---

(١) Arkell, A.J.: Op. Cit., pp. 62-70.

(٢) التونسى : تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ص ١٢٧ .

(٣) MacMichael, H.A.: Op. Cit., pp. 71-76.

(٤) Palmer, H.R.: Bornu, Sahara and Sudan, p. 212.

(٥) Arkell, A.J.: S.N.R., Vol. XXXII, Part 1, pp. 62-70.

الإدريسى ، أن أولئك التاجوين — الداجو « مجوس لا يعتقدون شيئاً » (١) .

أما التنجور — الذين تذكر رويات أهل البلاد أنهم خلفوا الداجو فى حكم دارفور — فقد اختلفت الآراء حول أصلهم . فقيل إنهم من عرب بنى هلال من شمال إفريقيا(٢) ، ورأى آخر يقول إنهم من بقايا العباسيين الذين هاجروا إلى السودان بعد زوال دولتهم(٣) . ويذكر بارث أن التنجور من النوبيين الذين هاجروا من دنقلة إلى دارفور ومدوا نفوذهم على واداى ، وأرغموا الكانم أحياناً على دفع الجزية(٤) . ويرى آركل أن التنجور من التبو ، وأنهم هاجروا من إقليم تبستى تحت ضغط بنى هلال فى شمال إفريقيا ، ومن ثم حدث خلط فى النسب بين التنجور وبين بنى هلال(٥) . أما ماكيا كل ، فلا ينفى صلة التنجور ببنى هلال ، ولا يستبعد أن تكون بعض العناصر النوبية والعربية من بنى هلال ، هاجرت من بلاد النوبة فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاد إلى دارفور ، حيث عرفوا بإسم التنجور . ومما يؤيد صلتهم ببلاد النوبة ، أن إسم تنجور فى اللغة النوبية معناها قوس ، وهو الإسم الذى عرفت به بلاد النوبة فى العصور القديمة « تاستى » أى بلاد القسسى ثم أنه لا يزال هناك مكان جنوبى وادى حلفا الحالية يحمل إسم تنجور حتى الوقت الحاضر(٦) . وكيفما كان الطريق الذى سلكه التنجور إلى إقليم دارفور ، أو درجة الصحة فى انتمائهم إلى العرب أو النوبيين أو التبو ، فالمعروف أن أولئك التنجور ، لم تكن لهم — فى المائتى سنة الأخيرة — لغة سوى اللغة العربية(٧) ، ومهما قيل فى شأن اللغة التى كانوا يتحدثون بها من قبل ، أو أنهم نسوا اللغة القديمة ، وتمسكوا بالعربية ، فإن هذا

---

(١) الإدريسى : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ١٢ .

(٢) Slatin :Fire and Sword in the Sudan, p. 38.

(٣) C/f Balfour-Paul; H.G.: Op. Cit., p. 10.

(٤) Barth, H.: Op. Cit., pp. 429-430.

(٥) Arkell, A.J.: S.N.R.: Vol. XXXII, pp. 207-218.

(٦) MacMichael, H.A.: Op. Cit.: p. 66.

(٧) Balfour - Paul, H.G.: Op. Cit., p. 10.

لا ينفي — على الأقل — صلتهم بالعناصر العربية ، التي كانت فيما يبدو — تمثل طبقة حاكمة تعتمد على قاعدة من العناصر غير العربية ، قد تكون من النوبة أو من البدايات .

ومعظم الآثار التي عثر عليها في مدينتي أورى وعين فرح شمال دارفور تنسب إلى التنجور ، ويدل هذا على أن التنجور بسطوا نفوذهم على شمال دارفور ، ولم يمتد إلى جنوبها . ومن المحتمل أن مملكتي الداجو والتنجور قامتا جنباً إلى جنب ، حتى القرن السادس عشر الميلادي . وتدل بقايا آثار المساجد والقصور الملكية المبنية بالطوب الأحمر على أن الإسلام امتد إلى دارفور على عهد التنجور . غير أن سلطان التنجور لم يستمر على ما تغلبوا عليه في دارفور طويلاً . وربما كان مرجع ذلك إلى أن ضغطاً وقع عليهم من الشمال ، أو إلى أنهم توسعوا في بسط نفوذهم ، حتى وصلوا غرباً إلى واداى ، وبذا تخلخل سلطانهم على دارفور بعد مضي قرنين من مقدمهم إليها(٢) .

وعلى الرغم من أن الإسلام أخذ يشق طريقه إلى هذه البلاد ، منذ حوالى القرن الثالث عشر الميلادى على الأقل ، حيث أخذت تنهال عليه الهجرات العربية من الشمال والشرق والغرب ، فإن الإسلام لم يصبح الدين الرسمى للبلاد إلا حين تولى سليمان سولونج من أسرة كيرا عرش سلطنة دارفور حوالى عام ١٦٤٠م . أما كيف انتقل المُلْك من التنجور إلى أسرة كيرا من الفور ، فهذا موضوع اختلفت فيه الآراء كذلك .

يذكر التونسى أن الفور — سكان جبل مرة الأصليين ينقسمون إلى ثلاث شعب هى : الكنجارة والتموركة والكرا كريت(٣) . لكن الكنجارة

---

(١) Ibid : Op. Cit., p. 11:

(٢) Lampen, G.D. : Op. Cit., p. 183.

(٣) التونسى : نفس المصدر ، ص ١٣٢ .

يمتازون على غيرهم من الفور بوجود الدماء العربية فى عروقهم[١] . وتذكر روايات أهل البلاد أنه وفد على بلاد دارفور قبل القرن السابع عشر الميلادى ، جماعة من عرب بنى هلال بقيادة أحمد المعقور من نسل أبى زيد الهلالى ، وصاهروا الكنجارة ، ونشأ فى الكنجارة أسرة تسمى أسرة كيرا ، استطاعت بقيادة زعيمها سليمان سولونج أن تؤسس سلطنة دارفور[٢] . وثم رواية تقول إن سليمان سولونج عربى من قبيلة بنى هلال ، وتزوج أميرة من الفور[٣] . ورواية ثالثة تقول إنه ابن أحمد المعقور من بنى هلال ؛ أو من سلالته[٤] . ورواية رابعة تقول ، إنه سبق حكم سليمان هذا أربعة عشر سلطاناً يحملون أسماء عربية[٥] . ومما زاد هذه الروايات اضطراباً ، إدعاء كل من الكنجارة والتنجور الانتساب إلى بنى هلال[٦] .

والراجح أن الكنجارة ، — وهم خليط من العرب والفور — صاهروا التنجور ، ونشأ عن هذه المصاهرة ، ظهور أسرة كيرا ، وهى الأسرة التى انتزعت حكم دارفور من التنجور . ويبدو أن السلطان دالى أول سلاطين هذه الأسرة ، ثم خلفه ابنه كورو ، ثم سليمان سولونج . وظلت هذه الأسرة تحكم دارفور حتى نهاية حكم على دينار عام ١٩١٦ .

السلطان سليمان سولونج (١٦١٠ — ١٦٧٠م) :

يغلب على الظن أن سليمان كان من أب أجنبى وأم من كيرا وعلى كل حال فان لقب سولونج — الذى عرف به سليمان — معناه فى لغة الفور « العربى »

---

(١) MacMichael, H.A.: Op. Cit., p. 91.

(٢) Balfour-Paul, H.G.: Op. Cit., p. 92.

(٣) شقيرة : (نفس المصدر ٢ ، ص ١١٢) .

(٤) Nachtigal, G.: Op. Cit.: Vol. III, pp. 256-360.

(٥) MacMichael, H.A.: Op. Cit., p. 92 n.

أو من يتكلم العربيـة أو من يدين بالإسلام دين العرب[١] . وفى هذا دليل على اتصال سليمان بالنسب العربى .

نشأت أسرة كيرا هذه فى ترة على مقربة من جبل مرة بأواسط دارفور . وفى هذه المنطقة ، عثر على بقايا قصور حصينة ترجع إلى عهد أولئك السلاطين الثلاثة الذين بدأ بهم بيت كيرا ، وإلى الشرق من ترة ، توجد بقايا قصر آخر ينسب إلى زعيم اسمه توتسام[٢] . وتذكر روايات الفور أن توتسام هذا كان أخاً لسليمان ، ويبـدو أنه كان يريد السلطنة لنفسه ، فحارب به سليمان سولونج وهزمه وطرده من دارفور . فلجأ هذا الزعيم الطريد إلى كردفان ، وهناك أسس سلطنة المسبعات[٣] . ويقال إن المسبعات فى لغة الفور معناها « الناس الذين ذهبوا إلى الشرق »[٤] .

اتخذ سليمان سولونج بلدة نامى فى إقليم ترة عاصمة لدولته ومن هذه المنطقة قام سليمان بعدة حملات حربية على ما جاوره من أقاليم . واستطاع سليمان بعد معارك بلغ عددها ثلاثاً وثلاثين ، أن يحقق للبلاد وحدتها ، وأن تخضع لسلطانه جماعات البرقد والزغاوة والبرتى والبيقو وبعض المساليط ، كما قضى على محاولة قام بها التنجور لاسترداد ملكهم المسلوب . ثم تفرغ سليمان لبناء سلطنته على أسس سلمية باستئناف حركة نشر الإسلام ، التى يحتمل أن يكون أصابها الركود أثناء فترة الحروب الأهلية[٥] .

وفيما يلى قائمة بأسماء سلاطين دارفور . من سليمان سولونج فصاعداً :

١) سليمان سولونج (١٦١٠ — ١٦٧٠ م) .

---

(١) Lampen, G.D. : Op. Cit., p. 185, MacMichael, H.A., Op. Cit., p. 92.

(٢) MacMichael, H.A. : Op. Cit., p. 93.

(٣) Ibid : Op. Cit., r/f. Arkell, A.G. : S.N.R., Vol. XXXII, Part I, p. 46.

(٤) Ibid : Op. Cit., p. 46.

(٥) Lampen, G.D. : Op. Cit., pp. 184-185.

٢) موسى بن سليمان سولونج (١٦٧٠ — ١٦٨٢ م) .

٣) أحمد بكر بن موسى (١٦٨٢ — ١٧٢٢ م) .

٤) محمد دورا بن أحمد بكر (١٧٢٢ — ١٧٣٢ م) .

٥) عمر ليل بن محمد دورا (١٧٣٢ — ١٧٣٩ م) .

٦) أبو القاسم بن أحمد بكر (١٧٣٩ — ١٧٥٢ م) .

٧) محمد تيراب بن أحمد بكر (١٧٥٢ — ١٧٨٧ م) .

٨) عبد الرحمن الرشيد بن أحمد بكر (١٧٨٧ — ١٨٠٢ م) .

٩) محمد فضل بن عبد الرحمن الرشيد (١٨٠٢ — ١٨٣٩ م) .

١٠) محمد حسين بن محمد فضل (١٨٣٩ — ١٨٧٤ م) .

١١) إبراهيم بن محمد حسين (١٨٧٤ — ١٨٧٥ م) .

دارفور تحت حكم الادارة المصرية
فى السودان (١٨٧٥ — ١٨٨٣ م) .

السلطان موسى : (١٦٧٠ — ١٦٨٢ م) لم تذكر عنه روايات الفور شيئاً يستحق الاهتمام . ويبدو أن هذا السلطان كان ميالاً إلى ، على عكس أبيه سليمان، غير أنه اضطر مع هذا إلى أن يحارب جماعات القمر والمسبعات(١) .

السلطان أحمد بكر (١٦٨٢ — ١٧٢٢ م) حكم هذا السلطان بلاد دارفور أربعين عاماً ، وأحبته رعيته لما اشتهر عنه من الحزم ، وإليه يرجع الفضل فى تعميم الإسلام فى بلاد دارفور . ويبدو أن الإسلام فى عهد سلفه لم يتعد الأسر المالكة أو الأسر الكبيرة ، التى اتصلت بالنسب العربى . ولذلك اعتنى

---

(١) Ibid : Op. Cit., p. 185.;

هذا السلطان ببناء المساجد والمـدارس ، واستقدم عدداً من المشايخ من مختلف البلاد الإسلامية ، ومنحهم أراض وأعفاهم من الضرائب . عاش السلطان أحمد بكر مدة فى بلدة قرلى فى دار كرنة ، ثم تنقـل ببلاطه وحاشيته إلى بلدة مرة فى دارفيا ، ثم إلى أبوعسل فى منطقة ترة . ولم يخل حكم هذا السلطان من حروب ، أولها حرب دامت سبع سنوات لإخضاع جماعات القمر ، واستعان أحمدبكر بأمراء المماليك فى مصر لإمداده بالأسلحة لدفع إغارات أهـل وادای بقيادة ملـكهم عاروسى على حدود دولته ، فأحرز عليهم نصراً عند كبكابية(١) . ويبدو أن إسم كبكابية مستمد من إسم هـذه المعركة . وذلك أن لفظ كبكابية — فى لغة الفور — مركب من كلمتين كبي—كابية،ومعناها « ألقوا دروعهم هاربين »(٢) .

<u>محمد دورا (١٧٢٢ — ١٧٣٢ م)</u> ورث هذا السلطان عن أبيه أحمد بكر شجاعته وحزمه ، لـكنه أضاف إلى هاتين الصفتين صلة القسوة والوحشية ، بدليل قتله كثيراً من أخوته(٣)، وشنه الحرب على إبنه موسى عنجريب . وتوفى محمد دورا هذا بعد مرض طويل بداء البرص(٤) .

<u>عمر ليل (١٧٣٢ — ١٧٣٩ م)</u> خلف أباه السلطان محمد دورا على عرش دارفور. ويقول شقير،إنه من أعدل سلاطين دارفور وأشدهم محافظة على الـكتاب والسنة(٥) . ونقل عمر فاشرة إلى بلدة كوجورما على بعد عشرين ميـلاً غربى كبكابية . ويذكر لامبين "Lampen" أنه لقب بعمر ليل ، أى عمر الحمـار لأنه كان قاسياً ، فضلاً عن أطماعه الحربية التوسعية فى إقليم وادای

---

(١) Nachtigal, G.: Op. Cit., p. 367.
C/f El Tunsi: Voyage au Ouday, pp. 77-82.

(٢) Lampen G.D.: Op. Cit., p. 185.

(٣) شقير : نفس المصدر ص ١١٥ .

(٤) Lampen, G.D.: Op. Cit., p. 185.

(٥) شقير : نفس المصدر ص ١١٥ .

إلى ضجر أهل دارفور من حكمه ، ومات السلطان عمر أسيراً فى واداى(١) .

أبو القاسم (١٧٣٩ — ١٧٥٢ م) هو ابن السلطان أحمد بكر . خلف ابن أخيه عمر ليل فى حكم دارفور ، وبدأ عهده بمحاباة طبقة الأرقاء دون الأحرار ، وامتلأت وظائف الإدارة والحكم بالعبيد ، فكره الناس حكمه . وعزم على الانتقام لسلفه عمر ليل من أهل واداى . وأدى اختفاؤه وإشاعة قتله فى المعركة إلى تنصيب أخيه محمد تيراب عرش السلطنة .

ولما ظهر أبو القاسم ، بعد شفائه على أيدى بعض الأعراب الذين آووه ، أبى كبار رجال الدولة أن يتنازل تيراب لأخيه عن السلطنة ، وما زالوا به حتى وافق على خنقه(٢) .

محمد تيراب (١٧٥٢ — ١٧٥٧ م) برهن السلطان محمد تيراب على أنه سلطان ممتاز ، فاستحق من أجل ذلك الاحترام فى الداخل والخارج . غير أنه أثار غضب بعض رؤساء القبائل فى دولته لميله إلى جماعات الزغاوق التى كانت منها أمه ، فعين خاله سلطاناً على فرع من فروع الزغاوة ، كما عين عدداً من أفراد هذه القبيلة فى المناصب العليا فى دولته . وتنقل السلطان تيراب بفاشرة بين قرلى وكوجورما وشوبا ، وكلها تقع بالقرب من مدينة كبكابية . وربما كان الدافع له على ذلك ، مراقبة حركات أهل واداى بالقرب من الحدود الغربية لدولته . ثم نقل السلطان تيراب فاشرة مرة رابعة إلى الريل جنوب شرقى دارفور ، وذلك على أثر ثورة قامت بها جماعات البرقد ضده . ويرجع سبب هذه الثورة إلى ماشاع بين البرقد ، من أن السلطان تيراب يقوم ببيع بناتهم اللائى كان مفروضاً إلحاقهن بحريم السلطان وجواريه وخدمه(٣) . وسواء أكان انتقال السلطان بفاشرة

---

(١) Lampen, G.D.: Op. Cit., 00. 185-186.

(٢) Nachtigal, G.: Op. Cit., 00. 373-374.

(٣) أنظر التونسى : تشحيذ الأذهان ص ٦٩ ، ٧٠ .
Lampen, G.D.: Op. Cit., p. 186.

إلى الناحية الجنوبية الشرقية من دولته بسبب ضغط هذه الثورة عليه أو الاستعداد لحرب الرزيقات والمسبعات ، فالمعروف أنه قام بهذه الغزوات على هاتين الجماعتين، بعد القضاء على ثورة البرقد .

أما عن حرب المسبعات ، فإن التونسى شرح فى كتابه علاقة سلاطين دارفور بسلاطين المسبعات شرحاً وافياً ، وتعرض لتفاصيل هذه الحرب أسبابها ونتائجها . فيذكر التونسى أن سليمان سولونج الجد الأول لسلاطين دارفور ، كان له أخ اسمه المسبع[1] . واتفق الأخوان على تقسيم إقليمى دارفور وكردفان فيما بينهما . فكانت دارفور من نصيب سليمان ، وكردفان من نصيب المسبع . وتعاهد الأخوان أن لايخون أحدهما الآخر . وظل الأمر على هذه الحال فى أعقابهما من بعدهما . ولما تولى السلطان تيراب عرش دارفور ، كان يلى كردفان من نسل مسبع السلطان هاشم المسبعاوى . فقام السلطان هاشم بشن الإغارات على أطراف سلطنة دارفور أملاً فى غزوها . فبعث السلطان تيراب إلى قريبه السلطان هاشم ، رسالة جاء فيها : « بعد السلام : يا ابن عمى ، أرسلت سراياك على أطراف بلادى ، وأنت تعلم ما بيننا من المودة ، ولم يقع منا ما يخالف المودة ، مع أنك تعلم أن الذين أخذت أموالهم مسلمون ، والذين قتلوا موحدون ، وهذا الفعل لم يبيحه (كذا) أحد ، ولا يفعله عاقل ، فإذا وصلك كتابى هذا ، فانته ، وإلا سيلقى الباغى مصرعه والسلام » . غير أن السلطان هاشم لم يستجب لهذا النداء ، وواصل عدوانه على دارفور . فاستعد السلطان تيراب لملاقاته بجيش كثيف ، وعهد إلى ابنه إسحاق أن يقوم مقامه فى حكم دارفور أثناء غيابه عنها . وسار تيراب بجيشه قاصداً كردفان[2] .

---

(١) لفظ المسبع هنا لقب لتوتسام أخى سليمان سولونج ، ومعناها فى لغة الفور : الذى اتجه نحو الشرق .

(٢) التونسى : تشحيذ الأذهان ، ص ٧٨ — ٨٦ .

أما السلطان هاشم فإنه لما علم بقدوم تيراب بجيش لا قبل له بمواجهته فر بحاشيته وأسرته إلى ملك سنار بعد أن فارقه أكثر رجاله(١) . وأخذ السلطان تيراب يطارد السلطان هاشم حتى وصل إلى قرب موضع أم درمان الحالية . وهناك التقى بجيش العبد اللاب من قبل ملك سنار . ونشبت بين الفريقين معركة انتهت بهزيمة العبد اللاب وفرارهم وظفر تيراب بنحاسهم المعروف بالمنصورة(٢) . وكان لاستيلاء الفور على نحاس العبد اللاب — حلفاء الفرنج بسنار — مغزى سياسى وحربى عظيم الأثر . واحتفظ سلاطين الفور بهذا النحاس من بعد ، وغدا تجليد هذا النحاس والاحتفال به سنوياً ، عيداً من أعياد الفور ، القومية(٣) .

أما السلطان تيراب ، فإنه عزم على الزحف إلى سنار ، لكنه لم يستطع عبور النيل ، ومن ثم ظل فى أم درمان مدة يدبر خلالها الوسائل لاجتياز النهور ، فلم يفلح ، فسئمت نفوس رجاله الانتظار ، وسألوه العودة إلى بلادهم ، فلم يستجب لندائهم ، وأقسم ألا يرجع إلى دارفور إلا برأس هاشم(٤) . وهنا أخذ بعض رجال دولته يدبرون المؤامرات للتخلص منه . واشترك فى هذه المؤامرات والد إحدى زوجاته ويدعى على ورد برقو . غير أن خبر هذه المؤامرة وصل إلى تيراب ، فتخلص من المتآمرين(٥) . وظل السلطان تيراب مدة فى أم درمان ، حتى مرض مرضاً شديداً ، فحمله رجاله وعادوا به إلى دارفور ، ولكنه مات فى بارة ، فحنطوه وحملوه إلى جبل مرة ودفن فى مقابر السلاطين بتره .

وعلى الرغم من أن السلطان تيراب كان رجلاً متنوراً ومثقفاً ، وأنه كان دائب السعى إلى استيراد الكتب من مصر وتونس ، إلا أنه أخذ عليه الميل إلى

---

(١) التونسى : نفس المصدر ص ٨٠ .
(٢) شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، ج ٢ ، ص ١٢٠ .
(٣) التونسى : نفس المصدر ١٥٦ — ١٥٩ .
(٤) شقير : نفس المصدر ، ص ١٢٠ — ١٢١ .
(٥) التونسى : نفس المصدر ، ٨١ — ٨٣ .

النساء والخمور ، فضلاً عن حب الحروب ذات المجهود الضـائع ، وعدم المبالاة بشعور قومه وكرامتهم . من ذلك ما يروى عن استهتار أولاده بشعور الناس . فقد كان الواحد منهم لا يسافر إلا راكباً على ظهور الرجال بدلاً من الدواب ، حتى ضاقت نفوس أهل دارفور منهم . ولما تقدم الناس بالشكاوى إلى تيراب ، لم يلتفت إليها وقال « إنى لأعجب كيف أن رعيتى لا تصبر على أولادى ، فإذا أتوا أقل شىء لا يرضيهم شكوهم إلى . فامتنع الناس عن الشكوى وسلموا أمرهم إلى الله . وربما كان هذا الضيق هو الذى جعل أهل دارفور يترددون فى إقامة ابنه اسحاق فى السلطنة من بعده ، وذلك على الرغم من أنه أوصى بأن يؤول إلى إسحاق هذا ملك دارفور من بعده ولقبه بالخليفة . ولما توفى تيراب[١] ، كان بدارفور وقتذاك ثلاثة من أبناء السلطان أحمد بكر . ورأى كل منهم أنه أحق من غيره ومن إسحاق بملك دارفور . واستغل هذه الحالة خصى يدعى محمد كرا ليمكن لنفسه ، وكان من المقربين فى البلاط السلطانى . وكانت أولى خطواته فى هـذا السبيل أنه ساعد على تفضيل أصغر أبناء السلطان أحمد بكر ، وهو عبد الرحمن الرشيد(٢) . فلما نجحت هذه الخطوة ، زحف هذا الخصى الماهر نحو البلاد التى أعتصم فيها إسحاق وهزمه تبلدية وتلدوا ، وطارده إلى شمال دارفور ، ثم لحقت بإسحاق الهزيمة النهائية غربى كبكابية . بذا صفا الجو للسلطان الجديد(٣) .

ويعتـبر عصر عبد الرحمن الرشيد (١٧٨٧ — ١٨٠٢ م) صفحة جديدة فى تاريخ دارفور . إذ شجع هذا السلطان الجلابة الأجانب (التجار) على دخول دارفور ، فازدهرت التجارة فى عهده ، ونشأت عدة مدن تجارية تضم وكالات

---

(١) التونسى : نفس المصدر ص ٧٩ — ٨٠ .
عرف السلطان عبد الرحمن الرشيد باسم اليتيم كذلك .
(٢) أنظر التونسى : ص ٩٢ ، شقير : نفس المصدر ، ص ١٢١ .
(٣) التونسى : نفس المصدر ص ٨٦ — ٩٢ .

للتجار[١] كما نشطت تجـارة القوافل مع مصر عن طريق درب الأربعين[٢] . ثم أن عبد الرحمن الرشيد شجع الفقهاء وأغدق عليهم . وكان عمر التونسى — أبو الرحالة العربى المشهور محمد بن عمر التونسى — ممن ظفروا بعطف السلطان ورعايته ، فمنحه إقطاعاً كبيراً فى منطقة أبى الجدول[٣] . وفى عهده زار الرحالة الإنجليزى براون دارفور ، ثم زارها فى عهد سلفه السلطان محمد فضل ، الرحالة العربى محمـد بن عمر التونسى ، كما سبق أن ذكرنا . وسجل هذان الرجلان ملاحظاتهما عن أحوال البلاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية وقتذاك . ولذا كان عهد عبد الرحمن الرشيد أوضح عهود سلاطين دارفور .

جعل السلطان عبد الرحمن الرشـيد فاشرة فى تندلتى[٤] ، وظلت تندلتى هذه — التى اشتهرت فيما بعد بإسم الفاشر — عاصمة السلطنة فى عهده وعهد خلفه لتـكون قريبة من إقليم كردفان وهو الإقليم الذى أصبح مجالاً لتوسع سلطنة دارفور وامتدادها شرقاً .

وأهم حادثة سياسية فى عهد عبد الرحمن الرشيد ، حربه ضد السلطان هاشم فى كردفان ، وهو السلطـان الذى كاد أن يمحو سلطنـة دارفور بما أحرزه من انتصارات على جيوشها ، لولا مهارة محمد كرا الذى جعله السلطان نائباً عنه فى حكم كردفان بعد انتصاره على السلطان هاشم[٥] .

ويبدو أن السلطان عبد الرحيم الرشيد كان شديد الحرص على استمرار سير القوافل التجارية بين مصر ودارفور . غير أن بعض أمراء المماليك فى مصر دأبوا على التعرض

---

(١) Browne, W.G.: Op. Cit., pp. 234-236.

(٢) التونسى : نفس المصدر ص ٣٨ — ٥٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٢ .

(٤) التونسى : نفس المصدر ص ، ٦٠ — ١٠٧ .

(٥) التونسى : نفس المصدر ص ٢١ — ١٢٢ .

لهذه القوافل وتعطيل سيرها . ولذا فإن عبد الرحمن الرشيد بادر بتهنئة نابليون عقب وصول الحملة الفرنسية إلى مصر وانتصاره على أمراء المماليك ، وذلك حرصاً من عبد الرحمن الرشيد على استمرار سير هذه القوافل ، ولاسيما بعد أن أعلن نابليون احترامه للدين الإسلامي . فرد عليه نابليون بكتاب يطمئنه فيه على استمرار سير القوافل ويطلب منه إرسال ألفي عبد من العبيد الأشداء(١) .

وعلى الرغم من السلطان عبد الرحمن الرشيد كان موتورا من سلوك بعض أمراء المماليك ، فإنه رحب بمقدم أحد أولئك الأمراء واسمه زوانا كاشف ، وذلك حين هرب هذا المملوك من وجه الفرنسيين ، وطلب من السلطان حمايته . فمنحه السلطان إقطاعا ، وسمح له ببناء قصر إلى جوار قصره . غير أن زوانا كاشف هذا فكر فى إقامة نفسه سلطاناً على دارفور ، وجمع حوله الأنصار ، واستعد لحرب عبد الرحمن الرشيدى . لكن السلطان تمكن من القبض عليه وقتله قبل أن يشرع هذا المملوك فى تنفيذ ما دبر من خيانة وغدر(٢) .

وفى هذا العصر لمع نجم شخصية فوراوية ، لم تلبث أن احتلت مكانا بارزاً فى تاريخ دارفور على عهد السلطان عبد الرحمن الرشيد وابنه السلطان محمد فضل من بعده . وإسم هذه الشخصية محمد كرا(٣) .

التحق محمد كرا هذا — أول الأمر — بحرس السلطان تيراب ، ثم غدا مشرفاً على تربية أولاده فى القصر السلطانى(٤) . ويقال إنه خصى نفسه بيده ليدفع عن نفسه تهمة خيانة سيده(٥) . فألحقه السلطان تيراب بخدمة أحد وزرائه ،

---

(١) شقير : نفس المصدر ، ص ١٢٢ — ١٢٣ .
(٢) التونسى : نفس المصدر ، ص ١١١ — ١٩٥ .
(٣) لفظ كرا معناه فى اللغة الفوراوية « الطويل » التونسى ، ص ٥٩ — ٦٠ .
(٤) التونسى : نفس المصدر ص ٧٤ .
(٥) المصدر السابق ٧٥ .

فأظهر محمد كرا كفاية ممتازة ، وتمكن بمهارته أن يساعد السلطان عبد الرحمن الرشيد فى الوصول إلى عرش دارفور بعد وفاة أخيه السلطان تيراب[١] . فعينه والياً على إقليم كردفان بعد الاستيلاء على هذا الإقليم من هاشم المسبعاوى . ولقد اتهم محمد كرا أثناء ولايته على كردفان بعدم الولاء للسلطان عبد الرحمن الرشيد ، والسعى لانتزاع السلطنة منه . فأرسل السلطان حملة إلى كردفان لإحضاره حياً أو ميتاً . ولما علم محمد كرا بما أمر به السلطان عبد الرحمن ، أحضر سلاسل ووضعها فى يديه ورجليه وطلب إلى رجال الحملة أن يقودوه مقيداً إلى تندلتى الفاشر حيث يقيم السلطان . وبذا اقتنع السلطان عبد الرحمن بولاء محمد كرا له فرفعه وقربه ، وعينه فى منصب الأب شيخ وهو أعظم المناصب قدراً فى دارفور ، بعد منصب السلطان[٢]. وكان من عادة الخصيان فى دارفور ، أن يتزوجوا من أرامل ذوات أولاد ، فيتبنى أولئك الخصيان هؤلاء الأولاد ، لينتفى عنهم مذلة الخصاء ولو ظاهراً . ولم يشذ الأب شيخ محمد كرا عن هذه القاعدة ، فتزوج من إمرأة لها ابن إسمه شيلفوت (ومعناه فى لغة الفور « خذ واذهب ») وكان شيلفوت هذا من الفرسان المعدودين ، فاعتمد عليه الأب شيخ محمد كرا اعتماداً كبيراً فى توطيد سلطانه[٣] .

توفى السلطان عبد الرحمن الرشيد سنة ١٨٠٢ م تاركاً إبناً صغيراً لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره ، وإسمه محمد فضل . وقد نجح الأب شيخ محمد كرا مرة ثانية فى إقامة محمد فضل مقام السلطان المتوفى ، وذلك على الرغم من كثرة عدد المطالبين بعرش دارفور وقتذاك . وأعقب الأب شيخ هذا العمل بالقبض على المطالبين بعرش السلطنة وأنصارهم . ويقال إن عدد من قبض عليهم وقتلهم بلغ نحو ستين رجلاً . ولم يبق من أولئك المطالبين بعرش دارفور وأنصارهم سوى

---

(١) المصدر السابق ص ٨٧ — ٩٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢١ — ١٢٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٨ — ٢٣٩ .

عدد قليل ، رأى الأب شيخ أن يسجنهم فى جبل مرة[١] . وبذا أصبح الأب شيخ محمد كرا الحاكم المطلق فى دارفور ، وطغى نفوذه على نفوذ السلطان وظل الأب شيخ على هذه الحال حتى دلالات السلطان محمد فضل يفكر فى التخلص من وصايته عليه . فاعتصم الأب شيخ فى ناحية من نواحى تندلتى — الفاشر . ولم يلبث أن صار سجيناً فى تلك الناحية ، ثم منع السلطان عنه الماء ، وشن عليه هجوماً انتهى بقتله وقتل ربيبة شيلفوت كذلك[٢] .

أما السلطـان محمد فضل (١٨٠٢ — ١٨٣٩م) فإنه استفتح عهده بتحرير قبيلة البيقو ، التى كانت أمه منهـا ، وحرم أخذ الرقيق وبيعه من هذه القبيلة . بيد أن السلطان محمد فضل اتصف من ناحية أخرى بالمغالاة فى معظم نواحى حياته وأخلاقه ، من حيث الانغماس فى اللهو ، والتطرف فى معـاداة الناس . وازدادت هذه الصفات عمقاً فى نفسه كلما تقدمت به الأيام ، حتى صـار أواخر عهده رجلاً قاسياً محباً للانتقام . وعرف عنه التطرف فى معاملة القبائل العربية بالقسوة ، وكاد أن يقضى على بنى هلبة على العريقات والرزيقات كذلك[٣] .

وفى عهده استؤنفت الحرب بين دارفور ووادای ، وانتهت هذه الحرب بصلح اشترك محمد بن عمر التونسى فى المفاوضات التى أدت إلى عقده .

أما فى الناحية الشرقية من سلطنة دارفور ، وتقصد بها إقليم كردفان ، فقد جرت فيها المقادير على عكس ما يشتهى السلطان محمد فضل . إذ ارتبط مصير هذه الولاية بمصير بقيـة أقاليم السودان الأخرى التى فتحها إسماعيل بن محمد على سنة ١٨٢٠ — ١٨٢١م . فلم تكد حملة إسماعيل تغادر دنقلة فى طريقها إلى بربر

---

(١) التونسى : المصدر نفسه ص ١٢٣ — ١٢٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٥ — ٦٨ .

(٣) Lampen, G.D.: Op. Cit., pp. 187-188.

ثم إلى سنار عاصمة مملكة الفونج ، حتى قام قسم من الحملة الرئيسية بقيادة محمد بك الدفتردار صهر محمد على — لفتح كردفان . ولما علم المقدوم مسلم ، والى كردفان من قبل السلطان محمد فضل بأمر هذه الحملة ، عقد العزم على مقاومتها ، معتمداً فى ذلك على خيالة كردفان ومشاة دارفور . وتبادل الدفتردار والمقدوم مسلم الرسائل . فالأول يطالب بالتسليم صلحاً ، على حين أن الثانى يصر على المقاومة مهما كلفه الأمر . وبذا لم يكن بد من الحرب والقتال . والتقى الفريقان بالقرب من باره ، حيث نشبت معركة بين قوتين غير متكافئتين من حيث نوع الأسلحة . فالقوات المصرية كانت تعتمد على الأسلحة النارية التى لم تكن معروفة فى السودان حتى ذلك الحين . وبذا حلت بالمقدوم مسلم الهزيمة(١) .

وحاول السلطان محمد فضل استرداد كردفان . فلم يقدر له النجاح . وبذا غدا همه محصوراً وقتذاك فى الدفاع عن دارفور ، ضد أى قوة يحتمل مجيئها من ناحية الشرق ، ولا سيما بعد خروج أخيه الأمير أبى مدين عليه وهروبه إلى مصر(٢) .

حاول هذا الأمير إقناع ولاة الأمور فى مصر بفتح دارفور وتعيينه سلطاناً عليها ، على أن يكون خاضعاً للحكومة المصرية ، ويؤدى إليها الخراج سنوياً . ولكن رؤى إرجاع الفتح مدة تستكمل خلال أعمال الاستطلاع والاستعداد . وإذا كانت حوادث الشرق أخرت التفكير فى فتح دارفور وقتذاك ، فان هذا لم يمنع محمد على من استعمال وسائل التهديد والترغيب لضم دارفور إلى بقية أقاليم السودان التى تديرها مصر . فبعث برسالة فى عام ١٨٣٠م إلى السلطان محمد فضل ، يدعوه فيها إلى التسليم . فأجابه السلطان برسالة فيها تصميم على الدفاع عن بلاده . مهما كان الثمن . وبذا نام مشروع فتح دارفور مؤقتاً حتى يحين الوقت المناسب(٣) .

---

(١) شقير : نفس المصدر ج ٣ ص ١٣٠ .
(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ١٣٠ .
(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ١٣١ — ١٣٢ .

توفى السلطان محمد فضل عام ١٨٣٩م ، فخلفه على عرش دارفور ابنه السلطان محمد حسين (١٨٣٩ — ١٨٧٤م) وليس لدينا من سيرة هذا السلطان مايستحق الاهتمام سوى شدة حرصه على المحافظة على استقلال بلاده . فيقال أنه أنشأ جيشاً قوياً سلحه — لأول مرة فى تاريخ دارفور — بالأسلحة النارية ، بدلاً من السيوف والحراب الدرق والسكاكين والنشاب(١) .

وثم حادثة مشهورة وقعت فى عهد السلطان محمد حسين ، وهى الحادثة المعروفة بواقعة القرطاس . فيقال إن السلطان محمد حسين ساءه اعتداء عربان المعاليا على قافلة قادمة من مصر ، فاستغل السلطان ماعرف من عداء قديم بين عربان المعاليا وعربان حمر ، وأوعز إلى شيخ قبيلة حمر بشن الحرب على المعاليا ، وأباح لهم دماؤهم وأموالهم . ونشبت بين القبيلتين معركة شديدة ، انتهت بهزيمة المعاليا ، وسميت هذه الواقعة بالقرطاس بسبب امتلاء الصحراء بقراطيس السكر والأنسجة التى كان عربان المعاليا نهبوها من تجار القافلة(٢) .

أما عن علاقة السلطان محمد حسين بمصر فإنها كانت على كل حال — طيبة ، ولو أنه كان دائم الشك فى نوايا حكامها . واكتفى السلطان بتبادل الهدايا مع الخديو سعيد ثم اسماعيل .

أما خلفه السلطان ابراهيم (١٨٧٤ — ١٨٧٥م) فانه كان آخر سلاطين دارفور . ولم يتعد حكمه القصير سنة وسبعة أشهر ، انتهى بعدها عصر سلاطين دارفور . وغدت هذه البلاد جزءاً من الأقاليم السودانية الخاضعة لمصر . وقدر لرجل لم يعهد إليه بفتح دارفور القيام بهذا العمل . أما هذا الرجل فهو الزبير رحمت العباس . تفصيل ذلك أن الخديو إسماعيل كان قد أصدر قراراً بتعيين

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٢ — ١٣٣ .
(٢) المصدر السابق ص ١٣٤ .

الزبير حاكماً على إقليم بحر الغزال . ولكى يبرهن الزبير على ولائه للخديو ، بعد ما أشيع عنه عكس ذلك ، فإنه اعتزم السفر من بحر الغزال إلى الخرطوم لإعلان هذا الولاء ، والبحث مع حكمدار السودان — إسماعيل أيوب — فيما تتطلبه إدارة هذا الإقليم من وسائل تكفل توطيد سلطان الحكومة فيه . غير أن الزبير بلغه — قبل أن يغادر بحر الغزال إلى الخرطوم — أن عرب الرزيقات وغيرهم أغاروا على حدود مديريته وقطعوا الطريق بين بحر الغزال وبين دارفور . فرأى الزبير أن يقوم أولاً بتأديب أولئك العربان ، ثم يواصل سيره إلى الخرطوم عن طريق كردفان وأعد الزبير لهذا الغرض حملة تقدم بها شمالاً إلى مواطن الرزيقات.

ونشبت بين الفريقين معركة انتهت بانتصار الزبير ودخوله شكا . ثم هرب إثنان من مشايخ الرزيقات إلى دارفور ، وطلبا من السلطان ابراهيم حمايتهما من الزبير وجنوده ، وعاهداه على الخضوع والطاعة بعد أن أعلن الرزيقات استقلالهم عن سلطنة دارفور من ٣٠ سنة مضت . ومن الطبيعى أن يرحب السلطان بحماية هذين الشيخين ، لما يترتب على حمايتهما من استرداد ما فقدته سلطنة دارفور من أقاليم(١) .

حاول الزبير إقناع السلطان ابراهيم بعدم الاهتمام بأمر هذين الشيخين للحفاظ على حسن العلاقات والمودة التى ربطت بين والده وبين الحكومة المصرية . وشرح له كيف أفسد الرزيقات الطريق الذى يربط بحر الغزال ببقية أقاليم السودان عن طريق دارفور . وختم الزبير رسالته إلى السلطان ابراهيم بأن هذين الشيخين فتنة ، ولا يليق بمثله أن يستمع إليهما . وظل الزبير يراسل السلطان عساه يقبل النصح ، ولكن السلطان لم يوافق على تسليمهما . واستعد الطرفان للحرب ، وأدى انتصار الزبير على تجريده للسلطان قرب شكا ، إلى تقدم قوات

---

(١) مكى شبيكة : السودان فى قرن ص ٨٦ — ٨٧ .

الزبير شمالا ، مكتسحاً فى طريقه كل أثر للمقاومة من جانب السلطان ، ولما رأى السلطان ابراهيم ، عدم جدوى هذه التجريدات التى بعث بها ضد الزبير ، قام بنفسه على رأس حملة أخيرة لمباغتة الزبير فى بارة . بيد أن جيش السلطان لم يستطع اقتحام حصون بارة التى اعتصم بها الزبير ، ومن ثم تراجع عنهـا ، فتعقبه الزبير وأدركه عند بلدة منواشى ، حيث دارت الدائرة على جيوش السلطان وانتهى الأمر بقتله ، وضياع ملكه سنة ١٨٧٥[1] .

ظلت دافور تحت الإدارة المصرية فى السودان من سنة ١٨٧٥م وهى السنة التى دخل فيها الزبير دارفور حتى سنة ١٨٨٣ وهى السنة التى امتد فيها نفوذ المهدية إلى دارفور . ولم يخل عهد الحكم المصرى فى دافور من محاولات ، من جانب بعض الأمراء الفوراويين لاسترداد ملكهم . كما لم يخل حكم المهدية فى دافور من حركات بعض الأمراء لتحقيق هذا الغرض كذلك . واستطاع أحد أولئك الأمراء ، وهو على دينار ، أن يظفر بحكم دارفور بعد استرداد السودان سنة ١٨٩٦ ، بشرط دفع الضرائب المقررة لحكومة السودان . وتلقب على دينار بلقب سلطان ، وظل على حكم دارفور حتى سنة ١٩١٦ . وفى هـذه السنة جردت عليه حكومة السودان حملة انهت حكم سلالة سلاطين دارفور ، وأمست دارفور مديرية من مديريات السودان الحديث .

---

(١) شقير : نفس المصدر جـ ٣ ، ص ٦٨ — ٨٣ .

نظام الحكم فى سلطنة دارفور

جرى حكم دارفور على أساس الحكم الملكى المطلق . فالسلطان هو الرئيس الأعلى للدولة ، وكلمته نافذة فى رقاب الناس وأموالهم ، ولاراد لحكمه فيهم إلاعن طريق الشفاعة . ويصل السلطان إلى العرش عن طريق الوراثة . ويتم اختياره من بين أفراد البيت المالك فى دارفور بواسطة مجلس خاص يوم وفاة السلطان الراحل . ويظل السلطان الجديد مدة سبعة أيام لايباشر فيها أى عمل رسمى ، حتى إذا جاء اليوم الثامن ، أقيم لتنصيبه حفل ضخم يحضره الخاصة والعامة من أهل دارفور . أما عن سلطته المطلقة ، فربما كان مبعثها ما قر فى نفوس الناس من أن السلطان شخصية مقدسة يجب طاعتها طاعة عمياء . يبدو ذلك واضحاً من وصف التونسى لمجلس السلطان . من ذلك أنه إذا جلس السلطان فى ديوانه للحكم ، وقف خلفه الحرس الخاص المسمون كوركوا ، وجلس القضاة والفقهاء عن يمينه ويساره ، ووقف أمامه اثنان من الأمناء (الوزراء) ثم سبعة من المترجمين ليكونوا واسطة بين السلطان وأصحاب الدعاوى . ثم يدخل أصحاب الدعاوى جاثين على ركبهم ، وإذا حياهم السلطان مسحوا التراب بأيديهم . وإذا تكلم أحد فى مجلسه لايبدأ الكلام إلا بقوله « سلم على سيدنا » إن كان المتكلم عربياً إن كان فوراويا قال :

«أباكورى دونجاجنى» ومعناها كذلك وإذا طال مجلس السلطان روح عليه خدمه بمراوح من ريش النعام ، وإذا خرج للصيد ، ظللوه بشمسية وأربع مراوح . وإذا وقع السلطان من على ظهر جواده ، وجب على من معه كائناً من كانوا ، أن يلقوا بأنفسهم من على ظهور الخيل . ومن خالف ذلك عوقب بأشد أنواع العقاب(١) .

---

(١) التونسى : نفس المصدر ص ١٥١ — ١٥٦ .

أما عن زى السلطان وشاراته فيذكر التونسى : أن السلطان يلبس قميصين من القماش الأبيض أو الأسود الرفيع المجلوب من مصر ، ويضع على رأسه كشميراً ويتلثم بلثام من القماش الأبيض ، ويضع على رأسه من هذا اللثام طيات ، وعلى أنفه وفمه لثاماً منه وكذلك على جبينه ، بحيث لايظهر منه سوى عيناه ، ويضع السلطان فى جنبه سيفاً وحجاباً مذهبين . وإذا سار رفعت أمامه سجاده(١) .

وعرف مجلس السلطان أو البلاط السلطانى باسم فاشر . ولما كان هذا المجلس يعقد عادة فى الخلاء أو فى الميدان الواسع أمام قصر السلطان ، فقد أطلق على هذا الميدان اسم فاشر . ولم يلبث هذا الاسم أن أطلق على قصر السلطان أو العاصمة التى يستقر فيه السلطان(٢) . وقد دأب السلاطين على التنقل بفاشرهم من منطقة إلى أخرى حسبما تقضى سياسة حفظ الأمن فى الداخل ، أو الدفاع عن حدود البلاد ، ضد أى معتد من الخارج ، حتى إذا كان عهد السلطان عبد الرحمن الرشيد ، اتخذ فاشره فى تندلتى(٣) . ولم تلبث تندلتى هذه أن خلع عليها اسم الفاشر ، وهى مدينة الفاشر الحالية .

لا نعرف عن قصور السلاطين القدامى شيئاً ، وأول وصف للقصر السلطانى هو الذى ذكره التونسى خاصاً بقصر السلطان عبد الرحمن الرشيد وإبنه السلطان محمد فضل . ويبدو من الوصف أنه كان يقع على شاطىء خور تندلتى ، ومن حوله منازل أمراء البيت المالك والوزراء والفقهاء وكبار رجال الدولة . ولهذا القصر سور به بابان كبيران ، خصص أحدهما للرجال ويعرف باسم وريديا ، وخصص ثانيهما للنساء ويعرف باسم وريبايا ويحتوى القصر من الداخل على ديوان للسلطان وخزائنه ، ومساكن نسائه وجواريه وحرسه الخاص (كوركوا)

---

(١) المصدر : السابق : ص ١٨٨ — ١٨٩ .

(٢) Barth, H.: Op. Cit., pp. 552-553.

(٤) التونسى : نفس المصدر ص ٦٠ — ١٢٧ — ١٢٩ .

وسواس خيله (الـكورايات) ومحل النحاس . ويعرف كل من هذه المساكن باسم اللقدايه . وخصص لـكل فئة من هذه الفئات أبواب خاصة للدخول والخروج بلغ عددها جميعاً ثمانيـة ، منها أربعة لأهل وريديا وأربعة لأهل وريبايا(١) .

وتقضى التقاليد أن يحافظ كل ذى منصب على موضع سكنه بالنسبة لقصر السلطان خلفاً عن سلف . فـكل من تولى منصباً ، عليه أن يبنى بيته فى محل صاحب المنصب الأول أو قريبـاً منه ، ويحافظ هؤلاء على هذا النظام أثناء السفر كذلك(٢) .

ويحق للسلطان أن يقتنى من النسـاء عشرات ، أربعـاً منهن شرعيات والباقيات محظيات .

عرف أفراد الأسرة المالـكة من الذكور بالأمراء ، عليهم رئيس منهم يحمل لقب باسى ، وهو المسـئول عن سلوك أفراد الأسرة المالـكة ، وترتيب زواج الأميرات(٣) . أما الأميرات فعرفن بإسم ميارم ، مفرده ميرم ، كما عرفت الأميرة الأولى بإسم إياباسى أما العجائز منهن فـكن يعرفن بالحبوبات أما السيدة الأولى بالقصر السلطانى فإنها كانت تحمل لقب إيا كورى ، أى الملـكة . وقد تـكون الإيا كورى إحدى زوجات السلطان أو أمه أو أخته الـكبرى . وتتمتع الإيا كورى بنفوذ واسع كذلك(٤) .

ويساعد السلطان فى تصريف الأمور فى الحـكومة المركزية مجلس الأمناء ، أى الوزراء ، وعددهم أربعة ، رئيسهم الأب شيخ ، وهو الوزير الأعظم ، أى

---

(١) المصدر السابق : ص ١٧٣ — ١٨٨ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٨٧ .

(٣) Arkell, A.J. : S.N.R., Vol. XXXII, Part 1, p. 44 n.

(٤) التونسى : نفس المصدر ص ٨٦ .

رئيس الوزراء . ويتكون من هؤلاء وقاضي القضاة مجلس السلطان أو فاشره . ويبدو أنه كان لكل من أولئك الأمناء الأربعة عمل خاص فى الحكومة المركزية. فأمين على شئون العسكر (كوركوا) وأمين على خزائن وأموال الدولة ، وأمين على شئون الخيل والدواب السلطانية ، وأمين على الأسلحة . ويقوم مجلس الأمناء — فضلاً عن مساعدة السلطان فى تصريف شئون الدولة — باختيار السلطان الجديد عقب وفاة السلطان بعد استشارة وجوه القوم حسبما يقضى الرسم فى وراثة عرش السلطنة ، وللأمين مجلس وحرس وأمناء على مصالحه الخاصة مثل السلطان ، ما عدا شارات الملك . ولكل منهم إقطاع خاص وحرس خاص كذلك(١) .

أما منصب الأب شيخ ، فهو منصب الوزير الأعظم ، أى رئيس الوزراء ، والقائد العام للجيش السلطانى ، فضلاً عن أنه كان يتولى حكم الولاية الشرقية من مقره فى عاصمة السلطنة . والمعروف أن الرسم جرى فى دارفور ألا يتولى منصب الأب شيخ سوى عبد خصى ، ومع هذا تولاه محمد كرا على الرغم من أنه حر . والمعروف أن محمد كرا خصى نفسه ، ويبدو أن هذا كان كافياً فى نظر السلطان عبد الرحمن الرشيد لتوليته هذا المنصب الخطير . ثم أن الأب شيخ كان المرجع الأعلى لتفسير القانون المعروف بإسم « قانون دالى » .

ومن مناصب الإدارة المركزية ، منصب الكامنة ، ويطلق عليه الفور إسم « أبا فورى » . ويذكر التونسى ، أنه كان لصاحب هذا المنصب إقطاع كبيرة وعساكر كثيرة ويفعل مثلما يفعل السلطان . ويبدو أن صاحب هذا المنصب من سلالة ملوك الفور القدماء . وقد احتفظ بهذا المنصب الشرعى فى نظر الفور إلى جانب صاحب النفوذ الفعلى فى البلاد وهو السلطان ويضيف التونسى : « إن من عادة الفور أن السلطان إذا قتل فى الحرب وسلم الكامنة ، حتى رجع

---

(١) El Tunsi : Voyage au Danfour, pp. 64, 65, 71, 85, 173, 174.

إلى محل الأمن ، يقتلونه ، لكى يخنقونه سراً ، ويولون غيره للسلطان المتولى . وإذا مات السلطان على فراشه لا يقتل الكامنة[١] .

ومن مناصب الإدارة المركزية كذلك منصب « أروندولونج » وصاحبه يقوم بعمل الحاجب فى القصر السلطانى ، وهو الحاكم العام للعاصمة والمسئول عن حفظ الأمن فيها[٢] .

ومن المناصب الهامة كذلك منصب السوميندقلة ، وصاحب هذا المنصب مسئول عن شئون الحريم السلطانى وتربية أبناء السلطان ، فضلاً عن أنه كاتم أسراره ، ومبعوثه الخاص . ولجماعة السوميندقلة رئيس يعرف بملك السوميندقلة وهو « منصب عظيم القدر ذو أبهة عظيمة وأقطاع » على قول التونسى[٣] .

وللسلطان حرس خاص من حاملى الحراب يعرفون بالكوركوا . ومن هذا الحرس توجد فرقة الموسيقى ، وفرقة المغنيين وحاملى القيثارات والطبول ومن إليهم[٤] .

واختص ملك الموجيه بإدخال السرور على قلب السلطان وتسليته[٥] ويشرف على خيل السلطان جماعة الكورايات[٦] .

وثم منصب هام هو منصب وربيايه ، ويختص بالإشراف على جميع الخصيان الموكل إليهم خدمة حريم السلطان ، ولذا فإن هذا المنصب لا يتولاه إلا خصى وهو الذى يتولى منصب الأب شيخ بعد وفاته ، وهو فضلاً عن ذلك صاحب

---

(١) التونسى : نفس المصدر ص ١٦٢ .

(٢) MacMichael, H.A.: Op. Cit., p. 105.

(٣) التونسى : نفس المصدر ص ٧٤ — ٧٥ — ١٦٣ — ١٦٤ .

(٤) Voyage au Darfour, pp. 62, 161, 178.

(٥) التونسى : نفس المصدر ، ص ١٦٦ — ١٦٧ .

(٦) المصدر السابق : ص ٧٧ .

غضب السلطان ، ورئيس سجنه ، فإذا غضب السلطان على شخص ، عهد إلى وريبايه يزجه فى هذا السجن(١) .

ويلى هـذا المنصب منصب ملك العبيدية ، وهو الحاكم على جميع عبيد السلطان خارج القصر السلطانى وفى الأقاليم ، والمسئول عن مواشى السلطـان وآلات السفر من خيم وقرب وغيرها(٢) . ولقد جرت عادة سلاطين دارفور على جلب عدد من الأرقاء للعمل فى خدمة السلطنة . ومن هؤلاء يمكن أن نميز بين مجموعتين ، الأولى الأرقاء الذين جلبهم السلاطين ، ولا سيما السلطان تيراب ، أواخر القرن الثامن عشر من جبال نوبا بكردفان ، ومن هؤلاء العبيـدية الذين يعيشون حول كبكابيـة ، وكتم وكذلك اسادنجا الذين جلبوا من إقليم برنو . أما المجموعة الثانية فهى التى كانت فى أقصى الجنوب ، وكانت موزعة بين جنوب دارفور ، وشمال بحر الغزال ، وإقليم واداى ، وأطلق على هذه المجموعة زمن التونسى اسم فرتيت ، وهو اسم أطلقه العرب على القبائل الزنجية التى تعرضت لغزو العرب واسترقاقهم .

ويلى ملك العبيدية ، ملك القوارين ، أى المكاسين ، ويتبع صاحب هذا المنصب عدد من جباة الضرائب على التجارة الصادرة والواردة . ثم ملك الجبايين ويتبعه عـدد من الجباة الذين يقومون على جباية الضرائب عيناً من غـلال وحبوب ، وغيرها . ثم ملك الحدادين(٣) .

أما عن حكم الأقاليم ، فيبدو مما ذكره التونسى أن سلطنة دارفور حتى عهد السلطان عبدالرحمن الرشيد ، وإبنه السلطان محمد فضل ، كانت تنقسم من الناحية الإدارية إلى أربع ولايات ، عرفت الواحدة منها بإسم دارفور ، ويلى الحـكم فيها

---

(١) المصدر السابق : ص ١٦٤ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٦٤ — ١٦٥

وال من قبل السلطان ، كان بمثابة ملك "Vice-roy" وهم « أباديما » على ولاية جنوب غرب دارفور ، والتكنتياوى على الولاية الشمالية و« أباومانج » على ولاية جنوب شرق دارفور ، والأب شيخ على الولاية الشرقية بالإضافة إلى عمله الأصلى الذى سبقت الإشارة إليه .

ويذكر التونسى ، أنه أطلق على كل واحد من أولئك الولاة لقب خاص يدل على علاقته بالسلطان ،وهى ألقاب مشتقه من جسم السلطان .غير أن ناختيجال لا يوافق التونسى على ذلك ، ويرى أن مناصب الولاة الثلاثة أباديما، والتكنتياوى، وأباوما ، كانت وراثيـة ، وأن كلا منهم ينتمى إلى بطن من بطون الفور . أما الولاية الشرقية التى كان يليها الأب شـيخ ، فإنها لم تكن كذلك . لأن واليها خصى .

وتذكر المراجع أنه منذ نهاية القرن الثامن عشر أو بداية القرن التاسع عشر تعدل هذا النظام ، وتحولت الولايات الأربع الكبرى فيما بعد إلى مقدوميات مفردها مقدومية ، على كل منها مقدوم . يلى منصبه بطريق التعيين ، حتى لا يزداد نفوذ الولاة القدامى على حساب السلطان . كما ألغى منصب الأب شيخ بعد النزاع الذى نشب بين الأب شيخ محمد كرا ، والسلطان محمـد فضل . وأبقى النظام الجديد على مناصب أباديما والتكنتياوى وأباوما إلى جانب القاديم ، وهو ما يعرف بالنظام المزدوج . واختلفت طبيعة نفوذ كل من الولاة القـدامى قوة وضعفاً من مقدومية إلى أخرى . مثال ذلك أن أباوما (أو منجاوى) لم يتعد نفوذه منطقه صغيرة فى جنوب شرق جبل مرة ، على حين أن أباديما (ديمانجاوى) ظل قوة لها خطرها فى جنوب غرب دارفور . أما التكنتياوى فإنه خضع خضوعاً تاماً لمقدوم الشمال . وظل هذ االنظام حتى نهاية حكم على دينار سنه ١٩١٦ م .

أما عن سلطة الوالى أو المقدوم ، فإنها كانت مطلقة،فله على الناس الخاضعين لسلطانه حق الحياة أو الموت ، ما عدا بعض الحـالات الخاصة التى يرجع فيها

إلى السلطان . ويتمتع الوالى أو المقدوم فى إقليمه بكل ما يتمتع به السلطان فى بلاطه من مظاهر ، مثال ذلك أن له حاجباً (أرولندولنج) وحرساً خاصاً (كوركوا) وجيشاً خاصاً كذلك .

وتنقسم كل ولاية أو مقدومية إلى إثنتا عشرة شرتايه ، على رأس كل منها حاكم يعرف بالشرتاى ، والجمع شراتى ، وتنقسم الشرتيايات إلى عدد من الدملجيات ، على رأس كل منها حاكم يعرف بالدملج ، وهو شيخ القبيلة . ويبدو أن لفظ دملج ، لفظ عامى معرب معناه « أسورة تلبس فوق المرفق » ويطلق على الدملج فى لغة الفور اسم دلمنج "Dilmong" ويتبع الدملج عدد من مشايخ القرى يعرفون عادة بالملوك ، ويطلق الفور عليهم إسم سجالا Sagala مفرده سجال Sagal .

ويبدو أن لقب ملك من الألقاب الشائعة فى دارفور وقد استعاره الفور من العرب وأطلقوه دون تمييز على كل ذى سلطة أو نفوذ ، من شيخ القرية إلى سلطان دارفور نفسه . أما العربان سواء من البقارة أو من الأبالة ، فكان على كل قبيلة منها رئيس ، ويعرف هؤلاء الرؤساء بالسلاطين الصغار وذلك للتفريق بينهم وبين سلطان دارفور . ويتم تعيين هؤلاء السلاطين الصغار بفرمان من السلطان ، ويتبعون واحداً من الولاة أو المقاديم السابق ذكرهم .

وجرت عادة حكام الأقاليم فى دارفور أن يرسلوا أولياء عهودهم إلى قصر السلطان ليظلوا رهائن عنده . وبذا يضمن السلطان ولاء آبائهم له من ناحية ، ويضمن من ناحية أخرى ولاء هؤلاء عندما يتقلدون حكم بلادهم . ولذا خصص السلطان لأولياء العهد وأبنائه وأبناء الأمراء منزلاً خاصاً ملحقاً بقصره ، وعهد إلى سوميندقلة بالإشراف على تربيتهم . وتعليمهم القراءة والكتابة . وقد يكون من بين هؤلاء دادات السلطان مستقبلاً .

والدادات هم الذين تربوا ونشأوا مع السلطان منذ نعومة أظفارهم .

أما عن نظام الملكية فى سلطنة دارفور ، فالمراجع تشير دائماً إلى أن الأرض ومن عليها ملك للسلطان ، يقطعها لمن يشاء من رعاياه . وقد قسم سلاطين دارفور الأراضى الزراعية إلى حواكير (مفردها حاكورة ، أى إقطاع) وأقطعوها لأفراد البيت المالك وخاصتهم وكذلك الفقهاء وكبار رجال الدولة ، بمقتضى حجج مختومة بأختامهم . فعاش هؤلاء والقائمون على زراعتها ما تنتجه هذه الحواكير من محاصيل . كما قسم السلاطين قبائل البادية على الأمراء . وفيما يلى نص وثيقة إقطاع كتبها السلطان عبد الرحمن الرشيد للفقيه عمر التونسى ، أبى الرحالة المشهور محمد بن عمر التونسى(١) : « من حضرة السلطان الأعظم والملاذ الأفخم ، سلطان العرب والعجم ، ومالك رقاب الأمم ، سلطان البرين والبحرين وخادم الحرمين الشريفين ، الواثق بعناية الملك المبدى المعين ، السلطان عبد الرحمن الرشيد . إلى حضرة الملوك والحكام والشراتى والدمالج وأولاد السلاطين ، والجبايين ، وأهل دولة السلطان من العرب والسودان أما بعد : فإن السلطان المذكور المبرر ، المؤيد المظفر ، المنصور تفضل وأمد بمعونته وأعطى العلامة السيد الشريف عمر التونسى ، قطعة من الأرض كائنة بأبى الجدول ، حاوية لثلاث حلل من حلة جولتو والدبة وأم بعوضة ، بحدودها المعروفة ، واتخامها الموصوفة حسبما حدده الملك جوهر للملك خميس عرفان . لايعارضه فيها معارض ولا ينازعه منازع من أهل المملوكة خصوصاً جبابى العيش . يتصرف فيها بأى نوع من وجوه التصرفات شاء ، هبة لوجه الله تعالى ، وطلباً للثواب فى المثاب ، والحذر ثم الحذر من الخلاف ، والتعرض من الخاص أو العام » .

ويذكر التونسى أن الحكام يسخرون رعاياهم فى زراعة حواكيرهم ، دخناً وذرة وسمسماً وفولاً وقطناً ، ثم يحصدونها ويدرسونها لهم قهراً عليهم . ويقوم أولئك الحكام ببيع هذه المحاصيل وشراء ما يلزم لجيوشهم من خيل وأسلحة .

---

(١) التونسي : نفس المصدر ، ص ٦٤ — ٦٥ .

ولهؤلاء الحكام — فضلاً عما تنتجه حواكيرهم من محاصيل — مصادر أخرى للدخل منها ، الهامل ، أى الضال من رقيق وبقر وغنم وحمير ، ومنها التقادم ، وهى الهدية التى تقدمها إليه الرعية حين قدومه عليهم من عند السلطان حاملا فرمان التولية . ومنها : الخطية ، أو الحكم وهى الغرامة التى تحصل ممن تثبت إدانته فى قضية من القضايا المعروضة عليهم للفصل فيها .

أما الإيرادات التى ينفق منها السلطان على قصره وحاشيته وجيشه ، فإن لها مصادر مختلفة منها عشر الحبوب التى يجبيها ملاك الجبايين ومساعدوه من الحضر. ويقال إن نصيب السلطان من هـذه الحبوب يحفظ فى مطامير أو مخازن خاصة لحين الحاجة إليها . أما البدو فتجبى منهم زكاة الماشية . وللسلطان عشر قيمة المتاجر الصادرة أو الواردة ، كما أن له نصيباً من الأسلحة التى تنتجها جماعة الحدادين ، هذا فضلاً عما يدخل خزينة السلطان من هدايا أصحاب الحواكير ، والتجار ، والحكام على مختلف طبقاتهم . ذلك أن العرف جرى فى دارفور ، ألا يدخل أحد من هؤلاء على السلطان إلا ومعه هدية تعرف « بالسلام » وتشتمل هذه الهدية فى الغالب على رقيق وإبل وخيل وبقر وغنم وتكاكى وعسل وسمن وسن ريش .

أما القضاء فى دارفور فكان يتمشى مع أحكام الشريعة الإسلامية ولا سيما فى المناطق التى غلب عليها الطابع العربى الإسلامى ، ويتولى النظر فى القضايا فى هذه الأقاليم قضاة تابعون لقاضى القضاة فى العاصمة .

أما المناطق التى لم يتخل سكانها عن عاداتهم وتقاليدهم القديمة ، فكانت تطبق عليهم أحكام القانون المعروف بإسم « قانون دالى[1] » ولفظ دالى هذا معناه فى لغة الفور « لسان » وقد يكون المقصود به (لسان السلطان أو أوامره)

---

(١) راجع شقير ، ج ٢ ، ص ١٣٧ — ١٣٨

وتذكر بعض الروايات أن هذا القانون ينسب إلى السلطان دالى وهو الذى جمعه وسجله فى كتاب عرف بكتاب دالى . وكيفما كان الأمر فإن هذا القانون استمد أحكامه من عادت أهل البلاد وتقاليدهم . ويقوم على تنفيذ أحكامه وتطبيقها الولاة والشراتى وأصحاب الحواكير . ومن أحكام هذا القانون على سبيل المثال :

١) أن يكون الملك وراثياً للابن الأكبر ، إلا إذا كان غير لائق للأحكام فيولون غيره ممن يتمتع باللياقة من أفراد الأسرة المالكة .

٢) قصاص السارق غرامة ست بقرات أو ما هو بثمنها ، فإذا لم يقدمها حبس إلى أن يفتديه أهله .

٣) قصاص القاتل ، القتل ، إذا كان القتل عمداً ، وإلا فدفع الدية : مائة بقرة إذا كان من البقارة ، أو مائة إبل إذا كان من الأبالة .

٤) أما الزانى ، فإن زنى بمحصنة فغرامته ٦ بقرات ، أوبايثم فبقرة واحدة ، أو بيكر فكل منهما يغرم بقرة .

٥) وقصاص الضارب . فإن كان فى الضرب جرح فغرامة ثوب من الدمور ، وإن لم يكن جرح ، فنصف ثوب . وهكذا جزاء الشاتم .

ويلاحظ أن كل هذه الغرامات يتقاضاها الحكام ، ويتقاسمونها مع السلطان ، ولذلك ما عدا دية القتل ، فإنهم يشاركون فيها أهل القتيل .

مصطفى محمد مسعد

شفيق غربال مؤرخاً

« محاضرة ألقيــت فى الجمعية المصرية
للدراسات التاريخية فى ٣/١٢/١٩٦٢ »

يمثل محمد شفيق غربال طرازاً قائماً بذاته فى قائمة من تصدوا للـكتابة التاريخية فى مصر ، وربما فى العالم العربى بأسره . وهو ينتمى إلى جيل بذاته ، له سماته الخاصة ونظرته الخاصة إلى العلم والمعرفة ؛ وهو الجيل العملاق الذى أسهم فى إعادة تشكيل الحيــاة الفــكرية فى مصر حين نقل إليهــا طرائق البحث العلمى التى عرفها العالم الغربى المتطور ، وتمثلها وهضمها ثم عاد ينتهجها فى تناول التراث العربى الإسلامى . وبعد — فغربال تلميذ أرنولد توينبى الذى بدأ مؤرخاً بالمعنى الحرفى للـكلمة لينتهى مؤرخاً للحضارة ومفلسفاً لها . وأهميته فى حركة التفـكير التاريخى فى مصر أنه يمثل نقلة لها وزنها ، وأنه ترك انطباعات حية فى تفـكير ونهج من تتلمذوا عليه . . . وهى انطباعات اختلفت قوة وضعفاً باختلاف المدارك والآفاق . فغربال فى حد ذاته يمثل ثورة فى المنهج التــاريخى فى المشرق العربى ؛ فهو يتميز — وفقاً لما قاله عنه الدكتور منصور فهمى — بذهن ذكى غنى بشتى المعـلومات ، وقدرة على التركيز والتلخيص وعلى التركيب والتحليل ... إلى جنوح للتعميق المتوغل إلى واقعية ساطعة ودقة فى النقد . وليس ذلك بغريب على من يرى أن المؤرخ المبــدع لا بد أن « يجمع إلى الدراية التامة بأصول النقد براعة الفنان المتمكن من الحذف والإثبات ، وأن يكون ناقداً فناناً يقهر المادة الغفل ليستخرج منها التاريخ الحى[1] » . وهو بعيد كل البعد عن المنهج الـكلاسيكى الذى درج عليه كتاب السيرة والتواريخ والمغازى والخطط والآثار والتراجم فى العالم الإسلامى : منذ دراساته بتفهمه لطبيعة علمه ومدارسه فى الشرق

---

(١) فى تقديمه للجزء الأول من ترجمة كتاب هربرت فشر عن « تاريخ أوربا » .

والغرب ، وطعمه بشيء من التذوق الأدبي — الفني ، مع توسيع لقاعدة المعرفة التاريخية بالأدب والفلسفة وعلوم النفس والاجتماع . وهنا يصدق عليه ما دعا إليه بعض المفكرين الأوروبيين فى القرن التاسع عشر من المهتمين بتاريخ الحضارة Kulturgeschichte من حيث جعل التاريخ محوراً للدراسات الإنسانية قاطبة . ولقد عاش غربال ومات مؤرخاً . حقيقة لقد تعرض لماتعرض له أمثاله من مناصب قيادية تسعى إليه ولا يسعى إليها . ولكنه كان يأخذ ذلك بشيء من الرفق ، ولم ينس أو يتناس جذوة المؤرخ الكامنة فيه . كما لم يشغله شيء عن قراءاته الشاسعة فى كل مجال ، وهى القراءات التى مكنته من القدرة على الإفادة وأضفت عليه وضعه البارز ليس فقط فى حقل الدراسات التاريخية وحدها ، بل فى حقل المعرفة بمعناها الواسع . وحتى فى حقل تخصصه ، أو احترافه — إن شئنا الدقة — أى التاريخ ، نجد غربال لا ينتمى لعصر أو تخصص معين ، وإن لمع فى مجالات التاريخ الحديث .

والآن نحاول أن نضع غربال فى موضعه الحق فى تاريخ الدراسات التاريخية فى مصر . وهذا يستلزم منا مدخلا إلى طبيعة التاريخ والمؤرخ وإلى طبيعة الفترة التاريخية التى عاش فيها غربال وأنتج .

كتب وليم ميتلاند (William Maitland) الذى كان أستاذاً للقوانين الإنجليزية : « إن وحدة التاريخ فى مجموعه تدفع كل من يتصدى لكتابة ناحية من نواحيه إلى الشعور بأن جملته الأولى إنما تقطع خيوطاً غير منتظمة » . وضرب لذلك مثلا بأن جذور القانون الإنجليزى تكمن فى بلاد الإغريق وأن أصول القانون الرومانى تكمن فى بابل . ثم حين قرر وجوب تقطيع خيوط العنكبوت أضاف قائلا : « وحين نقطع [هذه الخيوط] ، علينا أن نلحظ مصدر ومصير عدد من الخيوط المنفصلة المعقدة المتداخلة ، وهى الخيوط التى كانت توفر أنموذجاً كبيراً جداً بالنسبة إلى عين أى إنسان » .

وليس أصدق من ذلك ولا أكثر حيوية فى تجسيم طبيعة إحدى المشكلات الرئيسية التى تواجه المؤرخ . فهو — شأنه شأن عالم الطبيعة — تواجهه كمية ضخمة من الحقائق يطلق عليها فى التاريخ اسم الوقائع . وسواء أكانت هذه الوقائع تتكشف من ثنايا عدد لا حصر له من الوثائق ، أو ما إذا كانت بعيدة عن متناول التحقيق العلمى وسط ضباب العصور البدائية أو فى ثنايا غيوم التآمر الحديث فى المجالين السياسى والاقتصادى ، فإننا — على كل حال — نجد نشاط المؤرخ وقد حدت منه غزارة مادته . يضاف إلى ذلك أن المؤرخ يختلف عن عالم الطبيعة الذى بإمكانه أن يستعيد تجربته ؛ فمن المستحيل استعادة الحادثة التاريخية . فنحن — مثلاً — لا نستطيع أن نستدعى الملك أحمس ليذكر لنا بنفسه كيف طرد الهكسوس . ولا نستطيع استعادة معركة ووترلو لكى نتبين أسباب انتصار ولنجتون وانهزام نابليون . ونتائج اكتشاف كولمبس لأمريكا بالنسبة إلى الحياة فى أوروبا لابد أنها كانت بعيدة عن مجال التحليل حتى فى الوقت الذى كانت فيه أنباء هذا الاكتشاف أمراً جديداً . ويمكن القول بأن المؤرخ الحديث الذى يجمع ما يستطيع جمعه من أنباء الماضى قد يعرف عن هذه الأنباء أكثر مما كان يعرفه معاصروها .

فمهمة المؤرخ إذن ليست بالمهمة الهينة . والذى يفرق مؤرخاً عن آخر أن أحدهما تتشعب به الدروب جرياً وراء السرد والتفاصيل التى تسيطر على المادة وبين آخر يجمع ما يمكنه جمعه من المادة ، ثم يعيد صياغتها وفقاً لخطة مرنة تربط أطراف الموضوع بعضها ببعض ، فيخرج فى نهاية الأمر بوحدة عضوية مترابطة متفاعلة لا يبددها شيء من التكرار أو التفكك . والعبرة هنا بالكيف لا بالكم . وفرق بين المؤرخ الحقيقى و بين راوى الأحداث أو جامع المادة وناشرها .

ونحن إنما نشكل جزءاً من الحضارة العربية التى نستلهم تراثها ؛ كما أننا — من ناحية أخرى — ننتمى إلى المجتمع العالمى المتطور . والتأريخ عند العرب —

مع بعض الاستثناءات الطفيفة — إنما هو عملية من السرد تمعن فى التفاصيل ولا تدقق أو تحقق ، بل تعتمد على الرواية والنقل والخيال فى كثير من الأحيان . والتاريخ حتى وقت قريب — وحتى الوقت الحاضر — إنما هو من ملحقات الأدب القائم على الخيال . ولقد أسرف الكثيرون فى هذه الناحية ، بل امتد كثير من الأدباء إلى التاريخ وطبقوا عليه مناهجهم — إن كانت لهم مناهج — واختلط الأمر على الناس فلم يعودوا يميزون : أين ينتهى الأدب وأين يبدأ التاريخ ! وامتد فريق آخر من المهتمين بالسياسة إلى الدراسات التاريخية التى جعلوها فى كثير من الأحيان مطية لدوافع محددة . لست فى هذا المقام من المتزمتين الداعين إلى الموضوعية المطلقة[١] ؛ إذ أنها خرافة طالما أن من يكتب فى الدراسات النظرية كائن حى لابد له ميوله واتجاهاته وانفعالاته . إلا أن المؤرخ المستقل يضع كل ذلك فى إطار الحد الأدنى إلا أن تدفعه الوقائع العارية إلى انفعال معين رضى أم لم يرض . وحتى الآن لم يتحقق للتاريخ والدراسات التاريخية الاستقلال الذاتى عن دنيا أولية سديمية تكتنفها أهواء ومصالح لابد لها من عاصم .

ومن الطبيعى أن تحاول الحركات القومية أن تسند اندفاعاتها بأن تستخرج من اللاشعور القومى فترات عفى عليها الزمن كانت فيها الأمة المعنية تتبوأ مكانة سامقة سواء فى الحيز السياسى أو الفكرى أو الحضارى بوجه عام . والتاريخ هو ذاكرة الشعوب الحية ، وهو قنطرة العبور من جيل إلى جيل جيئة وذهاباً . ولكن ثمة خيط رفيع على دارسى التاريخ أن يتبينوه : ففرق كبير بين الأمجاد الحقيقية التى لا يخلو منها تاريخ أى شعب حى ، وبين الأمجاد المختلقة . فرق بين إزاحة الغبار عن الفترات الزاهية فى تاريخ الأمة وبين التزييف والتجديف .

---

(١) انظر مناقشة هذه القضية مناقشة بارعة فى :

Howard Fast, Literature and Reality

وملخص ماذهب إليه المؤلف أن « الحقيقة » لا تكمن فى فراغ ؛ بل لابد لها أن « تنحاز » .

وحين بدأت نهضتنا الفكرية لم يكن ثمة تخصص بالمعنى الضيق ، بل كان هنالك رواد يتميزون بسعة الأفق والثقافة ؛ وعلى رأس هؤلاء رجال من طراز أحمد لطفي السيد وطه حسين وشفيق غربال . وقد كون هؤلاء ما يمكن أن نسميه « بالأرستقراطية الفكرية » . فشعورهم بذواتهم وبجدة نوع ثقافتهم ومناهجهم وبخطر دورهم القيادي في المجتمع المصرى ، وقلة أعدادهم — كل هذا مما خلع عليهم أهمية خاصة وسلط عليهم الأضواء في مجالات الفكر والتوجيه . على أن نشاطهم قد اقتصر على دائرة ضيقة : فى قاعات التدريس — مثلاً — وفى حلقات الدراسة . وهذا هو دورهم الطبيعى . ولكن بعضهم — كأحمد لطفي السيد ، وطه حسين ومحمد حسين هيكل — اشتغلوا بالصحافة وتقاذفتهم عواصف السياسة بحلوها ومرها ، فتعرضوا لخبرات لا يرضى عنها كل مفكر ؛ ولم يجدوا التجاوب اللازم من الرأى العام الذى كان لا يزال مشدوداً إلى قيم وتصورات وزعامات تنزل إليه دون أن تعليه ، وتدغدغ أوهامه ولا تصارحه ، وتستثير خيلاءه بأحلام رومانسية غير واقعية . لهذا كسفت أضواء هؤلاء الرواد أنماط أخرى من الرجال أكثر شهرة وأشد جلبة : الساسة ومن فى ركابهم من الصحفيين والمرتزقة الذين غلبتهم الأطماع والمكاسب الوقتية فلم يربوا فى الشعب قيماً جديدة وسلطوا سهامهم على من ليس على شاكلتهم . ولم تكن تقلبات السياسة المصرية فى فترة ما بين الثورتين مما يغرى مفكراً جاداً بالانزلاق إلى مهاويها : فطابعها العام ديماجوجى يأنفه المفكر الحر ، ووسائلها تحارب المنطق العلمى الجاد والنقد البناء . هذا هو السر فيما أطلق عليه اسم « البرج العاجى » .

وهكذا انعزل غربال وأمثاله ، أو فرضت عليهم العزلة فى جو عام لا يحكمه منطق معقول . جماهير حظها من الثقافة العامة قليل ، تغريها عبادة البطولة بالسير منقادة وراء بعض الزعامات التى ليست فى مجموعها زعامات مثالية تحس بالمسئولية القومية . لهذا لا ندهش إذا ما وجدنا عدداً من مفكرينا الجادين ، رغم إيمانهم النظرى بالحرية وبالديمقراطية ، لا يهضمون الاتجاهات الجماهيرية فى ذلك الوقت

كما كانت عليه . لهذا اتجه الإيمان بالفرد المبرز إلى الحلول محل الإيمان بالجماعة والأمة والبشرية عامة . وقد قوى هذه النكسة شعور كثير من المفكرين بأن الزيادة فى عددالملمين بالقراءة ورخص المطبوعات بدلا من أن تؤدى إلى تنوير الجماهير شجعت على ظهور الكتب التى انعدم فيها التركيز واعوج فيها الفكر وخلت من الفن . ولم يشأ معظم الكتاب البارعين أن ينحنوا لتلبيةمطالب التجارة الفكرية ، وتمسكوا بمستويات صعبة المنال فى عالم الفن والفكر . وبلغ ازدراء الذوق الشعبي غايته فى مذهب الفن للفن الذى نادى به توفيق الحكيم ومدرسة أبوللو . وكره الكثيرون الحاضر ورؤية الجماهير الجاهلة يخدعها الساسة والأثرياء ، فولوا وجههم شطر الماضى يحتمون به وينتعشون .

وغربال فى أعماقه مفكر فنان . ومن سمات المفكر الأصيل أنه مرآة لعصره الذى هو استمرار لتراث الماضى . حقيقة إنه فى معظم حياته الفكرية يركز على القلة الموجهة والزعامات الفردية ، وبخاصة فى المجال الفكرى (يتضح ذلك من اختياره لكتاب المدينة الفاضلة عند فلاسفة القرن الثامن عشر ، لكارل بيكر لكى يترجمه — وهو الكتاب الوحيد — على ما أعلم — الذى ترجمه غربال ، وإن يكن قد أشرف على مراجعة الكثير من الترجمات وتقديم عدد كبير من الكتاب والمؤرخين والمترجمين . كما يتضح من بعض الشخصيات التى عرض لها فى أحاديثه الإذاعية كسقراط والحسن البصرى وأبى العلاء المعرى والغزالى وابن تيمية وتولستوى وجمال الدين الأفغانى — وقد خلع على هؤلاء صفة أنهم غيروا وجه التاريخ ، ومن بعض موضوعات محاضراته فى هذه الجمعية : ألكسيس دى توكفيل وتولستوى وأرنولد توينبى) . إلا أن من سمات الفنان الأصيل حبه للشعب : الشعب لا باعتباره مجموعة من الأفراد لها مايسميه بعض علماء الاجتماع بالعقلية الجماعية ، بل باعتباره وحدة ميتافزيقية تعكس الصورة التى يتخيلها المفكر الفنان لمفهوم الشعب والجماهير . وجيل غربال رغم كونه قد شهد اندفاعة الجماهير المصرية فى إبان ثورة ١٩١٩ ، تلك الاندفاعة العملاقة التى ألهمت توفيق الحكيم

فى « عودة الروح » ، كما ألهمت سيد درويش فى أنشـوداته الشعبية ، وكانت من وراء معظم إنتاج المثال الـكبير محمود مختار ، إلا أنه شهد كذلك نـكسة الثورة ، وفشل الجماهير الشعبية — لأسباب خارجة عن طاقاتها — فى متابعة أهدافها الثورية فى المجالين القومى والاجتماعى .

وغربال لم يـكن من ساكنى الأبراج العاجية . ولـكنه كان يرى أن نظرة المؤرخ تختلف عن نظرة الرجل الذى يعيش فى غمرة الأحداث وحمى الـكفاح . وهو يحب الناس ، وإن لم يكن يرتاح إلى كل الناس . وهو يحب المعرفة ، ولـكنه — كما سبق أن قلنا — يعشق التاريخ الذى كان ينظر إليه نظرة الناقد ، وربما الناقد الذى يرى الأحداث من بعيد . ولم يشأ غربال أن يتخصص بالمعنى الضيق ، وإنما كان موسوعى التـكوين الثقافى ؛ وربما كانت سعة ثقافته مسئولة عن القلة النسبية فى إنتاجه . والتاريخ — آخر الأمر — يقوم على منهج صارم لا يفتقر الشطط والفروض والخيال ، ومن ثم كان الجهد الـكبير الذى يستلزمه التأليف فى التاريخ . ولما كان غربال رائداً فى حقل تأسيس الدراسات التاريخية بشكلها الحديث ، ولما كان لا يبخل بوقته على طلبته ومريديه ، فإنه أسهم فى أكثر من مجال إسهاماً يمليه عليه وضعه فى الحياة الفـكرية المصرية ، فأشرف على مراجعة ونشر مؤلفات طلبته وتقديمها ، وأعطى الـكثير من وقته لهذه الجمعية منذ أن ترأسها فى عام ١٩٥٠ ، ولذا ينبغى ألا نسرف فى مطالبته بالـكثير . ومع ذلك فإنه أشار إلى الخطوط العريضة التى على المؤرخين الجدد أن ينتهجوها . ولم يـكن جامداً ، كما سنراه خلال الترتيب الزمنى لمؤلفاته الرائدة : فهو يبدأ عثمانياً من حيث الاهتمام ، ثم يرتاد مصر الحديثة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، مؤرخاً لمحمد على الذى لا شك كان له أثره فى تحويل مجرى تاريخ مصر الحديث ؛ ثم يـكتب عن « تونس الخضراء » — موطن أجداده الأول — فى سلسلة دائرة المعارف الإسلامية . توجيهه الأصلى ، وقاعدة تفـكيره الأساسية : العالم الإسلامى فى ماضيه وحاضره ؛ ومصر جزء منه .

ورويداً رويداً نجده يخص مصر باهتمامه الكبير ، وبخاصة حين تعود مصر منتفضة فى أعقاب الحرب العظمى الثانية ، فترغم انجلترا على التفكير فى الجلاء . ربما يكون هذا هو ما ألهمه بتتبع قصة المفاوضات المصرية البريطانية ، ولقد أسف تلامذته ومريدوه أنه لم يكتب من هذا المشروع إلا الجزء الأول حتى معاهدة ١٩٣٦ . ثم تنتفض مصر انتفاضة ثورية فى عام ١٩٥٢ ، هى لاشك التى ألهمته بسلسلة محاضراته الرائعة فى الإذاعة الأوروبية التى ترجمت ونشرت فى عام ١٩٥٧ بعنوان « تكوين مصر » — وهى سلسلة المحاضرات التى تعد خلاصة اتجاهه الفكرى ، والتى يبدو فيها بحق تلميذاً لأرنولد توينبى . وبعد أن سيطرت مصر على مقدراتها واسترجعت إرادتها ، انطلقت إلى آفاق العروبة ، وخلعت عليها رسالة تبنى الاتجاهات العربية التحررية . وكان غربال مديراً لمعهد الدراسات العربية العالية حيث ألقى محاضراته عن العالم العربى ، وهى المحاضرات التى طبع بعضها تحت عنوان : « منهاج مفصل لدراسة العوامل الأساسية فى بناء الأمة العربية كما هى عليه اليوم » .

أرأيت كيف كان غربال مرآة لعصره باعتباره فناناً ؟ العالم الإسلامى بمعناه الواسع فى قديمه وحديثه هو مجال اهتمامه ، وبخاصة آثار تفاعل هذا العالم الإسلامى بالحضارة الغربية . خلف ذلك شيئاً من التوتر ، لم يكن غربال يجده مجالاً للدهشة أو حافزاً للجزع ؛ فهو فى ذاته ليس شيئاً فريداً « يماثله التوتر الذى ينجم عن التقاء جيل الآباء بجيل الأبناء فى الأمة الواحدة ، أو الذى يكون بين الخاصة والعامة فى أمة ما ، أو بين الأديب ومجتمعه فى أى مكان . وأظن أنه يصعب بعض الشىء أن نعثر على العقلية العربية والعقلية الغربية مختلفتين إحداهما عن الأخرى بتلك الدرجة من التغاير التى يثيرها التعبير . وقد يكون أكثر مطابقة للواقع أن نميز بين رجل أميل للمحافظة وآخر أميل للتجديد . وقد يكون أكثر مطابقة للواقع أن نتحدث عن تأثير القديم وتأثير الجديد بدلاً من أن نتكلم عن الشرق

والغرب[١] » . فهو لا يعرف مشكلة ما فى مصر إلا ولها نظير فى أوروبا ؛ والمشكلات هنا وهناك تختلف بطبيعة الحال فى مظاهرها وفى حدتها أو تعقيدها ... « ولو أن الرجل منا قدر عليه أن يواجه فى نفسه صباح مساء الصراع بين الشرق والغرب وفرض عليه أن يبحث عن صيغة يوفق بها بين عقليتين لكان بذلك شقياً » .

هذا هو جوهر تفكير غربال التاريخى : الصدام بين الغرب والشرق ؛ تحدى الغرب واستجابة الشرق الإسلامى . وهذا هو الذى يميزه عمن أخذوا التاريخ بظواهره وأحداثه دون نفاذ إلى أعماقه . وغربال — كما سبق أن قلنا — أديب فنان . وأرقى الخطوات فى مسير الثقافة الإنسانية هى شمولها للانسانية جميعها . وفى سبيل هذا الهدف حطم التأليف التاريخى قيوده التقليدية المعروفة ، من شئون عامة وحروب ودين ليسجل كل المظاهر العقلية الإنسانية . وقد ساعد الأدب على هذا التقدم : فالأدب هو المعبر عن رغبات الإنسان وأمانيه ، كما ساعد عليه أيضاً العلم وهو التعبير الجدى الصارم عن نزعته إلى المعرفة . وقد تخطى عون الآداب فى هذا السبيل حدود الشكل والأسلوب التى تصفها الكتب التى تعالج موضوع التاريخ كأدب ، فزودت المؤرخين ببصيرة نافذة شديدة المرونة والعمق فى أمور العقل الإنسانى . إلا أنه إذا تغلب الأدب على المؤرخ لإهماله العلم ، أو إذا تغلب عليه العلم لإهماله الأدب ، جاءت الصورة التى يرسمها للانسانية ملتوية مشوهة . فتدوين التاريخ يقترب من الكمال بقدر مابين المعرفة والفن من اتساق فى العمل . انظر إليه — مثلاً — يقدم لكتابه عن تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ، تجد مصداقاً لهذه النظرة العامة . فهو يقول : « فى هذه الفصول محاولة لتركيب صورة واضحة من الحوادث والوقائع والسياسات والخطط والبواعث والأغراض

---

(١) من كلمته فى المجمع اللغوى فى ٤ نوفمبر ١٩٥٧ عن محمد حسين هيكل بمناسبة شغله المكان الذى خلا فى المجمع بوفاة هيكل .

والأمانى والشهوات التى توالت على مصر والتى يتكون منها تاريخ العلاقات بين مصر وانجلترة إلى هذه الأيام . وقد تتابعت هذه الأشياء المختلفة علينا نحن المصريين منفصلة أو متصلة وحكمنا عليها بما شئنا أو بما أريد لنا . واليوم وقد بلغنا نقطة تحول فاصلة ، ووصلنا إلى مرحلة حاسمة فى المصير ، وجدت من الخير أن نقف عند هذه المرحلة موقف التفكير المنظم وهذا التفكير المنظم لابد أن يقوم على أساس . وهذا الأساس هو ما سميته الصورة المركبة من المتفرقات التى أشرنا إليها . ولهذا العمل خطورته ومسئوليته وصعابه . وله أيضاً متعته . ولكنه جد لازم . وهو واجب وطنى ينبغى على كل مواطن أن يحاول أداءه لنفسه بالقدر الذى يستطيع » . ولقد كتب هذا التقديم لكتابه فى مايو ١٩٥٢ حين كانت مصر تمر بمرحلة الغليان السابق على الثورة . ثم يستكمل هذا التقديم بتبيان نظرته إلى قيمة الشخصيات الفردية فيقول : « وقصة الرجال فى تاريخ المفاوضات المصرية تكسب الموضوع متعة أى متعة : فلكل منهم شخصيته وصفاته ، وفى كل واحد منهم عناصر القوة وعناصر الضعف لا يشارك غيره فيها . ويكفى أن نذكر أسماء بعض من أصبحوا منهم فى ذمة التاريخ لنستدل على مافى هذه الناحية من الموضوع من ثروة للمترجم: الملك فؤاد ، سعد زغلول ، حسين رشدى ، عدلى يكن ، عبد الخالق ثروت ، اسماعيل صدقى ، محمد محمود ، أحمد ماهر ، محمود فهمى النقراشى ، عبد العزيز فهمى ، وغيرهم . هؤلاء الرجال كانوا من طراز لم تعرفه مصر قبل حقبة المفاوضات . فقد تجمع فى مصر فى ثلاثين عاماً من ذخيرة العمل السياسى ما تجمع لدى غيرها من الأمم ما يماثله فى قرن أو قرون من الزمان . ويحمل التجمع الغزير فى الزمن القصير ما يحمل النبات ينمو فى ظروف مصطنعة من العلامات والخصائص ، ولم يكن لمصر حيلة فيما حصل ، وها هى ذى قد كسبت الاهتمام بالمسائل العامة فعليها أن تكسب تنظيم الاشتغال بالسياسة والعناية بالتربية الوطنية » .

بعد هذه الإلمامة بطريقة تفكير غربال ومنهجه فى الدراسات التاريخية ، أعود فأحاول أن أطبق هذه الملحوظات على أهم مؤلفاته مسلسلة زمنياً ، وبذلك

أتجنب — بقدر الإمكان — إغراء التعميمات التى لا شك لها خطورتها من حيث تقييم الجهد التاريخى .

سأبدأ برسالته التى حصل بها على درجة الماجستير من جامعة لندن ، وهى الرسالة التى أشرف عليه فى أثناء تحضير مرحلة منها الأستاذ أرنولد توينبى ثم نشرت فى عام ١٩٢٨ بعنوان :

"The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mohamed Ali"

اختار موضوعاً لدراسته إذن فترة هامة من تاريخ مصر : وهى الفترة الواقعة ما بين مجىء الحملة الفرنسية فى عام ١٧٩٨ وعقد صلح بوخارست بين روسيا وتركيا فى عام ١٨١٢ . وأهم ما فى هذه الرسالة أنها تربط أحداث مصر بالموقف الدولى : بحروب نابليون ودبلوماسيته وبالسياسات الأوروبية العامة ؛ كما تربطها بالمسألة الشرقية وتاريخ تركيا . والفترة التى اختارها غربال موضوعاً لدراسته فترة حاسمة فى تاريخ كل من مصر وتركيا : إنها بداية المرحلة الإيجابية من المشروعات التوسعية الأوروبية فى العالم العربى ، وبداية مرحلة جديدة فى تاريخ المسألة الشرقية بكل ما فى طياتها من محاولات للاصلاح فى تركيا ، ومن حركات قومية من نوع خاص فى البلقان التركى ، وما بين هذه الحركات القومية والدول الأوروبية الكبرى — وبخاصة روسيا — من صلات ، ومشكلة البوغازين وموقف انجلترا منهما ومن البحرية الروسية فى البحر الأسود . لهذا كان العنوان الجانبى للبحث : « دراسة لدبلوماسية العهد النابليونى — مبنية على دراسات فى دور الوثائق البريطانية والفرنسية » .

وقد أهدى غربال الرسالة لتوينبى باعتباره : « معلماً عظيماً وأستاذاً ملهماً » . وقدم توينبى للرسالة المنشورة بكلمات تبرز أهمية البحث ، مؤكداً أنه قد استفاد من الإشراف عليه أكثر مما أفاد ، مشيداً بصفات غربال المؤرخ الناشىء : فهو على اتصال بالشرق والغرب ، وهو بعيد كل البعد عن الأهواء والميول

التى تحيط بموضوع دراسته ، بحيث لو أن اسمه لم يطبع مع البحث لكان من الصعب القول بأن المؤلف إنجليزى أو فرنسى أو مصرى أو ينتسب إلى بلد آخر غير إنجلترا ومصر وفرنسا . وقد أشاد توينبى بهذا التجرد الذى اتسم به غربال حين كتب رسالته الأولى ، مؤكداً أن ذلك أمر صعب نسبة إلى الرواسب التى خلفها لدى المصريين ما كان من ذكرى علاقاتهم السياسية بانجلترا منذ أكثر من قرن . وأضاف إلى ذلك ما اتصف به غربال المؤرخ الناشىء من إلمام بعلم استخراج المادة التاريخية من الوثائق ، وعرض الحقائق التى يصل إليها . وأتبع توينبى تقديمه بدراسة مقارنة لمصر العصور الوسطى ومصر الحملة الفرنسية ، وهى الفترة التى نكبت فيها مصر بالركود ، بحيث حين جاءتها الحملة الفرنسية واصطرع الفرنسيون والإنجليز على الأراضى المصرية كان ذلك بالنسبة إلى المصريين وإلى مؤرخهم الجبرتى وكأنه مجموعة من السوبرمن ، تحارب مجموعة أخرى من السوبرمن ؛ على حين أن الفرنسيين والإنجليز كانوا بشراً ، إنما بشر من نوع خاص : توصلوا إلى طرائق حديثة فى العلم والمعرفة والتنظيم . ولم يدرك هذه الحقيقة من المصطرعين المسلمين على السلطان فى مصر بعد جلاء الحملة سوى محمد على الذى أكمل الاتجاهات التى عرفتها مصر بمجىء الفرنسيين ، ووجه مصر وشعب مصر وجهات جديد . لم يكمل غربال قصة محمد على ، وإنما انتهى عند الفترة التى ثبت فيها محمد على سلطانه ووضع أسس حكمه . ومنذ ذلك الوقت أخذت المسألة المصرية تشق طريقاً خاصاً بها إما فى ثنايا المسألة الشرقية العامة أو منفصلة عنها .

رسالة غربال هذه عن أصول المسألة المصرية تمثل نقلة لها أهميتها فى الكتابة التاريخية فى مصر . فمؤلفها اعتمد على الوثائق الأوروبية غير المنشورة ، وهذا أمر جديد فى تاريخ الدراسات التاريخية فى مصر . سبقته لا شك أبحاث من هذا النوع منها — على ما أذكر — بحث الدكتور سيد كامل عن « مؤتمر الآستانة والمسألة المصرية فى عام ١٨٨٢(١) » ، وهو البحث الذى نشر بالفرنسية

(١) La Conférence de Constantinople et la Question Egyptienne en 1882.

فى عام ١٩١٣ . بنى هذا البحث حقيقة على الدراسة الوثائقية . ولكنه لم يعتمد سوى على الوثائق والحوليات المطبوعة — وله فى ذلك عذره ؛ إذ أن دور الوثائق لاتسمح بالاطلاع على الوثائق إلا بعد مرور فترة معينة ، بحيث لا يتضمن الاطلاع على الوثائق الرسمية إفشاء للأسرار التى تمس السياسة العامة للدولة المعنية . الملحوظة الثانية على هذه الاتجاهات الرائدة أنها نظرت إلى الأحداث والسياسات من وجهة النظر القانونية ، مثل الدكتور سيد كامل فى ذلك مثل الدكتور محمد حسين هيكل حين وضع بحثه عن « دين مصر العام » ، وهو البحث الذى حصل به على درجة الدكتوراة من إحدى الجامعات الفرنسية أيضاً . ربما كان مرجع ذلك أن التاريخ بشكله المنظم لم يكن حينئذ قد أصبح علماً مستقلاً قائماً بذاته ، وأنه لم يكن قد ظهر فى مصر مؤرخون متخصصون بمعنى الكلمة . وبهذه المناسبة يجدر بى أن أشيد بالجهد الذى بذله فى هذا المضمار الدكتور محمد صبرى « السوربونى » الذى تعتبر أبحاثه عن عصرى محمد على وإسماعيل و « نشأة الرأى العام فى مصر » ، وهى الأبحاث التى وضعها باللغة الفرنسية ، مما لا غنى عنه لكل من يدرس تاريخ الفترات التى تناولها . بيد أن بحث غربال عن بداية المسألة المصرية كان أسبق من الناحية الزمنية ، وإن يكن يبدو أن هذين الرائدين كانا يحصلان الدرس فى فترة واحدة : إذ كان الدكتور صبرى — وهو طالب فى فرنسا — ممن اتصلوا بسعد وبالوفد فى باريس فى أعقاب الحرب العظمى الأولى . لهذا نستشف فى مؤلفات صبرى الأولى الروح القومى الذى لا نستشفه عند غربال الناشىء . فصبرى أديب مؤرخ ؛ على حين أن غربال مؤرخ أديب — ولكل من الرجلين قيمته ، ولمنهاج كل منهما وزنه . وفرق بين التزمت الإنجليزى البارد فى العلم كما تلقنه غربال فى انجلترا ، وبين العاطفية والنزعة الفنية ، والشاعرية الفكرية التى جعلت من باريس فى فترة ما — وربما إلى اليوم — قبلة المفكرين والفنانين الكبار من شتى أنحاء العالم .

وقد أرشدت هذه البداية غربالاً إلى الطريق الذى لابد منه فى توجيه

دراسات تلامذته الذين اعتمد الرعيل الأول منهم على وثائق دور المحفوظات المصرية وتناولوا بالدراسة موضوعات هامة فى تاريخ مصر الحديث . وأسهم هو بدوره فى هذا المجال ، مسلطاً الأضواء على فترات أو شخصيات لها أهميتها ؛ إذ كان غربال يعرف كيف يختار موضوعه : واختيار الموضوع ذاته يعتمد على نوع الشخصية التى تختار . كان غربال إما يحصر موضوعه أو يضع الاتجاه ذاته والخطوط العريضة ، تاركاً الدراسات الجانبية لتلامذته ومن يحذو حذوه . ومما نستعرضه من مؤلفاته نجده يبتعد — قدر الاستطاعة — عن الدراسات الكلية الشاسعة ، وبخاصة فيما يتعلق بالفترات أو الشخصيات التى لم تسلط عليها الأضواء بعد . إذ أنه كان يدرك أن حقل تاريخ مصر الحديث بكر ، وأنه قبل التصدى للكتابة لابد من نشر الوثائق وأدوات البحث الأخرى .

وفى عام ١٩٣٢ نشر بحثه عن «الجنرال يعقوب والفارس لسكاريس ومشروع استقلال مصر فى سنة ١٨٠١» . وفى هذا البحث أبرز فكرة استقلال مصر عن تركيا ، على أساس التفاوض فى العواصم الأوروبية ، كما تخيلها يعقوب حنا ولسكاريس بعد جلاء الفرنسيين عن مصر . وقد بنى هذا البحث على المصادر العربية والإفرنجية ؛ وكعادته فى مثل هذه التآليف ، واستمراراً لرسالته التى أشار فيها إشارة سريعة إلى هذا المشروع ، نجده يربط هذا البحث ربطاً محكماً بالموقف الدولى وبأوضاع مصر ذاتها ومستوى تفكير أبنائها وأحوالها الاجتماعية .

وفى عام ١٩٣٦ نشر بحثه : «مصر عند مفترق الطرق — رسالة حسين أفندى الروزنامجى» . فى هذا البحث يتناول مجموعة الأسئلة التى وجهها إستيف مدير الإدارة المالية فى عهد الحملة الفرنسية إلى حسين أفندى الروزنامجى أحد أفندية الروزنامة فى مصر ، وإجابات حسين أفندى على هذه الأسئلة . وهذا البحث أنموذج للتحقيق العلمى ، ولا يزال حتى الوقت الحاضر من المصادر الأساسية لأحوال مصر العثمانية .

وبداية الحملة الفرنسية ، ومشروع يعقوب حنا ولسكاريس الخاص باستقلال مصر في سنة ١٨٠١ ، ومصر عند مفترق الطرق . . . كل هذا لابد أن يغرى غربال بالدخول إلى عصر محمد على جملة وتفصيلاً . والموضوع ذاته جدير بالاهتمام . ولايزال مثاراً للنقاش حتى الوقت الحاضر طبقاً لنوع النظرة التي تحيط بمن يتناول عصر محمد على والرجل ذاته ونوعية مستوى الشعب المصرى في الفترة التي تولى فيها محمد على الحكم والتي أرسى فيها دعائم هذا الحكم ، ثم حول مجرى تاريخ مصر الحديث شاء هذا الحكم من يقرأ تاريخ محمد على أم لم يشأ .

ظهر كتاب « محمد على الكبير » في عام ١٩٤٤ . وهذا الكتاب قمة من قمم الدراسات التاريخية التي كتبت باللغة العربية على الإطلاق . ورغم القلة النسبية لعدد صفحاته ، فإنه يفرض علينا وقفة خاصة : إذ أنه أنموذج متكامل ، وربما كان الأنموذج الوحيد ، للكتابة التاريخية كما يراها غربال . فمحمد على هنا ليس شخصية تتحرك في الزمان والمكان ؛ ولكنه محور لدراسات : تبدأ الدراسات بمصر العثمانية ، ثم الحملة الفرنسية ؛ وتنتقل إلى أوروبا وتركيا ، ثم إلى أحوال المجتمع المصرى كما تسلمه محمد على ، ثم التحول البطىء لهذا المجتمع وفق ما ارتأته له مشيئة محمد على . مجتمع ينتقل من حال إلى حال ، على الأقل في دوائره العليا ، إذ مسائل التغير الاجتماعى لا يمكن تناولها بنظرتنا إلى مسائل التغير المادى . . . مجتمع مصرى متخلف توضع له أدوات وأركان التغير التقدمى ولو بعد حين طويل . وغربال يحاول أن يخلع على محمد على خطة محكمة هى التي أفضت إلى بناء قواعد الدولة الحديثة في مصر ، ويصوره لنا يدفع جيل الفلاحين والعمال والجنود المصريين إلى آفاق فسيحة ، ويحاول أن يبرر شدته على الشعب والمماليك وتبنيه « للارستقراطية التي تتكلم اللغة التركية » . وعلى أى حال فالمؤرخ ليس القاضى الذى يمسك بيديه موازين العدالة ويوزع الخير والشر كما يحلو له ، وإنما هو يحكم على الأشخاص والأعمال في نطاق الطبيعة البشرية .

نشر هذا الكتاب فى « سلسلة أعلام الإسلام » — وهو يختلف عن مؤرخى مصر الحديثة الذين ينظرون إلى مصر العثمانية باعتبارها جزءاً من تاريخ مصر؛ فى حين أن غربال يعتبر مصر العثمانية ومصر محمد على جزءاً من تاريخ الإسلام . وقد برر هو ذاته اختياره محمد على علماً من أعلام الإسلام، على اعتبار أن مصطلح « إسلامى » لا يقف عند فترة تاريخية معينة . ثم جعل من محمد على محوراً لدراسة عصره فى الشرق والغرب ، مصطنعاً أسلوب التحليل والتركيز والربط كأحسن ما يكون الاصطناع . وصدر فى هذا الكتاب عن تمكن تام من موضوعه ، وعن أسلوب للتعبير يصطنع الدقة المتناهية فى اختيار اللفظ ، وطرق العرض الفلسفية وطرائق علم النفس ومناهج علم الاجتماع . وهو فى هذه الترجمة إسلامى بالمعنى الواسع . يربط موضوعه فى إطار تجسيم ما قد قام به محمد على مع الرفق الشديد حين يعدد له الهنات الهينات . انظر إليه يقارن بين مصر المماليك المتأخرين ومصر المماليك الأول :

« مصر بيبرس محور ذلك العالم العربى الذى اكتسب مقوماته وانفرد بشخصيته على أثر انهيار الخلافة العباسية . وهو اجتماع يتركب من طوائف وجماعات لها شخصيتها وقانونها وعرفها ووظيفتها . فمن أصحاب السيوف إلى أصحاب الأقلام ، ومن أهل الفلاحة للأصناف (أصحاب الصناعات) ، ومن أرباب السجاجيد إلى هيئات التدريس — وهلم جرا .

ويكتسب ذلك الاجتماع الصاخب حيويته من حكم الجماعات نفسها بنفسها ، كما يكتسب لوناً من التنسيق والانسجام من شخصية السلطان ؛ يدفع الناس بعضهم ببعض ، ويحاول أن يخضع الأهواء والمصالح لجهود عامة فى تحقيق مثل عليا تهم الناس جميعاً . ولكن كانت آفة ذلك الاجتماع ما صحبه من سرف وتبديد كان من شأنهما على توالى الزمن وضع أعباء على الطوائف المنتجة من أهل الفلاحة والصناعة والتجارة ، أنهكت قواها الحسية والمعنوية . وكانت آفته

الأخرى من أول الأمر انصراف الناس نحو شئونهم الخاصة بأشخاصهم وجماعاتهم، وابتعادهم عن الشئون العامة واعتبارهم إياها « سياسة عليا » ، كما نقول الآن ، هى مما ينبغى النظر فيه للسلطان والأمراء ، وليست مما ينبغى للرعيـة . وقد وجدوا فى تعليم أئمتهم ما يبرر إيثارهم العافية » .

وفى هذه الفترة أيضاً صدر غربال للكتاب الذى أصدرته « دائرة المعارف الإسلامية » عن : « تونس الخضراء » بمقدمة سياسية تناولت الوضع الدولى السابق على فرض فرنسا حمايتها على تونس؛ إذ لا يمكن فهم هذا التطور فى السياسة الفرنسية إلا بربطه بأوضاع المسألة الشرقية والحرب الروسية — التركية (١٨٧٧—٨)، ثم مؤتمر برلين وما طرح فيه على بساط البحث من تقسيم للامبراطورية العثمانية . وهذه المقدمة القصيرة المركزة تدخل بنا إلى المقدمات الأخرى المركزة التى وضعها غربال لكثير من مؤلفات وترجمات طلبته والعاملين معه . وتمتاز هذه المقدمات بالشمول ، وتهيئة الذهن للموضوع ؛ بل إن بعضها مما يغنى الدارس غير المتخصص عن الإيغال فى تفاصيل الموضوع ذاته .

وفى عام ١٩٥٢ نشر غربال الجزء الأول والأخير من كتابه عن « تاريخ المفاوضات المصرية — البريطانية » ، وهو أطول ما كتبه غربال باللغة العربية . ويخيل إلى أن غربال لم يعط نفسه فسحة من الوقت لصقل هذا الكتاب ومراجعته. ولذا فإننا نجد مراحله الأولى تختلف عن مراحله الأخيرة التى يسرف فيها فى عرض النصوص الكاملة لمشروعات الاتفاقات ومحور المفاوضات بين الإنجليز والمصريين . وكان يستحسن أن يلخص مضمونها ، على أن تورد النصوص فى ملاحق مستقلة .

على أن غربال — باعتباره رائداً من رواد التاريخ الحديث ، وتاريخ مصر الحديثة بالذات — يلفت النظر فى الفصل الأول من هذا الكتاب إلى مصادر التاريخ المصرى الحديث ، على الأقل فى فترة دراسته . هناك مثلاً المجموعات الرسمية التى أصدرتها الحكومتان المصرية والانجليزية ، أو مجموعات الكتب

الملونة : بيضاء وخضراء وزرقاء . وهناك الصحف والمضابط البرلمانية . وأهمية كل ذلك نسبية طالما أن الوثائق الرسمية الأصلية لم يكشف عنها اللثـام بعد : فالوثائق الرسمية المصرية تقف عند عام ١٨٧٩ ، أى قبل موضوع بحث غربال بسنوات ثلاث ؛ والوثائق الانجليزية — على ما أعلم — تقف عند عام ١٩١١ . وللآن لم تقم دراسة وثائقية للفترة التالية على عام ١٨٨٢ فيما يتعلق بالعلاقات بين مصر وانجلترا سواء بالإنجليزية أم بالعربية .

ثم ينتقل فى هذا الموضوع إلى المذكرات الخاصة ، فيقول إن كتابتها لم تتأصل بعد بين رجالنا — حتى مذكرات الدكتور هيكل فى السياسة المصرية هى لديه أقرب إلى التاريخ منها إلى المذكرات لأنها لم تـكتب وقت حدوث الوقائع ، بل بعدها بوقت ما . وينتقل بعد ذلك إلى التراجم ، فيسجل قلتها إن لم يكن عدمها. ونوه بترجمة عباس محمود العقاد لسعد زغلول ، ونقد بعض جوانبها ، وخرج إلى أنها بحث ممتع ؛ ولـكنه لايعين كثيراً على الترجمة لسعد زغلول !! .

وقد انتقل غربال فى آخر هذا الفصل إلى الدراسة التاريخية ، ونوه بجهود الأستاذ الرافعى فى جمع مادة تاريخ مصر الحديثة منذ أواخر العهد العثمانى ، وأخذ عليه طريقته فى الحـكم : الميزان ذو الـكفتين ؛ وهذه طريقة وإن يكن لها وزنها فى دنيا القضاء والقوانين إلا أنها لاتصدق على التاريخ . فالعدالة فى الحـكم التاريخى — عند غربال — لاتتحقق على هذا الوجه السهل ، ولا تتم إلا بالتقدير العام لسياسة أو لموقف .

على أن بحث غربال فى تاريخ المفاوضات يشتم منه التفاعل بالأحـداث والخروج بعض الشىء عن التجرد الذى لمسناه فيه حين وضع رسالته عن « أصول المسألة المصرية وظهور محمد على » . فهو يكتب فى موضوع حساس عاش معظم فترته . وكشأن المواطن الذى لابد مهتم بمصائر بلده ، نجد غربال يبتعد عن تزمت المؤرخ ، ويمسك بالميزان الذى أخذ على الرافعى أنه جعله ذا كفتين : فهو له

آراؤه الخاصة فى المواقف والرجال ، وهو مصرى بشكل واضح ينعى على قومه الفرقة التى لم يكن لها أحياناً ما يبررها ويستشهد بقول الشاعر :

قومى هم قتلوا أميم أخى فإذا رميت يصيبنى سهمى
فلئن عفوت لأعفون جللا ولئن سطوت لأوهنن عظمى

وتتضح هـذه المصرية بشكل أكيد فى سلسلة المحاضرات التى ألقـاها فى الإذاعة الأوروبية ونشرت فى أصلها الإنجليزى أولاً بعنوان The Making of Modern Egypt ثم ترجمها الأستاذ محمد رفعت فى عام ١٩٥٧ تحت عنوان : « تكوين مصر » . وهنا يتضح النهج التى سبق أن لمسناه فى كتاب « محمد على الـكبير » ، مع مسحة حضارية تناسب الموضوع الشاسع فى الحيز الضيق . خفت فى هذه المحاضرات المؤثرات العثمانية — الإسلامية ، وتبلورت فيه الصورة المصرية مجردة عن كل ما يمكن أن يفرق بين المصريين ، بحيث حين تأتى المرحلة العربية من اتجاه مصر الحديثة ، وهى المرحلة التى اتضحت بشكل بارز بعد ثورة ١٩٥٢ ، يكون غربال قد مهد نفسه لصقل الصورة العربيـة العامة وموضع مصر من هذه الصورة .

فى هذه المحاضرات نجد غربال عاشقاً لمصر خلال العصور كلها . « وهذا على الرغم من أننى أعرف أنه ليس فى مقدور الرجل منا أن يحيط بالأدوات والدراسات كافة اللازمة لـكل قسم من أقسام تاريخ مصر المعروفة .... دع عنك الإحاطة بها جميعاً . بيد أن الأخصائى والقارىء غير الأخصـائى كلاهما يجد متعة ذهنية ومغنماً فى آن واحد لو حاد بين الفينة والفينة عن طريق التخصص؛ الطريق الضيق ، واضعاً نصب عينيه أن هنـاك « مصر » دائماً ، وأنهـا تسمو فوق هامات الحقب والعصور » .

بعد هذه المقدمة الشيقة نجده يتناول موضوعات الاستمرار والتغيير فى تاريخ

مصر ؛ الحكومة والمجتمع فى مصر ؛ الإنسان والمجتمع فى مصر ؛ المدينة والريف فى تاريخ مصر ؛ مصر والعهد القديم ؛ مصر والهيلينية ؛ مصر والمسيحية ؛ مصر والإسلام ؛ وأخيراً مصر والغرب . إن هذه المحاضرات تمثل نوعاً فريداً فى طريقة العرض التاريخى فى العالم العربى — الإسلامى ، شأنها فى ذلك شأن كتاب محمد على الكبير . هنا ، وهنا بحق ، نجد غربال تلميذاً لأرنولد توينبى دون أن يتقيد بحرفية منهاج أستاذه فى تفسير التفاعل الحضارى وانتقال المؤثرات الحضارية من مكان إلى مكان .

فمن الإسراف وضع قانون ثابت أو قوانين ثابتة لحركات المجتمعات التى هى المادة الحية للتاريخ بمعناه الواسع . ذلك أن الإنسان لا يصدر فى سلوكه الفردى والجماعى عن أنماط ثابتة من السلوك بحيث تكون الاستجابة على قدر المؤثر — كما هو الحال فى القوانين الطبيعية ولدى الأنماط الدنيا من الكائنات الحية . إنه ليس آلة صماء يسهل التحكم فيها . فأرنولد توينبى — مثلاً — يبنى دراسته للتاريخ على قانون ثابت يقوم على التحدى والاستجابة ؛ وقد لقى تفسيره للتطور الحضارى كثيراً من المآخذ فى إنجلترا ، وإن كنا لا نستطيع إنكار قيمة الجهد الذى قام به . وكارل ماكس يربط بين حركة التاريخ الصاعدة وبين العامل المادى — الاقتصادى . ومدرسة السلوكيين فى علم النفس تستمسك بالفعل المنعكس الشرطى القائم على تجارب العالم الروسى بافلوف على الكلاب . وفرويد يضع الغريزة الجنسية وراء كل دافع بشرى .

وربما كانت نظرة أرنولد توينبى أكثر مرونة من غيرها ؛ فالإنسان — مع تمتعه بقسط وافر من حرية الاختيار لا يستطيع فكاكاً من إسار الطبيعة وبيئته المادية . ونحن لا نستطيع أن ننكر أثر تحدى الطبيعة للانسان وتحدى الإنسان للانسان فى مجرى النشاط البشرى العام . ولكننا الآن — فى النصف الثانى من القرن العشرين — نجد الإنسان وقد توفرت له الأدوات التى لا شك

ستمكنه — لو أحسن استخدامها — من التغلب على الطبيعة والتخفف من إسارها الذى كان بالنسبة إلى الإنسان القديم ، بل ربما حتى الوقت الحاضر فى مجالات شاسعة ، قدراً غالباً وحتمية قهرية . إن إنسان النصف الثانى من القرن العشرين هو الذى يتحدى . ومع ذلك فليس فى طاقتنا أن نتنبأ بخطوط تفصيلية محددة للتطور البشرى . فمهمة المؤرخ هى ترتيب ما يتجمع لديه من الوقائع التاريخية وتحليلها وتفسيرها . وليست مهمته التنبؤ أو الحدس سواء فيما يتعلق بالحاضر أو بالمستقبل ، إلا أن يكون ذلك من قبيل الافتراض العلمى .

أدرك غربال كل ذلك إدراكاً واعياً ، فلم يشأ أن يخضع لفلسفة تاريخية معينة . فهو يأخذ من كل تفسير بقدر طبقاً للملابسات التى تحيط بموضوعه . وحيثما تصادفه قضية كبرى من قضايا التطور الاجتماعى نجده يستشهد بآراء كبار المفكرين التى قد تفسر الزوايا المختلفة لهذه القضية ، دون أن يربط نفسه كلياً بهذا أو بذاك . هذا وغربال — لاشك — كان على علم وثيق بأهم المناهج التاريخية وبالأنماط المختلفة من كبار المفكرين . ولكن طبيعته السمحة واتساع أفقه وإيمانه الواضح بحرية الإنسان مما جعله يتحرز من الانتماء لمدرسة معينة فى تفسير التاريخ . وبين هذا وذاك نجد لديه تمشياً مع أستاذه أرنولد توينبى فى الأخذ بقيمة الصفوة الخالقة élite فى مجال النشاط البشرى بشتى زواياه . وهذه نقطة جوهرية هى باستمرار مثار للنقاش وبخاصة بعد ظهور التحدى الاشتراكى فى المجالين الاجتماعى والفكرى ، وهو التحدى الذى خلع على الجماهير من الوعى ما لم يخلعه الكتاب من قديم الزمن .

أما المحاضرات التى ألقاها غربال فى معهد الدراسات العربية ونشرت قبيل وفاته بعنوان « منهاج مفصل لدراسة العوامل الأساسية فى بناء الأمة العربية كما هى عليه اليوم » فهى آخر مجهودات غربال فى مجال الكتابة التاريخية ، وإن لم تكن آخر ماطبع له ؛ فقد جمعت دار الإذاعة متفرقات من أحاديثه تحت عنوان « من زاوية القاهرة » ، سننهى بها حديثنا هذا عن غربال .

فى « المنهاج المفصل » نجد غربال يضع الخطوط العريضة للتفاعل والصراع فى العالم العربى تحت الحكم العثمانى و بعد الحكم العثمانى . والمحاضرات تنقسم قسمين : القسم الأول لمحة سريعة عن العالم العربى والدول المختلفة القائمة فيه : الموقع الجغرافى لكل منها واقتصادياتها وتعداد سكانها . أما القسم الثانى فهو القسم الهام ، وفيه يعرض المؤلف للعالم العربى والأوضاع القائمة فيه والتيارات الفكرية التى غلبت على الناس ، وكانت سبباً فى تأخر العالم العربى . فالاتجاه العام قبل التحدى الأوروبى هو أن العرب المسلمين عاشوا فى جو خيالى نابع من معتقداتهم الدينية : فقد تصوروا أنهم بعزلتهم لهم الجنة وأن لغيرهم النار . لهذا لم يتطلعوا إلى الاستزادة من العلم التطبيقى الأوروبى . وساعد على ذلك أن الحكم العثمانى كان يحول بينهم و بين التطور ،وذلك برغم حركة التنظيمات المستوحاة من التفوق الأوروبى خصوصاً فى جوانبه المادية . وقد جاء التوتر السياسى فى العالم العربى نتيجة لمحاولة الدولة العثمانية تقوية قبضتها على البلدان العربية ، وهو ما عرف بحركة التتريك . ثم تلا ذلك سقوط الإمبراطورية العثمانية ووقوع العالم العربى تحت التبعية الأوروبية . وقد أبرز المؤلف دور حركة الشريف حسين ودور المثقفين الذين عقدوا مؤتمرهم فى باريس فى عام ١٩١٣، وكيف أن الفريقين قد ركبا متن الشطط ، وانتهزت كل من انجلترا وفرنسا الفرصة لتقسيم العالم العربى ووضعه تحت نفوذهما المباشر . ولكن المد القومى الصاعد مالبث أن تبلور وتجمع متمثلاً فى رفض المعاهدات التى أمليت والوضع غير العادل الذى ادخر لفلسطين . وما لبث العالم العربى فى مشارقه ومغاربه أن تصدى للحصول على استقلاله ، خاصة وأن البلدان العربية فى مجموعها مجيدة التاريخ سواء قبل أن تصبح عربية و بعد أن أصبحت عربية .

وصفات العرب كما كانوا عليه تحت الحكم العثمانى ليست هى الصفات الأصيلة فيهم ؛ بل هى صفات دخيلة بحكم الركود والجمود . فمقومات التاريخ العربى

— كما يذكر غربال فى إحدى محاضراته الإذاعية المطبوعة — متوسطة بين طرفى الإفراط والتفريط : فارتقاء الحسيات يقابله ارتقاء مماثل للمعنويات ؛ والعناية بالزراعة وما يتصل بها من الغراسات والتفنن فى الاستنبات والبراعة فى جر المياه وصرفها ، لاتقل عن العناية بالصناعات ، والزراعة والصناعة شأنهما لايقل عن شأن التجارة ومايتصل بها من تنظيم وطرائق إنهاء الحقوق والادخار والائتمان » . وهذا ينطبق على الحياة العقلية : فهى تعنى بالأبحاث النظرية دون إهمال للتطبيقات العملية ، وكذلك الحال فيما يتعلق بالحياة الروحية : فلا إسراف عموماً فى رعاية مايوجبه حق الجماعة وما يقتضيه حق الفرد . وهو يرى أن اللغة العربية هى جماع عقل وروح الأمة العربية ، وهى أعظم ماخلق العرب ، لماضيهم وحاضرهم ولمستقبلهم.

فى المجموعة الأولى من هذه المحاضرات نجد غربالاً يتناول موضوعات حضارية بحتة أدرجت تحت عنوان نظرات فى التاريخ العربى : العرب بين الأمم؛ تعبير الفن عن الشخصية العربية ؛ تعبير العلم عن الشخصية ؛ الشعوبية القديمة والشعوبية الجديدة ؛ المدينة العربية ... حكومتها فى الماضى والحاضر .

وفى هذه المحاضرات نجد غربالاً يختار النقاط البارزة فى الحيـاة العربية ، محاولاً تحديد مفهومى عربى وإسلامى . ووصف إسلامى — لديه — أعم وأصدق. ثم هو يسجل للعرب محافظتهم على حيويتهم ومقوماتهم منذ القرن السادس عشر برغم التغلغل الأوروبى والسيادة التركية العثمانية ، ويحثهم أولاً أن يكونوا أقوياء : « فالقوى لاينفع نفسه فحسب ، ولـكن ينفع النـاس جميعاً بقوته » . كذلك نجده يحاول مقارنة الشعوبية القديمة بالشعوبية الحديثة فى داخل العالم العربى ، وأن هذه الأخيرة لن تنال من العالم العربى أكثر مما نالت الشعوبية القديمة : إذ المجتمع العربى قد التقت فيه العناصر الوافدة والأصلية وتفاعلت وأثمرت ، وأن هذا المجتمع مجتمع الجميع ، وأن التاريخ العربى ملتقى التواريخ .

أرأيت كيف انتهى غربال محدداً لنفسه موقفاً إيجابياً من قضية الحرية والالتزام ؟ إنه بصفته من رواد الفكر لابد له من وقفة إيجابية إزاء مجتمع يتحرك

ويتطور ويتطلع إلى آفاق جديدة . وأنهى كلمتى هذه بطرح قضية الحرية والالتزام على هذه الجمعية الموقرة القائمة فى صمت على خدمة الدراسات التاريخية المتشحة بالثوب العلمى ، مقتبساً الفقرة الآتية من الميثاق الوطنى :

« إن العلم للعلم فى حد ذاته مسئولية لا تستطيع طاقتنا الوطنية فى هذه المرحلة أن تتحمل أعباءها .

لذلك فإن العلم للمجتمع يجب أن يكون شعار الثورة الثقافية فى هذه المرحلة .

على أن بلوغ النضال الوطنى لأهدافه سوف يسمح لنا فى مرحلة متقدمة من تطورنا بأن نساهم إيجابياً مع العالم فى العلم للعلم » .

أحمد عبد الرحيم مصطفى

جراكوس بابيف ومؤامرة الأكفاء

Conspiration des Egaux

عندما يتعرض الباحث لجانب من جوانب الإرهاصات الإشتراكية الأولى فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر يجد نفسه فى مواجهة مشكلة رئيسية لا سبيل إلى تجاهلها أو الاعتماد على ما يستطيع أن يضمنه عنها فى سياق بحثه ، وهى مشكلة المصطلحات ، أو بمعنى أوسع « المفاهيم » التى سيضطر إلى استخدامها وما تنطوى عليه من دلالات حديثة قد تؤدى إلى لبس أو حتى إلى خطأ جسيم أحياناً .

والظواهر التى سأتحدث عنها ، والتى بلغت ذروتها فى الثورة التى قادها جراكوس بابيف ونفر من أنصاره ، جزء لا يتجزأ من الثورة الفرنسية ؛ ونحن نعلم أن الاشتراكية بمفهومها الحديث لم تكن قد عرفت بعد فى هذه الفترة — بل ولم تتبلور إلا بعد قرابة نصف قرن من ذلك التاريخ ، ولذلك فإن وصف هذه الظواهر بالاشتراكية يكون غير دقيق ، والأقرب إلى الصواب أن نقول إنها مجرد إرهاصات تنبئ عن اتجاه معين فى المستقبل أو — إذا كان لنا أن نستعمل مصطلحاً حديثاً — هى « جنين » اشتراكى .

وينبغى قبل أن نعرض لهذه الظواهر أن نلقى نظرة على وضع الثورة الفرنسية الكبرى نفسها ، فى علاقاتها التاريخية ، من تطور الفكر السياسى والاجتماعى ، وهل هى ذروة مرحلة البورجوازية أم بداية المرحلة التالية لها .

والواقع أن الجدل الذى ثار بين المؤرخين والمشتغلين بالفكر السياسى ، و بين المفكرين الاشتراكيين بصفة خاصة ، حول هذه النقطة يتصل

اتصالاً مباشراً بمفهوم كل منهم عن معنى الاشتراكية واتجاهاته بصفة عامة(١) . فنهم من تناولها على أنها طليعة الثورة الإشتراكية ، طليعة تزخر فعلاً بالتجارب الاشتراكية ؛ ومنهم من صورها على أنها التعبير العملى عن روح الثورة الفكرية التى اجتاحت أوروبا ، وفرنسا بصفة خاصة ، فى القرن الثامن عشر وبلغت ذروتها كتابات الموسوعيين ومفكرى الاستعارة الآخرين .

بيد أن الأمر الذى لاجدال فيه هو أن الثورة الفرنسية ثورة طابعها بورجوازى بحت ، بل هى « الثورة البورجوازية الكبرى » التى مهدت السبيل للطبقة الناشطة الجديدة فى الاستيلاء على السلطة .

فبين « إعلان حقوق الإنسان والمواطن » الذى وضعته الجمعية العمومية فى عام ١٧٨٩ — الذى جعل حق « الملكية حقاً مقدساً لا يمس » — وبين دستور ١٧٩٤ الذى وضعه المؤتمر الوطنى فقصر حق الانتخاب على فئة معينة من الشعب أطلق عليها « المواطن الإيجابى » أو « المواطن العامل » وقيد حق شغل الوظائف العامة فجعلها قاصرة على الملاك ، بين هذين الحدثين لا مجال للخطأ فى الطابع البورجوازى المحض للثورة التى تمخضت عنهما وفى أن الأحداث الأخرى التى يمكن وصفها بأنها اشتراكية — مما وقع بين هذين الحدثين التاريخيين وبعدهما مباشرة — ليست سوى ظواهر عارضة كان لا يمكن أن يتحقق لها بقاء وكل ما نستطيع أن نقوله فيها هى أنها كانت مجرد استباقات لأحداث مقبلة .

ولعل خير ما يصور لنا هذين الرأيين فى علاقة الثورة الفرنسية بالاشتراكية

---

(١) انظر مثلا برنس كروبوتكين الزعيم الفوضوى المعروف فى كتابه The Great French Revolution ، والزعيم الاشتراكى الفرنسى جين جوريه فى مؤلفه الضخم Histoire Socialiste de La France والذى يعد المجلد الخاص بالثورة الفرنسية فيه من أفضل ما كتب من وجهة النظر الاشتراكية . وأنظر كذلك أندريه ليختنبر La Socialisme et la Rep. Fr. . وكذلك القسم الخاص بالثورة الفرنسية فى كتاب كارلتون هيز 'Political and Cultural 'His. of Europe" .

عبارتان لمفكر اشتراكى معروف هو هارولد لاسكى ، إذ يقول[١] :

« يمثل وضع الثورة الروسية فى علاقاتها التاريخية بالقرن العشرين وضع الثورة الفرنسية فى القرن التاسع عشر » . وهى عبارة كما نرى قد لا تعنى أكثر من أنهما مرحلتان فى صراع الإنسان فى سبيل التحرر من قيود واقعة ، ولكل منها طابعها الخاص الذى أملته ظروف العصر الذى تمت فيه .

ولكنه يقول أيضاً فى موضع آخر[٢] :

« إن الرجال الذين وضعوا بذور البلشفية هم السلالة المباشرة ليعاقبة الثورة الفرنسية » . وهى عبارة توحى قطعاً بأن هناك صلة مباشرة بين الأهداف والمبادىء ، بل والأساليب كما سنرى فيما بعد ، التى كانت القوة الدافعة لزعماء الثورتين .

وقد يساعدنا فى تلمس سبيلنا بين هذه الآراء المختلفة أن نتمعن ملياً فى ترتيب أحداث الثورة والأثر الذى تركته فئة معينة بالذات من الشعب الفرنسى فى هذه الأحداث ، وأعنى بها الفئة التى عرفت تارة بإسم « شعب باريس » Peuple de Paris وتارة بإسم الشعب أو « الناس » Le Peuple « وثالثة بإسم «جيش الثورة» L'Armeé de la Rév. كما عرفت أحياناً باسم « الطبقة الرابعة » Quatrième Etat وأخيراً بإسم ذى مغزى خاص هو — Les sans Culottes أى الدهماء أو الحفاة ، الذين لا يملكون سوى معاول شقائهم يعملون بها فى هدم أسس المجتمع الذى حرمهم من كل شىء ؛ (ولم تكن كلمة بروليتاريا قد عرفت بعد ، فهى تمت إلى مرحلة تالية هى مرحلة « البابوفيزم » Babouvisme أى مذهب بابيف) .

---

(١) أنظر (Laski: Reflecions on the Revolution of our times. p. 4I)

(٢) Op. Cit ، ص ٤٣ .

وهذا البحث هو قصة هذه الفئة Les Sans-Culottes .

لقد بدأت الثورة الفرنسية حقيقة عند ما أحست الطبقة الثالثة (Le Tiers-état) ، التى تمثل البورجوازية الناهضة ، بقوتها وحاجة الملكية إليها بسبب الضائقة المالية، فتحدت أوامر الملك واجتمعت فى ملعب التنس الملكى عندما أغلقت فى وجهها قاعة الاجتماع بعد أن أعلنت رفضها التعاون فى ظل الوضع السابق الذى لايمنحها حقها الكامل فى إدارة شئون البلاد ، وأصرت على ألا تجلس كل طبقة بمفردها مطالبة باجتماع شامل للطبقات الثلاث وأن يكون التصويت بالرأس (وبذلك تضمن الأغلبية فقد كان عدد مندوبى الطبقة الثالثة وحدها ٦٠٠ بينما كان عدد مندوبى كل من الطبقتين الأخريين صاحبتى الامتياز «رجال الدين» و « النبلاء » ٣٠٠ فقط ، وكان من بين أفراد هاتين الطبقتين الكثيرين من المتنورين الذين يعطفون على الطبقة الناهضة ويؤازرونها فى مطالبها مثل ميرابو وسييه) .

إن حادث سقوط الباستيل الذى كثيراً ما يعتبر بداية الثورة الفرنسية لم يكن سوى رمز لشيء آخر غير بداية الثورة الفرنسية ، لقد كان رمزاً لفاعلية دهماء باريس — فاعلية لايحدوها وعى ولا يوجهها هدف ذاتى ولكن يدفع إليها الجوع والحرمان ، فاعلية فئة تأثرت ولا شك بالأفكار السائدة وإن لم تفهمها .

ولكن البداية التى لامراء فيها لثورة البورجوازية هى حادث ملعب التنس قبل وقوع الباستيل ببضعة أيام ، وهو تعبير عن إحساس الطبقة الثالثة بقوتها الجديدة التى دفعتها حتى إلى رفض مجرد القيام بالإجراءات التمهيدية (تقديم أوراق اعتماد المندوبين) قبل الاستجابة إلى طلباتها كاملة ، كما دفعتها إلى إعلان نفسها « الجمعية التأسيسية » . إذ كان الهدف الذى عقدت العزم على تنفيذه هو وضع دستور يتيح لها الوصول إلى القوة العمل بحرية .

وقد نجحت الطبقة الثالثة وتم لها النصر فى الجولة الأولى عندما أذعن لها الملك والطبقتان الأخريان ، فكان لها ما أرادت وشرعت تعمل على تحقيق أهدافها بوضع « إعلان حقوق الإنسان والمواطن » — فما هى هذه الحقوق التى تصورها ممثلو الطبقة البورجوازية فى ذلك العهد كما جاءت فى الإعلان : « الحرية وحق الملكية وحق الأمن وحق مقاومة الاضطهاد ...وحق كل مواطن فى المشاركة شخصياً أو بواسطة ممثليه فى وضع القوانين التى يجب أن تكون متماثلة بالنسبة للجميع ... » .

ونحن نعرف الحرية التى كانت تهدف إليها هذه الطبقة . . . أنها « حرية التعامل » Laissez Faire التى تعتبر أساس النظام البورجوازى الرأسمالى ...حرية الطبقة الرأسمالية فى تنمية ثرواتها وتحقيق رسالتها التاريخية فى تثبيت دعائم حق الملكية الخاصة ... أما حق الأمن فهو كما نعرف أيضاً دعامة الاستقرار الذى يتطلبه ازدهار رأس المال .

لقد كانت الطبقة الثالثة تتكلم باسم البورجوازية ، وباسمها وحدها ، وتحكم بمعاييرها . وسنرى كيف فسرت عبارة « حق كل مواطن فى المشاركة شخصياً أو بواسطة ممثليه فى وضع القوانين » بما يتفق وهذه المعايير .

ثم يرتفع الستار عن فصل آخر من هذه المرحلة كانت البطولة فيه لقطاع آخر من الأمة الفرنسية هم من أطلقنا عليهم « الدهماء» Les Sans-Culottes عندما دفعهم الشقاء والمعاناة والجوع إلى ماعرف فى التاريخ باسم « زحف الجوع» Hunger Drive من باريس إلى فرسايل فى أكتوبر عام ١٧٨٩ وطالبوا بعودة الملك إلى باريس ومعه الجمعية الوطنية ، وكان لهم ما أرادوا فعادوا ومعهم الملك وأسرته يصيحون — « معنا الخباز وزوجة الخباز وسنحصل على الخبز فى باريس » . وهذا ما كانت الجماهير تريده فعلاً . . . الخبز .

وصارت باريس مرة أخرى مقر الحكم ؛ وكانت باريس بحكم الأمر الواقع تحت سيطرة دهمائها ، وبذلك بدأت مرحلة ثانيــة فى الثورة الفرنسية ظهر فيها بوضوح أثر تلك الجموع التى لم تكن تعرف لنفسها هدفاً سوى رغبــة جارفة فى تحسين أحوالها ورفع ما تعانيه من ظلم بتغيير الأوضاع القائمة ، فتركت قيادها للطبقة الوسطى تستخدمها فى تحقيق مآربها .

وفى سنة ١٧٩١ تم وضع أول دستور مكتوب فى المجتمعات الحديثــة — باستثناء الدستور الأمريكى الذى سبقه ببضع سنوات ولم يوضع موضع التنفيذ إلا بعد ذلك — دستور يقوم على مبدأ الملــكية الدستورية المقيدة على نمط الأفكار التى كانت سائدة فى انجلترا وقتــذاك ؛ وهى المبادىء والأفكار التى ترعرعت فى ظلها البورجوازية الانجليزية .

وقد بدا فى هذا الدستور بوضوح ما تحسه الطبقة الصاعدة الجديدة من عدم ثقة تجاه الطبقــة الدنيا فى طريقة تفسيرها « لحق المواطن فى المشاركة فى وضع القوانين » ، إذ اعتبرت المواطن الذى يتمتع بهذا الحق هو الذى يدفع قدراً معيناً من الضرائب كما جعلت انتخاب المجلس التشريعى على درجتين إمعاناً منها فى إبعاد عملية سن القوانين عن متناول فئة الدهماء .

وإلى هنا نستطيع القول أن الثورة البورجوازية حققت أهدافها بانتزاع السلطة من أيدى الطبقات الحاكمة القديمة وابعادها عن أيدى الدهماء ، ولو كانت الثورة بورجوازية خالصة حقاً لانتهى الأمر عند هذا الحد وسارت البلاد فى طريقها الذى رسمته لها الطبقة الصاعدة فى ظل النظام الرأسمالى على أساس تسوية عام ١٧٩١ . ولــكن قوة الدفع الثورية استمرت وبدأت تتجه البلاد بسرعة إلى راديكالية متطرفة ، فتخلت الملــكية عن مكانها للجمهورية وتعالت بعض الأصوات تندد بالتفرقة التى فرضها الدستور بين المواطن « العامل » أو « الايجابى » والمواطن الذى لا يملك والذى حرم من حق الانتخاب لأنه لا يملك .

كما بدأت الأنظار تتجه إلى الحالة السيئة والشقاء الذى تعيش فيه كتلة عمال المدن التى تعانى الفقر المدقع والتى ، إذ حرمت من التمثيل فى أداة الحكم ، لا تستطيع أن تسمع صوتها بالطريق الدستورى . كما بدأت الأذهان تتنبه إلى حالة القلق والسخط السائدين بين هذه الكتلة غير المتميزة من البشر وما لهذه الحالة من أثر بالغ الخطورة على الاستقرار الجديد الذى تنشده البورجوازية .

ومنذ هذه اللحظة سنرى وقع هذه المشكلة الجديدة وأثرها فى اتجاه الأفكار — بل والأحداث نفسها — وسنتبين كيف تكون مفهوم البروليتاريا بمعناها الحديث .

والواقع أن هذه الفئة Les Sans-Culottes حرمت تماماً من أى نصيب فى مكاسب الثورة ؛ فالبورجوازية نالت دستورها والفلاحون حصلوا على نصيبهم من الكعكة ، أما كتل العمال التى زحفت على باريس وغيرها من المدن الفرنسية الكبرى فقد نالت وعوداً بحقوق سياسية واقتصادية انتهت إلى لا شىء تماماً .

ومنذ الآن فصاعداً سنجد أيضاً أن الطبقة الدنيا فى المجتمع الفرنسى — التى كانت تمثلها قبل عام ١٧٨٩ « الطبقة الثالثة» Le Tiers-Etat — قد تغيرت فى تكوينها ومشاعرها فتحولت إلى كتلة جماهيرية يقودها بعض راديكاليي الطبقة الوسطى .

ويبدأ هذا الاتجاه يعبر عن نفسه فى نشاط الأندية السياسية التى انتشرت فى باريس وتكونت لها فروع فى معظم مدن فرنسا . وكان أقرب هذه الأندية إلى الاتجاه الجديد هو الذى عرف باسم نادى اليعاقبة Jacobins — الذى أشرنا إليه فى قول هارولد لاسكى من قبل — وكان هذا النادى قد بدأ بجماعة إسمها « جمعية أصدقاء الدستور » من بين أعضائها سييه وميرابو ولافاييت ولكنها لم تلبث أن تحولت إلى منظمة راديكالية متطرفة تحت زعامة روبسبير .

وظهرت المطبوعات والنشرات التى تحمل بين طياتها مفاهيماً نستطيع أن نقول مطمئنين أنها فى مجموعها تمثل « جنيناً » اشتراكياً أو استباقاً للمفاهيم الاشتراكية الحديثة .

فنجد مثلا صحيفة مارا "L,Ami du Peuple" الذى أخذ يدعو فيها إلى عدم التشبه بانجلترا التى تحكمها قلة من الأثرياء « تستخدم مفهوم الحرية لمصلحتها الطبقية الخاصة مدعية أنها تمثل الأمة كلها » ، ويؤكد أن « الاصلاح الحقيقى لا يمكن أن يتم إلا بواسطة عمل مباشر من جانب الشعب نفسه » . ولعل هذه هى أول مرة فى المجتمعات الحديثة فى حدود ما نعلم ، يوجه فيها الهجوم إلى الطبقة الصاعدة الجديدة من جانب من يتحدث باسم « الشعب » وينكر عليها دعواها فى أنها تمثل الأمة كلها .

وقام دانتون وديمولان — شريكا ماراً فى نادى الكوردلييه — على رأس حملة توعية لتوجيه جماهير باريس إلى المطالبة بحقوقها السياسية — لا على أن هذه الحقوق فى ذاتها هدف ولكن على أنها السبيل للتخلص من الغبن الاقتصادى الذى تعانيه . وهذا أيضاً اتجاه وإن لم يكن جديداً فى ذاته إلا أنه جديد تماماً فى ضوء ملابساته .

وتحت ضغط هذه القوى بدأت الثورة الفرنسية تتجه إلى هدف جديد هو التسوية الاجتماعية بين جميع فئات الشعب الفرنسى وعدم الوقوف عند حد المطالبة بالمساواة السياسية وحدها .

ولكن هل يمكن أن يستمر هذا الاتجاه ؟ وهل أسقط فى يد القوى المضادة الأخرى ؟ .

لقد كانت هناك قوتان رئيسيتان تقاومان هذه الاتجاه . أولاً الرجعية الأرستقراطية ، داخل فرنسا وخارجها ، وكانت لاتزال تعمل جاهدة على استعادة

---

(١) Hayes: Op. Cit p 620.

النظام القديم Ancien Régime والقضاء على كل التغييرات التى استحدثتها الثورة الفرنسية ، ولا تهمنا هذه القوة فيما نحن بصدده ، فقد كانت عاملاً باليا obsolete فقد مقوماته الاقتصادية والفكرية ، وكانت كل جهودها مقضياً عليها بالفشل حتماً .

أما القوة الثانية فكانت الطبقة الجديدة الصاعدة التى تربعت على عرش السلطة وأحرزت الأغلبية المطلقة فى الجمعية التشريعية الجديدة بحيث أصبحت هذه الجمعية هى معقلها ومصدر قوتها . ونبدأ الآن فى مرحلة ثالثة من مراحل الثورة الفرنسية .

كانت الجمعية التشريعية مكونة من ٧٥٠ عضواً مقسمين إلى ثلاث فئات : الملكيين Feuillants ويمثلون اليمين ، والجيروند ويمثلون اليسار ، والوسط الذى كان ينضم مرة إلى هذه المجموعة وتارة إلى تلك عند إلى أخذ الأصوات . وكانت هذه المجموعات الثلاث من أقصى يمينها إلى أقصى يسارها تمثل الطبقة الوسطى وحدها .

فأين ممثلو الطبقة الدنيا الجديدة ! وأين المعبرون عن الاتجاهات التى أتينا على ذكرها ! لم يكن لهم فى الحقيقة أثر فى الجمعية ؛ ومن ثم كان لا بد من حدوث شيء ما تعبر به هـذه الروح عن نفسها ما دامت قد حرمت حق التعبير بالطريق الدستورى .

وفى ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٢ حدث ما كان متوقعاً إذ هاجم شعب باريس تحت زعامة دانتون الجمعية التشريعية — وكان الشعب قبل ذلك قد هجم على التويلرى وأرغم الملك على الالتجاء إلى الجمعية التشريعية فى طلب الحماية — ثم أرغم من بقى من النواب فيها على إصدار قرار بإيقاف الملك ودعوة البلاد إلى انتخاب مؤتمر وطنى ، على أساس حق الانتخاب المباشر للجميع ، لوضع دستور جديد .

وكان لشعب باريس ما أراد ، فأجريت الانتخابات فوراً واجتمع المؤتمر الجديد فى ٢٠ سبتمبر ، وفى ٢٢ سبتمبر أعلنت الجمهورية وبدأت الروح الجديدة تنفس عن وجودها عن طريق هذه الهيئة الجديدة .

فما هو طابع المؤتمر الوطنى الجديد الذى تم تأليفه على أساس الانتخاب المباشر؟.

عاد إليه حوالى ٢٢٠ من الجيروند بزعامة بريسو وكوندرسيه وتوماس بين ، وكان الجيروند فى الجمعية السابقة يمثلون أقصى اليسار ، فإذا بهم فى المؤتمر الوطنى يمثلون اليمين . أما اليسار فكان يمثله مائة من اليعاقبة الذين عرفوا باسم الجبليين بزعامة دانتون وروبسبير وكارنو وسان جوست . وظلت الأغلبية فى الوسط فانضمت فى بادىء الأمر وتحت الضغط الشعبى إلى اليسار ثم عادت فانضمت إلى اليمين بعد انقلاب Thermidor والقضاء على روبسبير وزعماء الارهاب الآخرين فى يوليو سنة ١٧٩٤ .

بيد أن هذا الاتجاه الواضح إلى اليسار فى المؤتمر فى أول الأمر لم يعن مطلقاً انقلاباً فى مشاعر البلاد وظروفها ، فالأغلبية الساحقة كانت من الفلاحين الذين استفادوا فعلاً من الثورة وأصبح يهمهم استقرار الأمر للطبقة الحاكمة الجديدة — التى كان يمثلها الجيروند والوسط — حتى يتفرغوا لاستثمار ما حصلوا عليه . ولذلك ظل الطابع البورجوازى هو الغالب على المؤتمر الجديد برغم أن اليسار المتطرف استطاع السيطرة على مقاليد الحكم طوال فترة الإرهاب بمساعدة شعب باريس . ومن ثم فأننا نستطيع اعتبار هذه المرحلة مجرد فترة عابرة لا تمثل حقيقة الوضع .

ولكن الصراع بين الجيروند والجبليين فى المؤتمر الوطنى لم يكن مجرد صراع على السلطة بين الطبقة الوسطى يساندها الفلاحون من ناحية وباريس التى تسيطر عليها كتل الدهماء من ناحية أخرى ؛ بل كان فى الحقيقة صراعاً بين المدافعين عن قدسية حق الملكية واتجاه جديد نحو السير بالثورة الفرنسية إلى نهايتها المنطقية بالانتقال من مرحلة المساواة القانونية إلى مرحلة المساواة الاجتماعية .

ولا يعنى هذا أن الإجراءات شبه الاشتراكية التى تمت فى عهد الارهاب (مثل قوانين الحد الأعلى لأسعار السلع وتحريم التخزين ومصادرة أموال الأثرياء وقانون المشتبه فيهم) وليدة هدف اشتراكى محدد ، أو أن دستور عام ١٧٩٣ ، الذى وأدته الطبقة الوسطى فى مهده ولم تسمح بوضعه موضع التنفيذ قط ، جاء بناء على مخطط اشتراكى مرسوم سبقا .

بل أنه مما لاجدال فيــه أن هذه القوانين ما كانت لتصدر لولا ضغط الظروف الحربية من ناحية وسيطرة شعب باريس وزعمائه على المؤتمر الوطنى من ناحية أخرى . ولذلك استطاع ممثلو الطبقة الوسطى فى المؤتمر إلغاء جميع هــذه القوانين التى اعتبرت قوانينا استثنائية بمجرد أن استرجعوا سيطرتهم واستولوا على السلطة ثانية بعد القضاء على روبسبير وزمرته — ومن قبله دانتون وديمولان.

وكان من الطبيعى أن يثور شعب باريس بعد القضاء على من اعتبرهم زعماءه ، وجاءت ثورة بابيف تعبيراً جزئياً عن هذه الثورة ؛ واعتبرت أول محاولة عملية للاستمرار بثورة عام ١٧٩٩ إلى نهايتها المنطقية .

ولسنا فى حاجة إلى الاسهاب فى تفاصيل ثورة بابيف أو فى الحديث عن تاريخ حياة بابيف نفسة فجميع المؤلفات فى الفكر الاشــتراكى وتاريخ الثورة الفرنسية حافلة بهذه التفاصيل . ويكفى هنا أن نقول أن بابيف كان ينتمى إلى الطبقة الدنيا فى المجتمع الفرنسى ، ولد فقيراً وعانى الضيق والشقاء السائدين ، ثم عمل مسجلاً لأراضى النبــلاء وكان من مهمته أن يقوم بتحصيل المــكوس الاقطاعية القاسية من الفلاحين ، وهى مهمة عافتها نفسه لما شهد فيها من مظالم وافتئات على هؤلاء الفلاحين . ولهذا تحول ، عندما نشبت الثورة ، إلى ثورى متحمس واشتغل بالصحافة وساعدته دراسته السابقة لفلاسفة القرن الثامن عشر على تــكوين آراء خاصة سنرى فيما بعد كيف حاول تطبيقها . ولــكننا نعلم أنه كان قد بدأ يتجه اتجاهاً خاصاً قبل ذلك من خطاب له ، اكتشف مؤخراً ، إلى

سكرتيرأكاديمية آراس فى عام ١٧٨٧ ؛ وفى هذا الخطاب نستطيع أن نتبين البذور الاشتراكية الأولى فى تفكيره . وفى عام ١٧٨٩ اشترك فى « كراسة مطالب » Cahier des Doléances دائرته الانتخابية (روان) وطالب مثل الأغلبية الساحقة من الكراسات الأخرى بإلغاء الامتياز والأوضاع الاقطاعية ولكنه لم يأت فيها بجديد .

وفى أواخر عام ١٧٩٤ أصدر صحيفة (جورنال دى لاليبرتيه دى بريس) ثم غير إسمها إلى (تريبون دى بيبل) وأخذ يدعو فيها إلى تطبيق المساواة الاقتصادية وعدم الوقوف عند مجرد المساواة القانونية وحدها لأن « المساواة الاقتصادية أولى بالاهتمام ، فالتفاوت الاقتصادى الكبير أسس البلاء » . ولا شك فى أن هذه الأفكار إن لم تكن اشتراكية بالمعنى الحديث المحدد فانها على الأقل متقدمة فى اتجاه اليسار عن كل ما رأيناه حتى الآن عند زعماء الثورة الفرنسية ، خاصة وقد اقترنت بمحاولة تطبيقها عملياً . إذ أن هذا هو ما شرع بابيف يعمل من أجله .

ففى العدد ٣٣ من التريبون أعلن بابيف للعالم طوبياه الاشتراكية الجديدة « جمهورية الأكفاء » (République des Egaux) التى تقوم على المساواة الكاملة بين جميع أعضاء المجتمع باعتبارهم أكفاء اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً ودعا إلى تطبيق دستور عام ١٧٩٣ باعتبارة السبيل إلى تحقيق مجتمعه .

ولكن الثورة كانت ، كما أشرنا ، قد غيرت اتجاهها بعودة الجيروند يساندهم المعتدلون إلى السلطة والقضاء على اليعاقبة بإعدام روبسبير وزملائه . بيد أن الظروف هيأت لأفكاره تربة صالحة : إذ بدا السخط يعم بين الطبقات الدنيا وقد تحطمت آمالها تماماً فى أى إنقاذ سريع بسقوط زعمائها .

واجتمع حول بابيف لفيف من الساخطين كونوا « جمعية الأكفاء » وانضم إليهم بعض فلول اليعاقبة وأنشأوا « نادى البانثيون » الذى أغلقته حكومة « الإدارة » فى أوائل عام ١٧٩٦ ؛ فتحول بابيف وزمرة من زملائه إلى نشاط الأقبية وأصدروا صحيفة سرية باسم « المدافع عن خمس وعشرين مليوناً من المضطهدين » .

وفى صبيحة أحد أيام مارس صحا سكان باريس ليروا على الجدران ملصقات تحمل عنوان « بيان الأكفاء » من « تحليل مذهب بابيف Babouvisme » وانتشرت الاشاعات فى باريس بأن جنود بعض الحاميات على وشك التمرد تضامناً مع الشعب .

وجاء فى مقدمة البيان[١] « إن الثورة الفرنسية ليست سوى المرحلة الأولى فى ثورة أخرى أكبر منها بكثير ستكون آخر الثورات » وفى مكان آخر منه جاء « ألغوا الملكية الفردية الزراعية فالأرض ليست ملكاً لأحد من الناس » . ثم طالب بإعادة دستور عام ١٧٩٤ الذى « يضمن للشعب المساواة الاجتماعية الكاملة » . وكلها مفاهيم كما نرى أصبحت منذ ذلك الوقت جزءاً لا يتجزأ من التراث الاشتراكى .

وقررت حكومة « الإدارة » المبادرة بالعمل ، وكانت قد تجمعت لديها أدلة على مؤامرة يستعد بابيف للقيام بها هو وبعض زملائه (الذين كان من بينهم بعض رجال الجيش أحدهم ضابط كان جاسوساً للحكومة ينقل أخبار الجماعة أولاً بأول إلى السلطات) فألقت القبض على بابيف وعدد كبير من أتباعه .

وأعدم زعيما المؤامرة ، بابيف وداريته ، ونفى كل من سيلفان مارشال

---

(١) ص ٢١ Cole, A History of Socialist Thought, Vol. I

(الذى وضع بيان الأكفاء) وبووناروتى (الذى عاش ليكتب تاريخ مؤامرة الأكفاء . وظل الاشتراكيون الثوريون يعتبرون كتابه انجيلهم الذى يرجعون إليه)

ويتبين من الوثائق التى يمكن الاعتماد عليها فى السجلات الخاصة بمحاكمة بابيف ورفاقه أنهم كانوا يريدون الاستيلاء على السلطة بواسطة مجموعة صغيرة من الزعماء الثوريين وينشئون حكماً ثورياً يعتمد على أتباعهم فى الجمعيات السرية الباريسية مع العمل بسرعة على انتخاب جمعية وطنية جديدة على أساس الانتخاب المباشر للجميع كما جاء فى دستور عام ١٧٩٣ . كما عقدوا العزم على الشروع فوراً ودون انتظار حتى تجتمع الجمعية الوطنية فى اتخاذ إجراءات المصادرة على نطاق واسع وإعادة توزيع الأموال المصادرة على أساس من التملك المشترك فى السلع واستعمالها على قدم المساواة بين الجميع وإلغاء حق الميراث فوراً بحيث تتحول الملكية الخاصة كلها فى جيل واحد إلى ملكية مشتركة .

وجلى أن بابيف وزمرته كانوا يوجهون قسطاً ضخماً من اهتمامهم إلى عمال المدن ، وهى ظاهرة جديدة تماماً لم نقابلها فى أى مجتمع جديث من قبل — وليست هذه هى الظاهرة الجديدة الوحيدة فى حركة بابيف .

إن التمرد الذى قام به بابيف لم يحقق كما نعلم شيئاً من أهدافه المباشرة ، فقد أخفق التمرد — وكان لابد أن يخفق — حيث أن الظروف التى يتطلبها نجاحه غير متوفرة ؛ أوعلى حد ماذهب إليه كارل ماركس كان لابد لمثل هذه المحاولات الأولى فى الكفاح المباشر Direct Action أن تفشل بالضرورة لأن البروليتارية كانت لاتزال جنيناً فى رحم المجتمع ولم تكن الظروف المادية لميلادها قد وجدت بعد .

بيد أن أهمية مؤامرة بابيف لاترجع إلى ما حققته فعلاً ، بل إلى أنها كانت طليعة للحركات التى جاءت بعدها فى سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٤٨

وسنة ١٨٧٠ ثم أخيراً فى سنة ١٩١٧ إذ أنها أول علامة على أن الصراع السافر انتقل إلى صعيد جديد بين قوتين تختلفان عن طرفى النزاع الذى وضعت الثورة الفرنسية الكبرى حداً له فى فرنسا ؛ إنها علامة — إذا كان لى أن أستعير مفهوماً من مفاهيم المادية الجدلية — على تكوين مركبة Synthesis جديدة من قضية ونقيضة Thesis & Antithesis جديدتين ، وأن المسرح قد أعده لقصة صراع طبقى جديد . كما أن هذه المؤامرة منحت الفكر الاشتراكى إلى جانب ذلك ثلاثة مفاهيم أساسية تعتبر اليوم جزءاً لا يتجزأ من النظرية الاشتراكية ، ونستطيع أن نرى آثار هذه المفاهيم منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى اليوم .

فهناك أولاً فكرة القلة المجاهدة المختارة التى تقود الجماهير إلى المجتمع الاشتراكى وتفرض ديكتاتورية البروليتاريا[1] التى تعتمد على الجماهير الكادحة وحدهم وتعمل من أجلهم . وقد تلقف هذه الفكرة بلانكى وأنصاره وتحولت على أيديهم إلى مذهب « القلة الواعية » التى لعبت دوراً كبيراً فى النظرية السندكالية الفرنسية حتى الآن .

ونحن نعلم أنه برغم أن ماركس عدل عن فكرة القلة المجاهدة المختارة التى تقود الجماهير وتدربها ، إلى فكرة ضرورة أن تكون البروليتاريا كلها واعية وإلا فإن زعماءها يظلون عاجزين بلا سند ، فإن لينين وتروتسكى طبقا الفكرة الأولى حرفياً وبحذافيرها فى ثورة عام ١٩١٧ ؛ ولا يغير من هذا أن كتاب الشيوعية الحديثين نفوا مراراً وتكراراً أن لينين مدين بشىء لبلانكى .

وهناك ثانياً مذهب «العمل الثورى المباشر» Revolutionary Direct

---

(١) ايسايا برلين « كارل ماركس » (١٩٥٦) ص ١٤ و ١٠٠ و ١٧٣ .

Action بواسطة الجماهير نفسها باعتباره الأسلوب الوحيد الذى يمكن عن طريقه تحقيق المجتمع الاشتراكى ، وهوالمذهب الذى تلقفه أيضاً بلانكى وتاربيس وانتقل إلى انجلترا عن طريق أوبرايان — زعيم القطاع المنادى باستعمال العنف من العرائضيين Chartistes — إذ قام بترجمة كتاب بووناروتى عن ثورة بابيف إلى الإنجليزية وجعل من نفسه داعية لمذهب بابيف فى إنجلترا .

وهناك أخيراً مذهب صراع الطبقات الذى كان بابيف أول من أدخله عملياً فى الحركات الاشتراكيـة . ونحن نعلم أن فكرة صراع الطبقات كانت موجودة قبل الاشتراكية الحديثة بقرون ، ولـكن الذى لا جدال فيه أن أول صراع طبقى يظهر سافراً على مسرح التاريخ كان على يد بابيف وزملائه . كما أن فـكرة البروليتاريا كطرف فى الصراع ارتبطت دائماً ببابيف(١) .

ويقول كول ، فى موسوعته الاشتراكية الضخمة التى ضمت جميع مذاهب الفـكر الاشتراكى الحـديث ، أن أول أصحاب المشروعات الاشتراكيـة ممن يعتد بهم هو : جراكوس بابيف ، لأنه بالرغم من أن كلمة اشتراكية نفسها لم تـكن قد عرفت بعد فى أواخر القرن الثامن عشر فإن لبابيف حقاً واضحاً فى أن يعتبر أول مفـكر اشتراكى وضع نفسه على رأس حركة ذات أهداف اشتراكية بالمفهوم الحديث ، ومن بابيف انحـدرت سلسلة طويلة من الاشتراكيين الذين اعتبروا التآمر الثورى وسيلة تحقيق المجتمع الاشتراكى . وما من شك فى أن فـكرة بابيف تركت أثراً عميقاً فى اتجاه الحركات التاليـة وبخاصة فى فرنسا ، بل وأن جميع حركات المساواة الـكاملة والشيوعية فى فرنسا تدعى ، على حد ما ذهب إليـه الأستاذ دافيد تومسون فى مؤلفه القيم عن مؤامرة بابيف أنهـا تنحدر بصورة

---

(١) أنظر كول Op. Cit ، ص ١٣ .

أو أخرى من مؤامرة بابيف ، وأن الثوريين والجمعيات السرية فى أوروبا عامة طوال القرن التاسع عشر تعتبر كتاب بووناروتى عن المؤامرة انجيلها .

وهكذا فإن الثورة الفرنسية — ثورة الحرية والمساواة والإخاء — منحت البورجوازية الصاعدة الحرية فى السيطرة على مقدرات المجتمع الفرنسى وتكديس الثروات الهائلة ، ومنحت المالكين المساواة — أى المساواة فيما بينهم أمام القانون . . . ولكنها لم تمنح الكادحين سوى الأخاء وتقليد بابيف الثورى .

عبد الكريم أحمد

نقـــد الكتب

سندباد مصرى أو جولات فى رحاب التاريخ

دار المعارف بمصر — ١٩٦١

عاد السندباد المصرى (الدكتور حسين فوزى) من سفره الطويل وقد عودنا أن يعود محملاً بالطرائف وأن يشرك قارئيه فى التمتع بلذة الذكرى والفرج بعد الشدة وما عانى من مشقات الطريق . ويحاول الدكتور فوزى أن يخفى ما عانى ، فزعم أن لا فضل له فى هذا الكتاب ؛ إلا أنه رسم خطته ونظم فصوله ، وأضاف أمراً له خطورته فقال إنه نظمه تبعاً لانفعالاته الشخصية بتاريخ بلاده ، وأضاف أيضاً أمراً آخر له خطورته مؤداه أن الحقيقة فى مسائل الرأى بعيدة المنال .

ويقول الدكتور فوزى أنه منذ زمان طويل وهو يطمع فى وضع كتاب على هامش التاريخ يكون صورة من ملحمة هذا الشعب الذى يفخر بأنه واحد من آحاده ، وجاءت ثورة يوليه ١٩٥٢ فأحس فيما يشبه الإلهام بأن فجراً جديداً صحيحاً لا كاذباً قد طلع فى أفق التاريخ المصرى ، وربما كان ذلك الفجر هو الذى أنار له طريقه إلى تأليف هذا الكتاب الذى لم يكن فى الإمكان كتابته قبل أيام هذه الثورة .

وقد وصف الدكتور فوزى نفسه بأنه ليس مؤرخاً ،وإن كان غير مجرد تماماً من الإحساس بالتاريخ ، وأنه اعتمد فى كتابته على الخلجات الروحية التى أشار إليها ، وعلى ما طالع من كتب الأولين والآخرين فى تاريخ بلاده ، وعلى القليل الذى عاشه من ذلك التاريخ بلحمه ودمه وتفكيره ، فكتبه فى بحبوحة الأدب والفن : حرية فى الفكر وتحرر فى الأسلوب . فكتابه أدبى محض ، وطلب أن يحاسب عليه فى حدود الأدب والفن ،إلا أن واجبه نحو حقائق التاريخ اقتضاه

---

(١) هذا المقال آخر ماكتب المرحوم الأستاذ محمد شفيق غربال بخط يده لهذه المجلة .

أن يذيله بمجمل لتاريخ مصر، ورجا القارىء أن يلقى عليه نظرة سريعة قبل البدء بمطالعة الكتاب على أن يعود إليه كلما دعاه إلى ذلك داع .

ويقول الدكتور فوزى أن دوره كان أشبه بدور المخرج السينمائى الذى لا يكتب القصة ، ولا يستخلص السيناريو ، ولا يضع الحوار ، ولا يصمم الديكور ولا يعمل مع أجهزة الإضاءة ولا يمثل ، ولا يصور ، إنما هو يستخدم كل ما تضمه حرفة السينما وصناعتها وفن رجالها ونسائها بين يديه من ممكنات ، ليجمع ذلك فى صورة تتجلى فى ذهنه أولاً ، وقد ينجح فى تنفيذ الصورة الذهنية وقد يخيب .

ومعنى هذا فعلاً أنه رجع للنصوص ، وكوّن منها المادة أو الصورة ، بل إن بعض فصول الكتاب عبارة عن نصوص تاريخية عدلت تعديلاً طفيفاً . ومهمة المؤلف لم تزد حسب قوله عن مجرد ترتيب الوقائع ترتيباً درامياً ، هذا الترتيب الدرامى له أثره فى أسلوب الكتاب ، من أوله لآخره ، فى الموضوعات التى أثبت ، والموضوعات التى أهمل ، فى التحول إلى العامية فى بعض الألفاظ و بعض التراكيب .

وسنرى أن الترتيب الدرامى أدى إلى انحراف المؤلف عن قصده : كان قصده أن يكون كتابه كما قال — شعب نامه لا شاه نامه . ولكن الدراما انتهت بأن تكون شاه نامه لا شعب نامه ، فلا تكون دراما إلا حول أحداث جسام — ولا تكون أحداث جسام إلا حول الذين اقترنت اسماؤهم بتلك الأحداث الجسام .

وإليك البيان بأقسام الكتاب الثلاثة : أولاً — الظلام و به مشاهد الفتح العثمانى ، وقدوم الفرنسيين ، وما جرى بين على باشا الطرابلسى والمماليك ، وارتقاء محمد على الولاية ، وترجمة أغنية شعبية تبكى المجندين ؛ ثم آراء للمؤلف فيما كان يجب أن يكون عليه الاقتباس فى الحضارة العربية .

ثانياً — الخيط الأبيض والخيط الأسود ومشاهده : ألف عام ، وصراع القومية المصرية ، وثلاث ملكات (أم خليل و بنت الزمار ، أى كايو باطرة . والصعيدية أى حاتشبسوت) ، والقيراط الخامس والعشرون . ..

ثالثاً — الضياء ومشاهده ، من قبل التاريخ ، ومن الحضارة المصرية القديمة .

* * *

ولنبدأ — كما طلب إلينا الدكتور فوزى — بالمجمل فى آخر الكتاب — وهو مجمل جيد حقاً ، وجودته فى أجزائه القديمة أظهر ، فما تعلق منه بالحضارة المصرية القديمة مستند إلى دراسة حقيقية للآثار ، والانفعال هنا مشروع ، وما تعلق منه بالمسيحية فى مصر به أصالة ، وهو مما يجهله أو لا يهتم به الدارس المصرى . ومن صفات المجمل عنايته بهذا الموضوع ، وكلما تقدم بنا الزمن نحو زماننا كلما غلبت على صفة الانفعال ما يضنين بالحكم المتزن ، ولا يهدى نحو التقدير الصحيح .

* * *

نحن الفرس . نحن المقدونيين ، نحن الرومان ، نحن الروم ، نحن العرب : المغاربة ، الكرد ، أبناء . فرغانة . وكردستان ، نتوكل بأمر الحرب ... الخ .

أما أبناء مصر فصناعتهم بناء الحضارة ، ولكن ألم يتكون أبناء مصر ، ممن كانوا عرباً ومغاربةً وروماً الخ .

كتاب الدكتور فوزى ممتع لأقصى حدود الإمتاع ، ولكنه خطر لأقصى حدود الخطورة ، وإنا لا نزال نترقب كتابه شعب نامه .

محمد شفيق غربال

أنبـــاء ومؤتمرات

المؤتمر الرابع للآثار فى البلاد العربية

تونس — ١٨ — ٢٩ مايو سنة ١٩٦٣

انعقد المؤتمر فى مدينة تونس فى المدة من ١٨ — ٢٩ مايو سنة ١٩٦٣ . وكان الرئيس الفخرى للمؤتمر السيد الشاذلى القليبي كاتب الدولة للشؤون الثقافية والأخبار .

وانتخب رئيساً للمؤتمر السيد عثمان الكعال حافظ دار الكتب الوطنية .

وكونت السكرتارية العامة من الدكتور على ابراهيم عبده وكيل الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية . والسيد محمد أحمد النيفر عضو ديوان السيد كاتب الدولة للشؤون الثقافية والسيد حسنى أحمد عبد الرحيم الملحق الثقافى بجامعة الدول العربية .

وكان مقرراً اشتراك الدول الآتية :

المملكة الأردنية الهاشمية — الجمهورية التونسية — الجمهورية الديمقراطية الشعبية الجزائرية — الجمهورية العراقية — الجمهورية السورية — الجمهورية العربية المتحدة — دولة الكويت — الجمهورية اللبنانية — المملكة الليبية المتحدة — المملكة المغربية — مجمع اللغة العربية بالقاهرة — المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية — جامعة تونس — جامعة دمشق — جامعة عين شمس — الجامعة الأمريكية ببيروت — هيئة اليونسكو — منظمة مجلس المتاحف الدولى .

وقد تخلف عن الحضور وفدى الجمهورية العربية المتحدة والمملكة الأردنية الهاشمية ومثل الجمهوريات اللبنانية والمملكة المغربية والمملكة الليبية المتحدة مستشارى وسكرتيرى سفاراتها . ومثل مجلس المتاحف الدولى رئيس الوفد السورى.

وقد اشتمل جدول الأعمال على :

١ — تقارير الدول العربية عما قامت به كل دولة من أبحاث أثرية أو حفائر أو ما أصدرته من مؤلفات علمية خاصة بالآثار فى السنوات الثلاث الأخيرة .

٢ — بحوث علمية يلقيها أعضاء المؤتمر .
٣ — قوانين الآثار فى البلاد العربية .
٤ — اقتراح تأليف كتاب عن المعالم الأثرية فى البلاد العربية .
٥ — اقتراح تخصيص أسبوع فى البلاد العربية لإنقاذ آثار النوبة .
٦ — المشروع الاستثنائى الذى أقرته الحكومة السورية لمنطقة تدمر الأثرية.
٧ — محاضرات عامة عن الآثار .
٨ — مايستجد من أعمال .

وأضيف إلى هذا البرنامج :

(ا) رعاية الصناع المشتغلين بترميم الآثار .
(ب) إنشاء مكتب دائم بالجامعة العربية للعمل على متابعة قرارات المؤتمر .

وتكونت لجان المؤتمر من ثلاث لجان :

١ — لجنة إنقاذ آثار النوبة ومشروع منطقة تدمر الأثرية .
٢ — لجنة قوانين الآثار ، رعاية الصناع المشتغلين بترميم الآثار .
٣ — لجنة تأليف كتاب عن الآثار فى البلاد العربية ، قاموس المصطلحات المعارية والبلاد العربية .

وبعد أن يتم توزيع الأعضاء على اللجان لدراسة الموضوعات السابق الإشارة إليها قرئت التقارير التى تقدمت بها الجامعة العربية ودولة الكويت والجمهورية السورية . وقد استعرضت دول العراق والكويت والجمهورية السورية فى تقاريرها

عن النشاط الآثارى فى بلادهم. كما ألقى الدكتور فيصل الدائلى (العراق) تقوم عن آثار العراق ومشاريع الرى التى يخشى منها على تلك الآثار، والسيد عطا الله وهيئة (الجزائر) تقريراً عن عمليات الحفر فى سطيف وشرشال، ووزع السيد أحمد المكناسى محافظ الكتب والآثار المقيمة بالرباط تقريراً عن المدافع الأثرية فى شمال الرباط . وألقى مسيو دايفوكو (اليونسكو) كلمة عن برنامج اليونسكو من سنة ١٩٥٩ ثم ألقيت البحوث والمحاضرات . فألقى الدكتور سليم عادل عبد الحق رئيس وفد سورية بحثاً عن بصرى وفلسفتها — والأستاذ حسن عبد الوهاب (المجلس الأعلى لرعاية الفنون) بحثاً عن — الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة — والسيد بشير زهدى (سوريا) عن الحلى الذهبية القديمة — والدكتور عبد الهادى شعيرة (جامعة عين شمس) عن تاريخ التحصنات فى الشام فى القرنين الأول والثانى للهجرة . والأستاذ سعيد الديوهجى (العراق) بحثاً عن الزخارف الرخامية فى الموصل والأستاذ كاظم الجنابى (العراق) عن دار الامارة فى الكوفة وما أجراه من حفرات فيها . والأستاذ عمار الحجوبى (تونس) عن مشاهد ساتون بالأقارق والأستاذ محمد الشابى (تونس) عن ثورة صاحب الحمار ونقوده والأستاذ الفاضل ابن عاشور — عن الآثار الحفصية بالمرسى .

والأستاذ طارق رجب (الكويت) تقريراً عن نشاط الكويت فى مناطق حفرياتها .

وألقى الأستاذ عبد القادر محداد (الجزائر) بحثاً عن آثار الجزائر .

والسيد الهادى سليم (تونس) بحثاً عن مسرح الجم الأثرى .

والدكتور عبدالعزيز درويش (تونس) بحثاً عن صور آلات الموسيقى والرقص فى الفسيفساء .

والسيد مصطفى زبيس (تونس) عن المحراب فى الهندسة المعمارية .

والسيد ديمترى برامكى (الجامعة الأميريكية) عن الحفريات فى لبنـان فى الثلاث سنوات الأخيرة .

أما المحاضرات فقد اقتصر على محاضرتى الأستاذين مصطفى زبيس عن آثار تونس وحسن عبد الوهاب عن آثار القاهرة .

وختمت أعمال المؤتمر بتوصيات هامة منها :

١ — تخصيص أسبوع فى البلاد العربية لصالح إنقاذ آثار النوبة .

٢ — مناشدة حكومة الجمهورية السورية لتعضيد المديرية العامة للآثار والمتاحف لإنقاذ آثار تدمر وأن توفد حكومات الدول العربية مهندسيها وعلماء الآثار فى مواسم التنقيب إلى تدمر للمشاركة فى أعمال التنقيب .

٣ — التوصية ببـذل المجهود لمسح آثار المناطق الأثرية التى ستغمرها مياه السد بالعراق لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الآثار .

٤ — التوصية بإنجاز المسح الجوى والأرضى للمناطق الأثرية .

٥ — نشر الثقافة الأثرية — بوضع مؤلف عن المعالم الأثرية فى البلاد العربية .

٦ — توصية الجامعة العربية بوضع قاموس موضح بالرسوم للمصطلحات المعمارية فى البلاد العربية .

٧ — إقامة معرض ثقافى عربى متنقل فى البلاد الأجنبية .

٨ — توصية الدول العربية بأن تعمل جامعاتها على إنشاء معاهد أو فروع لدراسة الآثار .

٩ — إنشاء فرع لدراسة الآثار بمعهد الدراسات العربية بالجامعة العربية .

١٠ — تأليف كتب مبسـطة عن تاريخ الآثار وترجمة الكتب الأثرية الهامة .

١١ — تسجيل التراث الموسيقى العربى فى المغرب .

١٢ — يوصى المؤتمر الدول العربية المتقدمة فى الدراسات الآثارية أن تخصص منحاستون . تدريبية ودراسية للدول العربية المحتاجة إلى المختصين فى هذه الدراسات .

كما تضمنت التوصيات توجيهات نحو التنقيبات الأثرية تعين الناشئين من الدول العربية فى أعمال التنقيب . والعمل على إعداد عـدد وافر من الفنيين فى مختلف فروع الآثار .

وكذلك تضمنت توصياته عدة بنود لحماية الآثار وصيانتها والرجوع إلى الهيئات الأثرية فى كل ما يتعلق بالمناطق الأثرية وحول الآثار .

وأيضاً تضمنت التوصيات العناية بالصناع المختصين بترميم الآثار ومساعدتهم على تدريب غيرهم وترشيحهم للقيام بأعمال الترميم التى تشرف عليها الهيئات الأثرية ،هذا عدا توجيهات لإدارات المتاحف يستفيد منها الدول الناشئة وتكوين المتاحف و إعدادها .

ومن توصيات المؤتمر أن يكون قانون الآثار الذى وضعته الجمهورية العربية المتحدة أساساً لمشاريع قوانين الآثار فى البلاد العربية .

ورفع مستوى رجال الآثار إلى مستوى رجال الجامعـات فى الدرجات والمرتبات وأن تقوم الجامعة العربية بمتابعة تنفيذ قرارات المؤتمر .

وألحقت التوصيات ببيـان المناطق الأثرية والآثار المقترح الكتابة فيها فيكون موضوعاً لكتاب « المعالم الأثرية فى البلاد العربية »

وقد نسقت هيئة المؤتمر برنامج رحلات لأعضاء المؤتمر زاروا فيها معالم تونس وآثارها وأسواقها وكذلك القيروان والمهدية وسوسه وصفاقس والمنستير . وقد استغرقت تلك الرحلات ثلاثة أيام الجمعة والسبت والأحد ٢٤ — ٢٦ مايو .

حسن عبد الوهاب

A WORD OF APPRECIATION

By

Professor **Arnold Toynbee**

Mr. Chairman, Ladies, Gentlemen, and members of the Academy;

I am very grateful to you for giving me the opportunity to say what I feel about the great scholar, whose loss we feel to day. When I was a young professor in the University of London, in 1920, I was given the honour of being the supervisor of a certain number of research students, working for higher degrees in history. Two of those students stood out above the rest; one was Mohamad Kasim, the other was Shafeek Ghorbal. I could see at once that those two men were going to make their mark in their country, and also in the world, in their later life. When you have gifted students you cannot teach them very much. All professors know this. I cannot remember anything that I was able to teach to Shafeek Ghorbal, but I can remember a number of things that I was able to learn from him; because a part of the pleasure of the relation between the professor and his research students is this reciprocity in which they educate each other. Sometimes the relation between the professor and his student remains a purely professional one; sometimes, fortunately, it turns out into a friendship, as it was in the first years with the Egyptian students of mine. Our relation became one of personal friendship, as well as professional. We didn't see much of each other in later life. It was difficult for me to meet them. But we kept in touch. I could tell what kind of career Shafeek Ghorbal was going to have. Some people are born with the gift of scholarship, he was one of those. Above all, he had the gift of character and objectivity both of which have been referred to already. It was very marked in Shafeek Ghorbal that he had independence of mind, and the dedication and determination to see his own researches to the end. It is so rare that people are distinguished in both the field of learning and the field of administration. And academic life, I am afraid, when it captures a person, generally absorbs all his time and energy. But as we have

been told, Shafeek Ghorbal had the ability to be a great administrator, and at the same time to remain always a scholar, a friend and a teacher. So, as time is passing, I don't wish to say more, except one thing: that on this happy first visit that I am paying to Egypt there is only one sad thing, that I arrived too late to see either of my old pupils.

I think one of the last personal letters which Shafeek Ghorbal wrote to me, was a letter which reached me three days before his death, saying, "When you come to Cairo you are going to stay with me". God disposed it otherwise. As I travel about the world I meet with scholars everywhere, who know about his work, who honour him as well as we do. He was famous, not only in his own country, or in England but everywhere.

Thank you all, for allowing me to speek to you.